شرح نهج البلاغة

لشارح محقق

من أعلام القرن الثامن

تحقيق

الشيخ عزة الله العطاردي

www.haydarya.com

النجف الأشرف

شرح نهج البلاغة

لشارح محقق

من أعلام القرن الثامن

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٩٨١
التاريخ ٤/٣/ ٢٠٠٥
٢٣٤

تحقيق

الشيخ عزيز الله العطاردي

٢٨/٠٢
/ ش ٤
[١٤١٧ ق]

اسم الكتاب: شرح نهج البلاغة
الشارح: عالم محقق من اعلام القرن الثامن
المحقق: الشيخ عزيز الله العطاردى.
صف الحروف: دارالبصائر
الطبعة: الاولى
سنة الطبع: ١٣٧٥ هش
الكمية: ١٥٠٠ نسخه
الناشر: بنياد نهج البلاغة و انتشارات عطارد
محل الطبع: قم المشرفة
المطبعة: الهادى

التوزيع طهران: شارع كريم خان زند – شارع نجات اللهى شارع افشين – الرقم ٨
تلفن ٨٩٩٨٦٢ – ٨٩٥٦٧٠
قم: شارع حجت – تلفن ٧٤٢٥٩٤
نشر عطارد – تلفن ٢٧٧٩٣٩

شابک ٩٦٤_٩٠٢٨٨_٢_X IBSN 964-90288-2-X

صورة فتوغرافية من نسخة الاستاد الدكتور اصغر المهدوى استاذ جامعة طهران .

بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ

مقدمة المحقق

الحمد للّه الذي هدانا الى مناهج الايمان والاسلام، وأرشدنا إلى معالم الحلال والحرام، وبيّن لنا السنن والأحكام، والصلوة والسلام على نبينا نبي الرحمة وعلى آله أهل البلاغة والفصاحة.

أمّا بعد: فإنّ كتاب نهج البلاغة مجموع انتخبه الشريف أبوالحسن محمد بن الحسين الموسوي المعروف بالسيد الرضي رضوان الله عليه، من كلام الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وجعله على ثلاثة ابواب:

الرسائل ــ الخطب ــ والحكم في الآداب والمواعظ.

هذا الكتاب الشريف أشرف الكتب بعد كلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وآله، وهو دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، وأفضل الكلام وأفصحه وأنفعه وأرفعه، وهذا واضح لمن تأمّل في الكتاب وتفكّر في ألفاظه ومعانيه.

نهج البلاغة: كتاب جامع للمعارف الالهية والاسرار النبوية والأحكام الاسلامية والقواعد السياسية، يستفيد منه الحكيم الالهي والفقيه الرباني والواعظ الصمداني والمصلح السياسي، وفيه آداب الحرب وتنظيم العساكر والجيوش. وردت فيه مواعظ شافية للمتعظين وآداب للعارفين وترغيب للعابدين وتحذير للمنافقين،

وتخويف للامراء والسلاطين، وارشادهم للقسط في الحكم، وبسط العدل للمسلمين، وكظم الغيظ والعفو عن المجرمين.

من نظر في نهج البلاغة وتعمّق في خطبه ورسائله، يرى نفسه مع خطيب وأمير الهي، تارة يتكلم في التوحيد، ويبحث عن اسرار الكائنات، ويكشف غوامض المسائل، ويشرح مكنون العلم، وتارة يتكلم عن النبوة وصفات الانبياء عليهم السلام والاولياء، وأخرى يتكلم عن العبّاد والزهّاد وصفات المتّقين، وآونة عن فنون الحرب والجهاد مع الاعداء في الغزوات، ومقارعة الابطال ومصارعة الشجعان، وحيناً يعظ الناس ويحذّرهم من الدنيا وزينتها، ويرغّبهم بالآخرة ونعيمها.

كلمات العلماء حول النهج

قال الراوندي: كنت قديماً شرحت الخطبة الاولى من نهج البلاغة بالإطناب، وكشفت بيان جميع ما فيه من أنواع العلوم التي أومأ اليها بالاسهاب، وهو كلام عند أهل الفطنة والنظر دون كلام الله وكلام رسوله وفوق كلام البشر.

واضح مناره مشرقة آثاره، ولا يستبعد في هذا الدهر أن يلتبس شيء من مشكلاته على من يقتبس إمّا من الفاظه الغرائب او معانيه العجائب، فعزمت على شرح جميع الكتاب مستعيناً بالله على وجه الصواب، وان استخرج مكنونه واستكشف مخزونه.

قال الكيذري: نهج البلاغة نطفة من بحار علومه الغزيرة، ودرّة من جواهر اصدافه الجمّة الغفيرة، وقطرة من قطرات غيثه المدرار، وكوكب من كواكب فلكه الدوّار، ولعمري إنّه الكتاب الذي لا يدانيه في كمال الفضل كتاب، وطالب مثله في الكتب كالعنزى لا يرجى لها اياب، وهو محجر عيون العلم، وفي خلال الكتب كالبدرين في النجوم، الفاظه علوية علوية، ومعانيه قدسية نبوية، وهو عديم المثل

والنظير.

قال ابن ابي الحديد: وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة.

قال عبدالحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثمّ فاضت، قال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن ابي طالب.

قال في اعلام نهج البلاغة:

لله درّك يا نهج البلاغة من	نهج نجا من مهاوي الغيّ سالكه
أودعت زهر نجوم ضلّ منكرها	وحاد عن جدد غيا مسالكه
لأنت دروياً لله ناظمه	لأنت نضروياً لله سابكه

قال الشيخ عبدالحسين الاميني ـ رضوان الله عليه ـ: نهج البلاغة كان يهتم بحفظه حملة العلم والحديث في العصور المتقادمة حتى اليوم، ويتبرّكون بذلك كحفظ القرآن الشريف، وعدّ من حفظته في قرب عهد المؤلّف القاضي جمال الدين محمد بن الحسين بن محمد القاساني، فانّه كان يكتب نهج البلاغة من حفظه، وكذا حفظه ابو عبدالله الفارقي المتوفى سنة ٥٦٤.

قال الشيخ آغا بزرك الطهراني ـ قدّس الله سرّه ـ: نهج البلاغة هو كالشمس الطالعة في رائعة النهار في الظهور وعلوّ الشأن والقدر وارتفاع المحلّ، قد جعلت رؤيتها لجميع الناس مرأىً واحداً لا تخفى على احد، فيقبح من العاقل البصير سؤال ما هي الشمس الطالعة، وهي ما يقتبس من اشراق نورها كافة الكائنات في البر والبحر.

كذلك النهج قد طبقت شهرته الشرق والغرب، ونثر خبره في اوساط الخافقين، ويتنوّر من تعليمات النهج جميع افراد البشر، لصدوره عن باب معدن الوحي الالهي، فهو تلو القرآن الكريم في التبليغ والتعليم، وفيه دواء كل عليل

وسقيم، ودستور للعمل بموجبات سعادة الدنيا وسيادة دار النعيم، وقد قيل فيه:

نهج البلاغة نهج العلم والعمل　　　فاسلكه يا صاح تبلغ غاية الامل

قال السيد عبدالزهراء الحسيني: كنت مولعاً بكتاب نهج البلاغة منذ حداثة سنّي، أجعله سمير وحدتي وأنيس وحشتي، أستظهر فصولاً من خطبه، وأحفظ قطعاً من رسائله، وألتقط درراً من حكمه، وكان هذا الولع يتضاعف كلّما اتّسعت مداركي وتضاعفت معلوماتي، ومن أجل ذلك انخت عن كلّ ما يتعلق به وما كتب حوله.

قال صبحي صالح: لابدّ لدارس نهج البلاغة أن يلمّ بهذه الوقائع التاريخية ولو من خلال لمحة خاطفة عجلى، ليعرف السرّ في غروب شمس الخلافة الراشدة بين المسلمين الأوّلين، الذين استروحوا شذا النبوة ونعموا بظلالها الوارفة، واستناروا بما يلوح من أضوائها الباقية.

لابدّ لدارس النهج أن يلمّ بهذه الحقائق، ليرى رأي العين كيف تحولت هذه الخلافة الراشدة الى ملك عضوض، وكيف اشعلت من أجلها الحروب الطاحنة، واثخنت الامة في سبيلها بالجراح الدامية، واصيب مقتلها بمصرع إمام الهدى علي كرّم الله وجهه.

ثم لابدّ لدارس النهج أن يكوّن لنفسه صورة حقيقية عن تلك الحقبة من تاريخ المسلمين، ليستنبط البواعث النفسية الّتي حملت علياً على الاكثار في خطبه من النقد والتعريض والعتاب والتقريع والتذمّر والشكوى، فقد عاندته الايام، وعجّت خلافته عجيجاً بالأحداث الجريرة، وخابت آماله في تحقيق الإصلاح.

قال الهادي كاشف الغطاء: إنّ نهج البلاغة من كلام مولانا أميرالمؤمنين وامام الموحّدين؛ باب مدينة العلم علي بن ابي طالب عليه السلام، من اعظم الكتب الإسلامية شأناً وارفعها قدراً، وأجمعها محاسن وأعلاها منازل، نور لمن استضاء به، ونجاة لمن تمسّك بعراه، وبرهان لمن اعتمده، ولبّ لمن تدبّره، أقواله فصل

وأحكامه عدل، حاجة العالم والمتعلّم، وبغية الراغب والزاهد، وبلغة السائس والمسوس، ومنية المحارب والمسالم، والجندي والقائد.

فيه من الكلام في التوحيد والعدل ومكارم الشيم ومحاسن الاخلاق، والترغيب والترهيب والوعظ والتحذير وحقوق الراعي والرعية واصول المدنية الحقة، وما ينقع الغلة ويزيل العلة، لم تعرف المباحث الكلامية إلّا منه، ولم يكن إلّا عيالاً عليه، فهو قدوة فطاحلها وامام افضلها.

قال محمد محي الدين: نهج البلاغة هو الكتاب الذي جمع بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيّأت به للناظر فيه اسباب الفصاحة، ودنا منه قطافها، اذ كان من كلام أفصح الخلق بعد الرسول صلى الله عليه وسلم منطقاً، وأشدهم اقتداراً، وأبرعهم حجة، وأملكهم للغة.

يدبرّها كيف شاء الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملأ القلب سحر لسانه، والعالم الذي تهيّأ له من خلاط الرسول وكتابة الوحي والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذحداثته ما لم يتهيّأ لأحد سواه.

قال الاستاذ امتياز علي خان العرشي: يعد كتاب نهج البلاغة من خطب سيدنا علي بن ابي طالب ورسائله وحكمه، وممّا يضاعف الكتاب أهمّية أنّ علي بن ابي طالب كان على بلاغته المبتكرة أحد الخلفاء الراشدين او اماماً معصوماً عند طائفة من المسلمين.

قال الشيخ محمد عبده: فقد اوفى لي حكم القدر بالإطّلاع على كتاب نهج البلاغة مصادفة بلا تعمّد، أصبته على تغيّر حال وتبلبل بال، وتزاحم أشغال وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلة للتخلية، فتصفّحت بعض صفحاته وتأمّلت جملاً من عباراته من مواضع مختلفات ومواضع متفرّقات، فكان يخيّل لي في كل مقام أنّ حروباً شبّت، وغارات شنّت، وأنّ للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأنّ للاوهام عرامة، وللريب عارة، وأن جحافل الخطابة وكتّاب الدراية في عقود

النظام وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الابلج والقويم الاملج.

إنّ مدبّر تلك الدولة وباصل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كنت كلّما انتقلت من موضع الى موضع، أحسّ بتغيّر المشاهد وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواحاً عالية في حلل من العبارات الزاهية.

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة، وأرواح في اشباه النمور ومخالب النسور، قد تحفّزت للوثاب، ثم انقضّت للاختلاف. فحلّت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء.

وأحياناً كنت أشهد أنّ عقلاً نورانياً، لايشبه خلقاً جسدانياً، فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسمابه إلى الملكوت الاعلى، ونمابه إلى مشهد النور الاجلى، وسكن به الى عمّار جانب التقديس، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأني أسمع خطيباً ينادي بأعلياء الحكمة، وأولياء أمر الأمة، يعرّفهم مواضع مواقع الصواب، ويبرهم مواقع الارتياب، يحذّرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم الى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم الى منصفات الرئاسة، ويسعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير.

ذلك الكتاب الجليل، هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، جمع متفرّقه وسمّاه هذا الاسم: نهج البلاغة، ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي ان أصف هذا الكتاب بازيد ممّا دلّ عليه اسمه، ولا أن آتي بشيء في بيان مزيّته فوق ما أتى به صاحب الاختيار.

اقول: كلمات الباحثين عن نهج البلاغة في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

*

موضوعات نهج البلاغة

إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام ذكر في خطبه ورسائله وعهوده ما تحتاجه الامة الاسلامية في أمر دينهم ودنياهم، وما يرشدهم الى السعادة الابدية، ويهديهم الى الفوز في الدنيا والآخرة، ويجنّبهم عن ارتكاب الذنوب والآثام، ويحذّرهم عن المعاصي والشهوات والحرام.

جاء في الخطب والرسائل، ابواب التوحيد، والنبوة وصفات الانبياء والتعليم والارشاد، والنصح والنقد والتعريض، والتقريع والزهد في الدنيا، وتعريف صفات الاولياء والاشقياء والمنافقين، والجهاد مع الكفار، وآداب الحروب، والانذار والتخويف والتحذير من الفتن.

ثم المناظرة والسياسات والابتهال والدعاء والشكوى والتضرع والوصف والدقة، والمناقب والفضائل والبلدان وخصوصياتها والوصايا والمواعظ، والترغيب والترهيب والعدل والاحسان والترحّم والشفقة.

ثم الخراج والاموال والجنود والعساكر وحقوق الرعية وحقوق الراعي، وحقوق الفقراء على الاغنياء، وحقوق أهل البيت، والوصية والوراثة والهجرة والوحي والعلم والعلماء، والطاووس والنملة والخفاش والبعوض، والصحابة والصلوة والحج والاسلام والتقوى.

اجازات نهج البلاغة

قد روى كتاب النهج عدة من العلماء عن السيد الرضي ــ رضوان الله عليه ــ، وكان المؤلّف يقرأه على تلامذته، ونحن نذكر هنا أسماء الرواة الذين جاء ذكرهم في شروح نهج البلاغة ومعاجم الشيوخ ورجال الحديث:

١ ــ السيدة النقية بنت السيد الشريف المرتضى، عن عمها الشريف

الرضي، قال عبدالرحيم البغدادي المعروف بابن الاخوة: قالت بنت المرتضى :قرأ عليّ عمّي نهج البلاغة.

٢ــ أبو منصور العكبري: قرأ نهج البلاغة على السيد الرضي وروى عنه، قال الراوندي: أخبرنا أبو نصر الغاري، عن أبي منصور العكبري،عن الرضي.

٣ــ عبدالكريم بن محمد الديباجي المعروف بسبط بشر الحافي: احد رواة نهج البلاغة، قال: قرأعليّ السيد الرضي النهج وسمعته منه، قال الراوندي: اخبرنا ابن الاخوة،عن ابي الفضل النافلي، عنه، عن السيد الرضي.

٤ــ محمد بن علي الحلواني: روى كتاب النهج عن الرضي، قال الراوندي: أخبرنا السيد أبو الصمصام ذوالفقار بن محمد بن معبد الحسيني، عن الحلواني، عن الشريف الرضي.

٥ــ شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي: روى نهج البلاغة عن الشريف الرضي، قال الراوندي: أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن محسن الحلبي، عن الطوسي، عن الرضي[(١)].

٦ــ محمد بن همام البغدادي: من تلامذة السيد الرضي، روى نهج البلاغة عن استاذه، روى أبوالحسن علي بن زيد البيهقي بطريقه عنه.

٧ــ جعفر بن محمد الطرشتي الرازي: الفقيه المحدث، روى نهج البلاغة عن السيد الرضي. روى البيهقي عن أبيه، عن الحسن بن يعقوب، عن جعفر بن محمد، عن الشريف الرضي. قال أبوالحسن البيهقي في شرحه على النهج: وقد رأيت اجازة الشيخ جعفر بخطه عند أبي، وخطّ الشيخ جعفر شاهدلي[(٢)].

٨ــ محمد بن علي بن أحمد بن بندار: روى عنه أبو عبدالله الحسين كتاب النهج في سنة ٤٩٩.

(١) شرح الراوندي.
(٢) معارج نهج البلاغة.

٩ــ علي بن فضل الله الحسيني: روى عنه كتاب النهج علي بن محمد بن حسين المتطبّب في سنة ٥٨٩.

١٠ــ نجيب الدين يحيى بن احمد الحلّي: روى عنه السيد عزالدين حسن بن علي المعروف بابن ابرز سنة ٧٤١.

١١ــ الحسن بن يوسف جمال الدين المعروف بالعلّامة الحلّي: أجاز رواية النهج في سنة ٧٢٣، وهو من شرّاح النهج.

١٢ــ فخرالدين محمد بن الحسن الحلّي: روى عنه ابن مظاهر نهج البلاغة في سنة ٧٤١.

١٣ــ محمد بن الحسين بن أبي الرضا العلوي: روى عنه جمال الدين بن أبي المعالي كتاب نهج البلاغة في سنة ٧٣٠.

١٤ــ محمد بن مكّي الشهيد الاول: روى عنه ابن نجدة كتاب نهج البلاغة في سنة ٧٧٠.

١٥ــ علي بن محمد البياضي مؤلّف الصراط المستقيم: روى عنه ناصر بن ابراهيم الاحساوي كتاب نهج البلاغة في سنة ٨٥٢.

١٦ــ الشيخ علي الكركي المحقّق: روى عنه المولى حسين الاسترآبادي والشيخ ابراهيم كتاب النهج في سنة ٩٠٧.

١٧ــ الشيخ الشهيد زين الدين العاملي: روى عنه الشيخ حسين بن عبدالصمد العاملي كتاب نهج البلاغة في سنة ٩٤١.

١٨ــ الشيخ حسن بن زين الدين العاملي: روى عنه تلامذته كتاب النهج.

١٩ــ الشيخ محمد تقي المجلسي: روى عنه ولده المجلسي محمدباقر كتاب نهج البلاغة في سنة ١٠٦٢.

٢٠ــ الشيخ صالح بن عبدالكريم: روى عنه محمد هادي الشولستاني

كتاب النهج في سنة ١٠٨٠.

٢١ــ احمدبن نعمة الله بن خـاتون: روى عنه المولى عبدالله التستري المتوفى سنة ٩٨٨[١].

شبهات حول النهج:

وردت شبهات حول نهج البلاغة ومطـاويه من قبل جماعة مـن العلماء قديماً وحديـثاً، وهـذه الشبهات صدرت منهـم عن عصبية وعدم الاطـلاع علىٰ حـقيقة الأمر، ونحن نذكر هنا كلمات المخالفين وعقائدهم حول النهج:

أول مـن فـتـح بـاب الاعـتـراض وشـكّ في انـتسـاب خطـب النهـج الى أميرالمؤمنين عـليه السلام هو ابن خلكان في كتاب وفيات الاعيان، واخطأ أيضاً في نسبة الكتاب الى السيد المرتضى، وتبعه في ذلك الذهبي وابن حجر وغيرهما.

قـال ابن خلـكـان في ترجمـة الشـريف المرتضـى: وقد اختـلـف النـاس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ هل هو جمعه أم جمع اخيه الـرضـي؟ وقد قيـل: انه ليس مـن كـلام علي، وإنما الذي جمـعه ونسبه اليه هو الذي وضعه، والله اعلم.

هذا كلام ابن خلـكان، فيعلـم منه بالصراحة انه ما رأى النهج وكذا ساير مـؤلـفـات السيـد الـرضـي، لانّ من عـرف حـياة السـيـد الـرضي وآثـاره عـلم أن نهج البـلاغة مـن تأليـفاتـه لا تأليـف أخيـه المرتضى، لان السـيد الـرضي في موارد كثيـرة من نهـج البلاغـة يقـول في ترجمة بـعض الكـلمات: قال الرضـي كذا، وهذا واضح لمن يعرف نهج البلاغة.

يظهر من كلام ابن خلـكان أنه لم يقطع بان نهج البـلاغة لم يكن من كلام علي، وانّما نسبه الى قيل، ومعلوم ان هذا ليس معتقده، وفي آخر كلامه خلّص نفسه

(١) الغدير: ١٩٣/٤.

وقال: والله اعلم، يعني هذا الكتاب مورد اختلاف والله يعلم حقيقة الامر.

قال الذهبي: علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى المعتزلي صاحب التصانيف؛ مات سنة ٤٣٠ عن ثمانين سنة، وهو المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة، وله مشاركة قوية في العلوم، ومن طالع كتابه نهج البلاغة جزم بانه مكذوب على أميرالمؤمنين رضي الله عنه.

يظهر أيضا من كلمات الذهبي انه لم يراجع نهج البلاغة، والّا لم ينسبه الى السيد المرتضى، والعجب من الذهبي كيف اتّهم المرتضى رضوان الله عليه، وكذا أخاه الرضي في كلام ابن حجر يكون متّهماً بوضع نهج البلاغة، ونسبته الى الامام اميرالمؤمنين عليه السلام، ولو طالعا نهج البلاغة وتعمّقا فيه لما صدر منهما هذا الافتراء على الشريفين المرتضى والرضي. وهما رضوان الله عليهما في مقام عالٍ من القداسة والديانة والعلم والفضيلة.

نعم ان الذهبي رأى في نهج البلاغة بعض الكلمات التي ألقاها أميرالمؤمنين عليه السلام على أصحابه، مثل الخطبة الشقشقية وأمثالها، ورأى انّ هذه الألفاظ مخالفة لما يعتقده، فلهذه حمل على السيد المرتضى رضوان الله عليه بأنّه وضع هذه الخطبة ونسبها الى أميرالمؤمنين، ونحن نذكر هنا اسناد الخطبة الشقشقية في الكتب التي الّفت قبل الرضي مؤلف نهج البلاغة:

١ـ ابراهيم بن محمد الثقفي الكوفي: المتوفى سنة ٢٨٣، ذكر هذه الخطبة في كتاب الغارات.

٢ـ عبدالله بن محمود الكعبي البلخي المعتزلي: المتوفى سنة ٣١٩، ذكر الخطبة في كتابه.

٣ـ أبوعلي محمد بن عبدالوهاب الجبائي البصري المعتزلي: المتوفى سنة ٣٠٣، روى هذه الخطبة.

٤ـ محمد بن عبدالرحمان أبو جعفر بن قبة الرازي المتكلم الشيعي؛ تلميذ

أبي القاسم البلخي: روى في كتابه الخطبة الشقشقية.

٥ـــ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمّي المشهور بالشيخ الصدوق: المتوفى سنة ٣٨١، روى هذه الخطبة في كتابه: معاني الاخبار وعلل الشرايع.

٦ـــ أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان استاذ السيد الرضي : روى هذه الخطبة في كتاب الإرشاد.

٧ـــ قال ابن أبي الحديد في شرحه على النهج: حدّثني شيخي أبوالخير مصدّق بن شبيب الواسطي في سنة ثلاث وستمائة، قال: قرأت على الشيخ أبي محمد عبدالله بن احمد المعروف بابن الخشّاب ،وكان صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحولة؟ فقال: لا والله، واني لأعلم أنّها كلامه كما أعلم أنّك مصدّق.

قال: فقلت له: إنّ كثيراً من الناس يقولون إنّها من كلام الرضي ـــ رحمه الله تعالى ـــ، فقال: أنّى للرضي ولغير الرضيّ هذا النفس وهذا الاسلوب، قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر.

ثم قال: والله وقفت على هذه الخطبة في كتب صنّفت قبل أن يخلق النقيب ابو احمد والد الرضي.

قال الاستاذ العرشي: إنّ أكثر الخطب عرضة للنقد والإيراد في نهج البلاغة هي الخطبة المعروفة بالشقشقية، ذكر فيها أميرالمؤمنين تاريخ الخلافة، وشكا بانّ أولي الأمر أعرضوا عنه مع أنّه أحقّ الناس بالخلافة.

لكنّه اصطبر على هذا العدوان، حتى اصرّ عليه الناس مرّة رابعة بأن يتحمّل أعباء الخلافة، بيد انّه خالفه بعض الناس بعد البيعة، ونشبت الحرب بين المسلمين، فلو لم يكن أنصاره، ولو لم يأمر الله بنصرة المظلوم، لطوى كشحه عن الخلافة.

فظهر بما نقلناه أنّ هذه الخطبة نقلها الحفّاظ والمحدّثون في كتبهم قبل أن يولد الرضي، وكذلك سائر الخطب والرسائل، ومن أراد الاطّلاع فليراجع مصادر نهج للعلاّمة السيد عبدالزهراء الحسيني، واستناد نهج للاستاذ امتياز علي العرشي الهندي ــ رحمه الله ــ.

علم الغيب في نهج البلاغة:

قال المعترض: إن في نهج البلاغة كلمات تدلّ على أنّ صاحبه يعلم الغيب، ويخبر عن الحوادث قبل وقوعها، كغرق البصرة وخرابها، وظهور الأتراك والمغول، وغلبة معاوية وبني أميّة على البلاد، وولاية الحجّاج الثقفي على العراق، وغيرها.

علم الغيب والإخبار عن الحوادث الآتية مختصّ بالله تعالى، ولا يعلم الغيب الّا هو، ولمّا كان في نهج البلاغة عبارات تتضمّن علم الغيب، فعلوم أنّ هذا الكتاب مصنوع منسوب الى الإمام علي بن أبي طالب.

فنقول في جواب المعترض: قد جاء في القرآن العظيم، في موارد كثيرة ذكر الغيب، قال الله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب، وقال: عالم الغيب، وقال: عالم الغيب والشهادة، وقال: أعنده علم الغيب فهو يرى، وقال: ولله غيب السموات والارض، وقال: وعنده مفاتح الغيب، وغيرها من الآيات الشريفة.

قال في سورة الجن: ولا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول، يظهر من هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يطلع رسوله على الغيب، هذا عيسى بن مريم سلام الله عليه كما جاء في القرآن يقول: وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، أليس هذا علم الغيب؟

قال نبينا محمد صلى الله عليه وآله لبنته فاطمة: أنتِ اول من تلحق بي، وقال: امّتي يختلفون بعدي، وقال لأميرالمؤمنين عليه السلام: تقاتل من بعدي

الناكثين والمارقين والقاسطين، وقال لعمّاربن ياسر: تقتلك الفئة الباغية وآخر شرابك ضياح من لبن، وكذا أخبر بشهادة الحسين عليه السلام.

الامام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان مع النبي صلى الله عليه وآله في صغره وكبره، قال: إنّ النبي علّمني ألف باب من العلم، وقال رسول الله: انا مدينة العلم وعليّ بابها، وقال أميرالمؤمنين: ان النبي دعاني عند موته واخبرني عن الحوادث التي تظهر في امّته، ولذلك يقول: سلوني قبل ان تفقدوني، فظهر بما ذكرنا بطلان قول المعترض.

السجع في نهج البلاغة

قال المعترض: إنّ في النهج اصطلاحات أدبية وكلمات مستحدثة، ما كانت العرب تعرفها في عصر الامام علي بن أبي طالب، وإنّما ظهرت هذه الاصطلاحات في العصر العبّاسي، عند اختلاط العرب بسائر الملل.

هذه الشبهة صدرت منه بدافع العصبيّة العمياء والجهل المتراكم، ولو أنه راجع القرآن المجيد وخطب النبي صلى الله عليه وآله ما تكلم بهذه الكلمات، نعم التعصب والعناد يورد الانسان موارد الهلكة، ويخرجه عن طريق الحق والصواب.

قال رسول الله في كلماته: إنّ الأعمار تفنى، والأجسام تبلى، والأيام تطوى، والليل والنهار يتطاردان تطارد البريد، يقرّبان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وأيضاً قال: إنّ لكلّ شيء حساباً، ولكلّ حسنة ثواباً، ولكلّ سيئة عقاباً، وإنّ على كلّ شيء رقيباً.

قال قسّ بن ساعدة الانصاري: أيّها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات ابراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وارض مدحاة، وأنهار مجراة. هذا مختصر من الكثير التي رويت في كتب الاخبار والسيرة، فظهر فساد قول المعترض وبطلان رأيه في النهج.

الإصطلاحات في نهج البلاغة:

قال المعترض: إنّ في نهج البلاغة اصطلاحات فلسفيّة واصوليّة وكلاميّة، وهذه الاصطلاحات ظهرت في القرن الثاني، ولم يعرفها الناس في عصر علي، وما كانت هذه الألفاظ مصطلحة، حتى يتكلم بها أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب.

هذه الشبهة وردت عن المستشرقين والمتجدّدين المقلّدين عنهم، وهؤلاء قوم لا يعرفون الإسلام، ولا يعرفون الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، ولو بحثوا في حياة الامام علي وسيرته لما وقعوا في الاشتباه، ولم يتكلّموا بالباطل، ولم يقولوا غير الحق، فضلّوا عن سواء السبيل.

أما جواب المعترض فنقول: هذا القرآن المجيد جاء فيه لفظ الحكيم والحكمة، قال الله: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وقال: ولقد آتينا لقمان الحكمة، وقال: ان الله عليم حكيم، وصف الله تعالى بالعلم والحكمة، أليس هذه اللفظة من اصطلاحات الفلاسفة؟

والجواب الثاني: انّ أميرالمؤمنين عليه السلام كان مبتكراً في العلوم والمعارف الاسلامية، وهو الذي ابتكر علم النحو وعلم اصوله، ولم تعرف العرب علم النحو، وهو الذي اخترع تاريخ الاسلام، واسس الدفاتر وديوان الخراج والأموال، وعلم منه الناس القضاء والاحكام وغيرها.

التقسيمات في نهج البلاغة:

قال المعترض: إنّ في النهج تقسيمات لبعض الفضائل والرذائل، مثلاً جاء في النهج: الناس على أربعة اصناف، أو قال: من اعطي اربعاً لم يحرم اربعاً، وقال: الناس ثلاثة، وقال يا بنيّ احفظ عني اربعاً واربعة، وكذا قال: الايمان على اربع دعائم، والصبر على اربع شعب، وغيرها.

هذه الشبهة أيضاً قد وردت من قبل المستشرقين، وتبعهم في ذلك جماعة من المتجددين الذين لا بصيرة لهم في معارف الدين، ويقولون إنّ هذه التقسيمات ما كانت مصطلحة في زمن علي، وما يعرفها العرب، وانّما ظهرت في القرن الثاني والثالث.

هذه الشبهة غير واردة، وبطلانها واضح لمن تأمّل في الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله، قال رسول الله: ستة أشياء حسنة ولكنها من ستة أحسن، وقال: ثلاث كفارات وثلاث درجات وثلاث منجيات وثلاث مهلكات.

قال ايضاً: معشر المسلمين اياكم والزنا فان فيه ست خصال؛ ثلاث في الدنيا وثلاث في الاخرة، وقال: أخلاء ابن آدم ثلاث؛ واحد يتبعه الى قبض روحه، والثاني الى قبره، والثالث الى محشره. ومن راجع خصال الشيخ الصدوق يجد فيه أمثال هذه الروايات.

فاذا ثبتت هذه الروايات لرسول الله صلى الله عليه وآله في التقسيمات، وكذلك ثبت للامام اميرالمؤمنين سلام الله عليه، لانه كان مع رسول الله واخذ منه العلوم والمعارف الالهية،وباب مدينة علمه، فليس في هذا الباب شكّ لمن تدبّر في حياته وسيرته.

الطاووس في نهج البلاغة:

قال المعترض: إنّ في نهج البلاغة جاء ذكر الطاووس ووصفه وخصوصياته، لاشكّ أنّ الطاووس ما كان يعيش في الحجاز، فن اين رأى علي بن أبي طالب عليه السلام الطاووس حتى يصفه بهذه الصفات، ويعرّفه بهذه الدقة في خلقته ولونه ولقاحه وسائر ما يختصّ به، كأنّه عاش مع الطاووس أياماً كثيرة.

هذه الشبهة أيضاً كسائر الشبهات واهية، تدلّ على جهل قائلها، نحن نسأل من المعترض ونقول: جاء في القرآن العظيم ذكر الفيل، اكان يعيش هذا

الحيوان في الحجاز أو يعرفــه العرب حتى يذكر في القرآن؟ قال الله تعالى: ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل.

نعم جاء ابرهة ملك الحبشة لغزو مكّة واهلها، وكان في مقدّمة جيشه فيل عظيم، ورآه اهل مكّة فصار عندهم عام الفيل مبدأ للتاريخ وأرّخوا الحوادث من هذه السنة وقالوا: ولد فلان بعد عام الفيل، اووقعت حرب في ناحية كذا بعد عام الفيل.

أليس في وسعنا أن نقول في جواب المعترض: من اين تقول أنّ الامام علي بن أبي طالب لم ير هذا الحيوان في مدة عمره؟ انّ اميرالمؤمنين عليه السلام سافر الى اليمن والعراق وكذا بعض بلاد الحجاز، ورأى فيها هذا الحيوان، ويمكن أيضاً أن يكون الطاووس عند بعض أهل مكّة والمدينة.

لانّ الطاووس طائر جميل ظريف، يحبّه الناس لظرافته وألوانه ومشيه، ويحفظونه في منازلهم وحدائقهم، قال ابن ابي الحديد في شرحه على نهج البلاغة: يمكن ان رأى أميرالمؤمنين عليه السلام الطاووس في العراق، لأن الهدايا توصل اليه من البلدان المختلفة.

ثم ان ذكر الطاووس جاء في الشعر، ولو أنّ العرب لم تره كيف ورد ذكره في أشعارهم، وهذا رؤبة بن العجّاج الشاعر المعروف يقول:

كما استوى بيض النعام الاملاس مثل الدمى تصويرهن اطواس

الزهد في نهج البلاغة:

قال المعترض: انّ في النهج جاءت كلمات في الزهد وترك الدنيا، كخطابه عليه السلام لنوف البكالي وهمام وشريح القاضي وموارد اخرى ذكرت في خطبه ورسائله، وهذا الزهد المفرط لم يكن له سابقة في الاسلام، فمن هذه الكلمات نعلم انها ليست للامام علي بن أبي طالب.

هذه الشبهة من أوهن الشبهات التي وردت في نهج البلاغة والرد عليها، لان من راجع كلمات الامام علي عليه السلام وتفكّر في معانيها علم ان المقصود من الزهد وترك الدنيا في النهج؛ هو عدم المحبة للدنيا والركون اليها ونسيان الآخرة، واتباع هوى النفس والميل الى الشهوات، واتّخاذ الاموال من الحرام.

إنّ اميرالمؤمنين سلام الله عليه كان يرشد عمّاله وامراء جنده إلى العدالة، وأن لا يظلموا الناس ولا يأخذوا أموالهم، وان لا يبنوا دوراً وقصوراً رفيعة، و تكون معيشتهم ولباسهم مثل أوساط الناس، لان الأمراء والعمال اذا كانوا كذلك صلح الناس.

هذا شريح القاضي المعروف بالكوفة اشترى داراً وسيعة، فأحضره أميرالمؤمنين ووبّخه باشترائه الدار وبذل الدينار الكثير، لانّ قاضي المسلمين لابدّ أن تكون معيشته ومسكنه وملبسه متوسطة، حتى يقبل الناس قضاءه وقوله.

كتب أميرالمؤمنين سلام الله عليه الى عثمان بن حنيف عامله بالبصرة، وقال له: سمعت أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى وليمة، فأسرعت اليها تنقل اليك الجفان وتستطاب لك الالوان، وما أظنّ أنك دعيت الى طعام قوم عائلهم مجفوّ وغنيّهم مدعوّ.

يقول الامام عليه السلام: انّك عاملي ووكيلي في البصرة، ولابدّ أن تعمل فيهم بسيرة الصالحين، ولا تكون عوناً وصديقاً لاهل الثروة والدنيا وتطرد الفقراء والمساكين من حولك، هذا ممّا لا يليق بحكّام المسلمين وأمرائهم.

قال العلاء بن زياد الحارثي لاميرالمؤمنين: إنّ اخي عاصم بن زياد قد ترك الدنيا ولبس الخشن، وترك أهله وعياله واولاده، ولزم المسجد واشتغل بالعبادة.

قال أميرالمؤمنين: عليّ به، فلمّا حضر عنده قال عليه السلام: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، اما رحمت اهلك وولدك، أترى الله احلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها، قال: يا اميرالمؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك

وجشوبة مأكلك.

قال: ويحك إنّي لست كأنت، انّ الله تعالى فرض على ائمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره، فظهر من هذه الكلمات أنّ الاستفادة من الطيبات في المأكل والملبس والمسكن مباح، ولكن ائمّة المسلمين وحكّامهم يعيشون كأدنى الرعية.

مؤلّف نهج البلاغة

محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، المكنّى بأبي الحسن، والملّقب بذي الحسبين، المعروف بالشريف الرضي رضوان الله عليه، من رجال الفكر والعلم والأدب، ومن مفاخر الاسلام والتشيّع.

كان ــ رحمه الله ــ جمع شرافة النسب وطهارة المولد بفضيلة العلم والتقوى والزهد والورع، وملأ الدنيا بآثاره النفيسة في العلم والأدب والشعر، والتفسير والحديث، وطار صيته حتى بلغ الشرق والغرب، وترجمه كثير من المؤرّخين في كتبهم، ونحن نذكر هنا نبذة مما قال مترجموه:

كلمات المؤلّفين حول الرضي

قال النجاشي: محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر أبو الحسن الرضي؛ نقيب العلويين ببغداد، أخو المرتضى، كان شاعراً مبرّزاً، له كتب، منها: كتاب حقائق التنزيل، كتاب مجاز القرآن، كتاب خصائص الأئمة، كتاب نهج البلاغة، إلى آخر ما قال.

قال معاصره أبو منصور الثعالبي النيسابوري: أبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرضي الموسوي النقيب، مولده ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة،

وابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبدع ابناء الزمان، وأنجب سادة العراق.

يتحلّى مع محتده الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر، وحظّ من جميع المحاسن وافر، ثمّ هو أشعر الطالبيّين من مضى منهم وغبر، على كثرة شعرائهم المفلقين كالحماني، وابن طباطبا، وابن الناصر، وغيرهم.

لو قلت: أنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أجريه من ذكره شاهده عدل من شعره، العالي القدح، الممتنع عن القدح، الذي يجمع الى السلاسة متانة، والى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها.

قال علي بن الحسن الباخرزي: السيد الرضي الموسوي، رضي الله عنه، له صدر الوسادة بين الائمة والسادة، وأنا إذا مدحته كنت كمن قال لذكاء: ما أنورك ! ولخضارة ما أغزرك ! وله شعر اذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه وعقد بالنجم نواصيه.

إذا نسب، انتسب رقة الهواء الى نسيبه، وفاز بالقدح المعلّى في نصيبه، حتى إذا أنشدني الراوي غزلياته، بين يدي العزهاة لقال له من العزهات، (كذا في الأصل) واذا وصف فكلامه في الاوصاف أحسن من الوصائف والوصاف.

إذا مدح تحيّرت فيه الأوهام من مادح وممدوح، له بين المتراهنين في الحلبتين، سبق سابح مروح، وان نثر حمدت منه الأثر، ورأيت هناك خزرات من العقد تنفض، وقطرات من المزن ترفض، ولعمري انّ بغداد قد أنجبت به فبوّأته ظلالها وأرضعته زلالها، وانشقته شمالها.

ورد شعره دجلتها، فشرب منها حتى شرق، وانغمس فيها حتى كاد أن يقال: غرق، فكلما أنشدت محاسن كلامه تنزّهت بغداد في نضرة نعيمها، وانشقّت من أنفاس الهجير بمراوح نسيمها، فمن عقد سحره وعقود درّه قوله في مطلع قصيدة له:

وظبية من ظباء الانس عاطلة

تستوقف العين بين الخمص والهضم

قال الحافظ أبوبكر الخطيب البغدادي: محمدبن الحسين بن موسى بن محمدبن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر أبوالحسن العلوي نقيب الطالبيين ببغداد، كان يلقّب بالرّضي ذي الحسبين، وهو أخو أبي القاسم المعروف بالمرتضى، وكان من أهل الفضل والأدب والعلم.

ذكر لي أحمدبن روح عنه: انه تلقّن القرآن بعد أن دخل في السن، فجمع حفظه في مدّة يسيرة، قال: وصنّف كتاباً في معاني القرآن يتعذّر وجود مثله، وكان شاعراً محسناً، سمعت أبا عبدالله محمدبن عبدالله الكاتب يقول: سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون:

الرضي أشعر قريش، فقال ابن محفوظ: هذا صحيح، وقد كان في قريش من يجيد القول إلّا أنّ شعره قليل، فأمّا مجيد مكثر فليس إلّا الرضي، أنشدني القاضي ابو العلاء محمدبن علي قال: أنشدنا الشريف أبوالحسن الرضي لنفسه:

اشترالعزّبما شئت	فالعزّ بغالي
بقصار الصفر إن شئت	أو السمر الطوال
ليس بالمغبون عقلاً	من شرى عزّاً بمال
إنّما يدّخر المال	لأثمان المعالي

قال أبو الفرج ابن الجوزي: محمدبن الحسين بن موسى أبوالحسن العلوي، ولد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، ولقّبه بهاء الدولة بالرضي ذي الحسبين، ولقّب اخاه بالمرتضى ذي المجدين، وكان الرضي نقيب الطالبيّين ببغداد؛ حفظ القرآن في مدّة يسيرة بعد أن جاوز ثلاثين سنة، وعرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً، كان عالماً فاضلاً وشاعراً مترسّلاً، عفيفاً عالي الهمّة، متديناً، اشترى في بعض الأيام جزءاً من امرأة بخمسة دراهم فوجد فيه جزء بخط أبي علي بن مقلة، قال: فانْ

أردت الجزء فخذيه، وان اخترت ثمنه فهذه خمسة دراهم، فأخذتها ودعت له وانصرفت، وكان سخياً جواداً.

اخبر اسماعيل بن أحمد، عن أبي غالب بن بشران، قال: حدّثني الخالع قال: مدحت الرضي بقصيدة، فجاءني غلامه بتسعة وأربعين درهماً، فقلت: لا شكّ أنّ الغلام قد خانني، فلمّا كان بعد ايام اجتزت بسوق العروس فرأيت رجلاً يقول لآخر: أتشتري هذا الصحن فإنّه يساوي خمسة دنانير، ولقد اخرج من دار الرضي، فبيع بتسعة وأربعين درهماً، فعلمت انّي مدحته وهو مضيّق، فباع الصحن وانفذ الثمن اليّ.

قال ابن خلكان: الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب، صاحب ديوان الشعر، وكان أبوه قديماً يتولّى نقابة الطالبيّين ويحكم فيهم أجمعين، والنظر في المظالم والحجّ بالناس، ثم ردّت هذه الاعمال كلّها الى ولده الرضي المذكور في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وأبوه حيّ.

ذكر أبو الفتح بن جني النحوي في بعض مجاميعه: أنّ الشريف المذكور احضر الى ابن السيرافي النحوي وهو طفل جداً لم يبلغ عمره عشر سنين، فلقّنه النحو، وقعد معه يوماً في حلقته، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم.

فقال له: إذا قلنا: رأيت عمرو فما علامة النصب في عمرو فقال له الرضي: بغض عليّ، فعجب السيرافي والحاضرون من حدّة خاطره. وذكر أنّه تلقّن القرآن بعد أن دخل في السن، فحفظه في مدّة يسيرة، وصنّف كتاباً في معاني القرآن الكريم، وكتاباً في مجازات القرآن، فجاء نادراً في بابه.

لقد أخبرني بعض الأفاضل: أنه رأى في مجموع أنّ بعض الادباء اجتاز بدار الشريف الرضي بسرّ من رأى وهو لا يعرفها، وقد أخنى عليها الزمان، وذهبت بهجتها، وأخلقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة، وحسن الشارة، فوقف عليها متعجّباً من صروف الزمان، وطوارق الحدثان، وتمثّل بقول الشريف

الرضي من الكامل:

ولقد وقفت على ربوعهم … وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضجّ من لغب … نضوي ولجّ بعذلي الركب
وتلفّتت عيني فذ خفيت … عنّي الطلول تلفّت القلب

فمرّ به شخص وسمعه وهو ينشد الأبيات، فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن هي؟ فقال: لا، فقال: هذه الدار لصاحب هذه الأبيات؛ الشريف الرضي، فعجباً من حسن الإتفاق.

قال اليافعي في حوادث سنة ست وأربعمائة: في السنة المذكورة توفى الشريف الرضي أبوالحسن محمدبن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي البغدادي الشيعي؛ نقيب الاشراف، ذو المناقب ومحاسن الاوصاف، صاحب ديوان الشعر، وديوان شعره كبير يدخل في أربع مجلدات، وهو كثير الوجود.

قال ابن حجر: محمدبن الحسين الشريف الرضي أبوالحسن، شاعر بغدادي رافضي جلد، وكان عالماً، ويقال انّه لم يكن للطالبيّين أشعر منه، وكان مشهوراً بالرفض.

قال الذهبي: محمدبن الحسين بن موسى الشريف الرضي أبوالحسن، شاعر رافضي جلد.

قلت: إنّ الذهبي وابن حجر لمّا نظرا الى آثار الرضي ــ رضوان الله عليه ــ، وفيها مناقب اهل البيت وفضائلهم، رموه بالرفض، وهذه عادتهما في تراجم علماء الشيعة في سبّهم وشتمهم والحطّ منهم، نعوذ بالله من العصبيّة.

قال ابن عماد الحنبلي: الشريف الرضي أبوالحسن محمدبن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي البغدادي الشيعي، الشاعر المفلق الذي يقال انه أشعر قريش، وابتدأ بنظم الشعر وله عشر سنين، وكان مفرط الذكاء، له ديوان في أربع مجلّدات.

قال السيد محمد باقر الخونساري: العالم العفيف والعيلم الغطريف والعلم العريف، والعنصر اللطيف والأيد المنيف، أبوالحسن محمد بن السيد النقيب والنجيب المحترم أبي أحمد حسين بن موسى، أخو سيدنا المرتضى علم الهدى والملقّب بالسيد الرضي عند الأحبّة والعدى.

لم يبصر بمثله إلى الآن عين الزمان في جميع ما يطلبه انسان العين من عين الانسان، فسبحان الله ورثه ــ غير العصمة والامامة ــ ما أراد من قبل أجداده الأمجاد، وجعله حجّة على قاطبة البشر في يوم المعاد، وأمره في الثقة والجلالة أشهر من أن يذكر.

قال أبو علي: محمد بن الحسين الرضي الموسوي نقيب العلويين؛ أخو المرتضى، كان شاعراً مبرّزاً فاضلاً، عالماً، ورعاً، عظيم الشأن، رفيع المنزلة، له حكاية في شرف النفس، ذكرناها في كتابنا الكبير، كان ميلاده في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

قال الحاج الميرزا حسين النوري الطبرسي: السيد الجليل، العالم النبيل، أبوالحسن محمد بن أحمد بن الحسين بن موسى الشريف ذي الحسبين، لقبّه بذلك الملك بهاء الدولة، وكان يخاطبه بالشريف الأجلّ، ولد في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببغداد، وكان ابوه يتولّى نقابة الطالبيّين والحكم فيهم أجمعين، والنظر في المظالم، والحجّ بالناس، ثمّ ردّت هذه الاعمال كلّها اليه.

قال الشيخ آغا بزرك الطهراني: محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم عليه السلام؛ الشريف النقيب أبوالحسن الرضي، ولد سنة ٣٥٩، وتولّى النقابة سنة ٣٨٠، وتوفّي سنة ٤٠٦، كان نقيب العلويين ببغداد، وجلس مكانه اخوه المرتضى.

قال العلاّمة المرزا حبيب الله الخوئي: هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر الصادق

عليهما السلام، وفي رجال أبي علي عن تاريخ اتحاف الورى باخبار أم القرى، في حوادث سنة تسع وثمانين وثلا ثمائة، قال: فيها حجّ الشريفان المرتضى والرضي، فاعتقلهما في اثناء الطريق ابن الجرّاح الطائي، فأعطياه تسعة الآف دينار من أموالهما.

قال كمال الدين بن ميثم البحراني في مقدّمة شرحه على نهج البلاغة: إلى أن عضدالله الاسلام بوجود السيد الإمام، الشريف الرضي محمدبن الحسين الموسوي ـ قدّس الله سرّه ونوّر ضريحه ـ فأحيىٰ من كلام جدّه الرفات، وجمع منه ما كان في حيز الشتات، وبالغ في تدوين محاسنه بقدر الاستطاعة، وسمّى مجموعه بنهج البلاغة؛ فجاء الاسم وفق المسمّى، واللفظ طبق المعنى، فجزاه الله عن العلماء خير الجزاء، وحباه من وظائف الفضل أجزل الحباء.

قال العلاّمة الحلّي: محمدبن الحسين الرضي الموسوي نقيب العلويين ببغداد؛ أخو المرتضى، كان شاعراً مبرّزاً، فاضلاً، ورعاً، عظيم الشان، رفيع المنزلة، له حكاية في شرف النفس، ذكرناها في كتابنا الكبير، كان ميلاده سنة ٣٥٩، وتوفّى سنة ٤٠٦.

قال ابن تغرى بردى في حوادث سنة ٤٠٦: وفيها توفّى محمدبن حسين بن موسى، الشريف أبو الحسن الرضي الموسوي، ولد سنة تسع وخمسين وثلا ثمائة، كان عارفاً باللغة والفرائض والفقه والنحو، وكان شاعراً فصيحاً، عالي الهمّة، متديّناً، إلاّ أنّه كان على مذهب القوم، إماماً للشيعة هو وأبوه وأخوه، ومن شعره من جملة أبيات:

يا صاحبيَّ قفا لي واقضيا وطراً * وحدّثاني عن نجد بأخبار
هل روّضت قاعة الوعساء أومطرت * خميلة الطلح ذات البان والغار
تضوع أرواح نجد من ثيابهم * عند القدوم لقرب العهد بالدار

قال محمد فريد وجدي: الرضي. هومحمدبن أبي احمد الحسين بن موسى،

ولد سنة ٣٥٩، واشتغل بالعلم، فظهرت له ميزة على أقرانه، ثمّ ذكر ما نقلناه عن الثعالبي وغيره، قال: وكان من سموّ المقام بحيث يكتب الى الخليفة القادر بالله العباسي احمد بن المقتدر من قصيدة طويلة:

عطفاً أمير المؤمنين فاننا ٭ في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ٭ أبداً كلانا في المعالي معرق
إلّا الخلافة ميزتك فانني ٭ أنا عاطل منها وأنت مطوّق

قال المحدّث الشهير الشيخ يوسف البحراني: السيد الرضي أخو السيد المرتضى، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد، يلقّب بالرضي ذي الحسبين، لقّبه بذلك بهاء الدولة، وكان يخاطبه بالشريف الأجلّ، وكان أبوه تولّى النقابة للطالبيّين والحكم فيهم أجمعين، والنظر في المظالم، والحجّ بالناس، ثم ردّت هذه الأعمال كلّها اليه في سنة ٣٨٠ وابوه حيّ.

قال محمد أبوالفضل ابراهيم في مقدمة أمالي السيّد المرتضى: وكان للكثير من ملوك بني بويه من لطافة الحسّ وزكانة الطبع، ورهافة الذوق، ورجاحة العقل، ما هيّأ لهم أن يكونوا كتّاباً أو شعراء، وما دفع بعضهم للمشاركة في العلوم، والأخذ بنصيب من أطراف الفنون، فحدبوا على العلماء، وأغدقوا على الشعراء، وعرفوا للأدباء أقدارهم.

فولّوهم الوزارة والإمارة والقضاء في كثير من الأحايين، وكانوا أيضاً من شيعة عليّ، وعلى هوى احفاده من أبناء الحسن والحسين، فخصّوهم بالتكرمة، ومنحوهم أرفع المناصب، وأدنوهم من نفوسهم، وقرّبوهم في مجالسهم، وظاهروهم في المناظرة، ودفعوهم الى الجهر بالرأي والادلاء بالحجّة.

في هذه الحقبة النادرة في تاريخ العلوم، وفي هذا العصر الحالي بأزاهير الفنون والآداب، وفي تلك الدولة التي قام في أكنافها العلماء والشعراء والادباء، عاش الشريف المرتضى علي بن الحسين، وأخوه الشريف محمد بن الحسين، واتّخذا

مكانهما بين ذوي المثالة وأعيان الشرف والفضل من الاعلام.

فكان المرتضى عالماً فقيهاً، متكلّماً، خبيراً بقرض الشعر؛ بصيراً بمذاهب الكلام، وكان الرضي شاعراً مطبوعاً، متصرّفاً، كاتباً، بارعاً، واثق الديباجة، صافي الاسلوب، مشاركاً في التأليف والتصنيف، وقضيا حياتهما مرعيّي الجانب، رفيعي المنزلة، مرموقي المحل، عظيمي الخاطر والجاه عند خلفاء بني العباس والملوك من بني بويه على السواء.

قال الشيخ عباس القمّي: الشريف الرضي؛ هو السيد الأجلّ أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى أخو الشريف المرتضى، أمره في العلم والفضل والأدب والورع وعفّة النفس وعلوّ الهمة والجلالة، أشهر من أن يذكر، وقد خفي علوّ مقامه في الدرجات العلمية مع قلّة عمره لعدم انتشار كتبه وقلّة نسخها.

إنّما الشايع منها نهجه وخصائصه، وهما مقصوران على النقليات، نعم في هذه الأزمنة انتشرت نسخة المجازات النبوية، الحاكية عن علوّ مقامه في الفنون الأدبية، وله تفسير على القرآن الكريم المسمّى بحقائق التنزيل، قال في حقّه أبو الحسن العمري: هو أحسن من كلّ التفاسير، وأكبر من تفسير أبي جعفر الطبري.

قال الشيخ محمد عبده: أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الشريف الرضي، جامع الكتاب، قال بعض وصفه ــ رحمه الله ــ: كان شاعراً مفلقاً، فصيح النظم، ضخم الالفاظ، قادراً على القريض، متصرّفاً في فنونه، ان قصد الرقّة في النسيب أتى بالعجب العجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشقّ له فيه غبار.

إن قصد المراثي جاء سابقاً، والشعراء منقطعة الانفاس، وكان مع هذا مترسلاً، كاتباً، بليغاً، متين العبارات، سامي المعاني، وقد اعتنى بجمع شعره في ديوان جماعة، وأجود لما جمع منه مجموع أبي حكيم الحيري، وهو ديوان كبير يدخل في أربعة مجلدات.

قال ابن أبي الحديد: كان عفيفاً شريف النفس، عالي الهمّة، ملتزماً بالدين وقوانينه، ولم يقبل من أحد صلة ولا جائزة، حتى أنّه ردّ صلات أبيه، وناهيك بذلك شرف نفس وشدّة ظلف، فامّا بنو بويه فانهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل.

كان يرضى بالإكرام، وصيانة الجانب، واعزاز الاتباع والاصحاب، كان الطائع أكثر ميلاً اليه من القادر، وكان هو أشدّ حباً واكثر ولاء للطائع منه للقادر، وكان الرضي لعلوّ همّته، تنازعه نفسه الى امور عظيمة يجيش بها خاطره، وينظمها في شعره، ولا يجد من الدهر عليها مساعدة، فيذوب كمداً ويفنى وجداً، حتى توفّى ولم يبلغ غرضاً، فمن ذلك قوله:

ما أنا للعلياء إن لم يكن * من ولدي ما كان من والدي
ولا مشت بي الخيل إن لم أطأ * سرير هذا الأصيد الماجد(١)

قال الشيخ عبدالحسين الأميني: سيدنا الشريف الرضي هو مفخرة من مفاخر العترة الطاهرة، وإمام من ائمة العلم والحديث والأدب، وبطل من أبطال الدين والعلم والمذهب، هو أول ما ورثه سلفه الطاهر من علم متدفّق، ونفسيّات زاكية، وأنظار ثاقبة، وإباء وشيم وأدب بارع، وحسب نقي، ونسب نبوي، وشرف علوي، ومجد فاطمي، وسؤدد كاظمي.

إلى فضائل قد تدفق سيلها الآتي، ومآثر قد التطمت أواذيها الجارفة، ومهما تشدّق الكاتب فإنّ في البيان قصوراً عن بلوغ مداه، وللتنقيب تقاعساً عن تحديد غايته، وللوصف انحصاراً عن استكناه حقيقته(٢).

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/٣١-٤١.
(٢) الغدير: ١٨١/٤.

ولادته:

ولد سنة ٣٥٩ في بغداد عاصمة العلم والدين في ذلك الزمان، في بيت جليل علوي موسوي، وكان آباؤه الكرام من أفاضل الاشراف، ومن رجال العلم والفضيلة، والتقوى والديانة، كان والده نقيب الأشراف وأمير الحجّ، فنشأ الرضي رضوان الله عليه في حجر أبوين كريمين.

اتّفق المؤرخون والمحدثون في تاريخ ولادته، ولم يختلف فيه اثنان، وجاءت ترجمته وحياته وآثاره في المعاجم الأدبية والتاريخية، وأثنوا عليه ومدحوه وبجّلوه، ولو حقّقنا في تاريخ حياته وآثاره العلمية والأدبية لطالت هذه المقدّمة، ولذلك أعرضنا عن التطويل.

تربيته وتعلّمه:

قرأ الشريف الرضي القرآن على الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن أحمد بن محمد الطبري الفقيه المالكي، وهذا أول من تعلّم منه الرضي وهو شاب. قال الشيخ ابو الفرج بن الجوزي في التاريخ في وفاة الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري: كان شيخ الشهود المعدلين ببغداد ومتقدّمهم، وسمع الحديث الكثير، وكان كريماً مفضّلاً على أهل العلم.

قال: وعليه قرأ الشريف الرضي ــ رحمه الله ــ القرآن وهو شاب حدث السن، فقال له يوماً: أيها الشريف أين مقامك؟ قال: في دار أبي بباب محوّل، فقال: مثلك لا يقيم بدار أبيه، قد نحلتك داري بالكرخ المعروفة بدار البركة.

فامتنع الرضي من قبولها، وقال له: لم أقبل من أبي قطّ شيئاً، فقال: إنّ حقّي عليك أعظم من حقّ أبيك عليك، لانّي حفّظتك كتاب الله تعالى، فقبلها.

قال ابن أبي الحديد: حدّثني فخار بن معدّ العلوي الموسوي ــ رحمه الله ــ

قال: رأى المفيد أبو عبدالله محمدبن النعمان الفقيه الامامي في منامه؛ كأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه آله وسلم دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ، ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين، فسلّمتهما اليه وقالت له: علّمهما الفقه.

فانتبه متعجّباً من ذلك، فلمّا تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا، دخلت اليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها.

فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي، قد احضرتهما لتعلّمهما الفقه، فبكى أبو عبدالله وقصّ عليها المنام، وتولّى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بقي الدهر.

ديانته وعفّته:

كان السيد الرضي ــ رضوان الله عليه ــ عفيفاً تقيّاً، صالحاً، وصفه بذلك أصحابه وأساتذته ومن عاشره، ونحن نذكر هنا ما ذكره أرباب التراجم، ونقلة الآثار، ورواة الأخبار، وكانت سيرته مثل سيرة آبائه أبناء الأئمة الطاهرين.

حكى أبو اسحاق محمدبن هلال الصابي الكاتب قال: كنت عند الوزير أبي محمد المهدي ذات يوم حتى دخل الحاجب واستأذن للشريف الرضي، وكان الوزير قد ابتدأ بكتابة رقعة فألقاها وقام كالمدهش، حتى استقبله من دهليز الدار وأخذ بيده وأعظمه، وأجلسه في دسته.

ثم جلس بين يديه متواضعاً، وأقبل عليه بمجامعه، فلمّا خرج الرضي خرج معه وشيّعه إلى الباب ثم رجع، فلمّا خفّ المجلس قلت: أيأذن الوزير أعزّه الله أن اسأله عن شيء، قال: نعم، وكأني بك تسأل عن زيادتي في إعظام الرضي، فقلت: نعم أيّد الله الوزير.

فقال: أمّا الرضي فبلغني ذات يوم انّه ولد له غلام فأرسلت اليه بطبق فيه ألف دينار، فردّه وقال: قد علم الوزير انّي لا اقبل من أحد شيئاً، فرددته اليه وقلت: انّي انّما أرسلته للقوابل، فردّه الثانية وقال: قد علم الوزير انّه لا تقبل نساءنا غريبة، فرددته اليه وقلت: يفرّقه على ملازميه.

فلمّا جاءه الطبق وحوله طلاّب العلم قال: هاهم حضور، فليأخذ كلّ أحد ما يريد، فقام رجل وأخذ ديناراً، فقرض من جانبه قطعة وأمسكها، وردّ الدينار إلى الطبق، فسأله الشريف عن ذلك، فقال: احتجت إلى دهن السراج ليلة ولم يكن الخازن حاضراً.

فاقترضت من فلان البقّال دهناً، فأخذت هذه القطعة لأدفعها إليه عوض دهنه، وكان طلبة العلم الملازمون للشريف الرضي في دار قد اتّخذها لهم سمّاها دار العلم، وعيّن لهم جميع ما يحتاجون اليه.

فلما سمع الرضي ذلك أمر في الحال بأن يتّخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة، ويدفع الى كلّ منهم مفتاح، ليأخذ ما يحتاج اليه ولا ينتظر خازناً يعطيه، وردّ الطبق على هذه الصورة، فكيف لا أُعظّم من هذا حاله.

شجاعته:

كان ــ رحمه الله ــ شجاعاً صريح اللهجة، لا يهاب أحداً، ويقول الحقّ ويظهره، ولا يخاف من أهل الدنيا وأرباب الدولة والسياسة والخلفاء والملوك، وهو الذي خاطب الخليفة العباسي القادر بالله بهذه الأبيات:

ما بيننا يوم الفخار تفاوت * أبداً كلانا في المفاخر معرق
إلاّ الخلافة قدّمتك وانّني * أنا عاطل منها وأنت مطوّق

ذكر أبوالحسن الصابي وابنه غرس النعمة محمد في تاريخهما: أن القادر بالله عقد مجلساً، أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوي، وابنه أبا القاسم المرتضى، وجماعة

من القضاة والشهود والفقهاء، وأبرز إليهم أبيات الرضي أبي الحسن التي أولها:

ما مقامي على الهوان وعندي * مقول صارم وأنف حمي
وإباء محلق بي عن الضيم * كما زاغ طائر وحشي
أيّ عذر له الى المجد أن ذ * لّ غلام في غمده المشرفي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي * وبمصر الخليفة الفاطمي
من أبوه أبي ومولاه مولا * ي اذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النا * س جميعاً محمد وعلي

قال القادر للنقيب أبي أحمد: قل لولدك محمد: أيّ هوان قد أقام عليه عندنا؟ أيّ ضيم لقي من جهتنا؟ وأيّ ذل أصابه في مملكتنا؟ وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى اليه؟ أكان يصنع اليه اكثر من صنيعنا؟ ألم نولّه النقابة؟ ألم نولّه المظالم؟

ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز؟ وجعلناه أميراً للحجيج؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر اكثر من هذا؟ ما نظنه كان يكون لو حصل عنده إلاّ واحداً من أبناء الطالبيّين بمصر، فقال النقيب أبو أحمد: أمّا هذا الشعر فمّا لم نسمعه منه، ولا رأيناه بخطه، ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه اليه، فقال القادر: إن كان كذلك فلتكتب الآن محضراً يتضمّن القدح في أنساب ولاة مصر، ويكتب محمد خطّه فيه، فكتب محضراً بذلك، شهد فيه جميع من حضر المجلس، منهم النقيب أبو أحمد وابنه المرتضى، وحمل المحضر إلى الرضي ليكتب خطّه فيه، حمله أبوه وأخوه.

فامتنع من سطر خطّه، وقال: لا أكتب، وأخاف دعاة صاحب مصر، وأنكر الشعر، وكتب خطّه وأقسم فيه أنّه ليس بشعره، وأنّه لا يعرفه، فأجبره أبوه على أن يكتب خطّه في المحضر، فلم يفعل وقال: أخاف دعاة المصريّين وغيلتهم لي، فانهم معروفون بذلك.

فقال أبوه: يا عجباه! أتخاف من بينك وبينه ستمائة فرسخ، ولا تخاف

من بينك وبينة مائة ذراع، وحلف لا يكلّمه، وكذلك المرتضى، فعلا ذلك تقية وخوفاً من القادر، وتسكيناً له، ولما انتهى الأمر الى القادر سكت على سوء أضمره، وبعد ذلك بايام صرفه عن النقابة.

مقامه في الأدب والشعر:

كان الرضي ــ رضوان الله عليه ــ شاعراً، أديباً، عارفاً باللغة والنحو، بصيراً بها منذ حداثة سنه، وكان بيته مأوى للشعراء وأهل الأدب؛ يجتمعون عنده ويتناشدون أشعارهم، حتى قيل: أنه أشعر قريش على كثرة شعرائهم.

ذكرنا في الفصل السابق من هذا المقام كلمات المؤلّفين في حقّه، أمثال الثعالبي النيسابوري، وأبوالحسن الباخرزي في اليتيمة ودمية القصر، وهذا الصاحب بن عباد الوزير المعروف والشاعر المشهور، كان مولعاً بمطالعة أشعاره وآثاره.

قال الشيخ عبدالحسين الأميني: من الواضح أنّ الواقف على نفسيات سيدنا الشريف ومواقفه العظيمة، من العلم والسؤدد والمكانة الرفيعة، يرى الشعر دون قدر الشريف، ويجد نفسه أعلى من أنفس الشعراء وأرفع، ويرى الشعر لا يمهد للشريف كياناً على كيانه، فيقول:

وما الشعر فخري ولكنّما * أطول به همّة الفاخر
انزّهه عن لقاء الرجال * وأجعله تحفة الزائر
فما يتهدّى اليه الملو * ك إلا من المثل السائر
وإنّي وإن كنت من أهله * لتنكر فيّ حرفة الشاعر

وقال أيضاً:

وما قولي الأشعار إلّا ذريعة * إلى أمل قد آن قود جنيبه
وانّي إذا ما بلّغ الله غاية * ضمنت له هجر القريض وحوبه

ومن شعره في صباه وله عشر سنين:

المجد يعلم أنّ المجد من أربي * ولو تماديت في غيّ وفي لعب
انّي لمن معشر إن جمعوا العلى * تفرّقوا عن نبي أووصي نبي
اذا هممت ففتش عن شبا همي * تجده في مهجات الأنجم الشهب

وقال أيضاً بمناسبة يوم الغدير:

غدر السرور بنا وكان * وفاؤه يوم الغدير
يوم أطاف به الوصي * وقد تلقب بالأمير
فتسلّ فيه وردّ عار * ية الغرام إلى المعير
وابتزّ أعمار الهموم * بطول أعمار السرور

قال السيد جمال الدين بن عنبة: شعره مشهور، وهو أشعر قريش، وحسبك أن يكون أشعر قبيلة في أولها مثل الحارث بن هشام، وهبيرة بن وهب، وفي آخرها مثل محمد بن صالح الحسيني، وابن طباطبا الاصفهاني، وعلي بن محمد صاحب الزنج، وانما كان أشعر قريش، لان المجيد منهم ليس بمكثر، والمكثر ليس بمجيد، والرضي جمع بين الإكثار والإجادة.

كان ابو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب له صديقاً، وبينهما لحمة الأدب ووشائجه ومراسلات ومكاتبات بالشعر، فكتب الصابي الى الرضي في هذا النمط:

أبا حسن لي في الرجال فراسة * تعوّدت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبّرتني عنك انّك ماجد * سترقى الى العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه * وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها * الى أن أرى اظهارها لي مطلقا
فان متّ أوإن عشت فاذكر بشارتي * وأوجب بها حقاً عليك محققا
وكن لي في الاولاد والأهل حافظاً * إذا ما اطمأنّ الجنب في مضجع البقا

فكتب اليه الرضي جواباً عن ذلك قصيدة، أولها:

سننت لهذا الريح غرباً مذلقاً * وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسوّمت ذا الطرف الجواد وانّما * شرّعت لها نهجاً فخب وأعنقا

وقال:

بنوها شم عين، ونحن سوادها * على رغم من يأبى، وأنتم قذاتها
وأعجب ما يأتي به الدهر انّكم * طلبتم على ما فيكم أدواتها
وأمّلتم أن تدركوها طوالعاً * دعوها سيسعى للمعالي سعاتها
غرست غروساً كنت أرجو لقاحها * وآمل يوماً ان تطيب جناتها
فإن أثمرت لي غيرما كنت آملاً * فلا ذنب لي إن حنظلت نخلاتها

وقال:

لنا الدوحة العليا التي نزعت لها
الى المجد اغصان الجدود الأطائب
إذا كان في جوّ السماء عروقها
فأين عواليها وأين الذوائب[1]

وقال:

تعزّ ما اسطعت فالدنيا مفارقة
والعمر يعنق والمغرور في شغل
والعقل أبلغ من عزّاك عن جزع
والصبر أذهب بالبلوى من الوجل

وقال:

ليس الفناء بمأمون على أحد * ولا البقاء بمقصور على رجل

وقال:

لو أنّها بفناء البيت سافحة
لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم

(١) يتيمة الدهر ٣/١٤٧ـ١٥٥.

قــدرت منهــا بــلا رقبي ولا حــذر
على الــذي نــام عــن لــيلى ولم أنم
بــتــنـا ضـجـيـعين في ثـوبي هـوى وتقى
يــلـفّـنـا الشـوق مـن فـوق الى قـدم
وأمسـت الـريـح كـالـغـيـرى تجـاذبـنـا
على الـكـثـيـب فضـول الـريط واللمم
يمشـي بـنـا الـريـح أحـيـانـاً وآونـة
يضـيـئنـا الـبـرق مجـتـازاً على أضـم
وبـات بـارق ذاك الـثـغـر يـوضـح لي
مـواضـع الـلثم في داجٍ مـن الظـلـم

وقال:

عطـون بـأعـنـاق الظـبـاء وأشـرقـت
وجـوه عـليهـا نضـرة ونـعيم

ألقابه:

في عصر السيد الرضي رضوان الله عليه كانت الخلافة تخاطب رجال العلم والدين والسياسة بألقاب وعناوين مخصوصة، وتصدر الألقاب من الخليفة العباسي، أو من جانب صدر الصدور، وتعطى هذه العناوين لصاحب المناصب العالية ورجال الدولة.

ومن الذين نالوا هذه المرتبة الجليلة ولقّبوا بألقاب مخصوصة هو الشريف الرضي؛ في سنة ٣٣٨ لقّبه بهاء الدولة بالشريف الأجلّ، وفي سنة ٣٩٠ لقّبه بذي المنقبتين، وفي سنة ٣٩٨ لقّبه بالرضي ذي الحسبين، وفي سنة ٤٠١ أمر ان تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الأجلّ، وهو أول من خوطب بذلك من الحضرة

الملوكية[١].

نقابته:

النقابة موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى، وهي على ضربين: عامة وخاصة، فعمومها: أن يردّ الى النقيب في النقابة عليهم خمسة أشياء:

١ــ الحكم بينهم فيا تنازعوا فيه.

٢ــ الولاية على أيتامهم فيا ملكوه.

٣ــ إقامة الحدود عليهم فيا ارتكبوه.

٤ــ تزويج الأيامى اللاتي لا يتعيّن أولياؤهنّ، أو قد تعيّنوا، فعضلوهنّ.

٥ــ إيقاع الحجر على من عته منهم أو سفه، وفكّه اذا أفاق ورشد.

فيصير بهذه الخمسة عام النقابة، فيعتبر حينئذ في صحّة نقابته وعقد ولايته أن يكون عالماً من أهل الإجتهاد، ليصحّ حكمه، وينفذ قضاؤه، وهذه النقابة كانت ولايتها لسيدنا المترجم[٢].

إمارة الحج:

عيّن السيد الرضي ــ رحمه الله ــ أميراً للحجّ، وحجّ مراراً بهذا العنوان نيابة عن أبيه مع أخيه المرتضى، ومستقلاً بها في سنة ٣٨٠، والولاية على الحجّ ضربان: أحدهما: أن تكون على تسيير الحجيج، والثاني: على إقامة الحج، فأمّا تسيير الحجيج فهو: ولاية سياسية وزعامة وتدبير، والذي عليه في حقوق هذه الولاية عشرة

(١) الغدير: ٢٠٤/٤.

(٢) الغدير: ٢٠٧/٤.

أشياء:

١ـ جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرّقوا.

٢ـ ترتيبهم في المسير والنزول.

٣ـ يرفق بهم في السير، حتى لا يعجز عنه ضعيفهم، ولا يضلّ عنه منقطعهم.

٤ـ أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها.

٥ـ أن يرتاد لهم المياه اذا انقطعت، والمراعي اذا قلّت.

٦ـ أن يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا رحلوا.

٧ـ أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير.

٨ـ أن يصلح بين المتشاجرين، ويتوسّط بين المتنازعين.

٩ـ أن يقوّم زائغهم ويؤدّب خائنهم.

١٠ـ أن يراعي اتّساع الوقت حتى يؤمّن الفوات.

أمّا الولاية على اقامة الحجّ: فالوالي فيه بمنزلة الإمام في إقامة الصلوات، ومن شروط الولاية عليه مع الشروط المعتبرة في ائمة الصلوات، أن يكون عالماً بمناسك الحجّ وأحكامه، عارفاً بمواقيته وأيامه، وتكون مدّة ولايته مقدّرة بسبعة أيّام، من صلاة الظهر من اليوم السابع الى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، ويختصّ بولايته خمسة أحكام:

١ـ إشعار الناس بوقت إحرامهم والخروج إلى مشاعرهم.

٢ـ ترتيبهم للمناسك على ما استقرّ الشرع عليه.

٣ـ تقدير المواقف بمقامه فيها ومسيره عنها.

٤ـ اتّباعه في الأركان المشروعة فيها.

٥ـ إمامتهم في الصلوات[1].

(١) الغدير: ٤/١٨١.

ولايته على المظالم:

الولاية على المظالم إحدى مناصب الشريف الرضي، ويشترط أن يكون صاحب هذا المنصب الجليل عالماً، فاضلاً، شجاعاً، ورعاً، يعدل في الناس، ويحكم بالحقّ، ولا يخاف من أحد، ويكون الحقّ نصب عينه، وأن يكون نافذ الأمر، عفيفاً، قليل الطمع، وخصماً للظالم، وعوناً للمظلوم.

قال ابن عنبة: وكان الرضي ينسب إلى الافراط في عقاب الجاني من أهله، وله في ذلك حكايات، منها: ان امرأة علوية شكت إليه زوجها، وانّه يقامر بما يتحصّل له من حرفة يعانيها، وأنّ له أطفالاً، وهو ذو عيلة وحاجة.

شهد لها من حضر بالصدق فيا ذكرت، فاستحضره الشريف وأمر به فبطح، وأمر بضربه فضرب، والمرأة تنتظر أن يكفّ، والآمر يزيد، حتى جاوز ضربة مائة خشبة، فصاحت الامرأة: وايتم أولادي، كيف تكون صورتنا إذا مات هذا؟ فكلّمها الشريف الرضي بكلام فظّ، فقال: ظننت أنّك تشكينه إلى المعلّم.

وفاته ومدفنه:

توفّي الشريف الرضي رضوان الله عليه يوم الأحد، السادس من المحرم سنة ٤٠٦، وصرّح به معاصره أبوالعباس النجاشي في رجاله، وتبعه في ذلك كلّ من ترجمه، كتاريخ بغداد للخطيب، وعمدة الطالب، وروضات الجنّات، وغيرها.

قال العلّامة الأميني ــ رحمه الله ــ: وعند وفاته حضر داره الوزير أبو غالب فخر الملك، وسائر الوزراء والأعيان والأشراف والقضاة، حفاة ومشاة، وصلّى عليه فخر الملك، ودفن في داره الكائنة في محلة الكرخ بخطّ مسجد الانباريين.

لم يشهد جنازته أخوه الشريف المرتضى، ولم يصلّ عليه، ومضى من جزعه عليه الى الامام موسى بن جعفر عليهما السلام، لأنّه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته،

ومضى فخر الملك بنفسه آخر النهار الى أخيه المرتضى بالمشهد الكاظمي، فألزمه بالعود الى داره.

ذكر كثير من المؤلّفين نقل جثمانه إلى كربلاء المشرّفة بعد دفنه في داره بالكرخ، فدفن عند أبيه أبي أحمد الحسين بن موسى، ويظهر من التاريخ أنّ قبره كان في القرون الوسطى مشهوراً معروفاً في الحائر المقدّس، وقال صاحب عمدة الطالب: وقبره في كربلاء ظاهر معروف.

قد رثى الشريف الرضي غير واحد ممّن عاصروه، وفي مقدمهم أخوه علم الهدى بقوله:

يا للرجال لفجعة جذمت يدي * ووددت لو ذهبت عليّ براسي
ما زلت أحذر وقعها حتى أتت * فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمناً فلمّا صممت * لم يجدني مطلي وطول مكاسي
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة * فالدمع غير مساعد ومواسي
لله عمرك من قصير طاهر * ولرب عمر طال بالأدناسِ

وممّن رثاه تلميذه في الأدب مهيار الديلمي:

من جبّ غارب هاشم وسنامها * ولوى لوياً فاستزلّ مقامها
وغزا قريشاً بالبطاح فلفّها * بيد وقوّض عزّها وحيامها
وأناخ في مضر بكلكل خسفه * يستام واحتملت له ما سامها
من حلّ مكة فاستباح حريمها * والبيت يشهد واستحلّ حرامها
ومضى بيثرب مذعجا ما شاء من * تلك القبور الطاهرات عظامها
يبكي النبي ويستنيح لفاطم * بالطف في ابنائها أيامها
الدين ممنوع الحمى من راعه * والدار عالية البنا من رامها
أتناكرت أيدي الرجال سيوفها * فاستسلمت أم أنكرت إسلامها
أم غال ذا الحسبين حامي ذودها * قدر أراح على الغدوّ سوامها

آثاره العلمية والادبية:

١ــ أخبار قضاة بغداد.

٢ــ تعليق خلاف الفقهاء.

٣ــ تعليقة على ايضاح أبي علي الفارسي.

٤ــ تلخيص البيان عن مجاز القرآن.

٥ــ الحسن من شعر الحسين.

٦ــ حقائق التأويل في متشابه التنزيل.

٧ــ خصائص الائـمّة.

٨ــ ديوان شعره.

٩ــ رسائل الشريف الرضي.

١٠ــ زيادات في شعر ابن الحجّاج.

١١ــ زيادات في شعر أبي تمّام.

١٢ــ سيرة أبيه أبي أحمد الموسوي.

١٣ــ ما دار بينه وبين أبي اسحاق.

١٤ــ مجازات الآثار النبوية.

١٥ــ مختار شعر أبي اسحاق الصابي.

١٦ــ معاني القرآن.

١٧ــ نهج البلاغة(١).

(١) رجال النجاشي: ٣١١، والغدير: ١٩٨/٢، وعمدة الطالب: ٢٠٨.

مشايخه وأساتذته:

يروي الشريف الرضي عن جماعة من العلماء والمحدثين وهم:

١ــ ابراهيم بن أحمد بن محمد أبو اسحاق الطبري المالكي الفقيه.

٢ــ الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي النحوي، المتوفى سنة ٣٧٧.

٣ــ حسن بن عبدالله المرزبان أبو سعيد النحوي، المتوفى سنة ٣٦٨.

٤ــ عبدالجبار بن أحمد أبوالحسن الشافعي المعتزلي، من قضاة بغداد.

٥ــ عبدالرحيم بن محمد أبو يحيى المعروف بابن نباتة، صاحب الخطب، المتوفى سنة ٣٩٤.

٦ــ عبدالله بن محمّد أبو محمد الاسدي الأكفاني.

٧ــ عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح، المتوفى سنة ٣٩٢.

٨ــ علي بن عيسى الربعي أبوالحسن النحوي البغدادي، المتوفى سنة ٤٢٠.

٩ــ عمر بن ابراهيم بن أحمد أبو حفص الكناني.

١٠ــ عيسى بن علي بن عيسى أبوالقاسم.

١١ــ محمد بن عمران أبوعبدالله المرزباني الخراساني، المتوفى سنة ٣٨٤.

١٢ــ محمد بن محمد بن النعمان أبوعبدالله الشيخ المفيد.

١٣ــ محمد بن موسى أبوبكر الخوارزمي.

١٤ــ هارون بن موسى أبو محمد التلعكبري، المتوفى سنة ٣٨٥[١].

(١) الغدير: ١٨٣/٤.

تلامذته والراوون عنه:

روى عن الشريف الرضي عدّة من رجال العلم والحديث والأدب وهم:

١ــ أحمد بن الحسين بن أحمد أبوبكر الخزاعي النيسابوري.

٢ــ أحمد بن علي بن قدامة، المتوفى سنة ٤٨٦.

٣ــ السيدة النقية بنت السيد المرتضى، روت عن عمّها.

٤ــ جعفر بن محمد الطرشتي الرازي.

٥ــ عبدالرحمن بن أحمد بن يحيى النيسابوري.

٦ــ عبدالكريم بن محمد أبو نصر بن الديباجي، المعروف بسبط بشر الحافي.

٧ــ عبدالله بن علي بن كيابكي ابو زيد الحسيني الجرجاني.

٨ــ علي بن بندار أبو الحسن الهاشمي.

٩ــ محمد بن الحسن شيخ الطائفة الطوسي.

١٠ــ محمد بن علي أبو عبدالله الحلواني.

١١ــ محمد بن أحمد أبو منصور العكبري[١].

والده:

الحسين بن موسى أبو أحمد؛ كان عظيم المنزلة في الدولتين العباسية والبويهية، لقّبه أبو نصر بهاء الدين بالطاهر الأوحد، وولي نقابة الطالبيّين خمس مرّات، ومات وهو النقيب، وذهب بصره، ولولا استعظام عضدالدولة أمره، ما حمله على القبض عليه، وحمله الى قلعة بفارس.

فلم يزل بها حتى مات عضدالدولة، فأطلقه شرف الدولة بن العضد،

(١) الغدير: ١٨٤/٤ وشرح الراوندي الورقة ١.

واستصحبه حين قدم بغداد، وله في خدمة الملّة والمذهب خطوات سديدة، ومساعٍ مشكورة، وقدم وقِدم، ولد سنة ٣٠٤، وتوفي ليلة السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ٤٠٠، وقد أناف على التسعين.

أمّه:

أمّ السيد الشريف الرضي؛ فاطمة بنت أبي محمد الحسن الناصر الصغير، ابن أبي الحسين احمد بن محمد الناصر الكبير الاطروش، بن علي بن الحسن الاصغر بن عمر الاشرف، بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ممّا قيل في «نهج البلاغة»

نهج البلاغة يهدي السالكين إلى * مواطن الحقّ من قول ومن عمل
فاسلكه تهدى إلى دار السلام غداً * وتحظ فيها بما ترجوه من أمل

وقيل أيضاً:

كتاب كأنّ الله رصّع لفظه * بجوهر آيات الكتاب المنزل
حورت حكماً كالدرّ تنطق صادقاً * ولا فرق إلّا أنّه غير منزل

للإمام أبي يوسف يعقوب بن أحمد النيسابوري كتب على نسخة من هذا الكتاب:

نهج البلاغة نهج مهيع جدد * لمن يريد علوّاً ماله أمد
يا عادلاً عنه تبغي بالهوى رشداً * اعدل اليه ففيه الخير والرشد
والله والله إنّ التاركين عموا * عن شافيات عظات كلّها سدد
كأنّها العقد منظوماً جواهرها * صلى على ناظميها ربّنا الصمد
ما حالهم دونها إن كنت تنصفني * إلّا العنود وإلّا البغي والحسد

واقتدى به ابنه الامام أبوبكر الحسن بن يعقوب:

نهج البلاغة روض جاده درر * نهج البلاغة درج ضمنه درر

نهج البلاغة وشي حاكه صنع * من دون موشيه الشرقوب والحبر
أوجونة ملئت عطراً إذا فتحت * خيشومنا فغمت ريح لها ذفر
صدقتكم سادتي والصدق من عادتي * وهذه شيمة ما عابها بشر
صلى الاله على بحر أواذيه * رمت به نحونا ما لألأ القمر

قال علي بن أحمد الفنجكردي النيسابوري:

نهج البلاغة من كلام المرتضى * جمع الرضي الموسوي السيّد
بهر العقول بحسنه وبهائه * كالدرّ فصل نظمه بزبرجد
ألفاظه علوية لكنها * علوية حلّت محلّ الفرقد
فيه لأرباب البلاغة مقنع * من يعن باستظهاره يستنجد
وترى العيون اليه صبواً إن قرأ * منه كتاباً رايعاً في مشهد
اعجب به كلماته قد ناسبت * كلمات خير الناس طرّاً أحمد
نعم المعين على الكتابة للفتى * وبه الى طرق الكتابة يهتدي
واجلّ يعقوب بن أحمد ذكره * لعلوّ همّته وطيب المولد
ودعا اليه محرّضاً أصحابه * فعل الحنيفي البهيم المرشد
ثم ابنه الحسن الموفّق بعده * فيه بسنّته الرضية مقتد
كم نسخة مقروّة حصلت به * مسموعة لأولي النهى والسؤدد
يا ربّ قرّبه وأكرم نزله * واحشره في رهط النبي محمد
وأطل بقاء سليله الحسن الفتى * فينا برغم الكاشحين الحسد

قال محمد بن الحسين قطب الدين الكيذري البيهقي:

نهج البلاغة نهج كلّ مسدّد * نهج إكرام لكلّ قدم امجد
يا من يبيت وهمه درك العلى * فاسلكه تحظ بما تروم وتزدد
انسان عين للعلوم بأسرها * مضمونة ذوو البصائر شهد
بهر النجوم الزهر بل شمس الضحىٰ * معنى وألفاظاً برغم الحسد
ينبوع مجموع العلوم رمى به * نحو الأنام ليقتفيه المهتد
فيه لطلّاب النهاية مقنع * فليلن منه ناظر المسترشد
صلى الله على منظّمه الذي * فاق الورى بكماله والمحتد (١)

(١) حدائق الحقائق: ١/٨٧.

نسخ نهج البلاغة

لما فرغ الشريف الرضي ـ رحمه الله ـ من تأليف كتابه القيم نهج البلاغة، كتب نسخة بخطه وعلق عليها التعليقات وشرح بعض الالفاظ النادرة والكلمات الشاذة وكان يقرئها على تلامذته وذكرنا في السابق من هذه المقدمة اسماء الذين رووا نهج البلاغة عن مؤلفه.

كانت النسخة التي كتبها الشريف الرضي بخط يده محفوظة في مكتبات بغداد، واستفاد من هذه النسخة الثمينة عدة من العلماء والمحققين امثال قطب الدين الراوندي وقطب الدين الكيذري وابن ابى الحديد وعلى بن ناصر السرخسي وابن ميثم البحراني.

ثم فقدت هذه النسخة ولا يعلم اين انتقلت وقد تصفحت فهارس المكتبات في البلاد الاسلامية وغيرها وسألت من خبراء الفن، فلم اجد لها اثراً ولا خبراً. ونسخة ايضاً كانت عند السيد المرتضى اخو المؤلف وكان عليها خطه وله عناية بنهج البلاغة وشرح الخطبة المعروفة بالشقشقية.

نقل عن العلامة الاميني مؤلف الغدير ـ رضوان الله عليه ـ أنه رأى نسخة من نهج البلاغة عليها خط المرتضى ـ رحمه الله في سوق الكتب في العراق، فاشتراها رجل وذهب بها، وهذا الرجل كان يشتري الكتب المخطوطة للمكتبات الخاصة في الشرق والغرب.

كان للعلماء واهل الادب والبلاغة والخطابة وكذا لرجال الدولة والسياسة اهتمام عظيم وعناية خاصة بنهج البلاغة، فاستكتبوه لانفسهم وشاعت نسخته في الاقطار الاسلامية ملأت المكتبات الخاصة والعامة في البلدان المختلفة.

من الاماكن التي انتشرت فيها نسخ النهج وعنى علماؤها بشرحه وتفسيره وتبيين معضلاته بلاد خراسان كبيهق وخوارزم، وهرات وسرخس وغيرها. هذا

علي بن زيد البيهق اول من شرح نهج البلاغة وبسط القول فيه وبعده قطب الدين الكيذري واحمدبن محمد الوبرى ومحمود الملاحى وعلي بن ناصر السرخسي وغيرهم .

ثم ظهرت حوادث مظلمة وفتن وحروب دامية في بلاد خراسان والجبال والعراق ، وخرجت عساكر الغز وأخربوا مدينة مرو وأحرقوا مكتباتها وورد السلطان محمود الغزنوي مدينة الري وأمر باحراق الكتب وكذا فعل بساير البلاد .

كانت في بغداد مكتبات عامرة اسسها امراء آل بويه وغيرهم من العلماء والسادة والاشراف ، وفيها آثار كثيرة وكتب نادرة بخطوط مؤلفيها من العلوم والمعارف ، ثم احرقت هذه المكتبات في فتن ظهرت بين اهل الشيعة والسنة عند ورود طغرل بك السلجوقي بمدينة السلام في سنة ٤٤٨ .

ثم جاءت الداهية الكبرى والمصيبة العظمى وهي ظهور التاتار وخروج طاغيتهم جنكيزخان المغولي واستيلاؤهم على بلاد المسلمين سيما بلاد خراسان كبخارا وسمرقند ، ومرو وطوس وبلخ ونيشابور وغيرها ، وفي تلك الحوادث المفجعة هدمت المساجد والمشاهد واحرقت المكتبات والمعاهد الدينية .

بمناسبة مرور الف عام على تأليف نهج البلاغة وانعقاد المؤتمر الالفي حول هذا الكتاب عزمت على تحقيق النهج ومقابلته وعرضه على النسخ المخطوطة النادرة وطبعه بصورة جديدة عصرية ، بذلت وسعى وجهدت كل الجهد في هذا العمل الخطير والقيت كل ما يشغلنى عنه .

بعد الفحص والتنقيب ظفرت بخمس نسخ خطية عتيقة منها نسخة في المكتبة المرعشية في قم المشرفة تاريخ كتابتها ٤٩٩ ونسخة في مكتبة ممتاز العلماء بلكهنؤ من بلاد الهند ، تاريخ كتابتها ٥١٠ ونسخة في مكتبة فخرالدين النصيري تاريخ كتابتها ٤٩٤ ونسخة في جامعة عليكر من بلاد الهند تاريخ كتابتها ٥٣٨ ونسخة في مكتبة مدرسة النواب بمشهد الرضا عليه السلام تاريخ كتابتها ٥٤٤ .

استفدت أيضاً من كتاب منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة لقطب الدين

الراوندي ، وعندي من هذا الكتاب نسختان مصورتان من نسخة مكتبة المجلس في طهران تاريخ كتابتها ٦٥٢ و نسخة في مكتبة ملك تاريخ كتابتها سنة ٦٨٦ .

راجعت أيضاً كتاب حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة لقطب الدين الكيذري نسخة مكتبة جامع طهران وتاريخ كتابتها سنة ٦٤٥ وكذا اعلام نهج البلاغة لعلي بن ناصر السرخسي من اعلام القرن السادس ، عندي من هذا الكتاب نسختان مصورتان من نسخة مكتبة رضا برامفور من بلاد الهند ونسخة المكتبة الوطنيه بكلكته .

كذا عرضت لنسخة شرح ابن ابى الحديد المطبوع بمصر بتحقيق محمد ابوالفضل ونسخة الشيخ محمد عبده طبع بيروت ونسخة العلامة المغفور له السيد علي نقي فيض الاسلام طبع طهران واشرت اليها بالرموز في ذيل الخطب والرسائل.

الرموز في تعليقات النهج

١ــ ش : اشارة الى المكتبة المرعشية بقم المشرفة .

٢ــ ن : اشارة الى نسخة مدرسة النواب بمشهد الرضا عليه السلام .

٣ــ ف : اشارة الى نسخة فخرالدين النصيري .

٤ــ ل : اشارة الى نسخة جامعه عليگر بالهند .

٥ــ م : اشارة الى نسخة مكتبة ممتاز العلماء بلكهنوء .

٦ــ ر: اشارة الى شرح الراوندي .

٧ــ ك : اشارة الى شرح الكيذري .

٨ــ ح : اشارة الى شرح ابن ابي الحديد .

٩ــ ع : اشارة الى اعلام نهج البلاغة .

١٠ــ ب : اشارة الى شرح الشيخ محمد عبده .

١١ــ ض : اشارة الى نسخة فيض الاسلام .

الشارح

النسخة الموجودة من هذا الشرح ناقصة من أولها وآخرها، وما ورد فيها ذكر من الشارح، إلّا أنّه يصرّح في موارد متعدّدة بانّه كان ملازماً للوزير المعروف رشيدالدين الهمداني، ويسأل عنه شرح مشكلات نهج البلاغة، قال في ص ٩١ و ١١٠ و ١٢٣ وغيرها: سألت تلك الحضرة العليّة لا زالت مظهراً للأنوار الالهية، ومفيضاً للفيوض الربانية، يوم الأحد الثالث من جمادى الآخر من شهور سنة ٧١٢، بحدود دينور عن تحقيق قوله عليه السلام: سترني عنكم جلباب الدين، وبصّرنيكم صدق النية، فأفاد مرتجلاً إلى آخره.

يظهر من هذه العبارات انّه يعيش في أوائل القرن الثامن، ويلازم رشيدالدين في رحلاته وأسفاره، ويمكن أنه كان من علماء المدرسة السيّارة التي أسّسها رشيدالدين.

رشيدالدين هذا هو فضل اللهبن عماد الدولة؛ الوزير الكبير والعالم الشهير الهمداني وزير السلطان محمد خدابنده، كان طبيباً ماهراً وفيلسوفاً كاملاً، تتلمذ عند الخواجة نصيرالدين الطوسي.

كان محبّاً للعلماء، وصاحب رأي ودهاء، له آثار جليلة، وتأليفات منيفة، تدلّ على دقّة نظره، وتبحّره في العلوم والمعارف، قتل بعد موت السلطان في سنة ٧١٨ في قصة مشهورة.

قد طبعنا هذا الشرح عن نسخة واحدة، وهي في مكتبة الأستاذ الدكتور اصغر المهدوي أستاذ جامعة طهران دام توفيقه.

قد تمت هذه المقدمه ـ ولله الحمد ـ يوم الفطر من سنة ١٤٠٢ فى محروسة حيدرآباد الدكن صينت عن الحوادث والفتن

خادم العلم والدين ـ عزيز اللهالعطاردى.

٣ـ وَمِنْ خُطْبَة لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَهِيَ الْمَعْرُوفة بالشِّقْشِقية

أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلاَنٌ(١)، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى: يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ؛ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ(٢)، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ(٣).

فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذىً، وَفِي الْحَلْقِ شَجاً؛ أَرَى تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلاَنٍ بَعْدَهُ(٤) (ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الأَعْشَى)(٥).

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا ... وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ، إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ(٦) خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا(٧)، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا(٨)، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا، وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ ـ لَعَمْرُ ٱللهِ ـ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ

---

(١) في ض وح: ابن أبي قحافة.

(٢) في ر: الجذاء: بالجيم والحاء.

(٣) في م: يلقى فيها ربّه.

(٤) في ح وض: الى ابن الخطاب.

(٥) ساقطة من ح.

(٦) في ك : ناحية خشناء.

(٧) في ر: يعظم كلمها.

(٨) في ك : يجفو مسّها.

وَاعْتِرَاضٍ[(١)].

فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ؛ حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَاللهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هٰذِهِ النَّظَائِرِ! لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا؛ فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ[(٢)]، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ.

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حُضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ[(٣)] عَلَيهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ. فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ الىَّ كَعُرْفِ[(٤)] الضَّبُعِ إِلَيَّ؛ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ[(٥)] عِطافِي، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ.

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ[(٦)]، وَمَرَقَتْ أُخْرَى[(٧)]، وَفَسَقَ آخَرُونَ[(٨)]، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ[(٩)] حَيْثُ يَقُولُ: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً

---

(١) في حاشية م: بتلوّن واعتياص.

(٢) في ك: فمال رجل وأصغىٰ آخر لصهره.

(٣) في ض وح: انتكث فتله.

(٤) في ض: والناس كعرف الضبع.

(٥) في ض وح ول: وشقّ عطفاي.

(٦) في ك: نكصت بالصاد.

(٧) في ك: وروي وقسطت أخرى.

(٨) في ض: قسط آخرون.

(٩) في ض وب وح: لم يسمعوا كلام الله.

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا(١).

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لاَ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه (فلمّا فرغ من قراءته)(٢)، قال له ابن عباس رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين، لو اطردت(٣) مقالتك من حيث أفضيت.

فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَابْنَ عَبَّاسٍ، تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على ذلك الكلام(٤) أن لا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث(٥) أراد.

اللغة

تقمّصها: لازم قمص تقميصاً؛ أي لبس القميص، وقيل: التقميص حركة تسرع بصاحبه وتخفّه، يقال: قمص الغزال إذا قفز قفزة سريعة، وإنما سمّي القميص لأنّه أخف الأثواب وأسرعها لبساً، قمص البعير وغيره بضمّ العين في الماضي

(١) في م: وأراقهم زبرجها.
(٢) ساقطة من ب وح.
(٣) في ض وب: لو أطردت خطبتك.
(٤) في ض وح: على هذا الكلام.
(٥) في م: بلغ منه ما أراد.

وضمّها وكسرها في الغابر قصاً وقامصاً: أي استنّ؛ وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويعجن رجليه.

قص البحر بالسفينة إذا حرّكها بالموج، وما من حركة يعبّر عنها بالقمص إلّا اذا كانت فيها سرعة وخفة، ولهذا قيل: كانت بيعة أبي بكر فلتة[١]، وهو معنى لطيف جداً. وقطب الرحى: المسمار الذي يدور به الرحى، وقد عرفت الكلام مستوفى. الانحدار: الانهباط. تقول: انحدرت من البصرة، والموضع منحدر.

يقال: رقيت في السلّم بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر رقياً ورقيّاً إذا صعدت وارتقيت مثله، والمرقاة بالفتح: الدرجة، ومن شبّهها بالآلة التي يعمل بها، ومن فتح قال: هذا موضع يفعل فيه. الطير: قال الجوهري: هو جمع طائر كصحب وصاحب، وجمعه طيور وأطيار.

قال قطرب[٢]: الطير يقع ايضاً على الواحد، وأبوعبيدة مثله، وهو جيّد؛ اذ هو اسم جنس يقع على القليل والكثير.

يقال سدل ثوبه: بفتح العين في الماضي وضمّها في الغابر سدلاً: اي أرخاه، وشعر منسدل اي مرخى. طويت الشيء طيّاً فانطوى، وفلان طوى كشحه إذا أعرض بوده، والكشح: مابين الخاصرة إلى الضلع والخلف.

ويقال أيضاً: طوى فلان عنّي كشحه، إذا أقطعك، والكاشح: الذي يضمر لك العداوة، فيكون طي الكشح عبارة عن الإعراض عن قلى.

طفق يفعل كذا يطفق طفقاً: اي جعل يفعل، ومنه قوله تعالى: «وطفقا يخصفان عليهما[٣]».

---

(١) هنا كلمة لا تقرأ.

(٢) محمد بن المستنير ابوعلي النحوي البصري، الأديب البارع المعروف بقطرب، أخذ الأدب عن سيبويه، وروى عن الإمام الصادق عليه السلام، له مصنفات في علوم القرآن والنحو، وهو أول من وضع المثلث في اللغة، توفي سنة ٢٠٦.

(٣) الأعراف: ٢٢.

قال الأخفش(١): وبعضهم يقول طفق بالفتح في الماضي والكسر في الغابر طفوقاً.

أرتأى: في الأمر إذا فكّر فيه طلباً للرأي الأصلح، يعني أتروّى وأرى لنفسي ما هو أصلح لها، وهو افتعل من رأى، والافتعال يستعمل فيمن يفعل شيئاً لنفسه كالإكتساب والإكتحال وما شاكلهما.

صال عليه يصول صولاً وصولة: أي حمل نفسه على الأمر بقوة ووثب عليه، يقال: ربَّ قولٍ أشدّ من صولٍ، والمصاولة: المواثبة، وفي جذّاء روايتان: الجيم المعجمة والحاء المهملة، وكلتاهما بمعنى واحد.

قال الفرّاء(٢): يقال رحم جذاً وحذاً بالجيم والحاء ممدودان إذا لم يوصل، يقال: جذذت الشيء أي قطعته. في طخية روايتان: الضم في الطاء.

قال اللحياني: ما في السماء طخية بالضم؛ أي شيء من سحاب؛ والفتح فيها والمراد هنا الظلمة، يقال: ليلة طخياء أي مظلمة، وفي الخبر أنّ في القلب طخاء يذهب الفرح، اي ظلمة، ووصفها بعمياء دليل على انّ المراد انغلاق الأمور بحيث لا يهتدى إلى التقصّي منها، ومنه: تكلّم بكلمة طخيا أي بكلمة لا تفهم.

يهرم: الهرم: شدّة كبر السنّ. الكبير فعيل من كبر الرجل يكبر كبراً: أي أسنَّ من كبر بالضم كبر أي عظم.

يقال: شاب رأسه يشيب شيباً وشيبة: أي ابيضّ شعره المسودّ بعد دخوله في الشيخوخة، الصغير: ضدّ الكبر في السن، وقد صغر فهو صغير وصغار بالضم.

الكدح: مشترك بين معان: العمل والسعي، يقال هو يكدح في كذا اي

---

(١) ابوالحسن سعيدبن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي، صاحب المصنفات، تلميذ الخليل، اخذ النحو عن سيبويه وكان اكبر منه، وكان يقول: ماوضع سيبويه في كتابه شيئاً إلّا عرضه عليّ، توفي سنة ٢١٥.

(٢) ابو زكريا يحيى بن زيادبن عبدالله الاسلمي الديلمي الكوفي، تلميذ الكسائي وصاحبه، حكي عن ثعلب أنه قال: لولا الفرّاء لما كانت عربية، لانه خلّصها وضبطها وصنّف كتاب الحدود في سنتين، وعظم قدر الفرّاء في الدولة العباسية، حتى تسابق تلميذاه ابنا المأمون إلى تقديم نعله اليه لما نهض للخروج، توفي سنة ٢٠٧.

يكدّ، ومنه قوله تعالى: «إنّك كادح إلى ربّك كدحاً[١]»، أي ساعٍ بكدّ وتعب، والكسب؛ يقال: هويكدح لعياله ويكتدح اي يكسب لهم، والخدش يقال: أصابه شيء فكدح وجهه به، وبه كدح فكدوح اي خدوش، والتكديح: التخديش، وهنا المراد الكدّ، وقرينة الحال معينة له.

الصبر: حبس النفس عن الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبراً، وصبّرته أنا: أي حبسته، ومنه قوله تعالى «واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم[٢]»، وستعرف حقيقة الصبر في لسان حملة الشرع وفضيلته في مظنّته، إن شاء الله تعالى.

هاتا: لغة في هاتي وهي لغة في هذي وهذه، ويروى هاتين: أي اليد الجذّاء والطخية العمياء.

أحجى: يحتمل هنا معان:

ا ــ أعقل من الحجى بكسر الحاء العقل، كما يقال: هذا أحوط أي اقرب إلى الاحتياط.

ب ــ أولى من قولهم: انت حجّ بذلك أي جدير، وانت أحجى به من فلان أي أجدر وأولى.

ج ــ أقوم وأثبت من قولهم: تحجّى فلان بالمكان أي أقام وثبت.

د ــ أقرب من الضنن بالدين من الحجوء وهو الضنن بالشيء، يقال: حجيت بالشيء اي ضننت به.

القذى في العين: هو ما يسقط فيها من غبار ونحوه ممّا يتأذّى به.

قذيت عينه تقذى قذى: إذا سقطت في عينه قذاة.

الحلق: بالفتح الحلقوم، والجمع حلوق، وبالكسر خاتم الملك والمال

---

(١) الإنشقاق ٨٦.

(٢) الكهف: ١٨.

الكثير، يقال: جاء فلان بالحلق.

الشجى: ما ينشب في الحلق من عظم وغيره، والشجو: الهمّ والحزن، يقال: شجاه يشجوه شجواً إذا حزنه واشجاه، يشجيه إشجاءً إذا أغصّه.

التراث: أصل التاء فيه واو، والميراث أصله موراث، انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهما اسمان مترادفان لما يورث، وقيل لا يسمّى الملك تراثاً حتى يكون قد ورثه عن غيره، وأراد به هنا حقّه عليه السّلام من الإمامة والخلافة من الرسول عليه السلام.

نهباً: أي أخذاً بغير استحقاق ولا إذن، ممّن يستحقّه.

أدلى بها: قال أكثرهم: معناه أنّه أرسله إلى فلان، من أدلى دلوه، وليس كذلك فإنّ الادلاء هنا من أدلى بماله إلى الحاكم: أي دفعه اليه رشوة، ومنه قوله تعالى: «وتدلوا بها إلى الحكّام[1]»، ومعناه على هذه أنَّ استخلافه إيّاه كان مصانعة على البيعة له إيّاه من قبله، وهذا معنى نفيس جداً يلتفت له من تدرّب بعلم التواريخ واللغة.

شتّان ما بينهما: أي بعد، وشتّان ما بين عمرو وزيد: أي بعد ما بينهما.

كور الناقة: بضم الكاف الرّحل بأداته والجمع اكوار وكيران. الإقالة: فك عقد البيع ونحوه.

والاستقالة: طلب ذلك. شدّ الأمر: أي صعب وعظم.

تشطّرا: أي خصص كلّ منهما صاحبه بشطر وهو النصف، وفي المثل: أجلب جلباً لك شطره أي نصفه، قالت العرب في من استمر على حوادث الدّهر: جلب الدهر أشطره؛ أي استفاد من الدهر طوري الخير والشرّ.

قال القتيبي[2] مستشهداً على أنَّ الشطر هو النصف: أنّ الناقة لها أربعة

---

(١) البقرة: ١٨٨.

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الباهلي الدينوري المروزي، الكاتب اللغوي النحوي، صاحب التأليف

أخلاف: خلفان مقدّمان وخلفان مؤخّران، وإذا يبس لها خلفان قيل لها ناقة شطور، والشاة إذا يبس أحد خلفيها قيل شاة شطور.

الضرع: لا يكون إلا لذات خفّ كالناقة، أو ظلف كالبقرة والشاة.

صيّرته: أنا كذا أي جعلته.

الحوزة: الناحية، وانّما سمّيت بها لأنّها تحوز أوساطها ويحيط بها، من حاز الشيء حوزاً وحيازة: أي جمع، وحوزة الملك بيضته.

الكلم: بفتح الكاف وسكون اللام الجرح.

مسّ: مصدر مسست الشيء بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر، وهذه هي اللغة الفصيحة، وقد حكى أبوعبيدة: مسست بالفتح في الماضي والضم في الغابر.

العثرة: الزلّة، وقد عثر في ثوبه بفتح العين في الماضي وضمّها في الغابر عثاراً، إذا أصابت رجله في المشي ثوبه وغيره فسقط.

الإعتذار: من الذنب، وقد اعتذر رجل إلى ابراهيم النخعي فقال له: قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب.

الصعبة: الناقة الشّديدة التي لم تذلّل بالحمل ولا بالركوب.

أشنق الناقة: وشنقها إذا جذبها إلى نفسه راكباً عليها ليمسكها عن الحركة العنيفة، والمشي على غير استقامة، وما نقل السيد الرضي كافٍ، ولكنّ ما قلناه أوضح، وفي بعض النسخ قد أورد ما يدلّ على أنّ اشنق جاء بمعنى شنق، وهو في الحديث: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، خطب الناس وهو على ناقة قد شنق لها وهي تقصع بجرّتها، ومن الشاهد على أنَّ أشنق بمعنى شنق قول عدي بن زيد العبادي[1]:

والآثار، وكان قاضياً بالدينور فنسب اليها، وقتيبة جدّه كان أمير خراسان وافتتح خوارزم وسمرقند وبخارا، وتوفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦.

(١) عدي بن زيد بن مالك أبو داود الرقاع ككتاب بن عصر الشاعر بن قضاعة العاملي، كان معاصرا للراعي، ←

ســاءهــا مــا لهــا تــبــيّــن في الأيـد * ي وأشــنــاقــهــا إلى الاعــنــاق

أي تعليقها. أقـول: معنى البيت ساء هذه الناقة ما بسببنا ظهر في أيديها ورفع رؤوسها الى الأعناق، وهو ممّا يصعب عليها.

والخزم: الشقّ والقطع.

أسلس لها: أي أرخى وسهل عليها في جدار رأسها، من قولهم: شيء سلس أي سهل، ورجل سلس أي ليّن منقاد، من السلس والسلاسة.

تقحّم في الأمر: إذا ألقى نفسه فيه بعنف.

مني: أي ابتلي، يقال: منيت بكذا اي ابتليت به، ومنّي بالتشديد أي قدّر، وانّما سمّي الموت منية لأنه مقدّر على الخلق.

قال الله تعالى: نحن قدّرنا بينكم الموت(١)»، والأمنية ارادة يقدّرها الانسان في نفسه.

العمر والعمر: مصدران لعمر بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر، وعبارتان عن تفاني زمان يعرف له بذاته وبهائه، ومن ثم قيل عمر اذا عاش زماناً طويلاً، وهما وإن كانا في المعنى واحداً، غير أنّه لا يستعمل في القسم إلّا أحدهما وهو المفتوح.

واذا ادخلت عليه اللام رفعته بالابتداء وقلت: لعمر الله، واللام لتوكيد الابتداء، والخبر محذوف والتقدير لعمر الله قسمي، ولعمر الله ما اقسم به، فإن لم يأت باللام نصبته نصب المصادر، وقلت: عمر الله ما فعلت كذا، وعمرك الله.

ومعنى لعمر الله وعمر الله: احلف ببقاء الله ودوامه، وقيل العمر هنا بمعنى التعمير كما في قولهم: عمرك الله اي بتعميرك الله، أي باقرارك له بالبقاء، فيكون قسماً بصنع الله في استبقاء الخلق لا بقائه، هذا أبعد عن سوء الأدب، وأوفق

وكان بينهما مهاجاة.

(١) الواقعة: ٥٦.

بالمحاماة على قانون الإعتدال في التوحيد.

الخبط: تشوّش الأحوال المنتظمة، يقال: خبط البعير الارض بيده إذا ضربها، ومنه قيل: خبط عشواء وهي الناقة التي في بصرها ضعف تخبط إذا مشت لا تتوقّى شيئاً، وخبط الرجل إذا طرح نفسه حيث كان لينام، وذلك لغفلته عن العقل الضابط لأحواله وأقواله.

الشماس: بكسر الشين عسر الاخلاق؛ يقال: رجل شموس وشماس إذا كان صعب الخلق، وشمس لي فلان اذا أبدى لك عداوته، وشمس الفرس شموساً وشماساً إذا منع ظهره من أن يركب عليه. التلوّن: الاختلاف في الأفعال والاضطراب في الاقوال للتفاوت في الاحوال.

اعترض الفرس في رسنه: اذا لم يستقم لقائده، واعترض الشيء دون الشيء أي حال دونه، قيل: الاعتراض ضرب من التلوّن، وأصله المشي في عرض الطريق، يقال: مشى فلان العرضة إذا مشى في عرض الطريق خابطاً عن مرح ونشاط، والأول أنسب، والثاني أدقّ، والثالث محتمل.

الشورى: مصدر كالمشاورة، يقال شاورت فلاناً مشاورة ومشورة وشورى، وهو يقال لأمر مبهم يقع بين جماعة كلّ واحد منهم يريد استخراج الصواب في الأمر من رأي غيره، وربما تكون الشورى لأمر يعرض على الآراء المتفرّقة، وهو مأخوذ من شرت الدابة إذا عرضتها، والمكان الذي يعرض فيه الدوابّ مشوار.

الريب: الشك، والريب ما رابك من الشيء، والاسم الريبة بالكسر، وهي التهمة، ورابني فلان إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه.

النظائر: جمع نظير، ونظير الشيء: مثله، وحكى أبوعبيدة: النظر والنظير بمعنى مثل الندّ والنديد.

الإسفاف: النزول من المكان العالي إلى السافل، يقال: أسفت السحابة إذا دنت من الأرض، قال عبيدبن الأبرص[1] يذكر سحاباً قد تدلّى حتى قرب

---

(١) عبيدبن الأبرص بن جشم الأسدي؛ شاعر مشهور.

من الأرض:

فـان مسـف فـويـق الأرض هـيـد بـه
يـكـاد يـدفـعـه مـن قـام بـالـرّاح

وأسف الطائر إذا دنا في طيرانه من الأرض، والإسفاف أيضاً شدّة النظر وحدّته، وليس مراداً هنا.

صغا يصغو ويصغي صغواً وصغواً: أي مال، وكذلك صغى بالكسر يصغي صغاً وصغياً ،وصغت النجوم: اذا مالت للغروب، يقال: صغو فلان معك أي ميله، وفي الخبر: كان رسول صلى الله عليه وآله وسلم يصغي الاناء للهرة.

الضغن: والضغن الحقد. قال الخليل[1]: الأصهار أهل بيت المرأة، ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعاً، وقال ابن الإعرابي: يقال: صاهرت إليهم إذا زوّجت فيهم، وأصهرت بهم إذا اتّصلت بهم وتحرّمت بجوار أو نسب أو تزوّج.

وقال بعض الشارحين: الصهر الامتزاج في خلاصة النسب وزبدته، وكل ما يخلص من شيء فهو صهارته، والصهر تخليص الدهن عن الشحم بالإذابة، وكلّ اشتباك في نسب أو جوار أو تزوّج فهو اصهار.

الهن: على وزن الأخ لفظ يستعمله العرب للشيء القبيح، وربّما يعبّر به عن العورة، وفي الخبر: من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه، يعني: من افتخر بالنسب افتخار الجاهلية فاحملوه على أن يعضّ بما كان قبحاً منه ليذهل به عن الافتخار.

يقال ثالث اثنين: أي صيّرهم ثلاثة، ومعنى ثالث القوم أنه صيّرهم

---

(١) الخليل بن احمد العروضي الفرهودي او الفراهيدي، كما هو المشهور والاكثر في الاستعمال، قال الاصمعي: سألت الخليل بن احمد ممّن هو فقال: من أزد عمان من فراهيد، قلت: وما فراهيد؟ قال: جرو الاسد بلغة عمان، كان الخليل تقيّاً عالماً عاملاً، ذاحلم ووقار وتوفي سنة ١٧٠.

ثلاثة.

يروى نافجاً: بالجيم والحاء المهملة، نفج أي رفع، يقال نفج ثدي المرأة قيصها ينفجها نفجاً اي رفعه، ونفجت الفراريج من بيضها إذا رفعت رؤوسها منه وخرجت، ونفح الشيء بالحاء بسطه، يقال: نفحت الرائحة إذا انتشرت، ونفح الطيب ينفح أي فاح وانبسط، ونفحت الناقة أي ضربت برجلها وانّما كان يبسطها.

الحضن: ناحية الشيء وجانبه، ويقال لما دون الإبط إلى الكشح الحضن.

النثيل: البراز الخارج من الحيوان، وأيضاً التراب المستخرج، ويحتمل أن يكون المراد هنا موضع الروث اطلاقاً لاسم الشيء وإرادة المكان، وهو أولى، ليكون في مقابلة المعتلف الذي هو اسم لموضع الاعتلاف، وإن كان يحتمل أن يكون اسماً لما يؤكل.

الخضم، التوسّع في مضغ الشيء والإكثار منه بأقصى الأضراس، يقول: منه خضم بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر، وقيل: الاكل بجميع الفم.

النبتة: بكسر النون النبات؛ وهي للحالة والكيفيّة.

الربيع: عند العرب ربيعان: ربيع الشهور وربيع الأزمنة، فربيع الشهور: شهران بعد صفر، ولا يقال فيه إلّا شهر ربيع الاول وشهر ربيع الآخر، وأمّا ربيع الأزمنة فربيعان: الربيع الأول: وهو الفصل الذي يأتي فيه النور، وهو ربيع الكلاء، وهو المراد هنا.

والربيع الثاني: هو الفصل الذي يدرك فيه الثمار، وجمع الربيع أربعاء وأربعة، مثل نصيب وأنصباء وأنصبة، والربيع أيضاً المطر في الربيع، يقول: منه ربعت الأرض فهي مربوعة، وأيضاً الجدول، واضافة النبتة اليه قرينة معينة أنّ المراد ربيع الكلاء.

نكث العهد والحبل فانتكث: أي نقضه فانتقض.

قال الأصمعي: أجهزت على الجريح: إذا أسرعت قتله، وقد تممت عليه، ولا تقل أجرب على الجريح، وفرس جهيز اذا كان سريع الشدّ، والإجهاز لا يستعمل إلاّ في إتمام ما بدئ به من الجراح وغيرها.

كبا الفرس لوجهه يكبو كبواً: أي سقط فهو كاب، ومنه قيل: لكل جواد كبوة.

والبطنة: كثرة الأكل وشدّة الامتلاء من الطعام.

راعني الشيء: أي أعجبني، والأروع من الرجال الذي يعجبك حسنه، وقيل أفرعني من الروع بالفتح الفزع، والأول أنسب بالمقام.

ينثالون: أي يسقط بعضهم على بعض في ازدحامهم، من انثال الشيء اذا وقع يتلو بعضهم على بعض، والنثيل نبات ملتف فسقط بعضه على بعض فتخلّل الأرض.

الضبع: معروفة ولا تقل ضبعة، لأنّ الذكر ضبعان والجمع ضباعين مثل سرحان وسراحين، والانثى ضبعانة والجمع ضبعانات وضباع، وهذا الجمع للذكر والانثى مثل سبع وسباع يكنّي عن القهر الشديد بالوطء.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللّهمّ اشدد وطاءك على مضر، وإنّما يعبّر عن البطش الشديد والعذاب الأليم بالوطأة، لأن الوطأة تدوس الشيء بمجامع البدن، واستعمال جميع القوى فيه.

في عطفاي: روايتان: إحداهما: عطافي؛ العطاف: الرداء، يقال: قد تعطّفت بالعطاف أي ارتديت بالرداء، ومنه سمّي السيف عطافاً، وكذلك المعطف بكسر الميم.

الثانية: عطفاي، وعطفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركيه، وكذلك عطفا كل شيء: جانباه، يقال: ثنى فلان عطفه إذا أعرض عنك، والعطف:

الميل، يقال: عطفت اي ملت، وعطفت الوسادة اي أملتها، وهي أشهر.

يقال: قعدوا حوله وحواله وحوليه وحواليه: أي قعدوا من جوانبه، ولا تقل حواليه بكسر اللام.

الربيض: الغنم برعائها المجتمعة في مربضها، والمرابيض للغنم كالمعاطن للابل، واحدها مربض مثل مجلس، والربض ايضاً مأواها، وربوض الغنم مثل بروك الابل، يقول منه ربضت الغنم بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر ربوضاً، قيل: الربضة جماعة الغنم، وقيل مأواها.

نهض الرجل: بالفتح في الماضي والغابر جميعاً نهضاً ونهوضاً أي قام.

مرق السهم من الرمية مروقاً: أي خرج من الجانب الآخر، وبه سمّيت الخوارج مارقة لقوله عليه السلام: يمرقون من الدين كما تمرق السهم من الرمية؛ من الصحاح.

الفسق: الخروج من طاعة الله ورسوله، يقال: فسق الرجل بالفتح في الماضي والضمّ والكسر في الغابر فسقاً وفسوقاً أي فجر، وأصله من فسقت الرطبة أي خرجت من قشرها.

يقال: وعى الحديث أعيه وعياً: إذا حفظه، ومنه قوله تعالى: «وتعيها اذن واعية[1]»؛ أي ضابطة.

يقال: حلى فلان بعيني وفي عيني وبصدري وفي صدري بالكسر في الماضي والفتح في الغابر حلاوة إذا اعجبك، وإنّما يقال لما طاب في العين: حلى في عينه لأنّه من الحلي، وهو الزينة التي تستطيبها العيون، وفي بعض النسخ: حلّيت بتشديد اللام من التحلية: التزيّن.

يقال: راقني الشيء يروقني: أي أعجبني، ومنه قولهم: غلمان روقة وجوار روقة أي حسان، وهو جمع رائق مثل صاحب وصحبة، ويقال لكل شيء له موقع

---

(١) الحاقة: ١٢.

حسن في العيون: رائق.

الزبرج: بكسر الزاء الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك، يقال: زبرج مزبرج أي مزيّن، ويقال أيضاً الزبرج الذهب، وأيضاً الرقيق من السحاب.

فلقت الشيء فلقاً: أي شققته، وقيل: الفالق الخالق، وهو مثل الفاطر، وكلاهما بمعنى الشاقّ، لأنّ كلّ شيء يخلق من شيء فقد انشقّ عنه الشيء الذي خلق منه، فالق الإصباح؛ الفلق: الصبح، لأن الظلام ينفلق عنه.

الحبّة: واحدة حبّ الحنطة ونحوها، وحبّة القلب سويداؤه، ويقال: ثمرته، والحبّة من الشيء: القطعة منه، وعند الإطلاق كان المراد للأول، وبالتقييد يتعيّن الباقي.

برأ الله الخلق: أي خلق، وهو الباري، والبرأة: الخلق.

النسمة: النفس، وإنّ العرب سمّت المهجة نفساً لأنّهم كانوا يرونها من النفس وصعوده وهبوطه، وسمّتها روحاً لأنّهم كانوا يرونها تتروّح، ونسمة لاستنشاق النسيم.

الحاضر: خلاف البادي الغائب، والحاضر الحيّ العظيم، يقال: حاضر حيّ، والمعنيان محتملان، وقيل: يحتمل أن يكون إشارة إلى ما يصيب الإنسان من الشرّ نظراً إلى قوله تعالى: وأعوذبك ربّ أن يحضرون(١)، أي أن يصيبني الشيطان بسوء، وهو جيّد.

الغارب: ما بين السنام والعنق، ومنه قولهم: حبلك على غاربك اذهبي حيث شئت، وأصله الناقة إذا رعت وعليها الخطام ألقي على غاربها، لأنها اذا رأت الخطام لم يمنعها شيء. ألفيت الشيء: أي وجدته، ومنه قوله تعالى: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا. الآية(٢).

---

(١) المؤمنون: ٩٨.

(٢) البقرة: ١٧٠.

المقارّة: إقرار كلّ واحد منهما صاحبه على الأمر وتراضيهما به.

الكظّة: بكسر الكاف شيء يعتري الانسان عن الامتلاء من الطعام، يقال: كظّه كظّاً وكظى هذا الأمر: أي جهدني من الكرب، والمكاظّة: الممارسة الشديدة في الحرب.

سغب: بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر سغباً أي جاع فهو سغبان وساغب، وامرأة سغبى، ويتيم ذو مسغبة أي ذو مجاعة.

أزهد: أي أحقر، الشيء الزهيد أي الحقير لزهادة الناس فيه، ورجل مزهد أي قليل المال. أصل الدنيا دنو فحذفت الواو لاجتماع الساكنين بعد القاء الحركة على الواو لثقلها وسمّيت الدنيا لدنوّها، والجمع دُنى مثل الكبرى والكبر.

العفطة: عطسة الضائنة بأنفها، وكذا نثرة أنفها، قال الجوهري: عفطت العنز تعفط عفطاً: حبقت، والعفط والعفيط نثير الضأن، نثر مانوفها كما ينثر الحمار وهي العفطة، يقولون: ما له عافطة، العافط: النعجة، والنافطة: العنز، لأنها تعفط بأنفها. عن أبي الدقيش، سواد البصرة والكوفة:قراهما، سمّيت بذلك لأنّها ترى من بعيد على لون السواد.

قيل لأن السواد هو المال الكثير، سمّيت بذلك لكثرة ربوعها وغلّاتها وثمارها، ويحتمل أن تكون التسمية لأجل أنّ أكثر الناس الساكنين في القرى عوامّ من سواد الناس أي عوامّهم، وهو وجه جيّد. ناول يناول مناولة أي أعطاه.

أفضيت إلى فلان سرّي: أي أنهيت. هيهات: أي بعد، الشقشقة بالكسر شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه، إذا قالوا للخطيب ذو شقشقة فإنّما يشبهه الفحل. هدر الحمام هديراً: أي صوّت، وهدر البعير هديراً: ردّد صوته في حنجرته.

ثمّ اعلم أنّ هذا التركيب قد صار مثلاً يقال عند كلمة تسقط من غير اختيار ثمّ يمسك المرء عنها، إنّما سمّيت الخطبة شقشقية لاشتمالها على قوله: شقشقة هدرت ثمّ قرّت، ومقمصيّة لاشتمالها على قوله: تقمّصها، فوقع لها اسمان أحدهما:

بالنظر إلى فاتحتها، والأخرى: إلى خاتمتها.

الأسف: أشدّ الحزن، وقد أسف على ما فاته وتأسّف: أي تلهف وهو المراد هنا، والله اعلم.

الاعراب

أما: لافتتاح الكلام، والضمير المنصوب في تقمّصها للخلافة، وان لم تكن مذكورة، لظهورها مثل الضمير في قوله «حتى توارت بالحجاب[1]»، ويحتمل أن تكون مذكورة قبل هذا الكلام، واللام في لقد: جواب القسم، والواو في وأنه: ليعلم للحال، وذو الحال فلان، والعامل فيه تقمّصها، أي تلبّس بها حال كونه عالماً بأنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى.

قوله يهرم فيها الكبير إلى ربه: جمل ثلاث وقعت نعوتاً لطخية، والجملة جاز أن تكون صفة لنكرة عند اشتمالها على ضميرها، وهنا كذلك، الواو في وفي العين قذى وفي الحلق شجى: حالان، وذو الحال الضمير البارز في فصرت، والعامل فيهما صبرت.

يعني: صبرت حال كون عيني فيها قذى وحلقي فيه شجى. تراثي: أوّل مفعولي أرى، ونهباً ثانيهما. إذ أرى هنا بمعنى أعلم. شتّان يعمل عمل الفعل وإن كان اسماً. ويومي مرفوع على أنّه فاعله، ويوم حيان عطف عليه، وما: زائدة، ولذا يقال: شتّان زيد وعمر.

فيا: للندى، والمنادى محذوف للإيجاز، وعجباً نصب على المصدر لفعل محذوف تقديره يا قوم، أو يا أيّها الحاضرون والسامعون اعجبوا عجباً عجباً. وإذ للظرف بمعنى حين. وبينا: أصله بين، اشبعت فتحته فصارت ألفاً، اللاّم في لشدّ للتأكيد، وما مع الفعل بعدها في تقدير المصدر وهو فاعل شدّ، والجملة من تمام

(١) ص: ٣٢.

التعجّب.

أي لصعب وعظم تشطّر ضرع الخلافة بينهما، والضمير في كلمها واخواته للحوزة، والجمل من يغلظ كلمها الى الاعتذار نعوت للحوزة، وحتى في قوله: حتى إذا مضى لانتهاء الغاية هي جعله إيّاها في جماعة زعم أنّه أحدهم.

واللام في لله إنّما فتحت لأنّها للاستغاثة، وفي للشورى إنّما كسرت لأنّها للتعجّب، ومتى للاستفهام على سبيل الإنكار، ونافجاً حضنيه حال من ثالث القوم، وحضنيه مفعوله، وذلك مثل قولك: جاء زيد ضارباً عدوّه او راكباً فرسه، وبين نثيله ومعتلفه متعلّق بقام، وهو العامل فيه، ويخضمون حال من بنو أبيه، والعامل فيه قام الثاني، إليَّ في قوله: والناس اليَّ متعلّق بمحذوف تقديره مقبلون اليَّ.

ثمّ فاعل راعني الجملة على مذهب البصريّين القائلين بجواز وقوع الجملة فاعلاً، وما دلّ عليه الجملة من المصدر على مذهب الكوفيّين المانعين من كون الجملة فاعلاً، تقديره فما راعني إلا إقبال الناس إليّ، نظم هذا التركيب من القرآن قوله تعالى: «ثمّ بداهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين».

وينثالون إمّا خبر ثانٍ لمبتدأ وحال عن راعني، أو العامل في اليَّ تقديره؛ والناس ينثالون اليّ، وهو اولى من تقدير المحذوف، ومجتمعين منصوب على الحال، والعامل فيه ينثالون.

المعاني

والله لقد تقمّصها: جملة لا تقال إلّا فيما إذا كان المخاطب طالباً بالنسبة متحيّرا فيها، وهكذا الحال فإنّه عليه السلام قال لمن تحيّر في أمر الخلافة أهي بالحقّ أم لا، أو نزل العالم بها منزلة المتحيّر، وأنه ليعلم فيه ثلاث فوائد: الأُولى: تنزيل

فلان العالم بالحال منزلة الجاهل المنكر المصرّ، وتنزيل المخاطبين العالمين منزلة المنكرين، ولذا صدَّر الجملة بأنَّ واللام المؤكّدين للتحقيق.

الثانية: انّه قد أورد المعنى المراد في الجملة الفعليّة الدالّة على التجدّد، وعلى ان هذا العلم قد حصل له بالنصّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، وبمشاهدة أفعاله وأقواله المحرّكتين على منوال الاستقامة والعدل.

الثالثة: أنه قد أتى بالفعل للاستقبال بعد ذكر فاعله، ليدلَّ على الاستمرار والثبوت ويجدّد العلم لحظة فلحظة، دلالة قوله تعالى: «الله يستهزئ بهم»، على الاستمرار، وهذه الخواصّ كلّها مؤكّدة للتقمّص مقرّرة لما أنَّ المتقمّص قد عاند علمه وعقله وكابر ربّه ورسوله.

قوله ينحدر: جملة استينافية دالّة على الجواب عمّن سأل عن كمّيّة كون محلّه منها محلّ القطب من الرحى، فكأنّه قال لم كان محلّه كذا، قال مجيباً إيّاه، لأنّه عالم مفيض على من تحته من الناس لا يقدم على الذنوب، يعني عالم معصوم، وستعرف معناه.

الفاء في فسدلت: فصيحة مفصحة عن محذوف هو سبب السدل تقديره؛ تقمّصها وعزم على المخالفة وهدم قواعد الدين، فخفت على انشقاق عصا المسلمين وإثارة الفتن وإطلاع الكفار على ضمائر من دخل تحت الإيمان باللسان، فسدلت، والفاء في فرأيت فصيحة مفصحة عن سبب محذوف هو سبب الصبر.

تقديره طفقت أجيل الرأي من أحدين: إمّا الصبر أو المجادلة، فعلمت أنّ المجادلة مستجلبة للفساد، فرأيت، و «في» فصبرت للسببية الدالّة على أنّ الرؤية سبب الصبر، والباقي إلى قوله هذه النظائر معلوم من القواعد السالفة، والإشارة هنا إلى التحقير، كما في قوله تعالى: «أهذا الذي بعث الله رسولاً».

والألف واللام في النظائر للعهد والمعهود الجماعة التي أشار عليه السلام اليهم بقوله؛ جعلها في جماعة زعم، واللام أيضاً في القوم للعهد والمعهود، والثلاثة

المعروفون في الأذهان، والفاء في فما راعني فصيحة مفصحة عن محذوف تقديره لمّا مات وانقضى عهد خلافته وعزم الناس على البيعة معي، وتوجّهوا إليّ واجتمعوا، فما أفزعني أو ما أعجبني.

والقصر فيه للقلب كأنّه قد نزّل المخاطبين منزلة الحاكمين بانّ إعجابه عليه السلام لأمر آخر وقلب ما حكموا عليه، وقال ليس اعجابي إلّا بواسطة إقبال الناس، ففيه القصر للقلب وتنزيل غير الحاكم منزلة الحاكم للتأكيد، واضافة الدنيا إلى المخاطبين في قوله دنياكم لتحقيرهم وتحقيرها، وبراءة ساحته عن أن يكون ممّن يضاف إليه الدنيا الخسيسة، والباقي ظاهر.

البيان

في تقمّصها: استعارة تخييلية مكنّى بها عن أخذه الخلافة بتكلّف لا باستحقاق، مستلزمة لتشبيه الخلافة وهي معقولة بالقميص، ووجه الشبه: اشتراكهما في التسلّط عليهما وكونهما ممايزين المتخذ وهو عقلي، وتخييلي أنّها فرد من أفراد القميص، وإلّا لم يصحّ جعلها مفعولاً للتقمّص وهو قرينة لها، وفي محلّي منها محلّ القطب من الرحى: قد راعى ثلاثة أنواع من التشبيه:

أ ـ تشبيه محلّه بمحلّ القطب؛ وهو كونه ممّا به نظام أحوال الرحى وهما معقولان، ووجه الشبه: أنّه عليه السلام أعدل الناس وأثبتهم على الجادّة المستقيمة؛ بحيث يجب الرجوع إليه وأحقّهم قياماً في رعاية السياسة وما يتعلّق بالخلافة، كما أنّ القطب أعدل المحالّ وأقومها من الرحى، ونسبته إلى دوران الرحى أحسن النسب، وكلّ الخطوط إلى أجزاء طرفه متساوية، وهو أيضا عقلي.

ب ـ تشبيه نفسه بالقطب وهما محسوسان، ووجه الشبه: أنّه عليه السلام ممّن يراعي نظام أُمور الخلق ويجمع أحوالهم المتفرّقة، كما أنّ القطب يراعي نظام دوران الرحى، وهوعقلي.

ج- تشبيه الخلافة وهي عقليّة بالرحى وهي محسوسة، ووجه الشبه: أنها ممّا يحفظ الناس أن يتطرّق إليهم الخلل في المعاد، كما أنّ الرحى ممّا يراعيهم أن يتطرّق إليهم الخلل في المعاش، وهو عقلي.

في قوله ينحدر عنّي السيل: استعارتان احداهما: استعارة تخييلية مرشّحة مكنّى بها عن علوّ منزلته، والثانية: استعارة أيضاً تخييلية مرشّحة تصريحيّة المراد بها عظم شأنه في العلوم السياسية، أمّا الاولى: فهي مستدعية لتشبيه نفسه عليه السلام بالجبل وهما محسوسان، ووجه المشابهة: العلوّ والرفعة، وهو عقلي، والتخيّل أنّه عليه السلام فرد من أفراد الجبل، وإلّا لم يصحّ عنّي بعد ينحدر.

أمّا الثانية: فهي مستدعية لتشبيه العلم بالسيل، وهو محسوس، ووجه المشابهة: شدّة النفوذ واللطافة وافتقار الناس إليه، وهو عقلي، وهذا تشبيه مأخوذ من قوله تعالى: «أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها[1]»، وذلك لأنّه قد أطلق الماء وأراد العلم على سبيل الاستعارة باتّفاق أكثر المفسّرين، وبقوله ينحدر رشّح الاستعارتين لأنّ الانحدار لا يكون إلّا من الموضع العالي، ولا يقع نعتاً إلّا للماء وشبهه من الأجسام السيّالة.

في قوله لا يرقى اليّ الطير: استعارة واحدة تخييلية مكنّى بها عن غاية ارتفاعه وعلوّه إن أجرينا الطير على حقيقته، وإن قلنا أنّه عبارة عن الذنب ففيه استعارة تخييليّة تصريحيّة المراد بها: أنّ الذنب لا يتوجّه اليه.

أمّا الاولى: فما ذكرنا، وهي مستلزمة لتشبيه نفسه عليه السلام بالجبل الشامخ، وهما محسوسان، ووجه المشابهة ما ذكر عليه السلام وهو: أن لا يرقى إليه الطير لغاية علوّه، وبه رشّح الاستعارة.

وأمّا الثانية: فهي مستدعية لتشبيه الذنب وهو معقول، بالطير وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الصعود إلى جهة الفوق، وهو عقلي، وهذا

---

(١) الرعد: ١٧.

التشبيه مأخوذ ممّا قال الله تعالى: «وكلّ انسان ألزمناه طائره في عنقه[١]»، حيث ذكر الطائر مريداً به الذنب الّذي يؤاخذ به.

في فسدلت دونها ثوباً: استعارتان مكنّى بها، مستدعية لتشبيه الخلافة بالأمر المحسوس الّذي يصلح لأن يحجب ويجب احتجابه لئلاّ يطّلع عليه أحد، ووجه الشبه :انّها... [٢] ممّا يجب أن يسترها بالسكوت عليها، لكونها قد وقعت في يد من لا يليق بها، كما أنّ المرأة الحسنة مثلاً يجب أن يسترها بالحجاب الحسّي حذراً من اطّلاع الأجانب عليها.

الثانية: استعارة تصريحيّة المراد بها السكوت وهما معقولان، بالستر الذي يمدّ دون الشيء، ووجه الشبه: اشتراكهما في المنع من الاطّلاع، وقد رشّحها بقوله فسدلت، حيث أطلق على الشبه ما هو من لوازم المشبّه به، وفي طويت عنها كشحاً: استعارة أيضاً مكنّى بها عن الإعراض، مستدعية لتشبيه الخلافة بالمأكول.

ووجه الشبه:اشتراكهما في رغبات الناس إليها، وهو عقلي، ولتشبيه هيئة الإعراض عنها والسكوت عليها مع افتقاره إليها، وكونها ملائمة لحاله رعاية لمصلحة الناس، بهيئة إعراض الجائع عن المأكول اللذيذ الّذي يسدّ المجاعة نظراً إلى المفسدة المشتملة عليها، ووجه الشبه ظاهر ممّا ذكرنا، وهو عقلي.

في يد جذّاء: استعارة تخييليّة تصريحيّة المراد بها عدم الناصر، مستدعية لتشبيه عدم الناصر باليد المقطوعة، ووجه المشابهة: أنّ عدم النصر مستلزم لعدم القدرة التامّة والتصرّف الكامل فيما توجّهت الإرادة اليه، كما أنّ قطع اليد مستلزم لعدم القدرة على البطش ما أراد وشيّأ[٣].

في طخية عمياء: استعارة ايضاً تصريحية المراد بها التباس الأمور وتشقّق

---

(١) الإسراء: ١٣.

(٢) بياض في الاصل.

(٣) كذا.

عصا الإسلام، مستدعية لتشبيه اختلاط الأحوال وتشتّت الأقوال والأفعال بالظلمة، وهما معقولان، ووجه الشبه: أن الأُمور إذا اختلطت، والأحوال إذا اضطربت، لا يهتدى فيها إلى الحقّ وكيفيّة السلوك إلى الله تعالى، كما أنّ الظلمة لا يهتدى فيها إلى النور، وهو عقلي، ثمّ بوصفه عليه السلام الطخية بالعمياء راعى أيضاً استعارة مكنّى بها عن شدّة الظلمة مستدعية لتشبيهها بالأعمى.

ووجه الشبه: أنّ المتمسّك بظلمة الفتنة لا يهتدي لنور الحقّ، ولا يتبيّن له الطريق المسلوك إلى المقصد، كما أنّ المتمسّك بالأعمى لا يهتدي إلى الطريق النافذ إلى المطلوب، وهو عقلي. قوله وفي العين قذى، وفي الحلق شجى: كنايتان عمّا قال: من شدّة الصبر وتحمّل الأذى منهم، ووصول الغبن اليه بسبب ما يرى أنّه أولى به من غيره، وهما في العرف من لوازم الغبن والحزن الشديد. ومضى لسبيله: كناية عن الموت فإنّه سبيل لازم لكلّ إنسان، والمضيّ فيه من لوازم الموت.

اختلف الشارحون في بيان تمثّله عليه السلام بقول الأعشى على أقوال ثلاثة، ولكن إنّما يتبيّن البيت بتحقيق أولاً، وإن لم يكن موضعه، لكنّ الضرورة تجوّز ما لا يجوز.

إعلم أنّ قائل هذا البيت الأعشى واسمه ميمون بن جندل من بني قيس أنشأ قصيدة، يمدح بها عامراً، ويهجو علقمة، منها هذا البيت، وكان حيّان وجابر أخوَي ابنى السمير بن عمرو من بني حنيفة، وكان حيّان رجلاً عظيم الشأن، صاحب حصن باليمامة، سيّداً مطاعاً ينادمه الأعشى مصوناً من مشاقّ السفر وكآبة المنقلب، لأنّه لعامّة تنعّمه لا يسافر أبداً، وكان جابر أخوه رجلاً دنيّاً خسيساً ممّن يعرف باخوة حيّان لا لمن كان يعرف باخوته.

فعى البيت: أنّ يوم حيّان كان يوم نعمة مصفّاة عن كدورة التعب والنصب، ويومه على كورها كان يوم اضطراب لا قرار فيه وتعب لا راحة فيه، وقيل: معناه أنّ يوم حيّان كان يوم نعمة مكدّرة بوجود جابر، ولكن كان مع

البؤس راحة، ويومه على كورها كان يوم أتعاب مشاقّ السفر ومكائده، وركوب الناقة، وزحمة السير.

وحيّان وزير النعمان بن منذر كان محسناً إلى الأعشى، ويروى أنّ حيّان عتب على الأعشى، حيث عرّفه بأخيه جابر وقال: أتعرّفني باخوة،فأعذر إليه الأعشى بانّ القافية قد ساقته إلى ذلك، فلم يقبل عذره، واذا عرفت معناه فنقول:

قال السيد المرتضى(١): أراد بذلك أنّ القوم لمّا فازوا بمآربهم، وظفروا بمطالبهم، وحصل ما كان منتهى أمانيّهم، وهو عليه السلام في ذلك كلّه محقّ في حقّه، مكدّ في نصيبه، كان بين حالهم وحاله بون بعيد واختلاف شديد، واستعار لفظ اليومين وكنّى بهما عن حالهم وحاله، وشبّه حالهم بيوم حيّان.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الاشتمال على حصول المطالب والفوز بالمآرب وخفض العيش والدعة، وهو عقلي، وشبّه حاله عليه السلام بيومه على كور الناقة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاشتمال على المتاعب والمضائق والغصّة والتعب.

قيل: إنّه عليه السلام كنّى بهما عن اليوم الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، واليوم الذي فارق رسول الله عنهم وهو معهم، ووجه المشابهة: ما اشتمل عليه يوم الرسول عليه السلام ويوم حيّان على المسارّ والراحة والاستلذاذ بالملاذّ الشهيّة الجسيمة، وما اشتمل عليه يوم المفارقة ويومه على كورها على المشقّة والتعب، وهو جيّد.

قيل: شبّه تباعد ما بين اليومين؛ يوم الاستقالة ويوم الاستنابة، بتباعد ما بين اليومين، ووجه المشابهة ما ذكرنا وإن كان فيه بعد، قلت: ويحتمل أن يكون

---

(١) علي بن الحسين بن موسى أبوالقاسم ذو المجدين المشهور بالسيد المرتضى، والمعروف بعلم الهدى؛ جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، وحاز من الفضائل ما تفرّد به وتوحّد، وأجمع على فضله المخالف والمؤالف مجمع على فضله، مقدّم في العلوم مثل علم الكلام والفقه والأدب والنحو، وفضائله كثيرة، ومناقبه وآثاره مشهورة، وكتبه معروفة، توفي سنة ٤٣٦.

عليه السلام شبّه يوم عهده مع رسول الله ومصاحبتهم بيوم حيّان مع وجود جابر، ووجه المشابهة: أنّ صحبة رسول الله صلّى الله عليه وآله قد جبرت ما أصابه من مصاحبتهم، كما جبر منادمة حيّان ما أصابه من صحبة جابر.

وشبّه يوم مفارقة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيومه على كورها، ووجه المشابهة: أنّ مصاحبتهم عند المفارقة مستلزمة للبؤس بلا راحة، وللمتاعب بلا مطالب، يعني لمحض المشقّة، كما أنّ يومه على كورها مشتمل على محض التعب والنصب، وهو جيّد.

تشطّرا ضرعيها: استعارة تصريحية تخييلية مستلزمة لتشبيه الخلافة وهي معقولة، بالناقة وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الانتفاع الحاصل منهما، وهو عقلي، ويخيّل أنّها فرد من أفراد النوق ليصحّ إضافة الضرع إليه، وهنا أيضاً استعارة أخرى مستدعية لتشبيه هيئة تشطّر الخلافة وجعلها إيّاها هنا صفة مع كونهما ليسا بمستحقّين لها، بهيئة تشطّر الحالبين اللذين لا استحقاق لهما أخلاف الناقة، ووجه الشبه: عدم استحقاق المشطّرين والشّدة على من يعتقد أنّه احقّ، وإليه أشار بقوله: لشدّ، وهي لطيفة.

في حوزة خشناء: استعارة مكنّى بها عن خشونة طباع الثاني المستلزمة للأذى، مستدعية لتشبيه الطباع وهو معقول، بالجانب الخشن وهو محسوس، ووجه الشبه: أنّ الطبع يتنفر من مصاحبته ويتأذّى بكلامه، كما يتأذّى الرجل بجوار الخشن، وهو عقلي. وفي يغلظ كلمها: استعارة تخييلية مكنّى بها عن غلظ المواجهة بالكلام وإيذاء الناس، مستدعية لتشبيه الكلام الوحش المؤذي بالجرح، ووجه الشبه: اشتراكهما في الأذى الحاصل منهما، ومن ثمّ قيل:

جراحات السنان لها آلتئام ٭ ولا يلتام ما جرح اللسان

في يخشن مسّها: استعارة أيضاً مكنّى بها عن سوء خلقه وخشونة طبعه، مستدعية لتشبيه هيئة المصاحبة معه والمخالطة، بهيئة مسّ الجسم الخشن، ووجه

الشبه: اشتراكهما في الأذى اللازم منهما، وهذا تشبيه المركّب. وقوله يكثر العثار والاعتذار: كناية عن كثير خطئه في الأحكام، فإنّ الاعتذار من لوازم العود إلى الصواب بعد الخطأ. قوله: فصاحبها كراكب الصعبة إلى تقحّم: فيه ثلاث احتمالات:

الأوّل: وهو أوفق لكلامه عليه السلام وأليق به، وتقريره أن يقال إن الضمير في صاحبها عائد إلى الحوزة المنعوتة، ومعناه: أنّ المصاحب لتلك الطبيعة الخشنة في حسن مداراتها ورعايتها عن أن لا تنحرف عن الجادّة المسلوكة، مثل الراكب على الناقة الصعبة، ووجه الشبه: أنّ المصاحب لها مع صعوبة مداراتها متردّد بين أمرين:

إمّا أن يكثر الإنكار عليها بحسب كلّ فعل قبيح يصدر عنها، ويدعوها إلى الطريق الحسن، فيفضي ذلك إلى كلفة المشقّة وفساد الحال بينهما، أو يسكت على كلّ ما شاهد منها من الأفعال القبيحة والأقوال السمجة، فيؤدّي ذلك السكوت الى الاخلال بالواجب المستلزم للاقتحام في الهلاك الأبدي، كما انّ راكب الناقة الشديدة مع افتقاره إلى المشقّة العظيمة في مداراة أحوالها متردّد بين أحد خطرين: إمّا أن يتابع بين جذبات الزمام في أنفها، فيفضي إلى قطع أنفها، أو يرخي زمامها وطبيعتها فتقحم صاحبها الراكب إلى موارد الهلاك، وهو عقلي مركّب، و بالحقيقة هذا تشبيه المركّب بالمركّب، فقد ذكر أركان التشبيه من المشبّه وهو فصاحبها، والمشبّه به وهو راكب الصعبة، وحرف التشبيه وهو الكاف، ووجه الشبه وهو المشار اليه بقوله: إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم.

الثاني: أو هو الأظهر، وتقريره أن يقال: إن الضمير عائد إلى الخلافة، أراد صاحبها المتولّي لأمر الخلافة الراعي لقواعد العدل فيها، يعني أنّ من تولاّها وأراد أن يؤسّس قانون العدل ويجريه بين الخلق كان كراكب الصعبة.

ووجه الشبه: إنّ المتولّي إن أفرط في حمل الخلق على رعاية مراتب الحقّ، وملازمتهم حاقّ الوسط، وسلوكهم الصراط المستقيم، وبالغ في الاستقصاء عليهم في طلبه، نفر أكثر الخلق منه، وتفرّقوا عنه، وفسد الأمر عليهم، لميل أكثرهم إلى حبّ الباطل، وغفلتهم عن فضيلة الحقّ.

فيكون كمن بالغ في جذب زمام الناقة التي هو راكبها حتّى خرم أنفها، وإن فرط في حفظ شرائطها، وأهمل أمرها، ألقاه التفريط في موارد الهلكة، كراكب الصعبة إذا أرخى قيادها وخلّاها وطبيعتها ألقته الى مهاوي الهلاك ، وهو أيضاً تشبيه في غاية اللطافة.

الثالث: هو الحقّ، وتقريره أن يقال: الضمير أيضاً عائد إليها، وأراد بصاحبها نفسه عليه السلام، يعني: حالي بالنسبة إلى الخلافة كحال من ركب الصعبة، ووجه الشبه انّه إن سكت عنها وقعد عن طلب هذا الأمر والقيام بها، لأفضى إلى إيراد نفسه بالعنف موارد الذلّ والصغار، كإيراد الراكب نفسه في موارد الهلاك إن أسلس لها قيادها، وإن قام بطلبها وشدّد عليهم فيه، انشقّت عصا المسلمين، وتشعّبت آراؤهم، فيكون كمن شدّد في جذب الزمام حتى خرم انفها.

في خبط: أيضاً استعارة مكنّى بها عن عدم جريان أفعاله وحركاته على الطريق الواجب أن تكون هي عليه، مستلزمة لتشبيه أفعاله وحركاته بحركات البعير وأفعاله إذا سلك غير الجادّة، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الانتظام. وفي شماس: أيضاً استعارة مكنّى بها عن سوء خلقه وعدم موافقته لأمره، مستدعية لتشبيهه بالفرس الشموس، ووجه الشبه: عدم استقامتها على الجادّة المسلوكة وانقيادهما لقائدهما.

في اعتراض: أيضاً استعارة مكنّى بها عن عدم ثباته على أوامر الرسول عليه السلام، الذي هو قائد الخلق إلى سلوك الصراط المستقيم، مستدعية لتشبيهه بالفرس الذي لا يستقيم لقائده، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الانقياد للقائد.

وفي أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا: استعارة تخييلية مكنّى بها عن موافقته إيّاهم فيما اقتضت آراؤهم، مستدعيـة لتشبيه حاله وحالهم، بحال الطائر التابع لطائـفة من الطير في النزول إلى المكان الدنيّ والصعود بالطيران.

وجه الشبه: انّه قـد ترك اختياره، ونزل على وفق نزولهم، وصـعد على وفق صعودهم، كما أنّ الطائـر التابع تبـعها في الإسفاف والطـيران، وهو عقلي، والتخيّل أنّه بمنزلة طائر ضعيف تابع لطيور قويّة وفرد من أفرادها.

قام ثالث القوم: كناية عن حركته في الخلافة وتلبّسه بها.

وفي نافجاً حضنيه: راعـى استعارة تخييليّة مكنّياً بها عـن التهيّـؤ في تفريق مال المسلمين والتنعّـم فيه، مستدعية لتشبيه بالبعير الذي أكل كثيراً، ووجه الشبه: اشتراكهما في انتـفاخ جنبيـه بكثرة الأكل والشرب، وهو عقلي، وإنّما قلنا ذلك لأنّ نفج الحضنين حقـيقة في البعير إذا تـوسّع في الأكل، وقيل: هـو كناية عن الـتكبّر، وقد عرفته في اللغة.

في قوله بين نثيله ومعتلفه: راعى استعارة تخييليّة مكنّياً بها عن أنّ قيامه بها للتوسّع في المطـعم والمشرب والتنـعّم دون ملاحظة أمور المسلمين، مستدعية لتشبيهه بالبهائم، وهما محسوسان، ووجـه الشبه: أنّ اكبر هـمّـه في القيـام بـالترفّـه والأكل والشرب، كما أنّ البهائم لاهمّ لهـا أكبر من أن تعـيش بين أكل وروث، وهو عقلي، وتخييل أنّه فـرد من أفراد البهائم بحيـث لا حظّ له بالكلّـيّة من الإنسانية، فضلاً عن فضائـلها، ليصحّ نسبة النثيل والمعتلف اللذين من أوصاف البهائم خاصّة إليه.

في يخضمون مال الله خضم الإبل نبـتة الربيع: راعى تشبـيه هيـئة أكلهم أموال المسلـمين والتوسّع فيها بهيـئة أكـل الإبل نبـتة الـربيع، ووجـه الشبه: أنّهم يـستـلـذّون أكـلـها و يستكثرون منها، بعد بؤسهم وفقرهم واحتياجهم إلى ما يسدّ رمـقـهـم، و يـطيب في أنفسهم نضارتها وطراوتها بحيث يشغلهم عن أمور الآخرة، ورعاية ما هو الواجب في الدين.

لئلاّ يقع في الهلاك الأبدي، كما أنّ الإبل تستلذّ نبت الربيع وتستكثر أكله بشهوة صادقة، عقيب يبس الأرض وطول مدّة الشتاء، وشدّة افتقارها إلى ما يسدّ رمقها وكثرة جوعها، وتملأ منها أحناكها، وأعجبتها نضارته بحيث أشغلتها عن رعاية ما يصلح مزاجها، ويحفظ نفسها، حتى أكثرت الأكل منه وهلكت بها، وهو عقلي.

هذا تشبيه المركّب بالمركّب، فقد ذكر المشبّه والمشبّه به، وأعرض عن حرف التشبيه للمبالغة فيه، ووجه الشبه: لئلاّ يفضي إلى الإطناب.

وفي قوله إلى أن انتكث عليه فتله: استعارة تخييلية مرشّحة مكنّى بها عن رجوع ما استند به من التدابير إليه بالفساد والهلاك، مستلزمة لتشبيه هيئة ما يجمع عليه من الرأي والتدبير، وما استند به، دون الرجوع إلى الصحابة، بهيئة برم الحبل.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الاجتماع، وتخييل أنّها فرد من أفراد هيئة الفتل الذي هو حقيقة في برم الحبل، وإلّا لم يصحّ قيام الفتيل مقامها، ويذكر الانتكاث الذي هو من أوصاف المشبّه به، وعليه رشّح الاستعارة.

قوله أجهز عليه عمله: مشتمل على استعارة مرشّحة في الإفراد ومجاز في التركيب، أمّا الأولى: فهي مستدعية قتله بالقتل المسبوق بجرح وإثخان ونحوه الذي هو مفهوم الإجهاز، ووجه الشبه: أنّه قبل قتله قد أسرعت اليه أسنّة الألسنة وطعن بحداد سيوفها، كمن قتل بعد أن طعن بالرماح وجرح بالسيوف، وهو عقلي، وبإطلاق الإجهاز عليه رشّحها.

أمّا المجاز في التركيب فلأنّ إسناد الإجهاز إلى عمله ليس حقيقة، لأنّه قد صدر عن القاتلين، ولكن لمّا كان عمله هو السبب الحامل صحّ الإسناد اليه، إقامة للسبب الحامل مقام السبب الفاعلي، وقد عرفت أنّه من أحسن وجوه المجاز.

قوله وكبت به بطنته: مشتمل على استعارة تخييليّة، مكنّى بها عن أنّ ارتكابه للأُمور المذمومة من التنعّم والترفّه في المطعم والمشرب، والتوسّع ببيت مال

المسلمين، صار سبباً لقتله، مستدعية لتشبيه بطنته التي هي كناية عن كثرة الأكل من مال المسلمين، بالفرس المركوب، ووجه الشبه: أنّه مدّة خلافته متمكّن عليها مستمرّة، وهي تنقله من تدبير إلى تدبير وأمر إلى أمر، يعني كان مطيعاً لها منقاداً.

كما أنّ الراكب متمكّن على المركوب وهو ينقله من مكان إلى مكان، بحيث سلّم حركته بالكلّيّة إليه، وفوّض سيره اليه، وهو عقلي، وتخييل أنّها فرد من أفراد المركوب، وإلّا لما صحّ إسناد الكبو الذي هو حقيقة في الحيوان إليها، وذلك مثل نطقت الحال بكذا، وهو تركيب في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة، لا يلتقط فحواه إلّا المتدرّب بعلم البيان.

اللهمّ زدنا اطّلاعاً على حقائق كلامه عليه السلام، قد شبّه عليه السلام هيئة إقبالهم عليه من كلّ جانب في ازدحامهم، بهيئة ازدحام عرف الضبع.

قوله: والناس إليّ كعرف الضبع، ووجه الشبه: أنّهم حال إقبالهم عليه عليه السلام متتابعين يتلو بعضهم بعضاً من قيام مزدحمين، كما أنّ الضبع عرفها ذو شعر كثير قائم مزدحم، وهذا تشبيه المركّب، ووجه الشبه ايضاً مركّب من عدّة أمور.

في قوله مجتمعين حولي كربيضة الغنم: قد شبّه اجتماعهم حوله عليه السلام باجتماع الغنم في مربضها، ووجه الشبه: أنّهم غير متفطّنين ممّا هو الأصلح لهم، غافلون عمّا هو اللائق بهم، غير مراعين قواعد الأدب والاحترام، في هيئة اجتماعهم عليه، كما أنّ الغنم لا تتفطّن لما هو صالح لها، ولا تراعي الأدب، والعرب تصف الغنم بالغباوة وقلّة الفطانة، وهذا أيضاً مثل الأوّل بعينه.

في قوله كأنّهم لم يسمعوا الله للمتقين: شبّههم بمن لم يسمع هذه الآية، ووجه الشبه: عدم عملهم بمقتضاه والإعراض عنه. في قوله لألقيت حبلها على غاربها: استعارة تخييليّة مكنّى بها عن الأعراض، مرشّحة مستدعية وهي معقولة، لتشبيه الخلافة بالناقة، وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الانتفاع الحاصل

منها وتخييل أنّها فرد من أفراد النوق، وإلّا لما صحّ إضافة الغارب إليها، وبالقاء الحبل على الغارب رشّح الاستعارة.

قوله كظّة ظالم: كناية عن قوّة ظلمه، وسغب المظلوم: كناية عن قوّة الظلامة. في قوله ولسقيت آخرها بكأس أوّلها: استعارة تخييلية مرشّحة مكنّى بها عن الإعراض عنها آخراً كالاعراض عنها أوّلا، مستدعية لتشبيه إعراضه بالسقي بالكأس، ووجه الشبه: أنّ إعراضه عليه السلام عنها مستلزم لوقوع الناس في الحيرة والضلالة، بحيث لا سبيل لهم إلى الخلاص، كما أنّ السقي بالكأس مستلزم للشكر الذي يوجب الحيرة والضلالة في الطريق.

البديع

في ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير: المقابلة؛ حيث قابل الانحدار بالرقيّ، والمتوازن؛ حيث قابل السيل بالطير، كما بين ثوباً وكشحاً، وبين الكثير والصغير: المتوازي والترصيع والمقابلة، وبين شجى وقذى: المتوازي، وفي تمثّل ارسال المثل، وبين المدّة والمحنة: المتوازي، وبين الضغن والصهر: المتوازن، والباقي معلوم من القواعد السالفة.

الفحوى

إعلم أنّ الخوض في لبّ هذه الخطبة، وكشف الغطاء عن نفائسها، مسبوق بتقديم مقدّمة وهي: أنّ المسلمين قاطبة اختلفوا فيما صدر عنه عليه السلام في معنى التظلّم من أمر الإمامة، وشكايته عليه السلام ممّن تولّاها دونه، مثل هذه الخطبة وغيرها من كلامه عليه السلام المصبوب في هذا القالب على مذهبين: أحدهما: ادّعاء التواتر فيه؛ وهو مذهب الشيعة المدّعين أنّ جميع ما اشتمل من كلامه على التظلّم منقول عنه عليه السلام بالتواتر.

الثاني: إنكار صدوره عنه عليه السلام؛ وهو مذهب أهل السنّة المدّعين أنّ عليّاً عليه السلام ما شكى منهم أصلاً، بل وافقهم موافقة عن صميم الاعتقاد، وأكثرهم ينكرون هذه الخطبة أصلاً، ويقولون إنها من كلام السيد الرضيّ رضي الله عنه، والإنصاف أن نقول: المنكرون إن أرادوا بالإنكار تسكين عقائد العوامّ، وتخميد نار الفتنة بينهم، واتّقاء التعصّبات المذهبة لبهاء الإيمان، المسوّدة لصفائح القلوب، المكدّرة إيّاها، ليستقيم أمر الدين، ولا تنشقّ عصا المسلمين، ولا يفسدوا عقائدهم بالاولين الذين بذلوا مجهودهم أوّلاً في أمر الدين، وأفنوا طاقتهم في تقويم عمود اليقين، فيقفوا إثرهم في متابعة الرسول على بذل الأموال والأولاد، فهو مقصد لطيف.

وعندي: لا يجوز أصلاً الطعن في آحاد الصحابة الّذين حصل لهم كرامة مجرد الصحبة، فضلاً عن أساطينهم وأشرافهم، فإنه يفضي إلى هدم قواعد الدين، وذلك لأنّ المعتقد بجالهم إذا سمع الطعن في حقّهم اجترأ في الطعن في آل محمد عليهم السلام والإنكار عليهم.

فيقع الهرج والمرج في الدين، ونشر الفتن في الناس، ويعرض أكثرهم عن القيام بأوامر الله والقبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجّه إليها، ومن ثمّ أوجب الأئمّة المعصومون عليهم السلام التقيّة والسكوت عمّا انطوت عليه العقيدة.

وإن أرادوا به النفي بالكلّيّة، وعدم الخلاف بينهم أصلاً، فهذا مذهب ظاهر البطلان، لا يعتقده إلّا الجاهل بالتواريخ والكتب المؤلّفة في الأخبار والآثار عن الصحابة، فإنّ أمر السقيفة وما جرى من الصحابة، وتخلّف علي عليه السلام عن البيعة بيّن لا يرفع، ومكشوف لا يتقنّع، منهم من ذهب إلى أنّه لم يبايع أصلاً، ومنهم من ذهب إلى أنّه بايع بعد ستّة أشهر كرهاً مدّة حياة فاطمة عليها السلام، على ما أورده الجعفيّ البخاري في صحيحه.

منهم من قال أنّه بايع بعد أن قعد في بيته مدّة، وبالجملة المناقشة بينه

وبين من تولّى أمر الخلافة ثابتة بالتواتر المعنويّ، فحينئذ لا يبق لإنكار هذه الخطبة ونسبتها إلى الرضي معنى، على أنّها قد اشتهرت بين العلماء قبل الرضي بزمان كثير.

روي عن مصدق بن شبيب النحويّ (١) قال: لمّا قرأت هذه الخطبة على شيخي أبي محمد الخشّاب، ووصلت إلى قول ابن عبّاس: ما أسفت على شيء قطّ كأسفي على هذا الكلام، قال: لو كنت حاضراً لقلت لابن عبّاس: وهل ترك ابن عمّك في نفسه شيئاً لم يقله في هذه الخطبة، فإنّه ما ترك لا للأوّلين ولا للآخرين.

قال مصدق: وكانت فيه دعابة فقلت له: يا سيّدي فلعلّها منحولة إليه، قال: لا والله إني أعرف أنّها من كلامه، كما أعرف أنّك مصدق، قال: فقلت له: إنّ الناس ينسبونها إلى الشريف الرضي، فقال: لا والله، ومن أين للرضي هذا الكلام وهذا الأسلوب، فقد رأينا كلامه في نظمه ونثره لا يقرب من هذا الكلام، ولا ينتظم في سلكه، على أنّي قد رأيت هذه الخطبة بخطوط العلماء الموثوق بنقلهم من قبل أن يخلق ابو الرضي، فضلاً منه.

قال ابن الميثم البحراني رحمة الله عليه: وقد وجدتها في موضعين هما قبل وجود الرضي: أحدهما: كتاب الانصاف لأبي جعفر بن قبة؛ تلميذ أبي القاسم الكعبي أحد شيوخ المعتزلة، وكانت وفاته قبل مولد الرضيّ، والثاني: أنّي وجدتها بنسخة عليها خطّ الوزير أبي الحسن عليّ بن محمّد الفرات، وكان وزير المقتدر بالله، وذلك قبل مولد الرضيّ بنيّف وستّين سنة، والغالب أنّ هذه النسخة كانت كتبت قبل وجود ابن الفرات بمدّة.

إذا عرفت ذلك فلنرجع الى فحوى الألفاظ المشكلة فيها. قوله لقد تقمّصها فلان وانّه ـــ إلى الرحى ـــ: يعني: قد تلبّس أبوبكر على ما هو مصرّح به في بعض

---

(١) مصدق بن شبيب بن الحسين الواسطي؛ ذكره في انباه الرواة (٣: ٢٧٤) وقال: انّه قدم بغداد وقرأ بها على ابن الخشّاب، وحبشي بن محمد الضرير، وعبدالرحمان بن الأنباري، اوغيرهم، توفّي ببغداد سنة ٦٠٥.

النسخ، وقال الشارحون: أرادبه الخلافة وأخذها سريعاً، حال كونه عالماً انّ نظام الخلافة تدبيري ورأي، وانتظامها إنّما يتحقّق بي الرحى بالقطب.

قوله ينحدر عنّي السيل ولا يرق اليّ الطير: إشارة إلى بيان الموجب لكونه مدارها، وتقريره أنّ المتصدّي لمنصب الخلافة مفتقر إلى أمرين لابدّ منهما: أحدهما: وجودي؛ وهو العلم بكيفيّة السياسات والتدابير، ورعاية النواميس الإلهيّة المستفادة من التأييد الإلهي والألطاف السماويّة والآثار العلويّة.

فأشار بقوله ينحدر عنّي السيل: إلى أنّ العلوم الجمّة التي بها صلاح العالم والبلاد، ونظام احوال العباد في المعاش والمعاد، من سماء الجود الإلهي الذي لا يخلّ فيه، ينزل عليّ دائماً ثمّ ينحدر عنّي إلى المتعطّشين إليها المحتاجين اليها في التمسّك بما يهديهم إلى الصراط المستقيم، بحسب استعداداتهم المختلفة على ما ينبئ عنه قوله تعالى:

فسالت أودية بقدرها، وبقوله ينحدر: إشارة إلى أنّ الإفاضة منه لازمة لا يخلّ فيها، كما هي من الفياض على الإطلاق، وذلك لأنّ الانحدار لا يكون إلّا من الموضع الصاعد المنحدر منه بالطبع طالب للسفل.

قوله السيل: إشارة إلى الكثرة، وإلى أنّ من أعدّ نفسه لقبول علومه وتشبّث به، أفاض عليه من حيث لا يحتسب علوماً جمّة، والآخر: عدمي؛ وهو أن لا يصدر منه ذنب أصلاً، بان لا يلتفت إلى شيء سواه، ولا يقصد إلى ذنب أصلاً صغيراً كان أو كبيراً، لئلّا يحتاج إلى زاجر آخر يزجره عن المعصية ويفضي إلى التسلسل، وهو المعبّر عنه بالعصمة، وإليه أشار بقوله: ولا يرق اليّ الطير: أي لا يتوجّه اليّ ذنب من الدنيا، ولا يصعد شيء اليّ من ظلمة التعلّق بالأمور الفانية.

هو معنى في غاية اللطافة ونهاية النفاسة، ومن فسّره بالكناية عن العلوّ والارتفاع وغايته فقد بقي في مطمورة القشر، وما تنقط[1] للقطع الذي أقدم

(١) كذا.

عليه السلام عليه والدالّ على الاستيناف، فافهم هذا فإنّه نفيس شريف جدّاً لا غبار عليه ولا مزيد.

قوله فسدلت دونها إلى كشحاً: يعني أرخيت بيني وبينها حجاب الإعراض لئلّا يطّلع على سرّها من تشبّث بظاهر الدين، ولا يفسد الاعتقاد بأعاظم الصحابة، فتخلّ قواعد الدين، وعدلت عن جهتها، وقطعت النظر عنها، فإنّ من عدل عن جهته، فقد طوى كشحه عنها.

قوله طفقت إلى طخية عمياء: يعني أخذت أرى لنفسي ما هو أصلح لها وأوفق، وأردّد وأفكّر بين أحد أمرين: إمّا أن أصول على من تلبّس بها دوني، أو أعرض عنها، وفي كلّ واحد منهما فساد وخطر، أمّا الأوّل: فلأنّ القيام بالطلب من غير وجود ناصر مشوّش لأحوال المسلمين من غير جدوى، ومجلب للتعب إلى نفسه ربما يفضي إلى إلقائها إلى التهلكة، وهو منهيّ عنه بقوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة[1]».

أما الثاني: فلأنّ الصبر عليها والإعراض عنها مستلزمان لمشاهدة التباس أُمور المسلمين واختلاطها، وامتزاج الحقّ بالباطل، بحيث يفضي إلى رفع التميّز بينهما عند الأكثرين، وتلك صعبة على الآخذ بالحقّ الملازم على طريقه، ثمّ ذكر لتلك المشاهدة والفتنة أوصافاً ثلاثة:

الأوّل: يهرم فيها الكبير.

الثاني: يشيب فيها الصغير؛ وهما كنايتان عن طول مدّة الفتنة واستمرارها بين الناس.

الثالث: أنّ المؤمن الثابت على الحقّ، الذابّ عنه، يقاسي ويتعب في خلاص نفسه عنها حتّى يلقى ربّه، أي: يأتيه الموت الذي هو الموصل للمؤمن إلى إلقاء الحق، ومن ثمّ قال عليه السلام: الموت تحفة المؤمن، قيل: يسعى ويداب في

---

(١) البقرة: ١٩٥.

الوصول إلى حقّه، فلا يصل إليه حتّى يموت، وهو ليس ببعيد عن الصواب، والأوّل أظهر.

قوله فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى: إشارة إلى ترجيح القسم الثاني وهو الصبر في فكره، يعني: فرأيت أنّ الصبر على مشاهدة الطخية العمياء واسود الأُمور أوفق للعقل، أو أولى وأقوم وأليق بنظام الاسلام، أو أقرب إلى الضنن بالدين بحسب اختلاف معنى أحجى على ما عرف في اللغة، والسبب المرجّح هو أنّ مقصوده عليه السلام من القيام بها ليس هو طلب الملك والترؤّس كما هو دأب الجبابرة والسلاطين.

بل هو تشييد مباني الدين، وتمهيد قواعد اليقين، وإجراء قوانين العدل بين الخلق، الحافظة لسلسلة بقاء النوع، الرادعة للهرج والمرج، كما هو المقصود من بعثة الأنبياء والرسل، وكان طلبه في مبدأ الأمر بلا ناصر يعضده يجلب الفساد، ويهدم قواعد الاتّفاق بين المسلمين الكاسر لرقاب المنافقين، وينثر الفتن المخرّبة لأساس الإيمان.

أمّا الصبر: وإن كان فيه ترك ما هو الأولى، ولكن الفساد اللازم منه أهون من الفساد اللازم من الأوّل، وبعض الشرّ أهون من بعض، واختيار الشرّ القليل لدفع الشرّ الكثير خير كثير، قوله فصبرت إلى شجى: قد عرفت أنّه كناية عن الغبن فلا نعيده.

قوله أرى تراثي نهباً: وأراد بالتراث حقّه من الإمامة وخلافة الرسول صلّى الله عليه وآله، الّذي ورثه عنه بنصّه عليه السلام، ويصدق عليه التراث كما صدق في قوله تعالى حكاية عن زكريّاء عليه السلام: «يرثني ويرث من آل يعقوب[١]»، فإنّه أراد: يرث علمي ومنصبي في النبوّة، وقيل: ما خلّفه رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) مريم: ٦.

وآله لا بنته كفدك (١) والعوالي (٢)، وإنّما أضافه إلى نفسه لأنّ مال الزوجة في حكم مال الرجل.

أراد بقوله نهباً: منع الخلفاء الثلاثة لها تمسّكاً بالخبر الذي رواه أبوبكر وهو: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، فما تركناه صدقة، والأوّل أنسب بسياق الكلام، وأراد بالأوّل في قوله مضى الأوّل لسبيله: أبابكر، وبفلان بعده: عمر، وبالادلاء نصّه على أنّه هو الخليفة بعده مع دقيقة وهي: أنّ استخلافه إيّاه كان مصانعة على البيعة له إيّاه من قبله، وقد عرفت وجهها في اللغة، والتمثّل وجهه قد عرفت، فلا نعيده.

قوله فيا عجباً إلى وفاته: الإشارة إلى أبي بكر واستقالته بقوله: اقيلوني لست بخيركم وعليّ فيكم، ووجه التعجّب أنّ من طلب الإقالة من أمر، ظاهر الحال يشهد على أنّه زاهد عنه متبرّم به، ليس له رغبة أصلاً اليه، وتوجّهت إرادته الى الخلاص منه، لكونه يرى من نفسه أنّه لا يتأتّى منه القيام بهذا الأمر كما هو شرطه.

فاذا عقد لغيره بعد وفاته ووصّى به إلى سواه، كان ظاهر الحال يشهد على أنّه في غاية التمسّك به، والتحمّل لأوقاره، والتلبّس بأوراده حيّاً وميّتاً، فيكون

---

(١) فَدَك بالتحريك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله صلّى الله عليه وآله في سنة سبع صلحاً، فهي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله، وفيها عين فوّارة ونخيل كثير، وهبها رسول الله في حياته لفاطمة.

فلمّا توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله أخذها أبوبكر من عمّال فاطمة سلام الله عليها، وجاءت فاطمة إلى أبي بكر وقالت: إنّ رسول الله جعل لي فدكاً فأعطني إيّاها وشهد لها أيضاً أمّ أيمن.

قال أبوبكر: يا بنت رسول الله إنّه لا يجوز إلّا شهادة رجل وامرأتين. روي عن أم هاني: انّ فاطمة أتت أبابكر فقالت له: من يرثك؟ قال: ولدي وأهلي، فقالت: فما بالك ورثت رسول الله دوننا؟ والخبر طويل، راجع كتب التاريخ والسير.

(٢) العَوالي بالفتح وهو جمع العالي ضدّ السافل، وهو ضيعة بينها وبين المدينة أميال وقيل ثلاثة، وذلك أدناها، وأبعدها ثمانية.

راغباً عنه راغباً فيه، وذلك يدلّ على أنّ باطنه لا يوافق ظاهره، ونيّته تخالف علانيّته، وهذا الوصف ليس من شعائر الصادقين المتّقين.

قوله يكثر العثار والاعتذار: كناية عن كثرة خطئه في الأحكام، لغلبة القوّة الغضبيّة وغلظ الطبيعة وسوء الخلق، والّذي يدلّ على غلظ طبيعته ما أورده الغزالي(١) في الإحياء، وهو ما روي: أنّ عمر رضي الله عنه استاذن على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعنده نساء من قريش يكلّمنه ويستكثرنه عالية أصواتهنّ على صوته، فلمّا استأذن عمر تبارزن الحجاب، ودخل عمر ورسول الله صلّى الله عليه وآله يضحك.

فقال عمر: ممّ تضحك بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: عجبت لهؤلاء اللّواتي كنّ عندي لمّا سمعن صوتك يبارزن الحجاب، قال عمر: فكنت أحقّ أن يهبنك يا رسول الله، ثمّ أقبل عمر عليهنّ وقال: يا عدوّات أنفسهنّ أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ فقلن: نعم أنت أفظّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وأغلظ. وقد مضى ما يتعلّق بمعنى قوله فصاحبها الى اعتراض.

قوله فصبرت إلى المحنة: إشارة إلى الصبر في الزمن الثاني على أمرين كلّ منهما مستلزم للأذى: أحدهما: طول المدّة الّتي تولاّها فيها، الثاني: شدّة المحنة بسبب مشاهدة حقّه في يد غيره، وعدم انتظام أُمور الخلق، وانخراط أحوالهم في سلك الشريعة الّتي جاء بها رسول الله عليه السلام.

قوله حتّى إذا مضى إلى أحدهم: إشارة إلى انتهاء غاية أمره، وأراد بالجماعة أهل الشورى، وخلاصة حديث الشورى: أنّ عمر لمّا طعن دخل عليه وجوه الصحابة وقالوا له: ينبغي أن تعهد عهداً أيّها الرجل وتستخلف رجلاً ترضاه،

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي؛ من الأعيان المشار إليهم، وكتبه وآثاره معروفة، درس في بغداد ونيسابور، وطاف في البلدان، فضائله مشهورة وعلومه كثيرة، توفى الغزالي سنة ٥٠٥ بالطابران احدى قصبتي طوس، قال بعض المعاصرين: إنّ هذه القبّة بطابران قبر الغزالي، وهذا قول باطل غير مستند على دليل، والظّاهر أنّها خانقاه شيخ عثمان الهاروني أحد مشايخ طوس.

فقال: لا أُحبّ أن أتحمّلها حيّاً وميّتاً، فقالوا: أفلا تشير علينا؟ فقال: أما إن أُشير فإن أجبتم قلت، فقالوا: نعم.

فقال: الصالحون لهذا الأمر سبعة نفر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إنّهم من أهل الجنة، أحدهم: سعد بن زيد وأنا مخرجه منهم، لانّه من أهل بيتي، وسعد بن أبي وقّاص، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وعثمان، وعليّ عليه السلام، فأمّا سعد فلا يمنعني منه إلّا فظاظته، وأمّا من عبدالرحمن فلأنّه قارون هذه الأمّة، وأمّا من طلحة فتكبّره ونخوته، وأمّا الزبير فشحّه، ولقد رأيته بالبقيع يقاتل على صاع من شعير، ولا يصلح لهذا الأمر إلّا رجل واسع الصدر، وأمّا من عثمان فحبّه لقومه وعصبيّته لهم، وأمّا من عليّ فحرصه على هذا الأمر ودعابة فيه.

ثمّ قال: يصلّي صهيب بالناس ثلاثة أيّام يخلو الستة في بيت ثلاثة أيام ليتّفقوا على رجل منهم، فإن استقام أمر خمسة وأبى رجل فاقتلوه، وإن استقر أمر ثلاثة وأبى ثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، ويروى: فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم عبدالرحمن بن عوف.

ويروى: فتحاكموا إلى عبدالله بن عمر، فأيّ الفريقين قضى له فاقتلوا الفريق الأخر، فلمّا خرجوا عنه واجتمعوا لهذا الأمر، قال عبدالرحمن: إنّ لي ولابن عمّي سعد من هذا الأمر الثلاث، فنحن نخرج أنفسنا منه على أن نختار رجلاً وهو خيركم للأمّة.

فقال القوم: رضينا غير عليّ فإنّه اتّهمه في ذلك وقال: أرى وأنظر فلمّا أيس من رضا عليّ رجع إلى سعد فقال: هلمّ نعيّن رجلاً ونبايعه، فالناس يبايعون من بايعته، فقال سعد: إن بايعك عثمان فأنا لكم ثالث، وإن أردت أن تولّي عثمان فعليّ أحبّ اليّ، فلمّا أيس من مطاوعة سعد كنف عنهم، وجاءهم طلحة في خمسين رجلاً من الأنصار يحثّهم على التعيين.

فأقبل عبدالرحمن على عليّ عليه السلام وأخذ بيده وقال: أُبايعك على أن

تعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر، فقال عليّ: تبايعني على أن أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وأجتهد رأيي، فترك يده وأقبل على عثمان وأخذ بيده، وقال له مثل مقاله لعلي، فقال: نعم، فكرّر القول على كلّ منهما ثلاثاً، فأجاب كلّ بما أجابه أوّلاً، فبعدها قال عبدالرحمن: هي لك يا عثمان، وبايعه، ثمّ بايعه الناس.

قد روي: أنّ عليّاً عليه السلام شكا إلى عمّه العبّاس ما سمع من قول عمر: كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، وقال: لقد ذهب الأمر منّا، فقال العبّاس: وكيف قلت ذلك يا ابن اخي؟ قال: إنّ سعداً لا يخالف ابن عمّه عبدالرحمن، وعبدالرحمن نظير عثمان وصهره، فأحدهما مختار صاحبه لا محالة، وإن كان الزبير وطلحة معي فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين.

قد روي: أنّ عليّاً عليه السلام قال لعمّه العباس رضى الله عنه: إنّي أدخل معهم في الشورى لأنّ عمر استأهلني الآن للإمامة، وكان من قبل يقول: إنّ رسول الله قال: إنّ النبّوة والإمامة لا تجتمعان في بيت، وإنّي لأدخل في ذلك إذا ترك هو بنفسه ما روى اوّلاً، وفي بعض النسخ: زعم اني سادسهم.

قوله: فيالله إلى النظائر: إشارة إلى الاستعانة بالله في الشورى، والاستفهام عن زمان عروض الشكّ في أذهان الخلق في أنّه عليه السلام هل يساوي الأوّل منهم أم لا؟ حيث يدخله في الأوّلين على سبيل الإنكار والتعجّب، حتّى جعله واحداً من هؤلاء النظائر المذكورين، ومشاركاً لهم في المنزلة والاستحقاق، وليس هذا إلّا ممّا يفضي منه العجب وأمكنت منه الإنكار. قوله لكنّي إلى طاروا: يعني نزلت على وفق نزولهم، وصعدت على وفق صعودهم، وتركت ما هو مقتضى العقل والنقل رعاية لنظام الخلق، يعني: ما كنت مثلاً لهم في الاستحقاق حتّى رضيت بمشاركتهم عن طواعية ونيّة صادقة، ولكنّي راعيت المصلحة بين الخلق للدين،

ووافقتهم ورضيت بها عن كراهية.

قوله: فصغى رجل منهم لضغنه: أي فال رجل من هذه النظائر وهو سعدبن أبي وقّاص لحقد كان له معه عليه السلام، ولذا تخلّف عن بيعته عليه السلام بعد قتل عثمان رضي الله عنه. قوله: ومال الآخر لصهره؛ هو إشارة إلى عبدالرحمن بن عوف، فإنّه مال إلى عثمان لمصاهرة كانت بينهما.

قال ابن الكلبي(١): عبدالرحمن زوج أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأمّها أروى بنت كريز، وأروى أمّ عثمان، فتكون أمّ كلثوم اخت عثمان من أمّه. قوله: مع هن وهن؛ إشارة إلى أنّ ميل عبدالرحمن ليس بمجرّد المصاهرة، بل لأمور أخرىٰ يجب أن لا تذكر، لئلّا يفسد اعتقاد العوامّ في حقّ أعاظم الصحابة، ويحتمل أن تكون النفاسة عليه والحسد بوصول هذا الأمر وغيرهما من الأمور التي لها مدخل في ميله اليه.

أراد ثالث القوم: عثمان و بني أبيه بني أميّة بن عبد شمس، ويحتمل أن يكون المراد أقرباءه مطلقاً وإنّما خصّ بنو أبيه تغليباً للذكورة. وقوله إلى أن قام إلى بطنته: معلوم ممّا تلونا عليك في البيان، فلا يحتاج إلى الإعادة.قوله:

حتى لقد وطئ الحسنان وشقّ عطفاي: إشارة إلى المبايعة في ازدحامهم، يعني: أقبلوا عليّ مزدحمين يتلو بعضهم بعضاً حتّى لقد قهر الحسن والحسين عليهما السلام أشدّ القهر، وشقّ قيصه بالجلوس على جانبيه، وحصل الاذى للصدر والمنكبين.

فيكون شقّ عطفاي كناية عن حصول الأذى للمنكبين بوساطة جذب

---

(١) أبو المنذر هشام بن أبي النضر الكلبي الكوفي؛ كان من أعلم الناس بعلم الأنساب، وقد أخذ بعض الأنساب عن أبيه أبي النضر الذي كان من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام، ونشأ أبو المنذر هشام الكلبي بالكوفة، وكان عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالها ووقائعها، قال ابن الكلبي: اعتللت علّة عظيمة نسيت علمي، فبعثت إلى جعفر بن محمد فسقاني العلم في كأس، فعاد اليّ علمي، وكان أبو عبدالله عليه السلام يقرّبه ويدنيه وينشّطه، توفّي سنة ٢٠٦.

اليد للبيعة، ويحتمل أن يكون العطفان أراد بهما جانبي القميص على سبيل المجاز إطلاقاً لاسم المحلّ وإرادة الحال بواسطة المجاورة، فيكون معناه شقّ جانبا قيصي بكثرة شدّة الجذب.

وأمّا على الرواية الأخرى فعناه: شقّ رداؤه بالجذب عند خطابه والجلوس على جانبيه، وهذا يدلّ على شدّة اهتمامهم بالبيعة، وكونهم قبلاً قد بايعوامع غير مرضيّ لهم مقبول عندهم، وعلى خلافية طباعهم وسوء أدبهم في رعاية التوقير والتعظيم لرئيسهم كما هو عادة العرب.

قد حكى السيد المرتضى رضي الله عنه: أنّ أبا عمرو محمدبن عبدالواحد غلام ثعلب روى في قوله عليه السلام وطئ الحسنان؛ أنّهما الإبهامان، وروى: أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام إنّما كان يومئذ جالساً محتبياً، وهي جلسة رسول الله صلّى الله عليه وآله المسمّاة بالقرفصاء؛وهي جمع الركبتين الذيل، فلما اجتمعوا ليبايعوه زاحموه حتى وطأوا إبهاميه وشقّوا.

في أنّهم على اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم في فنون العلوم الأُصولية والفروعية منسوبون إليه عليه السلام، وذلك مما قد بيّن في المواضع المتفرّقة، فإذا كان هو عليه السلام مصدر الكمالات ومعدن السياسات، كان متعيّناً لأن يكون خليفة من الله تعالى، فلو تلبّس بها غيره ممن لم يكن له خلاق بما فاز به، كان كمن لبس ثوباً مستعاراً.

قوله لا يرقى إليّ الطير: إشارة إلى أنّه عليه السلام قد وصل من مراتب الكمال ومنازل العظمة والجلال، إلى مقام يكون أرفع من كلّ جبل مرتفع تفرضه من بين الجبال الشامخة أعلاها، إذ كلّ جبل تتصوّره عالياً يكون للطير مجال الرقيّ بالطيران إليه، وأنا قد وصلت في علوّ الرتبة وسموّ المنزلة إلى حيث لو فرضناه مرتفعاً جسمانيّاً لا يمكن للطيور الرقيّ اليه بالطيران.

فيكون هذا قوله: كناية عن وصوله إلى أعلى المراتب وأجلّ المناصب، هذا

القدر هو الّذي فهمته من فوائد كلامه (١) لا زال جنابه المعلّى ملجأً للاقبال محطّاً للرجال، وقد القى إليّ أدام الله ظلال جلاله مجيباً إيّاي ليلة الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخرة من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة في حدود ميدان.

اللطائف الرشيديّة

قد سألت تلك الحضرة العليّة لا زالت مظهراً للأنوار الربّانية، مفيضاً للفيوض الإلهية، في يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الآخرة، من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بحدود دينور، عن تحقيق قوله عليه السلام:

صاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحّم.

فأجاب عنها أدام الله ظلّه الوارف (٢) ارتجالاً من غير إتعاب فكر، ولا إكدار نظر، راكباً أنَّ مراده عليه السلام انّ صاحب الخلافة: أي المتصدّي لذلك المنصب العليّ، المشتغل هذا المهمّ الدينيّ، المستولي عليها استيلاء الراكب على المركوب، مثل راكب الناقة الصعبة الّتي لم تكن سلسلة منقادة له، وكان في يده زمامها، لئلّا يطرحه في المهاوي، ويستقيم حالها في سلوك الجادّة المسلوكة إلى المقصد المطلوب، ولا يحيد عنها، قطع أنفها من حيث إنّها لكونها غير منقادة، لا توافي صاحبها في الإنجذاب والإنقياد، وإن شئتها ملقي حبل الزمام على غاربها مخلّي

(١) كذا في الاصل، والضمير راجع إلى رشيدالدين فضل الله الهمداني الوزير المعروف في القرن الثامن.

(٢) الظاهر هو رشيدالدين أو رشيد الدولة فضل الله بن أبي الخير الهمداني وزير السلطان محمد خدابنده، سلطان ايران المغولي، وقد جاء في هذا الكتاب ذكره في موارد كثيرة يسأل منه الشارح مشكلات نهج البلاغة، ويظهر أنّ الشارح كان مصاحباً له في الحضر والسفر، وكان من خواصّه وندمائه، قال ابن حجر في الدرر الكامنة، ج ٣ ص ٢٣٢: فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهمداني الوزير رشيد الدولة ابوالفضل، كان أبوه عطاراً يهوديّاً، فأسلم هو واتّصل بغازان، فخدمه وتقدّم عنده بالطبّ إلى أن استوزره، وكان يناصح المسلمين ويذبّ عنهم، ويسعى في حقن دمائهم. له في تبريز آثار عظيمة من البرّ، وكان شديداً على من يعاديه أو ينتقصه، يثابر على هلاكه، وكان متواضعاً سخيّاً كثير البذل للعلماء والصلحاء، وله تفسير على القرآن فسّره على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد، وقد احترقت بعد قتله، قال الذهبي: كان له رأي ودهاء ومروءة، قتل سنة ٧١٨ بأمر جوبان.

زمامها.

تقحّم أي أدخل صاحبها بلا اختياره في المهالك الواقعة على اطراف المسالك، فكذا حال المتلبّس بالخلافة، إن شدّد الأمر على الرعايا، وضيّق الأحوال على البرايا، خرجوا متفقين عن طاعته، وأطبقوا على خلعها عنه، بناءً على وجدانهم مرارة الحقّ وحلاوة الباطل.

فيقع أمره في الهرج والمرج، ويبقى معطّلاً عن الخلافة الّتي استولى عليها، تعطيل الراكب عن الناقة الصعبة، إذا خرم أنفها، وإن أهمل قواعد الدين ونبذ وراء الظهر معاقد اليقين، مقتفياً آثار مآربهم، متّبعاً مراسم مطالبهم تقع تلك الخلافة وبالاً عليه، بل تصير سبباً لاستحقاقه العذاب الأليم والنكال العظيم في العقبى، حيث حاد عن امتثال أمره تعالى.

حيث قال لداود عليه السلام: «يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ»، فعلى كلا التقديرين لا محيص له عن الوقوع في المحذور إمّا عاجلاً أو آجلاً، وأفاد انه عليه السلام إنّما شبّه الخلافة بالناقة الصعبة، لانّ الناقة وإن كانت موصلة إلى المقصد البعيد، ولكنّها إذا كانت صعبة سقط الوثوق عنها والتعويل عليها.

لعدم ثباتها واستقرارها وأنسها بصاحبها، والفها بقطع المراحل وطيّ المنازل، فكذا الخلافة والسلطنة بل أمور الدنيا كلّها، لكونها في معرض التغيير والزوال، وصدد التبديل والانتقال، لا ثبات ولا قرار ولا استيناس ولا ائتلاف، فهذا معنى لطيف شريف نفيس جدّاً.

* * *

٤ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ، وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ، وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ. رُبِطَ[(١)] جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ؛ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ.

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلاَ دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلاَ تُمِيهُونَ[(٢)]، الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ، عَزَبَ رَأْيُ[(٣)] امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ[(٤)]، لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ: أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ[(٥)] الضَّلاَلِ. الْيَوْمَ تَوَافَقْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

اللغة

تسنّمتم: أي علوتم؛ يقال تسنّم أي علا، وهو من السنام الّذي هو أعلى البعير، ويقال أيضاً أسنمت النار إذا علا لهيبها.

انفجرتم: أي انكشفتم؛ يقال انفجر أي انكشف، وانفتح من الفجر الّذي هو انكشاف النور من الظلمة.

(١) في ر: وروي ربط على مالم يسم فاعله.

(٢) في حاشية م: ولا تمهون.

(٣) في ض: غرب رأي امره.

(٤) في م: منذ أريته.

(٥) في حاشية م: دولة الضلال.

السرار: من الشهر آخر ليلة منه، وكذلك السرار بالفتح والسرو، وهو مشتق من قولهم استسر القمر أي خفي ليلة السرار، فربّما كان ليلة وربما كان ليلتين.

الوقر بالفتح: الثقل في الأُذن، وقد وقرت أُذنه بالكسر توقر وقراً أي صمّت، وقياس مصدره التحريك، إلّا أنّه جاء بالتسكين، ووقر الله أُذنه يقرها وقراً، يقال اللهم قر أُذنه، ووقرت أُذنه على ما لم يسم فاعله فهو موقور، فبكسر العين في الماضي والفتح في الغابر لازم، وبالعكس متعدّ، وما كان من الكتاب من المتعدّي، لأنّه على بناء المجهول.

لم يفقه: أي لم يفهم، يقال: فقهت الأمر أي فهمته، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب: ما نفقه كثيراً ممّا تقول(١)، أي ما نفهم، وقوله تعالى: ولكن لا تفقهون تسبيحهم(٢).

الواعية: الضابطة، وقيل الصارخة، والصارخ لفظ مشترك بين المغيث والمستغيث، وأراد به هنا المغيث.

يقال راعاه: إذا مال اليه سمعه؛ أي أصغى اليه.

النبأة: الخبر المرتفع، وقيل: هي الصوت الخفيّ.

الصيحة والصياح: الصوت، يقال صاح يصيح صيحاً وصيحة وصياحاً وصيحاناً بالتحريك، وأراد بها هنا الصوت العالي.

ربطت الشيء بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر وكذا ضمّها عن الأخفش، أي شددته، ربط جنانه أي اشتدّ، يقال: فلان رابط الجأش وربيط الجأش أي شديد القلب، كأنّه تربط نفسه عن الفرار.

الخفقان: الاضطراب والارتعاش.

---

(١) هود: ٩١.

(٢) الإسراء: ٤٤.

العواقب: جمع عاقبة، وعاقبة كلّ شيء آخره وخاتمته، ومنه قول النبي عليه السلام: أنا العاقب؛ أي آخر الأنبياء. الغدر: ترك الوفاء.

قد غدر به: فهو غادر وغدر، وأكثر ما يستعمل هذا في النداء بالشتم، يقال: ياغدر.

توسّم: أي تفرّس، قال الله تعالى: إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين[1]، أي المتفرّسين، وإنّما يقال للمتفرّس المتوسّم لأنّه يستدلّ بالوسم الظاهر على الأسرار الكامنة، والوسيم الأثر، يقال: وسمت الشيء وسماً إذا أثّرت فيه بسمة وهي العلامة، ويقال للرجل الجميل: الوسيم لحسن وسمه، والميسم الجمال.

الحلية: النعت، يقال حلية الرجل صفته. المغترّين: أي المخدوعين.

يقال اغترّ بالشيء: خدع به.

سترت الشيء: بالفتح في الماضي والضمّ في الغابر ستراً إذا غطّيته، فاستتر هو وتستّر أي تغطّى، والستر بالكسر واحد الستور، والأستار والسترة ما يستتر به كائناً ما كان، وكذلك الستارة الجلباب والملحفة.

يقال: بصّر الشيء تبصيراً أي عرّفه وأوضحه، والتبصّر التأمّل والتعرّف.

السنن: الطريقة والوجهة.

الجوادّ جمع جادّة: وهي معظم الطريق.

المضلّة: بكسر الضاد وفتحها ما يضلّ فيه، يقال: أرض مضلّة بالفتح أي يضلّ فيها الطريق، وكذلك أرض مضلّة بفتح الميم وكسر الضاد، وضلّ الشيء يضلّ ضلالاً أي ضاع وهلك، والاسم الضلّ بالضمّ، ومنه قولهم: هو ضلّ بن ضلّ إذا كان لا يعرف ولا يعرف أبوه.

الدليل: ما يستدلّ به، والدليل الدالّ، وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالة ودلولة، والفتح أعلى، والدليلي الدليل.

---

(١) الحجر: ٧٥.

حفرت الأرض احتفرتها: بمعنى أي شققتها.

أماه يميه: إذا بلغ الماء.

المنطق: الكلام، نطق نطقاً لازم إذا تكلّم، وأنطقه غيره ينطق إنطاقاً أي كلّمه.

العجماء: الّتي لا تفصح في بيانها، وإنّما توصف البهيمة بها لأنّها لا تتكلّم، وفي الخبر جرح العجماء جبار، وأيضاً صلاة النهار عجماء لأنّها خافية القراءة غير مفصحة، وكلّ من لم يقدر على الإيضاح في كلامه فهو أعجم ومستعجم.

عزب عنّي فلان: بالفتح في الماضي والضمّ والكسر في الغابر؛ أي بعد وغاب.

منه ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ القرآن في أربعين ليلة فقد عزب أي بعد بما ابتدأه منه، والعزّاب الّذين بعدوا عن الأزواج، بأن لا ازواج لهم من الرجال والنساء، والعازب الكلاء البعيد، تخلّف عنّي أي تأخّر، يقال: خلّفت فلاناً ورائي فخلف عنّي أي تأخّر.

يقال أريته الشيء: فرآه أي أبصرته فبصر، وأصله رأيته. يقال:

أوجس في نفسه خيفة: أي أضمر، يعني عرف من نفسه خيفة أوجس بها، وكذلك التوجّس، ولا يتخصّص بايجاس الخوف إلّا ذو عقل حصيف ورأي متين، فإنّ الخائف يذهله الفزع عن الإحساس بما في نفسه.

الخيفة: المصدر، يقال خاف الرجل يخاف خوفاً وخيفة ومخافة فهو خائف، وقوم خوّف على الأصل، وخيف على اللفظ، والأمر منه خف. من الصحاح.

الإشفاق: رقّة تعتري القلب، فطوراً يعبّر به عن الرحمة والحنو والاسم منه الشفقة وكذلك الشفق، يقال: أشفقت عليه فأنا مشفق وشفيق، وطوراً يعبّر به عن الحذر، فقال: أشفقت منه أي حذرته، فإذا كان المراد المعنى الأوّل أستعمل بعلى،

وإذا كان المراد المعنى الثاني استعمل بمن، والمراد هنا الثاني ولذا قال:

من غلبة الجهّال؛ الجهّال: جمع جاهل.

قال الجوهري: الدولة: بفتح الدال في الحرب؛ أن تداول إحدى الطائفتين على الأخرى أي غلبت، يقال كانت لنا عليهم الدولة، والجمع الدول بالكسر، والدولة بالضمّ في المال، يقال صارت دولة بينهم يتداولونه تكون مرّة لهذا ومرّة لهذا، والجمع دولات ودول بضمّ الدال.

وقال ابو عبيد: الدولة بالضمّ اسم الشي ء الّذي يتداول به بعينه، والدولة بالفتح العقل وقيل: الدولة، والدولة لغتان بمعنى، قال محمدبن سلام الجمحي [١]: سألت يونس عن قول الله تعالى: «لكيلا تكون دولة بين الأغنياء منكم» [٢]، فقال: قال ابو عمرو بن العلاء [٣]: الدولة بالضمّ في المال، والدولة بالفتح في الحرب.

قال عيسى بن عمر [٤]: كلاهما يكون في المال والحرب سواء. قال يونس: أمّا أنا فوالله ما أدري ما بينهما، ولا ريب أنّ المراد به هنا الغلبة في الحرب، ولذا كانت الرواية الصحيحة دول الضلال بالضمّ. يقال: وثقت بفلان بكسر العين في الماضي والغابر معاً ثقة اذا ائتمنته. الظمأ: العطش، يقال يظمأ ظمأ أي عطش، قال الله تعالى: لا يصيبها ظمأ، وقوم ظماء: أي عطاش، واظمأته: أي أعطشته،

---

(١) ابوعبدالله محمدبن سلام بن عبيدالله الجمحي البصري؛ مولى قدامة بن مضعون الجمحي، وهو أخو عبدالرحمان بن سلام، كان من أهل الأدب وصنّف كتاباً في طبقات الشعراء، وحدّث عن حمادبن سلمة ومبارك بن فضالة، وسكن بغداد وتوفّي بها، روى عنه عبدالله بن احمد بن حنبل وغيره، مات سنة ٢٣٢.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) أبو عمرو بن العلاء المازني المقري؛ الإمام النحوي البصري، اسمه زبان أو العريان أو يحيى، أمير القرّاء السبعة، وأحد الأئمة، عن أنس وأبي رجاء وابن سيرين وجماعة ومجاهد وطبقته، وعنه حمّاد بن زيد وشعبة وطائفة، وثّقه ابن معين وغيره.

(٤) عيسى بن عمر النحوي أبو عمر البصري الثقفي، روى عنه الحكم بن الأعرج، وعبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي، والحسن البصري، وعون بن عبدالله وجماعة، وروى عنه علي بن نصر الجهضمي الكبير، وهارون بن موسى النحوي، والاصمعي، وغيرهم، مات سنة ١٤٩.

وظمئت إلى لقائك: أي اشتقت.

الاعراب

الضمير المجرور في بنا راجع إلى آل الرسول عليهم السلام، والمرفوع في اهتديتم وأخويه راجع إلى الحاضرين من قريش من مخالفيه وموافقي طلحة والزبير، وإن كان عامّاً، وفي وقر روايتان: المعلوم؛ وحينئذ لازم، والمجهول؛ وهي أشهر، تقديره: وقرالله اذنه، وفي ربط أيضاً روايتان: المعلوم؛ وهو من ربط جنانه أي اشتد وهو لازم، المجهول؛ وهي اشهر،تقديره: ربط الله جنانه ولم يفارقه.

الخفقان: جملة في محلّ الرفع على أنّها نعت لجنان، وبحلية المغترّين كلمة في موضع الحال وذو الحال يحتمل أن يكون الضمير المرفوع في أتوسّمكم تقديره:أنا حال كوني متلبّساً بحليتهم، وأن يكون الضمير المنصوب البارز للخطاب، والتقدير ظاهر، وفي أنطق لكم روايتان: إحداهمابضمّ الهمزة وهي الأشهر، والاخرى بفتحها.

قيل: العجماء نعت منعوت محذوف تقديره الكلمات العجماء وأراد بها الرموز المذكورة في هذه الخطبة، منذ مبنيّ على الضمّ، ومذ مبنيّ على السكون، وكلّ واحد منهما يقع في كلام العرب على وجهين: أحدهما: أن يكونا بمنزلة حرف جر فجرّا ما بعدهما كما يجرّ في، ولا تدخلان حينئذ إلّا على زمان أنت فيه، فتقول ما رأيته مذ الليلة، والآخر: أن يكونا اسمين فما بعدهما يكون مرفوعاً على التاريخ أو على التوقيت، تقول في التاريخ: ما رأيته مذ يوم الجمعة، أي أوّل انقطاع الرؤية يوم الجمعة.

تقول في التوقيت ما رأيته مذ سنة، أي أمد ذلك سنة، وفي قوله مذ أريته للتاريخ يعني: ما وقع لي شكّ في الحقّ من أوّل يوم حصل لي الإراءة،أشفق: فعل ماض وقع استدراكاً للنفي السابق عليه، وقيل أفعل التفضيل، منصوب على الصفة

لخيفة، والتقدير: لم يوجس إشفاقاً على نفسه أشدّ من غلبة الجهّال، والباقي ظاهر.

المعاني

إنّما قدّم الضمير المجرور على الفعل الّذي تعدّى به ليفيد القصر على القلب، يعني: ليس الأمر ما تصوّرتم واعتقدتم من أنّ الاهتداء والشرف والدخول في الاسلام حصل لكم بغيرنا، بل ما حصل إلّا بنا، وفي وقر سمع خواصّ ثلاث للبلاغة إحداها: القطع عمّا قبله منبئاً عن سؤال مقدّر هو رابط للتراكيب بعضها ببعض.

ثانيها: إيراد الفعل الماضي المجهول ليكون موجزاً وهو ركن من البلاغة ومورداً على سبيل التمثيل والتوبيخ لهم. وثالثها: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وفائدته التفنّن في الكلام، وعدم خطاب الحاضرين بالدعاء السوء لئلّا يتجبهوه وربّما يعارضوه بما لا يليق بمنصبه العظيم، وفي ربط جنان عن الرواية الثانية أيضاً الخواصّ الثلاث مع خاصّيّة أُخرى هي جعل الجملة نعتاً ليؤذن أنّ المستحقّ للدعاء بالثبات والإطمينان ليس كلّ جنان، بل جنان خاصّ.

في ما زلت أنتظر بكم: خاصّيّتان دقيقتان إحداهما: تقديم بكم على عواقب الغدر لإفادة القصر للإفراد، والأولى أن يكون للقلب، يعني: ليس الحال كما اعتقدتم من أنّ الانتظار بغيركم، بل ليس إلّا بكم، والثانية: تقديم ما زلت على أنتظر لإفادة الاستمرار وتجدّد الانتظار لحظة فلحظة، كما في قوله تعالى: الله يستهزئ، قيل سترني عنكم جلباب: مشتمل على القلب الّذي لا يقدم عليه إلّا الشجعان في البلاغة والأبطال في الفصاحة، تقديره: ستركم عنّي جلباب الدين.

في تقديم عنكم: القصر للقلب يعني: جلباب الدين ما سترني إلّا عنكم دون غيركم من الّذين وجدوا سطوات صولتي، أو الّذين دقّوا باب الملكوت وولجوا فيها، ورزقهم الله جلاء النفس عن أرجاس الطبيعة على ما تعرف في الفحوى تمام معناه.

وفي عزب رأي امرئ: أيضاً الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لما ذكرنا، وما شككت: جملة استينافية دالّة على الجواب عمّن سأل عن بيان الدعاء على من تخلّف عنه، هذه الخطبة الملفقة من خطبة طويلة أكبرها مصبوب في قالب القطع الّذي هو مجز البلاغة.

البيان

في الظلماء: استعارة تخييليّة مكنّى بها عن الجهل والكفر ممّا لا خلاص بهما، ولا مناص، مستدعية لتشبيههما وهما معقولان بالظلمة، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الاهتداء فيهما إلى الطريق المسلوك إلى المقصد، ويخيّل أنّهما من أفرادها، وفي تسنّمتم العلياء: استعارة تخييلية مرشّحة مستلزمة لتشبيه العلياء المكنّى بها عن الإسلام وهي معقولة، بالناقة وهي محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في الانتفاع الحاصل من كلّ منهما اللائق به، وهو عقلي، وتخييل أنّها من أفراد الناقة، وبذكر التسنّم الّذي هو ركوب السنام رشّحها، وفي انفجرتم عن السرار: استعارة تخييلية مرشّحة مستلزمة لتشبيه الهيئة الحاصلة من ظلمة الكفر المطبقة في آخر الأديان لاندراسها أو لخفائها، بالهيئة الحاصلة من الظلمة المطبقة في آخر الشهر لخفاء القمر ودون أن يتبدّل بأدنى نور من الهلال.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الظلمة الّتي قرب انقضاؤها وتبدّلها بالنور، وهو عقلي، وهذا تشبيه المركّب بالمركّب، وبذكر انفجرتم رشّحها، وهذه استعارة في غاية الدقّة واللطافة، لا يتفطّن لها إلّا المتدرّب بعلم البيان، المالك للذوق السليم والطبع المستقيم.

كنّى بالواعية: عن نفسه، إذ من لوازمه حفظ كتاب الله تعالى والقيام بأوامره والاجتناب عن نواهيه، أو الصياح فيهم بالموعظة الحسنة، والمغيث لهم اذا استغاثوا به في تقرير قوانين الدين ومراسم اليقين.

في كيف يراعي إلى الصيحة: استعارتان مكنيّتان عن أنّهم إذا لم يجيبوا داعي الحقّ ونداءه، فبالأحرى أن لا يجيبوا دعوته، مرشّحتان تخييليتان إحداهما: مستدعية لتشبيه دعائه عليه السلام إيّاهم إلى سبيل الحقّ بالصوت الخفيّ وهما محسوسان بحسّ السمع، ووجه الشبه: اشتراكهما في الضعف الحاصل لهما بالقياس إلى دعاء الحقّ والصوت العالي وهو عقلي، وتخييلي أنّه من أفراد الصوت، والثانية: مستلزمة لتشبيه دعوة الله ورسوله إيّاهم بالصوت العالي، ووجه الشبه: اشتراكهما في العلوّ وهو عقلي، وقد رشّح الأولى بذكر يراعي والثانية بذكر الإصمام.

لم يفارقه الخفقان: كناية عن الخوف، إذ من لوازمه اضطراب القلب، وفي قوله سترني عنكم جلباب الدين: استعارة تخييلية تصريحية مرشّحة لتشبيه الدين وهو عقلي، بالملحفة وهي حسّيّة، ووجه الشبه: اشتراكهما في التغطية المناسبة لكلّ منهما وهو عقلي.

يحتمل أن يقال إنّه حسيّ، ويخيّل أنّه من أفرادها، وإلّا لم يصحّ الإضافة، وبإسناد الستر إليه رشّحها، وفي جواد المضلة: استعارتان إحداهما: مكنّى بها عن كون الأهواء والبدع طرائق مسلوكة إلى الضلال مستدعية لتشبيهها وهي معقولة، بالجواد وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الإفضاء إلى ما هو المنتهى من كلّ منهما اللائق بها، والثانية: مكنّى بها عن أنّ الكفر والجهل ممّا يحصل به الضلال ولا يهتدى به الى المقصود، مستدعية لتشبيه الكفر وهو عقلي، بالأرض التي يضلّ فيها الطريق، وهي حسّيّة، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم اهتداء المتمسّك بهما إلى المقصد وهو عقلي، وبالإضافة رشّحها.

في تحتفرون: استعارة مكنّى بها عن الكدّ في طلب العلم والظفر عليه، مستدعية لتشبيه الباحث عن مظانّ العلم المتفحّص عنها المذهب عنها العوائق والحجب الحايلة، بالمحتفر الارض للماء، وهما محسوسان.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الطلب والسعي، وهو عقلي، وهنا أيضاً استعارة أخرى لازمة لهذه مستدعية لتشبيه القلوب بالآبار، ووجه الشبه: اشتراكهما في المعدنيّة للمقصود والحلية، وهو عقلي.

في لا تميهون: أيضاً استعارة أخرى مكنّى بها عن عدم البلوغ إلى العلم الذي هو المقصد، مستدعية لتشبيه العلم بالماء، وقد عرفت وجهه غير مرّة، وبه حصل الترشيح للاستعارة الأولى، والتتميم الّذي هو فن من الفصاحة في العجماء استعارة تخييلية تصريحية مستلزمة لتشبيه الأحوال المشاهدة من كمال فضله عليه السلام والمثلات الّتي حلّت على الفاسقين عن أمره، بالحيوان الّذي لا يفصح عمّا أراد.

وجه الشبه: اشتراكهما في عدم النطق المقالي. وبقوله ذات البيان: نبّه على أنّ التشبيه اللازم هو التشبيه بالتفضيل لقول الوطواط(١):

«حسبت جماله بدراً مضيئاً» وأين البدر من ذاك الجمال.

ولو قلنا أنّ العجماء نعت للكلمات المحذوفة، فالتشبيه أيضاً قائم، ولكنّ المشبّه الكلمات هنا، لا الأحوال والمثلات. وفي من وثق بماء لم يظمأ: استعارة تخييلية مرشّحة مكنّى بها عن أنّ الواثق به عليه السلام المتشبّث بذيل علمه يحتاج إلى شيء يرويه ولا إلى ما يتعبه ويهلكه، مستدعية لتشبيهين: أحدهما: تشبيه نفسه عليه السلام بالماء وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في دفع الاذى بهما.

والآخر: تشبيه المسلمين المحتاجين إلى التمسّك بالدين بالعطشان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الافتقار إلى ما يسدّ الحاجة لهم، ولتخييل أنّه من افراد الماء، وإلّا لم يصحّ تعدية وثق به، وبقوله لم يظمأ رشّحها، ولو قلنا أنّ الماء استعارة مكنّى

(١) محمد بن إبراهيم جمال الدين الأنصاري الحضرمي الورّاق، كان أديباً ماهراً عارفاً بالكتب، جمع مجاميع أدبية، له غرر الخصائص الواضحة، ومناهج الفكر، وغير ذلك، توفّي سنة ٧١٨، والوطواط أيضاً لقب رشيد الدين محمد بن عبد الجليل البلخي؛ الأديب الشاعر ذو اللسانين، كان من نوادر الزمان وكاتب السلطان خوارزمشاه، توفّي سنة ٥٧٣.

بها عن علمه عليه السلام لكان حسناً جداً، والتحقيق ما عرفت غير مرة.

البديع

بين الظلماء والعلياء: المتوازي والترصيع، كذا بين الجهال والضلال، وفي اليوم توافقنا على سبيل الحقّ والباطل: نوع من اللفّ والنشر، إذ التقدير: نحن متوافقون على سبيل الحقّ، وأنتم متوافقون على سبيل الباطل.

الفحوى

إعلم أنّ هذه ألفاظ ملفقة ملتقطة من خطبة طويلة له عليه السلام، خطب بها بعد قتل طلحة والزبير على ما روى أبو علي بن مسكويه(١)، ومع احتوائها على المواعظ الزاجرة المحرّكة للنفس إلى الرجوع إلى جناب العزة تعالى وتقدّس، والإقرار بولاية أهل البيت عليهم السلام، في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة، ومن عجائبها انّ كلّ كلمة منها صالحة للإفادة على سبيل الاستقلال، مع قطع النظر عمّا قبلها وما بعدها، ولأن يكون من تتمّة السابق وتوطئة اللاحق على ما سنحقّقه إن شاء الله تعالى.

قوله بنا اهتديتم في الظلماء: أي بالتشبّث بنا ودعوتنا إيّاكم إلى الحقّ بما أنزل الله علينا من الكتاب والحكمة، حصل لكم الاهتداء من ظلمات الجهل، لا بغيرنا وإن اعتقدتموه، فلا يليق بكم ولا بإسلامكم أن تنكروا حقّنا وولايتنا وتؤثروا غيرنا علينا. قوله وتسنّمتم العلياء: أي؛ وبتلك الهداية الحاصلة لكم منّا

---

(١) الحكيم أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه الغاز الرازي الأصبهاني المسكن، كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء، معاصر لابن سينا، صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه إلى أن اتصل بخدمة عضد الدولة، فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه.

له مؤلفات في الحكمة، منها: كتاب الفوز الأكبر، وكتاب الفوز الأصغر، وجاويدان خرد بالفارسية، وتجارب الأمم، والطهارة في علم الأخلاق، ومدحه المحقّق نصير الدين الطوسي، وتوفى سنة ٤٢١.

وشرف الإسلام علا قدركم وشرف ذكركم.

قوله وبنا انفجرتم عن السرار: أي بسببنا دخلتم في فجر الدين، وخلصتم من ظلمة الجاهلية المطبقة، الّتي قرّب الله كشفها بطلوع نور النبوّة من افق الدعوة، وتنوّر باطنكم بنور الاسلام، واشتهرتم بين الناس، وكشف الليلة المظلمة ببدء نور الهلال، وتنوّر صفات العالم بنوره، واشتهاره بحيث تعمّ كل موضع يحاذيه، فلا يجوز لكم أن لا تطيعونا، وتكفروا بنعمتنا العظمى الّتي هي الهداية، ولا تصغوا إلى دعوتنا.

ثمّ لمّا نفروا عنهم واستكبروا عليهم ولم يستضيئوا بنور هدايتهم، التفت من الخطابة إلى الغيبة، ودعا بالوقر والصمم على كلّ سمع لا يفقه صاحبه بواسطته علماً، ولا يحصل بسبب السماع مقاصد الكتب الالهية وكلام الأنبياء عليهم السلام والاوصياء، مريداً به إياهم حيث لم يقبلوا قوله بعد أن سمعوه، ولم يعوا ما القى إليهم من الأوامر المأخوذة من مشكاة النبوّة، ولم يقفوا أثره، ولم يجيبوا نداه، ولم يحبوه مغيثاً يستغيثوا بنا عند وقوعهم في الوقائع المشكلة.

وقيل: معنى من لم يسمع بحالي ولم يعرفني فهو أصمّ، وعند أكثر المفسرين قوله تعالى: «وتعيها أذن واعية[١]»، أراد به عليّاً عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سألت الله أن يجعلها أذن علي، ثمّ اعتذر لنفسه وأزال ما يكدّر خاطره من عدم قبولهم قوله.

قال كيف يراعي النبأة من أصمّته الصيحة: أي كيف يلتفت إلى قولي، و يستمع إلى كلامي، ويجيب دعوتي، من لا يلتفت إلى قول الله تعالى، ولا يسمع كلامه وكلام رسوله، على كثرة تكراره على أسماعهم، وقوّة عقائدهم على اتّباع قوله تعالى.

ولمّا كان من شأن الصوت العالي أن يمنع سماع الصوت الخفيّ، أطلق

---

(١) الحاقة: ١٢.

الصيحة على كلام الله وأسند إليها الإصمام المراد به الاشتغال بها والغفلة عن المقصود، وأورد كيف على سبيل الانكار والتهكّم لهم، ثمّ رغّبهم للاتّباع وثبات القلب على طريقة الحقّ، بالدعاء للقلوب الخائفة الوجلة من خشية الله، الّتي لم تزغ عن أمره خوفاً من عقابه الأليم وابتغاء لثوابه الجسيم.

قال ربط جنان لم يفارقه الخفقان: أي ثبّت الله قلباً لم يزل مضطرباً من الخوف، فكأنّه قال: كيف يلتفت إلى كلامي من لا يلتفت إلى كلام الله عزوجل وكلام رسول الله، لله درّ الخائفين المراعين لأوامره الوجلين من وعيده، ما ضرّكم لو تشبّهتم بهم فرجعتم إلى الحقّ، وقمتم به قيام رجل واحد، وقيل معناه: أنّ من لم يزل قلبه مضطرباً من الغيبة إلى الخطاب.

قال مخاطباً لطلحة والزبير والناكثين معهما: ما زلت اترصّد لكم وخامة عاقبة الغدر، وذلك الانتظار والترصّد اما باطلاع الرسول صلى الله عليه وآله، أو بواسطة حركاتهم وسكناتهم المؤذنة بأنّ نيّاتهم غير مطابقة لظواهرهم، وأتفرّسكم حال كونكم متلبّسين بحلية المغترّين الّذين يقبلون الأباطيل بأدنى شبهة تعرض لأذهانكم، أوحال كوني متلبّسا بحلية من يريد أن يأتي شخصاً على غفلة منه، ويطّلع على سرائره باستكشافها منه.

قوله سترني عنكم جلباب الدين: يحتمل معاني ثلاثة: أحال بيني وبينكم الدين الآمر بسحب ذيل العفو على الجرائم والإغضاء عن خطايا المسلمين، وسترني عن أعين بصائركم أن تعرفوني بما اقدر عليه من تقويم أودكم وإصلاح أحوالكم بالعنف والقهر، وما يؤول به أفعالكم الى سنن السداد من القتل والنهب، وأشار عليه السلام إلى هذا المعنى في موضع آخر حيث قال:

وإنّي لعالم بما يصلحكم ويستقيم أودكم، ولكن أرى إصلاحكم بافساد نفسي، سترني عنكم ما كنت متلبّساً به من الدين الّذي لا يلوح حقيقة إلّا لمن كحّل الله بصيرته بكحل الهداية، ولوعرفتم أنّي قائم على الدين وأنّ الدين هو

الّذي كنت متلبّساً به، لا ما اعتقدتم، ثمّ لا تبعتموني؛ ولكن لا تعرفون، لتراكم حجب الأهواء والبدع على مرأى صفائح خواطركم، فكأنّ الدين الحقيقي صار حائلاً بينهم وبين معرفته.

لو لا الدين الآمر بأن لا يفشي سرّ الربوبية المخبوء تحت معرفة النفس القدسيّة، لأريتكم ما عليه من المعارف الإلهيّة والعوارف الربّانيّة الّتي تخرّ لها أذقان الأولياء المكاشفين، و يقرّبها الأنبياء الواصلون، وبصّرتكم بما عليكم من النفاق والضغائن وحبّ الرياسة، حتّى جزعتم وأقررتم بما أنا عليه، فيكون الدين ساتراً إيّاي عنكم، وأنتم تنظرون إلى ظاهري، وليس لكم بصيرة تبصرون بها ما خصّني الله تعالى، فلذا غلت التحاسد عليكم وانحرفتم عنّي لجهلكم بحالي، وهو معنى لطيف شريف جدّاً، وهو المراد بقوله عليه السلام عن الله تعالى: أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري.

أمّا معناه على القلب: فقريب ممّا تلونا عليك في الثالث. قوله وبصّرنيكم صدق النية: أراد بصدقها صفاء الطويّة بحسب كمال إخلاصه لله وصفاء مرآة نفسه القدسيّة الّتي بها النظر إلى بواطن الاشياء وخفاياها، يعني: عرّفني إيّاكم صفاء باطني الّذي ينظر بنور الله، على ما ينبىء عنه قوله عليه السلام:

المؤمن ينظر بنور الله، ويحتمل ان يكون معناه عرّفكم إيّاي صفاء النيّة والصدق، يعني: الصدق منعني من خفاء ما في نفسي، ويحتمل أن يكون معناه أراكم عيني صفاء باطني، يعني: لولا صفاء الباطن المنافي لإخفاء ما يقتضي العقل العملي بإظهاره بحسب الوقت اللائق به، لما تمكّنتم من معرفتكم بحالي.

قوله أقمت لكم إلى ولا تميهون: إشارة إلى نهيهم عن رقدة الغفلة، وإيذانهم أنّ اقتفاء أثره واجب عليهم، والاستضاءة باشعّة أنواره المستفادة من شمس عالم النبوّة حتم لازم، إذ هو الّذي أقام نفسه على طريقة الحقّ، وفي الجوادّ الّتي هي مزالّ اقدام السالكين في سبيل الله، وقد نهى الله تعالى عن السلوك فيها بقوله: «ولا

تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله[١]»، ليهديهم إلى الصراط المستقيم الّذي أمر الله تعالى بمتابعته.

قال: «وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه»، بعد جذبهم عن سلك المهاوي الّتي قادت أنفسهم إليها، وجذبتهم الشياطين المغوية إلى سلوكها، وذلك حيث تلاقت نفوسهم في ظلمات الطبيعة، ولا دليل يستدلّ به إلى أن يخلصوا إلى النور سواه، ويطلبون ماء الحياة الذي هو العلم النافع لها في انتظام أحوال المعاش واغتنام ارتياش المعاد، بالبحث والفحص عن أودية القلوب وتخليتها عن الأدناس المسوّدة لها، فلا يقدرون على استخراجه إلّا بامداده.

ويحتمل أن يكون إشارة إلى يوم القيامة، حيث يتحيّرون ولا دليل لهم يتشبّث به سواه، ويطلبون الماء من الكوثر الّذي هو شفاء القلوب وحياتها الأبديّة من غيره ولا يصلون اليه، فوجه الرجوع اليه، وأن يكون عليه السلام نبّههم على أنّه هو الدليل إلى طريق الآخرة، ومعه الماء الّذي يدفع به العطش في تلك الطريق دون غيره، فلو تطلبون من غيري فلا تصلون إليه، إذ أنا المقيم على هذا الطريق والدليل لكم والمروي إيّاكم.

قوله اليوم انطق لكم العجماء ذات البيان:

يعني اليوم وقت أن أُذكّركم بالأحوال الّتي سلفت على الأُمم الغابرة الّذين فسقوا عن أمر ربّهم، وممّا هو لائح من كمال علمه عليه السلام وفضله بالقياس إليهم، وما يجب لهم متابعته ليخبرلهم بلسان الحال أنّ من لم يتّبع أوامر الله فقد استحقّ ما استحقّ الأوّلون، وبيّن لهم ما يوجب عليهم الإذعان لولايته، وقد عرفت تمام الكلام فيه.

قوله عزب رأي امرئ تخلّف عنّي: يحتمل معنيين: أحدهما: الدعاء ببعد الرأي المستلزم لبعد العقل المستلزم للجنون، على من تأخّر عنه ولم يتابع أوامره،

---

(١) الانعام: ١٥٣.

يعني: حقّ لمن فكّر في أنّ المتابعة أنفع له أم التخلّف، ثمّ رأى بعد الترديد أنّ التخلّف له أوفق، أصلح أن لا يكون له رأي أصلاً لئلا يختار مثل هذا الرأي القبيح السيّئ، والمراد منه الذمّ لمن تخلّف عنه والتوبيخ له.

الثاني: الإخبار بأنّ الرأي كان بعيداً عمن ذهب رأيه إلى التخلّف عنه، وهو في معرض التعيير للقوم والتوبيخ لهم، على طريقة قولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة، ثمّ قرّر هذه القضيّة ونبّه على أنّه الحقّ الّذي وجب على كافة الخلق انقياده ومطاوعته، وإن لم يطاوعه ولم يعرفه فقد مات ميتة الجاهليّة.

لأنّه الإمام المتعيّن المعصوم من أن يتّهم بالمعاصي. بقوله ما شككت في الحقّ مذ أُريته: الدالّ بالمطابقة على نفي طريان الشكّ فيما أراه الله تعالى من الحقّ الّذي لا ريب فيه، وأفاضه على نفسه القدسية من الكمالات الّتي استحقّ بها الرياسة الدينية والدنيوية اللازمة من معرفة الحقّ.

فإنّ من عرف الحقّ عرف نفسه وعيوبها، ومن عرفها احترز عنها لئلا تبعده عن مطالعة الحقّ، ومن اجتنب عنها بالكلّية كان مستجمعاً للفضائل ومجتنباً عن الرذائل، وبالإلتزام على ثباته على الحقّ وشدّة جلاله بحيث لا يعرض لنفسه القدسيّة ريب أصلاً فيه، والإماميّة يستدلّون بهذا القول على وجوب عصمته، وهو استدلال جيّد يعرفه من كان له ذوق سليم وطبع مستقيم، غير مجادل ولا مكاوح.

قوله لم يوجس إلى الضلال: إشارة إلى أنّ عدم قيامه عليه السلام لطلب الخلافة ليس للخوف على نفسه، بل كان للخوف من غلبة الجهّال على الدين ووقوع أكثر الخلق في فتنتهم، ومن قيام دول الضلال وغلبتهم، فتنسدّ مسالك الدين بالكلّيّة، وتجف مناهل اليقين بحيث لا يبقى لها اسم ولا رسم، كما أنّ موسى عليه السلام ما خاف على نفسه حيث ألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا إنّا لنحن الغالبون، بل خاف من غلبة أهل الجهل على طريقة الحقّ، ودول الضلال كدولة

فرعون واتباعه الصادّين عن سبيل الله.

قوله اليوم توافقنا على سبيل الحقّ والباطل: إشارة الى تنفير مقاتليهم في القتال عمّا هم عليه من الباطل إلى ما هو وأصحابه عليه من الحقّ، والتقدير ما ذكرنا، وفي بعض النسخ: تواقفنا بتقديم القاف وهو الأكثر والأصحّ، والمعنى قريب ممّا قلنا.

قوله من وثق بماء لم يظمأ: إشارة منه عليه السلام إلى أنّ الواثق بقولي وعلمي لم يقع في الضلال المحوج إلى ما يدفعه، بل كان على حاقّ اليقين، كما أنّ الواثق بوجود الماء ليس كفاقده، فإنّ الفاقد بواسطة توهّمه فقدانه يضاعف عليه الظمأ.

وقيل تمثّل ومعناه: من كنت أنا بمرأى منه فليدن منّي واستفيد(١) فانه كالواثق بوجود الماء، ومن وثق بوجود الماء لم يترك نفسه في حرّ العطش، و يحتمل أن يكون معناه: من اعترف بولايتي وإمامتي واطمأنّ قلبه بي لم يضطرب حاله، ولم يحتج الى غيري، كما أنّ من اطمأنّ قلبه بوجود الماء لم يضطرب أمره، ولم يعارضه توهّم الفقدان، وهو جيّد.

اللطائف الرشيديّة

سألت تلك الحضرة العليّة لا زالت مظهراً للأنوار الإلهيّة ومفيضاً للفيوض الربّانيّة، يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الآخرة من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بحدود دينور عن تحقيق قوله عليه السلام:

سترني عنكم جلباب الدين وبصّرنيكم صدق النيّة.

فأفاد مرتجلاً: أنّ مراده عليه السلام من الكلمة الأولى بيان أنّ نفسه المقدّسة عن أرجاس العلائق، المنزّهة عن أدناس العوائق، قد اشرفت من قبل

---

(١) كذا.

رب العزّة على أسرار إلهيّة في الملكوت، ودقايق ربّانيّة من الجبروت، لم يكن لأحد سوى الأنبياء الكاملين، ولم يكن الدين حرّم إفشاءها وإبداءها على ما ينبئ عنه قول النبيّ عليه السلام: إفشاء سرّ الربوبيّة كفر.

لظهرلهم أنّها قد وصلت من مراتب العرفان أعلاها، ومن منازل الإيقان أسناها، ولكنّ الدين من حيث منعني عن إفشاء ما اشتملت عليه، ستر مطالعة جمال كمالي عنكم ستر الجلباب مطالعة جمال المحبوب عن المحبّ، وإلى اطّلاع المعصومين عليهم السلام على أسرار إلهيّة لم يكن لغيرهم اطّلاع عليها أشار زين العابدين علي بن الحسين عليهم السلام، حيث قال في أبيات أربعة:

إنّي لأكتم من علمي جواهره * كي لا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدّم في هذا أبو حسن * إلى الحسين ووصّى قبله الحسنا
يا ربّ جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولا ستحلّ رجال مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ومن الكلمة الثانية: أنّ صدق نيتي ونيّتكم، وصفاء باطني وباطنكم، أطلعني على احوالكم ومكّنني من أن أتلو صحائف ضمائركم ونقوش أسراركم، وكشف الأستار عن صفحات سرائركم، وإلى هذا المعنى أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله، قال: المؤمن مرآة المؤمن.

* * *

٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

لمّا قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وخاطبه العبّاس وأبوسفيان ابن حرب في أن يبايعا له بالخلافة:

أَيُّهَا النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ، أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. مَاءٌ آجِنٌ[1]، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ.

فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ، هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي، وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ.

اللغة

النجاة: مقصوراً؛ مصدر نجوت، من كذا نجاء ممدوداً والصدق منجاة، والنجاة أيضاً الناقة السريعة تنجو بمن ركبها.

عرّجوا: أي ميلوا من عرّج البناء تعريجاً أي ميّله فتعرّج أي مال، والتعريج على الشيء الإقامة عليه، وانعرج الشيء أي انعطف، منعرج الوادي أي منعطفه.

المنافرة: المحاكمة في الحسب، يقال نافره فنفره ينفره بالضمّ لا غير: أي

(١) في ض وب وح: هذا ماء آجن.

غلبه، قال الأعشى (١) يمدح عامر بن الطفيل (٢) ويحمل على علقمة بن علاثة (٣):

قد قلت شعري فمضى فيكما ٭ واعترف المنفور للنافر

والمنفور: المغلوب، والنافر: الغالب.

ضعوا: أمر من وضعت الشيء من يدي وضعاً وموضعاً وموضوعاً.

التاج: الإكليل وجمعه تيجان، يقال: العمائم تيجان العرب.

الفلاح: الفوز والبقاء والنجاة والسحور، وأفلح من الفلاح بمعنى الأول، يقول الرجل لامرأته استفلحي بأمرك أي فوزي بأمرك ، وقول الشاعر:

ولكن ليس للدنيا فلاح

أي بقاء، وقول المؤذّن: حيّ على الفلاح بمعنى النجاة، وقول الرسول عليه السلام: حتّى خفنا أن يفوتنا الفلاح أي السحور، وإسناده إلى من نهض قرينة حاليّة مشعرة بأنَّ المراد الأول. جناح الطائر: يده والآلة الّتي بها التصرّف والحركة كاليد والرجل للحيوان، والجمع أجنحة.

استسلم: أي انقاد. أراحه الله فاستراح، وأراح الرجل: رجعت إليه نفسه بعد الإحياء.

وأراح: تنفّس، وأراح اللحم أي أنتن، وأراح الرجل أي مات. قال العجّاج: أراح بعد الغمّ والتغمغم، والمراد هنا المعنى الثاني، والقرينة المعينة إيّاه

---

(١) الأعشى لقب لعدة شعراء مشهورين وهم: أعشى باهلة اسمه عامر، وأعشى بني ضبيعة اسمه ميمون، وأعشى التغلبي اسمه النعمان، وأعشى بني قيس اسمه أبوبصير، وأعشى بني جلان اسمه سلمة، وأعشى بني ضورة اسمه عبدالله، وأعشى بني عوف اسمه ضابي، وأعشى بني مالك ، وأعشى بني عقل اسمه معاذ، وأعشى بن معروف اسمه خيثمة، وأعشى بني عكل اسمه كهمس، وأعشى بني مازن، وأعشى بن أسد، وأعشى طرود، وأعشى بني ربيعة، وأعشى همدان، وأعشى النهشلي، وأعشى بن قيس صناجة العرب.

(٢) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب؛ وهو أبو علي، وكان يقال للطفيل فارس قرزل، وهو اخو عامر ابن أبي براء، ولهما اخ ثالث وهو معاوية مود الحكماء، ورابع وهو ربيعة بن ربيع المقترين، وأمّهم أمّ البنين ابنة ربيعة بن عامر، وجدّهم عامر بن صعصعة أبوبطن، وأمّه عمرة بنت عامر بن الظرب.

(٣) علقمة بن علاثة شاعر من بني جعفر.

جعله لازماً للاستسلام.

الأجون: التغيّر، يقال مآء آجن أي متغيّر.

غصّ باللقمة: فغصّ بفتح العين غصصاً إذا وقفت في الحلق، ولم تسغها فأنت غاصّ بالطعام وغصّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصّ بالقوم أي ممتلىء بهم.

ينع الثمر يينع ينعاً وينعاً وينوعاً: أي نضج وأدرك وأينع مثله، فإيناع الثمرة نضجها، وإنّما لم يسقط الياء في المستقبل لتقويها بأختها هي كثرة النون، والينيع واليانع مثل النضيج والناضج.

الحرص: الجشع وهو شدّة الميل إلى اقتناء زخارف الدنيا وجمعها، وقد حرص على الشيء بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر فهو حريص.

الجزع: نقيض الصبر، وقد جزع من الشيء بالكسر في الماضي والفتح في الغابر وأجزعه غيره. الّتي: اسم مبهم للمؤنّث وهي معرفة، ولا يجوز الألف واللام منه للتنكّر.

واللتيا: بالفتح والتشديد تصغير الّتي، ويقال وقع فلان في اللتيا والّتي أي في الداهية الصغيرة والكبيرة، وأصل المثل: أنّ رجلاً تزوّج امرأة قصيرة صغيرة الخلق سيّئة الخلق، فقاسى منها شدائد، فطلّقها وتزوّج طويلة، فقاسى منها أضعاف ما قاسى من الأولىٰ فطلّقها وقال: بعد اللتيا واللّتي لا أتزوّج أبداً، فسار مثلاً للداهية الكبرى والصغرى.

الأنس: خلاف الوحشة؛ وهو مصدر قولك آنست به بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر آنساً وأنسة، وفيه لغة أخرى: أنست به أنساً مثال كفرت به كفراً، وآنس أفعل التفضيل منه، وأصله أأنس، فقلبت الهمزة الثانية ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها، فصار آنس على وزن آدم، وفي بعض النسخ أسر وهو أفعل التفضيل من قولهم سرّني فلان مسرّة، وسرور خلاف الحزن.

دمج الشيء دموجاً: أي أدخل في الشيء واستحكم فيه، وكذلك اندمج

وأدمج بتشديد الدال.

قال أبو عبيدة: كلّ هذا إذا دخل في الشي ء واسترفيه، وإنّما يقال ليلة دامجة لأنّها تستر الأشياء بظلمتها، ويمكن أن يكون قد عداه بعلى إلى معنى استولى وهو أوفق. المكنون: المستور.

يقال باح بسرّه يبوح: بوحاً أي أظهره وأعلنه.

الأرشية: جمع رشاء بكسر الراء والمدّ وهو الحبل.

الطويّ: البئر المطوّية وهي مؤنّث ولذا أنّث صفته وهي البعيدة.

الاعراب

إعلم أنّ المعرّف باللام لمّا امتنع إدخال حرف النداء عليه، لاستلزامه اجتماع حرفي التعريف على كلمة واحدة، أتوا في الصورة بمنادى مجرّد عن حرف التعريف وهو أي أو هذا، ثمّ اتبعوه المعرّف باللام فقالوا: يا أيّها الناس ويا أيّها الرجل صفة له، وانّما أتوا بحرف التنبيه وهو ها:

إمّا: للتنبيه على أنّ المنادى على ما بعدها، وإمّا لأنّ أيا ملازم للإضافة فأتوا أيّها ليكون كالعوض من المضاف اليه، وأمّا البدل على خروج أيّ عن بابها ووجب رفع الناس لأنّه المقصود بالنداء، ويستوي في أيّ المفرد والمثنّى والمجموع، وقد يحذف النداء ما هو كثير الدوران على الألسنة.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ أيّها الناس منادى حذف النداء تخفيفاً.

الباء في بسفن: للاستعانة.

ماء آجن: خبر مبتدأ قد حذف تعويلاً على القرينة الحاليّة تقديره: هي ماء آجن؛ أي الخلافة، ويحتمل أن يكون المقدّر مؤخّراً في النيّة وتقديره: ماء آجن هي، وهو أقرب إلى البلاغة، وذلك لدلالته على الحصر للقلب أو للإفراد، وهو أنسب بالمبالغة التي كان عليه السلام بصددها. وبل: مخفّف حرف يعطف

بها الحرف الثاني على الأول فيلزمه مثل إعرابه وهو الإضراب عن الأول للثاني، كقولك: ما جاءني زيد بل عمرو، وما جاءني أخوك بل أبوك.

قال الأخفش عن بعضهم: إنّ بل في قوله تعالى: ص والقرآن ذي الذكر بل الّذين كفروا في عزّة وشقاق بمعنى: أنّ، ولذلك صار القسم عليها، قال: وربّما استعملت العرب في قطع كلام واستيناف آخر، فأنشد الرجل منهم الشعر فيقول: بل؟ ما هاج أحزاناً وشجواً قد شجا؟، ويقول بل؟، وبلدة ما الأنس من آها لها؟[1].

قوله بل ليست من البيت ولا يعدّ في وزنه، وجعلت علامة لانقطاع ما قبله، وهنا يحتمل الأمران، وستعرفهما في الفحوى؟.

ولو بحت به: جملة شرطيّة وقعت نعتاً لعلم. واضطراب: نصب المصدر الّذي هو منعوت لنعت هو مضاف إليه تقديره: اضطراباً مثل اضطراب.

المعاني

إنّما قطع أفلح عمّا قبله ليقع تعليلاً للأوامر الدالّة بالمطابقة على ترك المنافرة والمفاخرة، وبالالتزام على الإعراض عنه عليه السلام، والسكوت عن الطلب، فكأنّ قائلاً قال: لم يجب علينا القعود عن الطلب، قال: لأنّ الطالب إنّما يجوز له الطلب عند وجود الناصر، وهنا لا ناصر.

أيضاً التفت من الخطاب إلى الغيبة وأورد الكلام في معرض مثل يعمّه وغيره، مريداً به نفسه خاصّة ليكون أسرع إلى القبول وأقرب إلى الإذعان له، فإنّ الشخص إذا أراد أن يثبت لنفسه أمراً وأورده في كلام مختصّ به ربّما لا يقبل منه، بناءً على أنّ التخصيص لابدّ له من فائدة محدّدة مخصّصة.

أمّا إذا أعمّ فيندرج فيه بالضرورة ويقبله كلّ أحد سمعه، وثمّ قيل

---

(١) كذا في الأصل.

المصيبة إذا عمّت طابت. وليس المراد هنا بأو الشكّ في الحكم الّذي هوخاصّية ايراد في الكلام، بل المراد التنويع،يعني: النوعان محقّقان في الخارج ولا ينبغي للطالب أن يدّعي لأحدهما ولا يتردّد.

والفاء في فأراح: للتسبيب، يعني: الإستيلام سبب للإراحة من التعب عند فقد الناصر، وإنّما أورد بلفظ الماضي ليدل الوقوع واستمراره، وإنّما حذف المسند إليه من ماء آجن إمّا لأنّ الخبر لا يصلح إلّا له في الحقيقة أو ادّعاء، أو للإيذان بانّ التعويل على شهادة العقل بواسطة القرائن الحالية أقوى من شهادة اللفظ.

وإنّما نوّن ليؤذن بالتفخّم أو التنويع، يعني: هي ماء عظيم آجن أو نوع مخصوص من الماء الآجن. وكذا الكلام في لقمة، ولكن هنا خاصّيّة: وهي جعل يغصّ نعتاً للّقمة ليدلّ على الاستمرار والثبات دلالة ماء آجن على الثبوت لكونه جملة اسميّة.

والله لابن أبي طالب إلى أمّه: جملة وردت في معرض الإنكار، وتسمّى جملة طلبيّة أو انكاريّة. وبل إنّما يستعمل إذا كان للإضراب عن الأول للثاني إذا كان المراد صرف الحكم عن محكوم له إلى آخر على ما عرفت في علم المعاني، وهنا قد صرف الحكم عن محكوم له محذوف، دلّ عليه سياق الكلام إلى محكوم له محقّق نفس الأمر تقديره: سكت عن الطلب لأنّه يخاف على نفسه.

بل اندمجت: يعني ليس السكوت للخوف بل للاستيلاء على العلم الموصوف، أمّا إذا كان بمعنى أنّ فهي جملة إنكاريّة والباقي واضح ممّا قرّرنا، ولو اشتغل بذكر جميع الخواصّ الّتي اشتمل عليها كلامه عليه السلام لخرج كتابنا هذا عن حدّ الاقتصار إلى حدّ التطويل، بحيث ربّما يفضي إلى عشرين مجلّداً، إذ ما من تركيب إلّا له خواصّ، ولكن يمكن استخراجها من القواعد الّتي تلوناها عليك في علم المعاني لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

البيان في أنواع الفتن: استعارة تخييليّة مرشّحة مكنّى بها عن ثوران الفتنة وقيامها واضطرابها، مستلزمة لتشبيه الفتن وهي معقولة، بالبحر المتلاطم وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما عند هيجانها في كونهما سبباً لهلاك من وقع فيهما، وتخييل أنّها من أفراد البحر، وإلّا لم يصحّ إضافة الأمواج الّتي من خاصّيّة المشبّه به إليها، وبتلك الإضافة حصل الترشيح.

وفي بسفن النجاة: استعارة تخييلية مكنّى بها عن التشبّث بما يكون ذريعة إلى الخلاص من هيجان تلك الفتن، مستدعية لتشبيه كل ما يكون وسيلة إلى الخلاص منها من إمام هاد أو حيلة أو صبر وهو معقول، بالسفن وهي محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في كونهما وسيلة إلى السلامة وهو عقلي، والأولى أن يكون المشبّه هو أهل البيت عليهم السلام، ليكون مطابقاً للخبر الوارد عن النبي صلّى الله عليه وآله وهو قوله: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق.

قوله تيجان المفاخرة: استعارة تخييلية مرشّحة مكنّى بها عن حصول أسباب الافتخار من الأموال والأولاد والأصول الكريمة والوجوه الحسان، مستدعية لتشبيه تلك الأسباب بالتيجان، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما موجباً للافتخار بهما والمفاخرة، وهو عقلي، وتخييل أنّها من أفراد التيجان، وإلّا لم يصحّ إضافتها إلى المفاخرة، وبقوله وضعوا رشّحها. في أفلح من نهض بجناح: استعارة تخييلية مستدعية لتشبيه الأعوان والأنصار بالجناح، وهما محسوسان.

وجه الشبه: أنّ القدرة على النهوض للحرب والطيران في ميدان المحاربة إنّما كانت ممّا يهمّ، كما أنّ الطائر لا يتهيّأ له الطيران والتصرّف إلّا بالجناح، وهو عقلي، وتخييل أنّهم من أفراد الجناح. وفي قوله ماء آجن: استعارة تخييلية مكنّى بها عن أنّ الخلافة قد اكتست بالباطل، وطلبها في هذا الوقت ممّا يشوّش العالم وينفّر الخلائق، مستدعية لتشبيهها وهي عقلية مفردة بالماء المتغيّر وهو حسّي مركّب،

وجه الشبه: اشتراكهما في كون مدار الحياة الدنيوية عليهما، وهو عقلي، وتخييل أنّها من أفراده، وإلّا لم يصحّ جعله خبراً له.

في لقمة يغصّ بها آكلها: أيضاً استعارة مثل الّتي قد مرّت من قبل عن غير فرق إلّا في المشبّه. في مجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه: استعارة مرشّحة تخييلية مكنّى بها عن أنّ الطالب للخلافة في غير وقت الطلب لا يحصل له الانتفاع بها، ولا يفوز بمطلوبه، وتشبيه صريح مذكور فيه طرفاه، وحرف التشبيه دون وجهه.

أمّا الاستعارة فهي مستلزمة لتشبيه الخلافة وهي معقولة بالثمرة وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما محلّا الالتذاذ به وغيره، وهو عقلي، وتخييل أنّها من أفراد الثمرة، وإلّا لم يصحّ إضافة المجتني إليها، مريداً به طالب الخلافة، وبها بذكر إيناعها رشّحها.

أمّا التشبيه: فهو تشبيه مجتني الثمرة بالزارع بغير أرضه، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الانتفاع، إذ كما أنّ الزارع بغير أرضه بصدد أن لا ينتفع بزرعه لمنع صاحب الأرض إياه من الانتفاع، كذلك مجتني الثمرة لغير وقتها لا ينتفع بها. وفي لاضطربتم إلى آخره: تشبيه لهيئة صورهم عند وقوفهم على ما أوقفهم عليه السلام من العلم، بهيئة الحبال المرسلة إلى البئر البعيدة وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاضطراب والقلق وهو أيضاً حسّي، وهو تشبيه طرفاه مركّبان، ووجه الشبه مفرد.

البديع

في شقّوا إلى النجاة: التتميم، وبين المفاخرة والمنافرة: المتوازي والترصيع، وكذا بين جناح وفأراح. وفي قوله: هيهات بعد اللتيا والّتي: ارسال المثل. قوله: مكنون علم لو بحت به: المقابلة؛ حيث قابل قوله: مكنون بقوله: بحت.

الفحوى

إعلم أنّ سبب تكلّمه عليه‌السلام بهذه الكلمات ما روي: أنّه لـمّا تمّ لأبي‌بكر في ثقيفة بني ساعدة أمر البيعة، أراد أبوسفيان‌بن حرب أن تقع الحرب بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضاً، فيكون في ذلك دمار للدين واندراسه، فذهب إلى العباس‌بن عبدالمطلب رضي الله عنه فقال له: يا أبا الفضل إنّ هؤلاء قد ذهبوا بهذا الأمر من بني هاشم وجعلوه في رجل من بني تيم، وإنّه ليحكم فينا غداً هذا الفظّ الغليظ من بني عديّ.

فقم بنا حتّى ندخل على عليّ ونبايعه بالخلافة، فأنت عمّ رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأنا رجل مقبول القول في قريش، فإن دافعونا عن ذلك قاتلناهم قتالاً شديداً وقتلناهم إلى آخرهم، فأتيا أميرالمؤمنين ـ عليه‌السلام ـ فقال له أبوسفيان: يا أبا الحسن لا تغافل عن هذا الأمر، متى كنّا تبعاً لتيم الأرذال، وكان علي عليه‌السلام يعلم أنّه لا يقول ذلك غضباً لدين الله.

كان رسول‌الله قد شافهه بجميع ما يكون بعده بوحي من الله، وأمره بلزوم البيت والسكوت لفقد الأنصار، والاحتراز من ازدياد الفساد، فأجابه عليه‌السلام بهذا الكلام. قوله شقّوا إلى النجاة: أي خلّصوا أنفسكم من الهلاك في اضطراب تلك الفتن الجاربة، بالتشبّث على ما يكون مخلّصاً إياكم من الصبر إلى وجود الأنصار، أو السماع إلى قول أهل البيت عليهم‌السلام، تاركين المقاتلة والمجادلة الهادمة لقواعد الدين، القاصفة لاغصان اليقين، ولا تزلزلوا ولا تضطربوا.

قوله وعرّجوا من طريق المنافرة: أي ميلوا وانعطفوا عن طريق المنافرة المثيرة للفتن إلى الثبات والسكون على ما يسكن الفتنة. قوله وضعوا تيجان المفاخرة: باليد للأمر الأول وبالغة في نبذ عادة الجاهلية وراء الظهور، والاستسلام على الدين القويم والصراط المستقيم، أي اتركوا الأسباب المفضية إلى التفاخر المثير للضغائن، المغشي للأحقاد، المبدي للفتن، ولا تلتفتوا إليها، فإنّ الالتفات إليها من علامات

ضعف الدين، وإمارات قوّة الركون إلى أدب الجاهلية.

ثمّ لما نهاهم عن المفاخرة والمنافرة بيّن لهم أنّهما حظان ودمان(١) أوردتهم ما كان طريق من أراد أن يتصدّى للخلافة، وقال: أفلح من نهض بجناح: أي ليس الأمر كما اعتقدتم من المفاخرة والمقاتلة، بل الرأي الصائب في هذا الأمر أن يكون الطالب إن كان ذا أعوان وأنصار فيقوم بهم، فحينئذ يحصل بمطلوبه، وإن لم يكن له أعوان أيضاً فينقاد لمن كان في تصرّفه، فيستريح من تعب الطلب.

ثمّ نبّه على أنّ الاستسلام أوفى حينئذ وأوفق لرعاية حوزة الدين، لعدم الأعوان والأنصار بقوله: ماء آجن ولقمة يغصّ بها آكلها؛ أي أنّها في هذا الوقت طلبها لا يثير إلّا الغصّة والفتنة في العالم، وكما لا تحصل الإساغة بالماء المتغيّر، والالتذاذباللقمة الواقفة في الحلق، كذلك لا يحصل الفوز حينئذ لمن قام بمنازل لا يفوز إلّا بالمتاعب الشاقّة، والإقدام على مثل هذا ممّا لا يفعله ذو الرأي المتين.

ثمّ بيّن أنّ طلبها في هذا الوقت لا يجدي جدوى لأنّه ليس وقته بقوله: ومجتني إلى أرضه: يعني؛ كما لا ينتفع مجتني الثمرة في غير وقت نضجها بها أصلاً، كذلك لا ينتفع طالبها في هذا الوقت، وكذا التمثيل الأول بتشبيه يدركه كلّ فهم قاصر، وتشبيه المجتني بالزارع.

ثمّ نبّه على أنّ الألسنة الطويلة والأوهام الفاسدة في حقّه لا تنقطع أصلاً، سواء طلب أو سكت عنه بقوله: فإن إلى من الموت: يعني؛ إن أقم طالباً لها يقولوا إنّه قد حرص على الأمر واشتدّ اهتمامه بأمر الدنيا، وإن أسكت ولم أطلب يقولوا إنّه أعرض عنها لأنّه يخاف من أن يهجمه الموت لو قاتل، وليس له الصبر على المقاتلة، وهكذا ألسنة الخلق، لا تزال مولعة بأمثال هذا، بعضهم في بعض في المناقشات.

ثمّ لمّا كان المرجّح عنده القعود، وأراد أن يقطع ما توهّموا في حقّه من

---

(١) كذا في الأصل.

الجزع من الموت، قال: هيهات بعد اللتيا والّتي: أي؛ بعد ما يتوهمون في حقّي، ويقولون أبعد ملاقاة الخطوب العظيمة ومقاساة الكروب الجسيمة الصغيرة، أجزع من الموت؟ ثمّ أكّد تكذيبهم في دعوى جزعه من الموت بالقسم البارّ إنّ استيناسه بالموت أكثر من استيناس الطفل بثدي أمّه.

وذلك أمر بيّن في حقّه عليه السلام، لأنّ الموت هو أحد الأسباب الموصلة إلى النعيم الأبدي والسعادة الكبرى، وهو إن كان في الظاهر فناء واضمحلالاً فهو في الحقيقة ولادة ثانية، يعني: كما كانت الولادة الاولى سبباً للحياة الدنيويّة الفانية، كذلك الموت الّذي هو الولادة الثانية سبب للحياة الأخرويّة، ولذلك منّ الله تعالى به على الإنسان وقدّمه على الحياة، حيث قال:

«الّذي خلق الموت والحيوة ليبلوكم(١)»، وعدّه علينا نعمة، حيث قال: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم(٢)»، ونبّه على أنّه السبب الموصل إلى الحياة الاخرويّة، حيث قال: ولئن متّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون(٣).

قال أيضاً: «ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير ممّا يجمعون(٤)»، وقال بعضهم: الإنسان ما دام في دنياه مستصحباً لبدنه جارٍ مجرى الفرخ في بيضه، فكما أنّ من كمال الفرخ فلق البيض عنه وخروجه عنه، وكذا من شرط كمال الإنسان مفارقة هيكله.

ولو لا هذا الموت لم يكمل الإنسان، وإذا عرفت أنّ الموت سبب موصل للحياة الأبديّة، لمن كان متيقّناً بحسّ ما أعدّ الله تعالى للصادقين المتّقين المعرضين

---

(١) الملك: ٢.

(٢) البقرة: ٢٨.

(٣) آل عمران: ١٥٨.

(٤) آل عمران: ١٥٧.

عن زخارف الدنيا ولذّاتها، وكان عند العارف هو باب يدخل به إلى مطالعة جلال الله وكبريائه مجرّداً عن الغواشي البدنية والعوائق الجسمانية.

وكان علي عليه السلام سيّد العارفين بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله المتنزّهين عن الالتفات إلى الدنيا والركون إلى لذّاتها، على ما ينبىء عنه قوله: لألفيتم دنياكم أزهد عندي من عفطة عنز: ارتفع الريب عن ذهنك إنّ أنسه بالموت لا يناسب أنس الطفل بثدي أمّه، والفرق بين الأنسين بقدر الفرق بين الحياة الأبديّة الموجبة للّذّة السرمديّة، والارتضاع الموجب للّذّة الفانية في لحظة واحدة، ثمّ نفى ما توهّموا في حقّه عليه السلام من أنّ الإجمال ما هو سبب القعود بقوله:

بل اندمجت الى آخره: أي بل السبب لقعودي عن الطلب هو استيلائي على علم عظيم الشأن رفيع البيان، وهو العلم بعواقب الأمور وخواتيم الأفعال، وبما تؤول إليه أحوالكم، وما انطوت عليه نياتكم وضمائركم، المستفاد من صفاء الباطن وجلاء النفس عن أدناس الميول النفسانية، الّتي هي المرآة المحاذية لجميع ما نقش بالقلم الإلهي في اللوح المحفوظ لكلّ نفس انسانية، على ما ينبئ عنه قول النبي عليه السلام: المؤمن مرآة المؤمن.

قوله عليه السلام المؤمن ينظر بنور الله: لو أظهرت ما أعلم من أحوالكم وأحوال الآخرة لوقعتم في اضطراب عظيم وقلق جسيم، بحيث تختلّ قواعد إيمانكم بالكلّيّة، ويقع الهرج والمرج بينكم.

مثل شدّة اضطراب الحبال المرسلة في الآبار البعيدة، وإنّما وصف الطويّ بالبعيدة ليؤذن بشدّة اضطرابهم لو وقفوا على ذلك العلم، لأنّ البئر كلّما كانت أعمق كان الاضطراب للحبال أشدّ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى العلم بالله تعالى وصفاته ما كان به شكر العارفين، من العلم بحقائق الأشياء والتطلّع على عالم الملكوت وأسرار عالم الجبروت، وهو المشغل عن كلّ شيء سواه تعالى.

وهو احتمال جيّد، ومن أنصف بعين الإنصاف وطرح التعصب

والاعتساف، ونظر إلى قوله: لألفيتم دنياكم أزهد، وقوله: والله لابن أبي طالب الى الآخر، وتأمّل حقّ التأمّل، وكان ممّن له ذوق سليم وطبع مستقيم، عرف أنّه لا يتهيّأ التلفّظ بمثل هذه الكلمات إلّا لمن بلغ النهاية في الزهد والإعراض عن الدنيا، ووصل الغاية إلى العرفان والعلم بالله، وفاز بكلّ كمالات تابعة لهذين الكمالين، والله أعلم بحقيقة الحال.

اللطائف الرشيديّة

سألت تلك الحضرة لا زالت مفزعاً للأفاضل والفواضل، وملجأ للأكامل والكوامل، يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأخرى من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، بحدود دينور، عن تحقيق قوله عليه السلام:

والله لابن أبي طالب إلى الطويّ البعيدة: فأفاد مرتجلاً راكباً أولاً: أنّ مثل هذا الكلام الّذي صدر من مثله عليه السلام لا يجوز أن يحمل على المبالغة، أو الدعوى الصادرة من المدّعين بناءً على العادات المطّردة بين الناس.

لأنّه عليه السلام مع كمال مرتبته وجلال منزلته، لا يصدر عنه كلام إلّا موافقاً لما أخبر عنه مطابقاً إيّاه، بل ينبغي أن يعتقد حقيقته وكونه طبق المفصّل وأصاب المحز[1]، وثانياً: أنّ مراده عليه السلام أنّه في الأنس بالموت أثبت مقاماً وأرسخ قدماً من أنس الطفل بثدي أمّه، لان الطفل إنّما يأنس به طلباً لان يرتضع منه، وذلك المطلوب ربما يلفت وجهه عنه إذا ارتوى منه، أو شبع من الطعام أو ضجر منه.

وأنسه عليه السلام بالموت لرسوخ قدمه في مقرّ الإيقان به، وثباته على وصوله إليه بغير أمره واختياره، والناس إنّما يتنفّرون عنه لأمرين: أحدهما: انهماكهم في اللذّات الدنيويّة الموقعة إيّاهم في غمرات الغفلة، واشتغالهم باستيفاء

---

(١) كذا في الاصل.

الملاذّ العاجلة الحادية إياهم إلى مهوة المهانة، ولمّا كان جنابه المعلّى تقدّس عن أن يرتع في رياض الغفلات، أو يحطّ رجله في منازل الحيوانات، كان آنساً بالموت الّذي هو يخلع الحياة الفانية ويلبس الحياة الأبديّة، ولا يكون له منه نفرة، ولا من وصوله إليه ضجرة.

الثاني: تورّطهم في الذنوب المورّطة إيّاهم في هاوية صدد استحقاق النيران، وتثبّطهم في دفع العيوب المسخطة ربّهم لانغمارهم في غمرة العصيان والطغيان،فيفرّ بهم من الموت الّذي يرفع الحجاب بينهم وبين النار، على ما ينبئ عنه قول أميرالمؤمنين عليه السلام:

وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت: إن ينزل به ليست بالحقيقية إلا من النار المعدّة للعصاة المتمرّدين، ولما كان أميرالمؤمنين عليه السلام لم يحم حول حمى الذنوب أبداً، ولم يذق نفسه حلاوة العيوب، لم يكن خائفاً منه بل آنساً به.

ثمّ رسم ــ أدام الله ظلال جلاله ــ أنّ قوله:

بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة: تحقيق لما قلنا وتوضيح له، قال: من اشتمل على أسرار علوم لو باح بها أي لو أظهرها وأفشاها، لوقع الاضطراب العظيم بين السامعين بسماعها، لقصور أفهامهم عن إدراكها، وعجز عقولهم عن الإحاطة بها، اضطراب الحبال في الآبار البعيدة.

كان بمعزل عن أن يخاف من الموت أو يتنفّر منه، بل كان مستأنساً به غير مستوحش منه، وانّما شبّه الاضطراب باضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة، لأنّ البئر كلّما كانت أبعد، كان اضطراب الأرشية فيها أشدّ، فبيّن بهذا التشبيه شدّة اضطرابهم في الغاية عند سماعها.

* * *

٦ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لمّا أشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصدهما القتال:

وَٱللّٰهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ(١) : تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا(٢) ؛ وَلٰكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي. فَوَٱللّٰهِ مَازِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ(٣) مُنْذُ قَبَضَ ٱللّٰهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا.

اللغة

اللّدم بسكون الدال: الضرب، يقال التدمت النساء: إذا ضربن وجوههنّ وصدورهنّ للنياحة، قال الأصمعيّ: اللدم هو صوت الحجر يقع على الأرض وليس بالصوت الشديد. ختل: بالفتح في الماضي والكسر في الغابر ختلاً أي صدعه، وكذا خاتله، والتخاتل: التخادع. الراصد للشيء الراغب له بقوله: رصده يرصده رصداً، والترصّد الترقّب، وأرصدت له أعددت له. الإدبار: نقيض الإقبال، ومنه أختل المدبر.

يقال أراب الرجل أي صار ذا ريبة، والريبة اسم التهمة بالكسر. الأبد: الدهر، والجمع آباد وأبود، يقال: أبد الأبد كما يقال دهر داهر، والأبد أيضاً الدايم، والتأبيد التخليد.

يقال: استأثر فلان بالشيء أي استبدّ به. وحكى ابن السكيت: رجل أثُرٌ على فعل بضمّ العين إذا كان ليستأثر على أصحابه، أي يختار لنفسه أخلاقاً وأفعالاً حسنة.

---

(١) في م: لا أكون مثل الضبع.

(٢) في م: يختلسها راصدها.

(٣) في م ول: مستاثراً عليّ غيري منذ.

الاعراب

الضبع: مؤنّث سماعي، ولذلك أنّث تنام وهو صلة لموصول قد حذف تعويلاً على القرينة الحالية تقديره: الضبع الّتي تنام هي. وحتّى يقع على ثلاثة أوجه: الأول: أن ينصب ما بعدها وذلك عند شرط واحد، وهو أن يكون ما بعده مستقبلاً بالنظر إلى ما قبله، وإن لم يكن مستقبلاً عند الإخبار، لجواز قولك: اليوم سرت «مقبول القول» أمس حتى أدخل البلد بالنصب، إذا تعرض هو الإخبار عن الدخول المترقّب عند ذلك السير، من غير نظر إلى حصوله، وعند التحقيق يكون بياناً لأنّ ما قبله علّة لما بعده، كما ترى في قولهم: أسلمت حتى أدخل الجنة.

هذا إذا كان بمعنى كي، وحتّى يصل في قوله عليه السلام من هذا القبيل، وقد يكون بمعنى إلى، نحو: سرت حتّى تغيب الشمس؛ أي إلى أن تغيب، لأنّ السير ليس سبباً لغيبوبة الشمس، وحتّى في قوله عليه السلام: حتّى يأتي عليّ يومي؛ بمعنى إلى، إذ ليس الضرب سبباً لإتيان يومه عليه السلام.

الثاني: أن يكون لانتهاء كما كان إلى، إلّا أنّ حتّى ظاهر الدلالة في دخول ما بعدها فيا قبلها، نحو قولك: أكلت السمكة حتّى رأسها، ونمت الليلة حتّى الصباح، والمعنى: أكل الرأس، ونام الصباح، وحتّى يوم الناس من هذا القبيل، والفرق بينها وبين إلى ظاهر لفظاً ومعنى، إمّا لفظاً: فلأنّ حتّى لا تدخل على المظهر بخلاف إلى.

فإنّها تدخل على المضمر كما تدخل على المظهر، وأمّا معنى: فهو إنّ ما بعد حتّى يجب أن يكون آخر جزء ممّا قبلها كقولنا: أكلت السمكة حتّى رأسها، فإنّ الرأس آخر جزء السمكة، أو ما يلاقي آخر جزء منه، كقولك نمت البارحة حتّى الصباح، فإنّ الصباح يلاقي آخر جزء البارحة.

الثالث: أن يقع حرف ابتداء، وذلك إذا انتفى كون ما بعدها مستقبلاً بالنظر إلى ما قبلها، لامتناع تقدير أن حينئذ فيكون ما بعدها حالاً، مثل سرت

حتى أدخل، مخبراً عن السير حال الدخول. الباء في اضرب بالمقبل: للاستعانة، ومستاثراً: خبر بعد خبر لما زال، وهذا نعت ليوم الناس، منذ: هنا للتاريخ.

المعاني

والله لا أكون: جملة خبرية أوردت لردّ الشاكّ المنكر، أو في إنكار إلى ما هو المحكوم به في نفس الأمر، وحتّى: للتاريخ؛ يعني أنّ وصول طالبها وخداع راقيها بعد اللدم بزمان مدرج، ولكن لردّ الحكم من الخطأ الى الصواب، وهنا قد ردّ من اعتقد فيه عليه السلام الرضى بالبغي والظلم، والركون إلى متابعة مخالفيه من ذلك الاعتقاد الخطأ، إلى المقاتلة وعدم الرضا بها وهما الصواب، وفي إيراد أضرب بعد الضمير الراجع إليه عليه السلام فائدة الاستمرار والثبات على ما عرفت، غير أنّ تقديم المسند إليه على المسند إذا كان فعلاً مستقبلاً يفيد الإستمرار.

وفي تقديم بالمقبل فائدة القصر للإفراد، يعني: ما أضرب إلّا باستعانة من المقبل إلى الحقّ دون الانفراد، ودون الاستعانة وبغيره جميعاً او بغير وحده، وكذا في بالسامع، وإنّما وحّد المقبل وما عطف عليه من الألفاظ المفردة المحلّاة باللام للاستغراق، ليكون أبلغ في إفادة الاستغراق مع اشتماله على الاختصار في اللفظ على ما عرفت، في قوله تعالى: ربّ إنّي وهن العظم منّي. فوالله ما زلت: أيضاً جملة خبرية أوردت لردّ المتردّد في الحكم إلى ما هو الصواب في الواقع، والباقي معلوم من القواعد السالفة في علم المعاني.

البيان

قد شبه عليه السلام بقوله: لا أكون إلى راصدها؛ تأخره عليه السلام عن القتال معهم والمقاومة والصبر على مكرهم وخداعهم، حين قصدوه بالاستيلاء عليه السلام لو صبر، بمصبر الضبع بأخّرها عن المقاومة ونومها حين يقصدها الضابط بضرب الحجر، ووجه الشبه ما أشار إليه عليه السلام بقوله تنام على طول، وهو التغافل حتّى يستولي الخصم القاصد عليه، وهذا تشبيه المركّب بالمركّب.

ووجه الشبه عقلي، ومراده عليه السلام: أنّه لو تأخّر لكان مثل الضبع في استيلاء الخصم عليها، ولكن لا يجوز للعاقل أن يرضى بغلبة الخصم عليه، فلذلك أكّد نفي الرضا بالقسم البارّ، ونفى كونه عليه السلام مثل الضبع في الحالة المذكورة، وإتيان اليوم المقدّر كناية عن الموت.

البديع

راعى في أضرب بالمقبل إلى أبداً: المقابلة؛ حيث قابل المقبل بالمدبر، والعاصي بالمطيع، والمريب بالسامع، لأنّ المرتاب في الحقّ مقابل للقائل له.

الفحوى

قال أبو عبيدة[1]: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام يريد الطواف وقد عزم اتّباع طلحة والزبير وقتالهما، فأشار عليه ابنه الحسن عليه السلام أن لا يتّبعهما ولا يرصد لهما القتال، أي لا يعدّ، فأجابه عليه السلام بهذا الكلام، وروي في سبب نقضهما البيعة: أنهما دخلا عليه بعد أن بايعاه بأيّام وقالا: قد علمت جفوة عثمان لنا وميله إلى بني أميّة مدّة خلافته، وطلبا منه أن يولّيهما المصرين: الكوفة والبصرة، فقال لهما: أنظر، ثمّ استشار عبدالله بن العباس، فمنعه من ذلك، فعاودا فمنعهما، فسخطا وفعلا ما فعلا.

قوله: والله لا أكون إلى راصدها: إشارة إلى أنّي لا أقدر أن اتّبعهما ولا أعدّ لهما للقتال، لأنّهما يريدان أن يخدعاني ويغلبا عليّ ظالمين باغين، والإطمينان إلى الانظلام ظلم عظيم، لا يركن اليه العاقل، فلو تأخّرت لكنت شبيهاً بالضبع الّتي

(١) معمر كجعفر بن مثنّى البصري النحوي اللغوي، كان متبحّراً في علم اللغة وأيام العرب وأخبارها، أخذ عن يونس بن حبيب النحوي، وهو أوّل من صنّف غريب الحديث، وكان أبو نؤاس الشاعر يتعلّم منه ويصفه، مات في سنة ٢١١.

تنام وتسكن على طول حيلة صائدها حتّى يستولي عليها.

ويحكى في كيفية صيدها: أنّهم يضعون في جحرها حجراً ويضربون بأيديهم بابه[١] ... الحجر سبباً لصيده فتخرج فتصاد، ويقال أنّها من أحمق الحيوان، وكان من غاية حمقها يدخل عليها فيقال ليست هذه أمّ عامر فيسكن حتّى يوثق رجلها بحبل معدّ لصيدها.

وبالتحقيق، هذا الكلام في تقدير ملازمة شرطيّة هي: لوتأخّرت لكنت راضياً بالبغي والظلم عليّ، ولكنّي لا أرضى بهما فلا أتأخّر، بل أقاتل بالاستعانة من المقبلين إلى الحقّ المعرضين عن وساوس الشياطين، مع المدبرين عنه، فيلزم، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: لكنّي إلى أبداً، ثمّ فسّر الأبد بغاية عمره لأنّه الأبد الممكن.

ثمّ نبّه على أنّ مثل هذه الحالة من نقض البيعة والغدر والمنع من الحقّ ليس أوّل قارورة كسرت في الاسلام بقوله:

فوالله إلى آخره: يعني أول زمان كوني مدفوعاً عن حقّي الثابت لي بالنصّ بعد اسمها لي له[٢] مختاراً على غيري، يوم اختار الله لقاء النبي صلوات الله عليه مع هذا اليوم الّذي كنّا فيه.

وهي شكاية مؤكّدة للشكايات السابقة مقرّرة لما أنّ هذا الأمر بلاء مستمرّ عليّ من يوم المفارقة، وأشار بالحقّ إلى الخلافة، وبالله العصمة.

* * *

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) كذا في الأصل.

٧ـ وَمِنْ خُطْبَةٌ لَهُ عَلَيْهُ السَّلامُ

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ[(١)] لأَمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرَّكَهُ الشَّيْطانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ.

اللغة

الإتّخاذ: افتعال من أخذت الشيء آخذه أخذاً؛ أي تناولته، الا أنه أدغم بين تليين الهمزة وابدال التاء، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال توهموا أن التاء اصلية، فبنوا منه فعل يفعل، قالوا اتّخذ يتّخذ[(٢)]... ملاك الأمر بفتح الميم وكسرها ما يقوم به، ومنه يقال القلب ملاك الجسد، وفي بعض النسخ مالكاً، وهو اسم فاعل من ملكت الشيء أملكه ملكاً.

الأشراك : يجوز أن يكون جمع شريك كأشراف وشريف، وأن يكون جمع شرك وهو حبائل الصيد كجبل وأجبال، الواحدة شركة. الفرخ: ولد الطائر.

يقال أفرخ الطائر وفرّخ: إذا أخرج الفرخ من البيض.

دبّ على وجه الأرض يدبّ دبيباً: إذا مشى مشياً ضعيفاً، وكلّ ماشٍ على الأرض دابة.

درج الرجل والضبّ يدرج دروجاً: إذا مشى مشياً قوياً الدبيب يقال أيضاً درج القوم إذا انقرضوا، وفي المثل: أكذب من دبّ ودرج، أي أكذب الأحياء والأموات. الحجور: جمع حجر الإنسان بالفتح والكسر.

---

(١) في م: اتّخذوا الشياطين.

(٢) كذا بياض في الأصل.

قال الفرّاء: زللت بالكسر في الماضي والفتح في الغابر زللاً إذا زلّ طين أو منطق. الخطل: المنطق الفاسد المضطرب.

يقال خطل في كلامه: بالكسر في الماضي والفتح في الغابر خطلاً وأخطل أي أفحش.

شرّكته في البيع والميراث: بالكسر في الماضي والفتح في الغابر شركة. السلطان: الحجة، ومنه قوله تعالى: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان[1]».

الاعراب

انتصاب فعل يحتمل أمرين: إحدهما: أن يكون بفعل مضمر دلّ عليه سياق الكلام تقديره: فعلوا ذلك فعل، الثاني: أن يكون بغير فعله على نحو قعدت جلوساً وهو اتّخذه، والضمير في سلطان عائد الى من، والثاني ظاهر.

المعاني

الفاء في فباض للتشبيه :يعني أن اتّخاذه إياهم شراكاً سبب لأن باض، وفي إيراد الفعل الماضي دليل على الوقوع وتمكّن الشيطان منهم، وكذا الفاء ان في فنظر وفركب، والباقي معلوم.

البيان

في قوله اتّخذهم له أشراكاً: على الإحتمال الثاني استعارة حسنة مكنّى بها عن كونهم للشيطان في إضلال الخلق مسخّرين لأوامره، مستدعية لتشبيههم بحبائل الصايد، وهما محسوسان، ووجه الشبه : أنّ الشيطان جعلهم أسباباً لدعوة الخلق إلى مخالفة الحقّ، وذرائع لاصطياد الخلق بألسنتهم وأموالهم، وما ألقاه في

---

(١) الحجر: ٤٢.

خواطرهم من الوساوس، كما أنّ الصائد جعل الحبائل وسائل لاصطياد الصيود النافرة، وهو عقلي، وبالجملة اشتراكهما في كونهما أسباباً للظفر على المطلوب.

في فباض وفرّخ في صدورهم: استعارة حسنة تخييلية مكنى بها عن شدّة تمكّنه فيهم وملازمته اياهم، مستدعية لتشبيه هيئة استقرار الشيطان في قلوبهم وصدورهم، بهيئة تمكّن الطائر في عشّه بعد أن باض وفرّخ.

ووجه الشبه: أن الشيطان يلازم قلوبهم وصدورهم بحيث لا يفارقها البتّة، لتمكّن الضلال والباطل في سويدائها، ويظهر فائدة الملازمة في إضلالهم غيرهم، كما أنّ الطائر ملازم عشّه بعد أن باض، ولا يفارق حتّى ينفلق البيض ويخرج الفرخ ويكبر، وهي استعارة في غاية اللطافة ونهاية النفاسة، وتمامها يتوقّف على تشبيه قلوبهم وصدورهم بالعش.

وجه الشبه: أنها محلّ تصرّف الشيطان واظهاره نتايج فعله، كما أن العش محلّ تصرف الطائر وإبداء نتيجته، وهذا كلّه مبالغة في استيلاء الشيطان عليهم. ودبّ ودرج في حجورهم: استعارة مكنى بها عن تربيتهم للباطل، وان الشيطان قد يربّي بتربيتهم ما تيسّر دعوتهم بهم، مستدعية لتشبيه هيئة ملازمة الشيطان لهم وعدم مفارقته عنهم، بهيئة ملازمة الطفل لوالدته وعدم مفارقته عنها، ووجه الشبه: أنّهم يدنون الشيطان ويمكّنونه من أنفسهم تربية الوالدة ولدها وتمكّنها من نفسها.

البديع

بين أشراكاً وملاكاً: السجع المطرف، وكذا بين سلطانه ولسانه، وبين صدورهم وحجورهم: المتوازي والترصيع، وكذا بين الزلل والخطل.

الفحوى

إعلم أن هذا الفصل قد ساقه عليه السلام لذمّ المنابذين لعهده المخالفين

لأوامره، فأشار أولاً بقوله: اتّخذوا الى ملاكاً إلى انقياد نفوسهم إلى شياطينها إلى حدّ جعلوا أزّمة مصالحهم إليها، وألقوا مقاليد أمورهم في أيديها، وجعلوها أولياء لأنفسهم، بحيث عزلوا عقولهم بالكلية عن التدبير، وفوّضوا تدابير معايشهم إليها.

وهذا يدلّ بالكناية على سلب الإيمان عنهم، لأنّ المؤمن لا يقدم على هذا الفعل، وانّما يقدم من لا إيمان له، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون(١)».

أشار بقوله: واتّخذهم له أشراكاً إلى انهم بعد تفويضهم أمورهم إلى الشيطان صاروا أعواناً وانصاراً له، يضلّ بهم الشيطان الخلائق، ووجه الشبه قد عرفت، هذا على الاحتمال الثاني، اما على الأول: فمعناه ان الشيطان قد اتخذهم لنفسه شركاً يضلّون الخلق عن طريق الحقّ كاضلاله اياهم.

وقوله فباض إلى حجورهم معلوم من البيان. قوله فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم: إشارة إلى نتيجة تمكّنه فيهم وملازمته لهم، وهي وجوه تصرّفه في أجزاء أبدانهم.

يعني: لما فوّضوا تدابير أنفسهم إليه وعزلوا عقولهم عن التصرّف بالكلية، جعل الشيطان أعينهم آلة إبصاره، وألسنتهم آلات نطقه، فلا ينظر أعينهم إلى الحق أصلاً، ولا يدور ألسنتهم بما هو له شائبة الحقّ، بل لا يوقع أعينهم إلّا إلى الباطل، ولا يجري ألسنتهم إلّا بالمقالات الفاسدة المفسدة، وإلى هذا المعنى الّذي هو ثمرة تصرّفه في أعضائهم وجوانبهم أشار بقوله: فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل.

يعني: أن الشيطان بمعونتهم ركب الزلل الذي هو الخطأ في الأفعال هنا مجازاً، وزيّن لهم الخطأ في الأقوال. قوله: فعل من قد شرّكه إلى آخره: تنبيه على أنّ صدور هذه الأفعال والأقوال منهم إنّما هو بمشاركة الشيطان ومتابعته، ومبالغة في أن أفعالهم لا تخلو قطّ من ضلال ومخالفة للحق.

* * *

---

(١) الأعراف: ٢٧.

٨ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
(يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك)

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ؛ وَإِلَّا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

اللغة

الزعم: حكاية قول يكون مظنّة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كلّ موضع ذمّ القائلون به، نحو «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا[١]»، «بل زعمتم ألّن لن نجعل لكم موعداً[٢]»، وغيرهما من الآيات.

المبايعة والبيعة: عهد يجري بين طائفة على الاتفاق وطاعتهم لمن جعلوه رئيساً مطاعاً، وأصلها من الباع الذي هو قدر مدّ اليدين، ولما جرت العادة في مدّ الباع لهذا العهد المشروط سمّوه مبايعة، كما يقال للعقد الذي يلزم بالتصفيق صفقة.

الوليجة: البطانة والدخلة، من ولج يلج ولوجاً وليجة؛ أي دخل.

قيل: بين الدخول والولوج فرق، وهو أن الولوج دخول على إكراه، ولهذا قال عزّ من قائل: «حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط[٣]»، وقد جاء في الخبر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في خباء، فقال له رجل: أألج، قال: بل ادخل، وانما قال ذلك لأنّ الولوج يؤذن بالكراهية.

---

(١) التغابن: ٧.

(٢) الكهف: ٤٨.

(٣) الأعراف: ٤٠.

الاعراب

الضمير في يزعم: وما كان في حيّزه للزبير، وإلّا أصله أن لا للشرط، ولهذا جاء بالفاء في جوابه، فأدغم النون في اللام، تقديره: إن لم يأت عليها بيّنة فليدخل، والباقي ظاهر.

المعاني

الفاء في فقد أقرّ: للتشبيه، وفي فليأت: فصيحة مفصحة عن محذوف هو سبب لهذا الأمر، وسيعرف تقديره في الفحوى.

البيان

ليس فيه شيء منه.

البديع

بين بيده وبقلبه: المطرف.

الفحوى

اعلم أن هذا كلام صدر منه عليه السلام لبيان صورة مناظرة جرت بينه عليه السلام وبين الزبير حين نقض البيعة ونكث العهد، مشتملة على تقدير حجّة احتجّ بها عليه السلام عليه، وصورة نقض صدرت من الزبير، وجواب صدر عنه عليه السلام عن هذا النقض.

فكأنه عليه السلام قال له عند نقضه البيعة: الوفاء بالعهود والشروط من أركان الايمان على ما دلّ عليه قوله تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً[1]»، وقول النبيّ عليه السلام: المؤمنون عند شروطهم.

(١) الاسراء: ٣٤.

فأجابه عليه السلام الزبير بأن الإيفاء بالعهود والأيمان انما يجب إذا كان الجنان موافقاً لما جرى على اللسان، وليس كذلك بل ان قلبي ما وافق لساني ويدي، وقد ورّيت في نفسي الخلاف، وانما أجاب هذا بناءً على توهمه أنّ مثل هذه الدعوى لا تقبل في الشريعة، وهو الذي أشار إليه عليه السلام بقوله: يزعم انّه بايع بيده ولم يبايع بقلبه.

ثمّ أجابه عليه السلام بقياس حذف كبراه وأشار إلى صغراه بقوله: فقد أقر بالبيعة وادّعى الوليجة، أي أقر بما هو مؤاخذته في الشريعة وادّعى أنه قد أضمر في نفسه ما هو بخلافه، والكبرى المحذوفة هي: كل من ادّعى الاضمار مخالفة القلب بعد الإقرار باللسان يحتاج إلى بيّنة تثبت دعواه، فينتج انه محتاج إلى بيّنة، وقد أشار إلى هذه النتيجه بقوله: فليأت عليها بأمر يعرف، أي بذلك الأمر صحّة دعواه الوليجة.

ثم لما كان أقدم البيّنة على الوليجة التي هي أمر باطني لا اطّلاع للشهود عليه أصلاً أمراً متعذّراً محالاً نبّه بقوله: وإلّا فليدخل فيما خرج منه، على انّ الدخول ثابت في البيعة التي أقرّ بها، وقد خرج منها بالنقض والنكث لواجب مقرّر في الشريعة.

* * *

٩ـ ومن كلام له عليه السلام

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ؛ فَلَسْنَا نَرْعَدُ[١] حَتَّى نُوقِعَ، وَلاَ نَسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ.

اللغة

رعد الرجل وأرعد وبرق وأبرق: إذا هدّد وأوعد، وذلك مشبّه بالغيم إذا أرعد وأبرق فقد انذر وأخاف، قال ابن أحمر:

يا جلَّ ما بعدت عليه بلادنا * وطلابنا فأبرق بأرضك وأرعد

وقال الكميت[٢] ايضاً:

أبرق وأرعد يا يزيد * فما وعيدك بي بضائر

أي هدّد وأوعد. الفشل: الضعف، والفشل بكسر الفاء وسكون الشين المعجمة الرجل الضعيف، وقع الشيء يقع وقوعاً: أي سقط، وأوقعه غيره أي أسقطه. سال الماء وغيره يسيل سيلاً وسيلاناً وأساله غيره وسيّله، السيل واحد السيول، وهو في الأصل مصدر، ثمّ جعل اسماً للماء الذي يأتيك ولم يصبك مطره، ومنه قوله تعالى: فاحتمل السيل زبداً رابياً.

الاعراب

الأمران كنايتان الإرعاد والإبراق وإن لم يذكرا، تعويلاً على ذكر فعلها، على طريقة قولهم: من كذب كان شرّاً له. وحتى: هاهنا بمعنى إلى، ويحتمل أن

---

(١) في ض وح ول: ولسنا نرعد.

(٢) أبو المستهل الكميت بن زيد الأسدي؛ شاعر مقدّم عالم بلغات العرب، خبير بايامها، وكان معروفاً بالتشيع مشهوراً بذلك، كان في الكميت عشر خصال: خطيب أسد، فقيه الشيعة، حافظ القرآن، ثبت الجنان، حسن الخط، نسّابة جدلاً، اول من ناظر في التشيع، رامياً، فارساً، شجاعاً، سخيّاً، ديّناً، وله مع أبي جعفر الباقر عليه السلام اخبار، وكذا مع الصادق عليه السلام، ولد سنة ستين، وتوفي سنه ١٢٦.

يكون بمعنى كي، وانما نصب ما بعدها لوقوعها بعد النفي، وكذا ما بعد نمطر.

المعاني

ليس فيه خاصّية دقيقة يحتاج إلى استخراجها، بل ما فيه من الخواص معلوم من القواعد السالفة في علم المعاني.

البيان

في أرعدوا وأبرقوا: استعارة تخييلية مكنّى بها عن شدّة تهديدهم ووعيدهم، مستدعية لتشبيه الوعيد وهو أمر عقلي، بالرعد والبرق وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الإيخاف المزعج وهو عقلي، وإنما قلنا هذا لأنّ أرعد وأبرق في أصل الوضع لإصابة الرعد والبرق لا غير، وما أوردناه من البيتين أيضاً مستعمل على سبيل الاستعارة.

في فلسنا نرعد حتى نوقع: استعارة تخييلية مكنى بها عن اثبات الشجاعة لنفسه وأصحابه، مستدعية لتشبيه هيئة تأخّر أقواله عن أفعاله بهيئة تأخّر الإرعاد عن إيقاع المطر، ووجه الشبه: اشتراكهما في المكان، يعني: كما أن إيقاع المطر أن يكون الإرعاد متأخّراً عنه، كذلك كمال الأفعال أن تكون الأقوال بها متأخّراً عنه، وفي نسيل حتى نمطر: مثل هذه الاستعارة.

البديع

بين نوقع ونمطر: المطرف.

الفحوى

اعلم انه عليه السلام ساق هذا الكلام لاثبات الدعوى المجردة للشجاعة

من غير معنى للناكثين في معرض الذمّ، واثبات معنى الشجاعة الخالي عن الدعوى لنفسه عليه السلام، فاشار أولا بقوله: وقد أرعدوا وابرقوا، إلى انهم هددونا وأوعدونا بالحرب، وبقوله مع هذين الأمرين الفشل: إلى اثبات رذيلة الجبن لهم مع إيعادهم إيانا، وهكذا الأمر في الواقع، فإنّ التهديد قبل إيقاع الحرب باللسان من إمارات الجبن، كما أنّ الثبات والسكون من علامات الشجاعة.

ومن ثم قال أميرالمؤمنين عليه السلام معلّماً كيفية الحرب: وأميطوا أصواتكم فانه أطرد للفشل، وبقوله: فلسنا نرعد حتى نوقع نبّه على إثبات الشجاعة لنفسه ولأصحابه، ونفي رذيلة الجبن عنهم، وبقوله: ولا نسيل حتى نمطر على إثبات نتائجها لهم من إسالة الدماء بعد ضرب السيوف.

والحاصل أن للسحاب حالين إحداهما: حالة نقصان وهي إقرانه بالرعد والبرق من وقوع مطر وسيل، والأخرى: حالة كمال وهي إقرانه بايقاع المطر والإسالة ثمّ بالارعاد والابراق، وقد شبّه حالهم بالحالة الأولى، وحاله عليه السلام وحال أصحابه بالحاله الثانية، هذا من الكلام الذي يشمّ منه رائحة بلوغه أعلى الرتب السنية في الشجاعة.

* * *

١٠ ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ، وَإِنَّ بَصِيرَتِي لَمَعِي[١]: مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَأَيْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ! لاَ يُصْدِرُونَ عَنْهُ، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

اللغة

حزب الرجل: أصحابه، والحزب أيضاً الطائفة، والحزب أيضاً الورد، ومنه قولهم حزبت القرآن وتحزّبوا وتجمّعوا، وانما سمّي أصحاب الرجل حزباً لتجمعهم عليه، وباضافته إلى الضمير للشيطان عيّن أن المراد به أصحابه.

جلب الشيء: بالفتح في الماضي والضم والكسر في الغابر جلباً وجلباً أي جذبه وجمعه إلى نفسه، والاستجلاب هنا بمعنى الجمع. الخيل: اسم مشترك بين الأفراس والفرسان، قال الله تعالى: ومن رباط الخيل[٢]، أي الفرس، وقال عليه السلام: عفوت لكم عن صدقة الخيل، بمعنى الأفراس، وقال تعالىٰ: واجلب عليهم بخيلك ورجلك[٣]؛ أي بفرسانك ورجالتك.

قال عليه السلام: يا خيل الله اركبي يعني الفرسان، واقتران الرجل هنا به عيّن أن مراده عليه السلام الفرسان، والراجل خلاف الفارس، وهو الماشي بالرجل وجمعه رجل كصاحب وصحب ورجالة ورجال نحو ركاب.

قيل انما سمّي الفرسان بالخيل لاختيالهم، وخيل الشيطان ما دار في الخيالات من همم السوء، ورجله ما سعت به الأرجل من الخطايا والذنوب. البصيرة: الحجة والاستبصار في الشيء، قال الله تعالى: بل الإنسان على نفسه

---

(١) في ض وح ول: وان معي لبصيرتي.

(٢) الانفال: ٦٠.

(٣) الإسراء: ٦٤.

بصيرة[١].

قيل: العقل، وقيل: البصر قوة يدرك بها الأمور المرئية، والبصيرة قوة القلب يدرك بها الامور المعقولة. يقال: لبّست عليه الأمر بالفتح في الماضي والكسر في الغابر لبساً؛ أي خلطت، ومنه قوله تعالى: «وللبسنا عليهم ما يلبسون[٢]»، واللبس أيضاً اختلاط الظلام، وفي الأمر لبسة بالضمّ أي شبهة ليس بواضح.

التلبيس: التخليط، شدّد للمبالغة، ورجل لباس ولايقال ملبس. الأيم: التوحّد، ومنه أيمت المرأة إذا انفردت عن زوجها، يقال أيم يأيم أيماً أي انفرد، وقيل للحرب مائمة لانفراد الرجال عن أزواجهم وانفرادهن عنهم، فعلى هذا يكون معنى أيم الله وحدانية الله، ستعرف تمام الكلام فيه في الاعراب.

فرطت القوم: بالفتح في الماضي والضمّ في الغابر فرطاً أي سبقتهم إلى الماء فأنا فارط والجمع فرّاط، وفرط في الأمر يفرط فرطاً أي قصّرفيه وضيّعه حتى فات، وكذلك التفريط وفرّط عليه أي عجّل وعدا، وأفرطه أي أعجله، وفرط اليه منّي قول أي سبق، وأفرطت المرأة أولاداً أي قدّمتهم، وأفرطت المرادة أي ملأتها، يقال غد مفرط أي ملآن، فعلم أن الاول متعدّ نفسه، والثاني متعدّ بفي، والثالث بعلى، والرابع بإلى. ولأفرطنّ فيه روايتان:

إحداهما: بضمّ الراء وهو عليها من فرطت القوم وهي الاشهر، والثانية: بكسر الراء وهو عليها من فرطت القوم ففرط بكسر العين في الغابر، وهي لغة بارزة جداً، وقد جاءت الرواية أيضاً لأفرطنّ بضمّ الهمزة من فرطته أي تركته، وكسر الراء وتشديدها وقدّمته، ومنه قول الشاعر: «معه سقاء لا يفرط حمله»؛أي لا يترك حمله ولا يفارقه.

---

(١) القيامة: ١٤.

(٢) الانعام: ٩.

الحوض: واحد الأحواض والحياض، وهو مجتمع الماء، وأصله من استحوض الماء أي اجتمع.

الماتح بالتاء المنقطة بنقطتين من فوق: المستق، وكذلك المتوح، يقول متح الماء بالفتح في الماضي والغابر متحاً إذا نزعه، وبنقطتين من تحت: الذي ينزل البئر فيملأ الدلو وذلك إذا قلّ ماؤها، والرواية هي الاول. يقال: صدرت عن الماء وعن البلاد صدراً أي رجعت، قيل: صدره أي أصاب صدره، أو قصد قصده نحو ظهره وكيفيته، ومنه قيل: رجل مصدور يشكو صدره، وإذا عدّي صدر بعن اقتضى الانصراف، يقول: صدرت الإبل عن الماء صدراً.

الإعراب

ألا: وضع لتنبيه المخاطب قبل الشروع في الجملة ليتنبّه لما يقال له، لأنه قد يفوته على تقدير الغفلة بعض ما ذكر، فاذا جيء بألا وقدر فوته لم يضر، ولا تدخل ألا على المركّبات. الجملة والواو بعده عطف على كلام قد سبق.

وأيم الله قيل: أصله أيمن لله حذفت تخفيفاً كما حذفت من لم يكن، وهو جمع يمين، وقيل: ليس بجمع بل اسم وضع للقسم، وألفه ألف وصل عند أكثر النحويين، ولم يجئ في الأسماء ألف الوصل مفتوحة غيرها، وهو مبتدأ محذوف الخبر.

تقديره: أيمن الله قسمي، وقيل ألفه للقطع، وقد يطرح في الوصل لكثرة الاستعمال، وما أوردناه من أنّ أيم معناه الوحدانيّة والواو للقسم معنى جيد يجوز التعويل عليه، واللام في لأفرطنّ هي اللام المفتوحة التي تدخل على الجملة المثبتة اسمية كانت أو فعلية ليدلّ على أنّ بعدها هو المقسم عليه، وكذا في لمعي، والنون قد اجتلبت لزيادة التأكيد.

وأنا ماتحه: جملة اسمية وقعت نعتاً لحوضاً، ولا يصدرون عنه أيضاً نعت

بعد نعت.

المعاني

تصدير الجملة الاولى بألا يدل على شدّة الاهتمام باستماعها وبأن على رد المخاطبين عن الخطأ إلى الصواب، وتصدير إنّ معي لبصيرتي بأن وإردافه باللام يؤذنان بأنّ هذه الجملة إنما اوردت لردّ المنكر عن الحكم المخالف لهذا في حقه إلى الصواب، وانما قطع ما لبّست عما قبله ليكون تعليلاً للجملة السابقة، وتصدير لأفرطنّ بالقسم البار.

واللام مع نون التاكيد يوذن بانّه عليه السلام انما أورد هذه الجملة لردّ المنكر المصرّ لشجاعته وقدرته على إعداد الحرب وعن اعداد الحرب عن تصور الجبن والعجز في حقه عليه السلام إلى ما هو الصواب، وتنكير الحوض يدلّ على تعظيمه، وتقديم لهم عليه يؤذن بالقصر للإفراد، ووصفه الحوض بجملتين إحداهما راجعة إلى نفسه عليه السلام، والأخرى راجعة اليهم يؤذن بتفخيم ذلك الحوض وغاية تصرفه فيه ونهاية عجزهم عن دفعه، والباقي معلوم مما ذكرنا.

البيان

في لأفرطنّ لهم حوضاً: استعارة تخييلية مرشحة مكنى بها عن اعداد حرب عظيم لهم، مستدعية لتشبيه هيئة حيازته عليه السلام الجند وتهيئة اسباب الحرب لهم، بهيئة اجتماع الماء الكثير في بركة عظيمة، وهما مركّبان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الكثرة وكونها سبباً لهلاك من انغمس فيها، وتخييل انها من أفراد هيئة اجتماع الماء في موضع، وبذكر الافراط والمتح والصدر رشّحها، ولا يصدرون عنه: كناية عن هلاك من خاض في ذلك الحرب كمن خاض في الماء العظيم وغرق فيه.

البديع

بين حزبه ورجله: المتوازي، في لا يصدرون ولا يعودون إليه راعى المقابلة.

الفحوى

اعلم أن مدار هذا الفصل على ثلاثة أمور: أولها: الذم لأصحاب الجمل وتنفيرهم عما كانوا عليه، وأشار بقوله: وان الشيطان إلى رحله يعني: أن الباعث لهم والجامع على مخالفة الحق ومتابعة الهوى، انما هو الشيطان الذي يلقي في قلوبهم الوساوس ويضلّهم عن متابعة الحق، بتسويله اياهم زخارف الدنيا، فكل من وافقهم في مخالفتي وتابعهم فهو من حزب الشيطان وفرسانه ورجالته.

وثانيها: التنبيه على كمال عقله وتمام استعداده لاستيضاح الحق وتكميل نفوس الناقصين، وعلى أنّ الأمر ليس ما تصوّروا في حقه من النقصان، وأشار إليه بقوله وإنّ بصيرتي لمعي ؛يعني انما يدرك به الأمور المعقولة، ويتميز به النافع في طريق الحق عن الضارّ ويحصل به الهداية والاهتداء معي ما فارق عني بمتابعة الهوى وغلبة الأهواء والبدع عليّ، وهو أيضاً تعريض بحالهم.

يعني أنّ بصيرتكم قد فارقتكم بركونكم إلى اقتناء اللذات واقبالكم إلى الدنيا وزخارفها وإدباركم عن الآخرة لا عنّي، فاني ثابت على الصراط المستقيم ما انحرفت، ثم أكّد ذلك بقوله: ما لبّست على نفسي ؛يعني ما خلطت على نفسي المطمئنة باتّباعي نفسي الأمّارة، ولا انخدعت بالسنّة الباطلة والتموبهات الكاذبة التي رأبتها النفس بالأمارة لانخراط النفس القدسية في سلك حزب الشيطان. قوله: ولا لبس عليّ؛ أي ما ظفر عليَّ ضالّ قدر على تخليط الحق عليَّ واضلاله إياي.

والحاصل انّ التلبّس ما حصل لنفسي القدسية لا بواسطة نفسي الأمارة ولا بواسطة غيرها من المضلّين الذين انخرطوا في سلك حزب الشيطان، وهذا أيضاً تعريض للمخاطبين بأنّهم قد التبست الأمور الباطلة عليهم باستيلاء النفس

الأمّارة عليهم وغلبة الشيطان المضلّ، وهذا الكلام مثل قول القائل لمن أراد أن ينسبه إلى خبث الولادة: اما أنا فلست بابن زان، وثالثها: تهديدهم باعداد حرب عظيمة لهم ان لم يرجعوا إلى الحق.

قوله: وأيم الله لأفرطنّ لهم حوضاً: أي ووحدانية الله تعالى لأهيئنّ لهم حرباً عظيمة، الضارب بالسيف فيها أنا، والمعطي اياهم الطعن أنا، حرباً لا يخلص عنها من خاض فيها، ومن خاض عنها مرّة لا يعود إليها البتّة مرة ثانية لشدتها.

* * *

١١ ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
(لابنه محمد بن الحنفية لمّا أعطاه الراية يوم الجمل)

تَزُولُ الْجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ! عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعِرِ ٱللهَ جُمْجُمَتَكَ، تِدْ فِي ٱلأَرْضِ قَدَمَكَ، ٱرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَٱعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ.

اللغة

أزال الشيء يزول زوالاً: فارق طريقته جانحاً عنه، والزوال انما يقال في شيء كان ثابتاً، فان قيل: فقد قالوا زوال الشمس، ومعلوم أن لا ثبات للشمس بوجه، قلنا: انّ ذلك قالوه لاعتقادهم في الظهيرة أنّ لها ثباتاً في كبد السماء، ولهذا قالوا: قام قائم الظهيرة.

يقال عضّ به وعضّ عليه وعضّه يعضّ عضّاً: إذا أخذه بالسنّ، والأمر منه عضّ.

الناجذ: السن الذي بين الأضراس والناب، قال الجوهري: الناجذ هو آخر الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في أقصى الأسنان بعد الأرحاء، ويسمّى

ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل، يقال: ضحك حتّى بدت نواجذه إذا استغرب فيه.

أعر الله: فيه روايتان: إحداهما: بالراء المهملة وهو أمر من أعاره إعارة وهي الأشهر، الثانية: بالزاي المعجمة وهو أمر من أعزه يعزه اعزازاً، والعزة مانعة للانسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزازة أي صلبة، فعلى الأول أمر، وعلى الثانية دعاء.

الجمجمة: بضمّ الجيمين وسكون الميم الأولى وفتح الثانية الرأس.

الوتد: بالكسر واحد الأوتاد، وبالفتح لغة وكذلك الود في لغة من يدغم، تقول: وتدت الوتد أتده وتداً إذا أمرت، قلت: تدو تدك بالميئدة وهي المدقّ من الصحاح.

الرمي: مصدر رمى يرمي، وهو يقال في الأعيان كالسهم والحجارة وما شاكلها، قال الله تعالى: «وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى[(١)]»، ويقال في المقال كناية عن الشتم، قال الله تعالى: «والذين يرمون المحصنات[(٢)]»، ونظيره في القرآن كثير. يقال فلان بالمكان الاقصى والناحية القصوى والقصيا بالضم فيهما: أي البعيد والبعيدة من القصا وهو البعد.

غضّ طرفه يغضّ غضّاً: أي خفّضه، وكلّ شيء كفّفته فقد غضضته، والأمر منه في لغة أهل الحجاز اغضض، وفي التنزيل: «واغضض من صوتك[(٣)]»، وأهل نجد يقولون غضّ طرفك بالإدغام، قال جرير[(٤)]:

---

(١) الأنفال: ١٧.

(٢) النور: ٤.

(٣) لقمان: ١٩.

(٤) جرير بن عطية الخطافي؛ الشاعر المشهور، من شعراء بني أمية ومادحيهم، كان معاصراً للفرزدق والأخطل، وكان بينه وبين الفرزدق منافرة شديدة ومهاجاة، وكان راعي الابل الشاعر يقضي للفرزدق على جرير ويفضله، توفي جرير سنة ١١٠.

فــــغضّ الطــــرف إنّك مــــن نمير * فـلا كـعـبـاً بـلـغـت ولا كـلابـاً

فغض الطرف احتمال المكروه.

الاعراب ظاهر

المعاني

إنما عدل عن الشرطيّة التي هي قوله تزول الجبال ولا تزل بخرقها لشدّة المبالغة في النهي عن الزوال المستلزم للثبات المميت لقلوب الأعداء، وقد قطع الأوامر المذكورة ايذاناً بأنّ كلّ أمر منها مقصود امتثاله، اذ كل من مقتضياتها مرهب للعدوّ، ملقٍ للرعب في قلوبهم، ليس الجمع بينها شرطاً في الإرهاب، وانما أتى بالواو بين ارم وغض ليؤذن بأن الجمع بينها واجب، وستعرف تمام التحقيق فيه في الفحوى ،والباقي ظاهر.

البيان

في عض الناجذ: كناية عن الثبات والاستقرار، يقال: فلان في الأمر الفلاني عضّ على ناجذه أي ثبت فيه واستقر، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته. وفي أعر الله جمجمتك: استعارة تخييلية لطيفة مكنى بها عن تفويض نفسه إلى الله تعالى والتوكل عليه، وتوطين القلب على أن من فوّض أمره إليه جانحاً عما سواه حفظه عن ظفر الأعادي عليه، مستدعية لتشبيه الجمجمة وهي محسوسة، بالآلة التي تستعار للانتفاع ثمّ تردّ وهي أيضاً محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في صلاحية الانتفاع بهما، وهو عقلي، وتخييل أنها من افراد الآلات، وإلّا لم يصحّ جعلها مستعارة. وفي تد في الأرض قدمك: استعارة تخييلية مكنى بها عن الاستقرار والثبات، مستدعية لتشبيه القدم وهو محسوس، بالوتد وهو أيضاً محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في صلاحية الاثبات، وهو عقلي.

البديع

بين ارم ببصرك وغضّ: المقابلة ؛حيث قابل الرمي بالبصر الذي هو عبارة عن الفتح بالغضّ الذي هو الخفاضة.

الفحوى

اعلم أن مدار هذا الفصل على تعليمه عليه السلام ابنه أنواع آداب الحرب، وما يحفظ به روحه ويفوز بمطلوبه، فنهاه أولا بقوله: تزول الجبال ولا تزل من الزوال عن الموقف، أي: ان زالت الجبال عن مواقفها فلا تزل عن موقفك، وهذا نهي عن الزوال مطلقاً، فان النهي عنه على تقدير زوالها يستلزم على تقدير زوال أمر آخر بطريق أولى.

ثم أمره بخمسة أوامر: الأول أشار إليه بقوله: عض على ناجذك ، وذلك لاستلزامه الثبات وقوة القلب، فان الانسان إذا خاف وعض على ناجذه سكن خوفه واضطرابه لاستلزامه أيضاً رفع تأثير الضرب في الرأس، على ما أشار إليه عليه السلام بقوله:

عضّوا على النواجذ؛ فانه أنبأ للسيوف عن الهام، الثاني أشار إليه بقوله: أعر الله جمجمتك ؛ يعني: توكل على الله تعالى وسلّم نفسك إليه، فان المرء إذا فوّض نفسه إليه تعالى حق التفويض، كان الله تعالى في حفظه حتى يردّه إلى مأمنه، قال بعض الشارحين: في أعر الله تنبيه لابنه محمد على انه لا يقتل في تلك المحاربة، فانه تعالى يردّ العارية سالمة، وهو قريب مما قلنا.

الثالث أشار إليه بقوله: تد في الأرض قدمك ؛ أي: ثبّت قدمك في الأرض ثبات الوتد فيها، فان الثبات يثمر قوة القلب واستصحاب العزم على الثبات ويجلب هموم العدو وانتهازه، فانه يستدل بالثبات والصبر على المكاره وعنده ينقهر، الرابع أشار إليه بقوله: ارم ببصرك أقصى القوم؛ أي: افتح بصرك وانظر

أقصى القوم لتطلع على مخاتل المخاتل ومقاتل المقاتل.

الخامس أشار إليه بقوله: وغضّ بصرك ؛ أي: بعد مدّه وذلك لأن الغضّ يزيل الجبن كما ان الرمي يشجّع الفؤاد، فان قيل: بين الأمر بالرمي والأمر بالغضّ تناقض، قلنا: لا تناقض، لأن المراد بالأمر الأول التبصر والتأمل مجاز، يقال: رميت ببصري أمراً عظيماً، وان لم يكن ثم نظر، هكذا قيل، والأولى أن يقول: الأمر الأول إشارة إلى النظر الظاهر، والثاني إلى الباطن.

يعني: من شرط الخائض في غمرات الحرب أن يبلغ نظره الظاهر جميع أطراف العسكر، ويردّد لحظه بين من قرب منه ومن بعد، ويغضّ نظره الباطن عن سوى الله تعالى، وهذا يؤكّد الأمر الثاني، ويؤكّد هذا المعنى قوله عليه السلام بعده:

واعلم أن النصر من عندالله سبحانه، وهذا مثل قوله: «وما النصر إلا من عندالله العزيز الحكيم»، وذلك ليطمئن قلبه بالثبات في مقابلة العدو عند خطور قوله تعالى: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم[١]» بباله.

* * *

١٢ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لما أظفره[٢] الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك

فَقَالَ[٣] لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ شَهِدَنَا، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرْعُفُ بِهِمُ الزَّمَانُ، وَيَقْوَى بِهِمُ الإِيمَانُ.

---

(١) محمد: ٧.

(٢) في ن: لما ظفر باصحاب الجمل.

(٣) في ح: فقال علي: أهوى أخيك معنا.

اللغة

الظفر: الفوز، يقال ظفر بعدوّه وظفره أيضاً مثل لحق به ولحقه فهو ظفر، الود أمر مشترك بين المحبة والتمنّي ،تقول من الأول:

وددت الرجل: بالكسر في الماضي والفتح في الغابر ودّاً اذا أحببته، ومنه قوله تعالى: سيجعل لهم الرحمن ودّاً(١)، وقوله تعالى: قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودّة في القربى(٢)، وله غير نظير في القرآن، وتقول من الثاني: وددت لو تفعل ذاك ووددت تفعل ذاك أودّ ودّاً: أي تمنيت، ومنه قوله تعالى: ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم(٣)، وقوله: ودّوا ما عنتّم، وله أيضاً غير نظير، قال الشاعر:

ودت وداده لو أنّ حظّي * من الخلّان ألا يصرموني

أي لا يقطعون عنّي، ومنه أيضاً ما في الكتاب والقرينة أنّ بعده.

يقال شهده شهوداً: أي حضره فهو شاهد، وقوم شهود أي حضور، يقال أيضاً شهد له بكذا شهادة أي أدّى ما عنده من الشهادة فهو شاهد، والمراد هنا الأول، وقرينة الحال معينة إياه للمراد.

يقال هوى بالكسر يهوى هوى: أي أحبّ وهو يهوي هوياً أي سقط من علو، والهوى معناه هنا المحبة لا هوى النفس.

الأخ: أصله اخو؛ وهو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحديهما أو من الرضاع؛ ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعته أو في مودة أو ما شاكلها من المناسبات.

فقوله تعالى: قالوا لاخوانهم(٤)؛ فالمراد به مشاركوهم في الكفر، وقوله

---

(١) مريم: ٩٦.

(٢) الشورى: ٢٣.

(٣) آل عمران: ٦٩.

(٤) آل عمران: ١٦٨.

تعالى: انما المؤمنون اخوة[١]؛ المراد المشاركة في الدين، وقوله: اخواناً على سرر[٢]؛ المراد المشاركة في المودة والألفة، وقوله تعالى: يا اخت هرون[٣]؛ المشاركة في الصلاح، والأصل في الاطلاق الحقيقة، فيكون المراد بأخي المشاركة في الولادة مع كلمة تدلّ على المصاحبة.

العسكر: الجيش. القوم: جماعة الرجال في الأصل دون النساء، ومن ثم قال تعالى: لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهنّ[٤]، وقال الشاعر: أقوم آل حصن أم نساء،وقد يراد به النساء جميعاً.

الأصلاب: جمع صلب، وهو من الظهر كل شيء فيه فقار.

الأرحام: جمع رحم؛ وهو اسم لما يصير نطفة الرجل ولداً من المرأة، وقد استعير منه للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحد.

الرعاف: الدم يخرج من الأنف، وقد رعف بالفتح في الماضي والضم والفتح معاً في الغابر، والضم في الماضي لغة ضعيفة، ورعف الفرس بالفتح في الماضي والضم: أي سبق وتقدّم في الغابر.

الإيمان: يشتمل على وجهين: أحدهما: أن يكون اسماً للشريعة التي جاء بها محمد صلّى الله عليه وآله، وعلى ذلك: إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[٥]، ويوصف به كلّ من دخل في شريعته مقرّاً بالله وبنبوّته، الثاني: أن يستعمل على سبيل المدح، ويراد به حينئذ اذعان النفس للحق على سبيل التصديق.

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الحجر: ٤٧.

(٣) مريم: ٢٨.

(٤) الحجرات: ١١.

(٥) المائدة: ٦٩.

وذلك باجتماع ثلاثة اشياء: تصديق بالجنان، واقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالاركان، وعلى هذا نبه تعالى بقوله: والذين آمنوا بالله ورسوله اولئك هم الصديقون، ويقال لكل واحد من التصديق والإقرار والعمل إيمان، وقد عرفت الكلام فيه مكملاً في الخطبة الأولى.

المعاني

في نعم: مقررة لما سبقها من كلام موجب أو منفي استفهاماً كان أو خبراً، هذا وضعها لغة، ولكن في العرف بخلاف ذلك، ولذلك لوقارن بعد قوله أليس لي عليك ألف نعم ألزمناه تغليباً للعرف، لا لأن الوضع كذلك وهنا فيه على موضعها الأصلي. ولمّا تستعمل على وجهين: أحدهما: النفي الماضي وتقريب الفعل، نحو قوله تعالى: «ولما يعلم الله الذين جاهدوا[١]»، والثاني: علماً للظرف، نحو قوله: «فلما أن جاء البشير[٢]»، وهنا ظرف.

اعلم أن اللام التي تقع للأداة تقع على تسعة أوجه: الأول: الجارّة وهي على نوعين: أحدهما: أن يعدّى الفعل مع امتناع حذفه، نحو قوله تعالى: «وتلّه للجبين[٣]»، والآخر: أن يعدّى الفعل لكن يجوز حذفها، كما في قوله تعالى: «يريد الله ليبيّن لكم»، وقوله تعالى: «فمن يرد الله أنْ يهديه[٤]».

الثاني: للملك، وليس المراد ملك الغير بل الاختصاص بنوع، فالمفيدة للملك مطلقاً قوله تعالى: «ولله جنود السموات والأرض[٥]»، وقوله: «ولله ملك السموات والأرض»، والمفيدة للتصرّف بوجه ما كقولك لمن يأخذ خشبا معك:

---

(١) التوبة: ١٦.

(٢) يوسف: ٩٦.

(٣) الصافات: ١٠٣.

(٤) الأنعام: ١٢٥.

(٥) الفتح: ٤.

خذ طرفك لآخذ طرفي.

الثالث: لام الابتداء وهي مفتوحة أبداً، ولا تدخل الا على الاسم، نحو قوله تعالى: «لمسجد أسّس على التقوى[١]»، وقوله تعالى: «ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا[٢]»، وقوله عليه السلام: ولما وعظهم الله به ابلغ من لساني.

الرابع: اللام الداخلة في باب إنّ: إمّا في اسمه كما في قوله تعالى: «إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى[٣]»، أو في خبره نحو قوله تعالى: «إنّ ربك لبالمرصاد[٤]»، وقوله عليه السلام: إنكم والله لكثير في الباحات، وقوله: واني لعالم بما يصلحكم، وله غير نظير في كلامه عليه السلام.

الخامس: الداخلة على إن المخففة ليميز بينها وبين ان النافية نحو قوله تعالى: «وان كل لما جميع لدينا محضرون[٥]»، وقوله عليه السلام: أما والله ان كنت لفي ساقتها.

السادس: لام القسم، وذلك يدخل على الاسم نحو قوله تعالى: «يدعو لمن ضره أقرب من نفعه[٦]»، وقوله عليه السلام: والله[٧] لهي (وأشار الى نعله) أحبّ إليّ، و يدخل على الفعل الماضي نحو قوله تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأ ولي الألباب[٨]»، وقوله عليه السلام: لقد شهدنا فيما نحن فيه، وقوله عليه السلام:

ولقد علمتم اني أحق، وله نظائر كثيرة في كلامه عليه السلام، وفي المستقبل يلزمه إحدى النونين نحو قوله تعالى: «ليؤمننّ به»، وقوله عليه السلام:

---

(١) التوبة: ١٠٨.
(٢) يوسف: ٨.
(٣) النازعات: ٢٦.
(٤) الفجر: ١٤.
(٥) يس: ٣٢.
(٦) الحج: ١٣.
(٧) كذا بياض في الأصل.
(٨) يوسف: ١١١.

لأفرطنّ لهم حوضاً، وقوله عليه السلام: والذي بعثه بالحق ليبلبلنّ بلبلة إلى الاخر، وقوله تعالى: «ولتنصرنّه».

السابع: اللام في خبر لو ولولا نحو قوله تعالى: «ولو انهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله[1]»، وقوله عليه السلام: لو امرت به لكنت قاتلاً أو نهيت عنه لكنت ناصراً، وقوله عليه السلام: لولا حضور الحاضر إلى قوله لألقيت حبلها على غاربها.

الثامن: لام المدعو وتكون مفتوحة، ولام المدعو إليه وتكون مكسورة، نحو قوله عليه السلام: يالله وللشورى، ففتح الأولى لدخولها على المدعو وكسر الثانية لدخولها على المدعو اليه.

التاسع: لام الأمر وتكون مكسورة اذا ابتدئ بها نحو قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم[2]»، وساكنة إذا دخلت عليها واو نحو: «وليتمتّعوا فسوف يعلمون[3]»، او فاء نحو قوله تعالى: «فمن شاء فليؤمن».
سيرعف بهم الزمان: جملة وقعت نعتاً لقوم.

المطلوب بالاستفهام بقوله أهوى اخيك: معنى حصول المحبة لا يصورها، وذلك مثل قول القائل احصل الانطلاق لزيد. الفاء في فقد شهدنا للسببية الدال على أنَّ حصول المحبة له صار سبباً لحضوره بالقوة معه عليه السلام وان لم يشهد بالفعل، ثم لما كان هذا الحضور امراً يورث الإبهام واللبس و ...[4] الطالب.

أزال عليه السلام تلك الحيرة بادخال لام القسم في الجملة الفعلية وهي لقد شهدنا، لترتفع حيرته ويطمئن قلبه على أن الأصل في احراز الثواب وفضيلة المصاحبة معه عليه السلام هو المحبة وميل القلب إليه عليه السلام، والباقي ظاهر.

---

(١) البقرة: ١٠٣.
(٢) النور: ٥٨.
(٣) العنكبوت: ٦٦.
(٤) كذا بياض في الأصل.

البيان

في سيرعف بهم الزمان: إن أجرينا سيرعف على المعنى المشهور استعارة تخييلية مكنى بها عن حدوثهم في أحسن طور من أطوار الزمان، مستدعية لتشبيه الزمان بالانسان، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما من الأسباب المعدّة لإيصال الصور المفاضة من الفياض على الإطلاق بالقوابل، وهو عقلي، وتخييل أنه من أفراد الإنسان، والّا لم يصحّ إسناد سيرعف إليه، وانما قلنا انها كناية عن حدوثهم في أحسن طور لأن الرعاف رشح أحسن عضو من الوجه الذي هو أحسن الأعضاء.

البديع

بين الزمان والإيمان: السجع المطرف.

الفحوى

اعلم أن مدار هذا الفصل على أن الأصل في الاعانة والحضور وهو ميل القلب والهمة على ما ينبئ عنه قول النبي عليه السلام: نية المؤمن خير من عمله، وقوله عليه السلام: الدال على الخير كفاعله، والحكم بأن اخ القائل لما كان بجوامع همته حاضراً معنا، كان كالحاضر بالفعل والبدن، فان كثيراً ممن لم يحضر فوائد همته في رفع الخصام، أكثر من كثير من الحاضرين بالأبدان.

قوله وددت إلى أعدائك: أي تمنيت أن اخي فلاناً كان حاضراً ليشاهد نصرالله اياك على أعدائك ويفرح قلبه. قوله عليه السلام: أهوى اخيك معنا: اي محبة اخينا مستقر معنا غير متزلزل ولا مضطرب. فقال: نعم أي مستقر معكم، فقال عليه السلام: اذا كان محباً لنا فقد حضر معنا، وفاز بالسعادة التي حصلت للحاضرين بالفعل.

ثم فسر المؤمنين الذين سيوجدون بعد زمانه عليه السلام بأنهم أيضاً حاضرون بقوله ولقد شهدنا إلى الآخر: ليتقوى قلب السائل بحضور أخيه، ويستلذّ المؤمن اذا تحسّر على فوات مصاحبته مع أمير المؤمنين عليه السلام وسمع هذا الكلام، والباقي ظاهر.

* * *

١٣ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

(في ذمّ أهل البصرة)

كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ: رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ، أَخْلاَقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ[1] مِنْ رَبِّهِ، كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، قَدْ بَعَثَ ٱللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا.

وفي رواية: وَآيْمُ ٱللهِ لَتَغْرِقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ.

وفي رواية: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

اللغة

الجند: الأنصار والأعوان، يقال :فلان جنّد الجنود أي جمع الأعوان، وفي الحديث: الأرواح جنود مجنّدة.

---

(١) في م: برحمة ربه.

يقال تبعت القوم: تبعاً وتباعة بالفتح، إذا مشيت خلفهم أومرّوا بك فضيت معهم، والتبع يكون واحداً وجماعة، قال الله تعالى: «إنا كنا لكم تبعاً[(١)]»، ويجمع على اتباع.

البهيمة: هي المبهمة عن العقل،وهي كلّ ذي أربع من ذوات البر.

الرغاء: صوت ذوات الخف، وقد رغا البعير يرغو رغاء اذا ضج، وفي المثل: كفى برغائها منادياً، أي أن رغاء بعيره يقوم مقام ندائه في التعريض للضيافة والقرى، جواب الكلام هوما يقطع الجوب، فيفصل من فم القائل إلى سمع المستمع، لكن خصّ بما يعود من الكلام، دون المبتدأ من الخطاب، والجواب يقال في مقابلة السؤال، والسؤال على ضربين: طلب مقال وجوابه المقال، وطلب نوال وجوابه النوال، فعلى الأول قوله تعالى: «أجيبوا داعي الله[(٢)]»، وعلى الثاني: «قد أجيبت دعوتكما[(٣)]» أي أعطيتكما ما سألتما، ومنه فأجبتم.

يقال عقرت البعير أو الفرس بالسيف فاعقر: اذا ضربت به قوائمه فهو عقير وخيل عقرى، وعقرت ظهر البعير عقراً أدبرته، وعقرت النخلة إذا قطعت رأسها كلها مع الجمار، والمراد هنا الأول مثل المراد من قوله تعالى: فعقروها.

الهرب: الفرار، وهرّب غيره تهريباً.

الدقاق: جمع دقّ، وهو من كلّ شيء حقيره، يقال: فلان دقّ أي قليل الخير.

العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، قال الله تعالى: «وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولا[(١)]».

---

(١) إبراهيم: ٢١.

(٢) الأحقاف: ٣١.

(٣) يونس: ٨٩.

(١) الإسراء: ٣٤.

الشقاق: بكسر الشين الخلاف والعداوة، وكذا المشاقّة، يقال: شقّ فلان العصا أي فارق الجماعة، وانشقّت العصا أي تفرّق الأمر.

النفاق: هو الدخول في الشرع من باب والخروج من باب، وعلى هذا نبه بقوله تعالى: «ان المنافقين هم الفاسقون[١]»، أي الخارجون من الشرع بعد دخولهم فيه، وهو فعل المنافق، وأصله: انّ اليربوع يرقق موضعاً من الأرض من داخل حجره، فإذا أتى من قبل بابه وهو القاصعاء ضرب النافقاء الذي هو ذلك الموضع برأسه فانتفق أي خرج، ومنه اشتق لفظ النفاق، لأن المنافق يكتم الكفر في قلبه ويظهر الإيمان.

الماء الزعاق: أي المالح، وطعام مزعزق أي أكثر ملحه.

أقام بالمكان: يقيم اقامة فهو مقيم وذاك مقام.

الظهر: الطريق في البر، يقال فلان نازل بين ظهريهم وظهرانيهم بالفتح وأظهرهم: أي نازل في جوارهم وحواليهم، ولا يقال ظهرانيهم بالكسر.

الذنب: بسكون النون الجرم.

يقال: شخص الرجل من بلد إلى بلد شخوصاً؛ أي ذهب فهو شاخص وأشخصه غيره، وشخص الرجل بالضم فهو شخيص أي جسيم، والمرأة شخيصة، وشخص بالفتح شخوصاً أي ارتفع، يقال أيضاً شخص بصره فهو شاخص إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف، فعلم أن الأول متعدّ بمن أو عن، والبواقي لوازم، فقوله عنكم بعد الشاخص قرينة دالة على انه من الأول لا من الثالث.

يقال: تدارك الرجل ما فات يتدارك تداركاً فهو متدارك وذاك متدارك واستدرك بمعناه. الرحمة: رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الاحسان المجرد عن الرقة، ومن ثم روي: ان الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميّين رقّة وتعطّف. الرب: في الأصل التربية وهو انشاء

---

(١) التوبة: ٦٧.

الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام، يقال ربّه فربّاه، والرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفّل بمصالح الكائنات.

قال الجوهري[1]: ربّ كلّ شيء مالكه. والمسجد واحد المساجد، قال الفراء: كل ما كان على فعل يفعل مثل دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح اسماً كان أو مصدراً، ولا يقع فيه الفرق مثل دخل مدخلا وهذا مدخله الا أحرفاً من الاسماء الزأموها كسر العين، من ذلك المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسقط والمفرق والمجرز والمسكن والمرفق من رفق يرفق، والمنسك من نسك ينسك، فجعلوا الكسر علامة للاسم.

وربما فتحه بعض العرب في الاسم، روي مسكِن ومسكَن، وسمعنا المسجِد والمسجَد، المطلِع والمطلَع، قال: والفتح في كله جائز وإن لم نسمعه. ما كان من باب فعل يفعل مثل جلس يجلس، فالموضع بالكسر والمصدر بالفتح للفرق بينهما، تقول نزل منزلاً بفتح الزاي تريد نزل نزولاً، وهذا بمنزلة فتكسر لانك تعني الدار، وهذا مذهب تفرد به هذا الباب من بين أخواته، وذلك أن المواضع والمصادر في غير هذا الباب يرد كلها الى فتح العين ولا يقع فيها الفروق.

الجؤجؤ: الصدر. أصل البعث: اثارة الشيء وتوجيهه، ويختلف البعث بحسب ما علق به، فبعثت البعير أثرته وسيّرته، وبعثت العذاب أي وجّهته، وبعث الله عليها أي سلّط الله عليها العذاب وهو الايجاع الشديد، وقد عذّبته تعذيباً أي اكثرت حبسه في العذاب، واختلف في اصله فقيل: هو من قولهم عذّب الرجل الرجل اذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب وعذوب، والتعذيب هو حمل الانسان أن يعذّب أي يجوع ويسهر.

---

(١) أبونصر اسماعيل بن حماد الفارابي، كان من أذكياء العالم وأعاجيب الدنيا، ولع باللغة العربية واسرارها، سافر الى الحجاز وشافه باللغة العرب العاربة، ودخل بلاد ربيعة ومضر ثم عاد الى خراسان، واقام بنيسابور يدرس في اللغة، واشتغل بالتصنيف وكتابة المصاحف، وكان خطه في نهاية الحسن، وحكي انه مات متردياً من سطح، والمشهور انه توفي سنة ٣٩٣.

وقيل: أصله من العذب فعذبته أي أزلت عذب حياته على منوال مرّضته وقذيته، والعذب الماء الطيّب، وقيل: التعذيب اكثار الضرب بعذبة السوط أي بطرفها، وقيل: من قولهم ماء عذبة اذا كان فيه قذى، وكذا فيكون قذيته كقولهم كدرّت عيشه.

يقال: غرق في الماء وغيره يغرق غرقاً فهو غرق وغارق وأغرقه غيره وغرّقه فهو مغرق، والغرق هو الرسوب في الماء وفي البلاء، قال الله تعالى: حتى إذا أدركه الغرق(١).

النعامة: معروفة، وانّما سمّيت بها تشبيهاً بالنعم في الخلقة، والنعم مختصّ بالإبل، وتسميته بذلك لكون الابل عندهم أعظم نعمة، ولكن الانعام لا يقال الا للإبل والبقر والغنم.

يقال جثم الطائر جثوماً: إذا تلبّد بالأرض. لجّة البحر: معظمه، وكذلك اللجّ، ومنه: بحر لجّي.

الاعراب

انّما ذكر الضمير في رغا وعقر نظراً الى المراد من البهيمة وهو الجمل لا إلى اللفظ كان وضع لإنشاء التشبيه، كما أن ليت ولعل لانشاء التمنّي والترجّي، وقد زعم بعضهم أنها مركّبة من كاف التشبيه، وأن الاصل في قولك كأن زيداً الاسد وأن زيداً كالأسد، وهو ينصب الاسم ويرفع الخبر، والياء الراجعة الى نفس المتكلم وهو اسم.

كأني بمسجدكم قائم مقام الخبر تقديره: كأني حاضر بمسجدكم ملبس به، وقد بعث الله: جملة وقعت نعتاً لسفينة. قد: تسمى حرف توقع الى الحال، ولذلك لزم في الماضي اذا وقع حالاً، واذا دخلت على المضارع كانت للتقليل، نحو إن

---

(١) يونس: ٩٠.

الكذوب قد يصدق.

المعاني

اضافة الجند والأتباع الى المرأة والبهيمة لتحقير المضاف. وفي أخلاقكم دقاق: خاصيتان: الأولىٰ: القطع المؤذن بعلة سرعة اصابتهم ونفارهم، الثانية: ايراده في الجملة الاسميّة الدالة على الثبوت والاستقرار، يعني: ان الرذائل كانت اخلاقاً لكم وانتم مستقرون عليها بحسب الجبلّة والغريزة، وكذا في الجملة الثالثة، الواو بينهما يؤذن بأنهم جامعون للجميع في حالة واحدة.

وهذا بالتصريح ذمّ لهم، وتعريض يقطع نفسه للتوقيع عن مبايعتهم الحق، انما افرد المقيم والشاخص للمبالغة التي عرفتها. وأيم الله لتغرقنّ: لردّ المخاطبين عن الخطأ في أن الغرق لا يصيب بلدتهم الى الصواب، وانما أورد الفعل الذي اقسم عليه مجهولاً للمبالغة مع الايجاز.

البيان

في رغا: استعارة لطيفة تخييلية مكنى بها عن دعوتها أياهم الى القتال، مستدعية لتشبيهها بالجمل، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم العقل، وتخييل أنها من أفراد الجمل أن يكون زعاق كناية عن كونه سبباً لاجتماعهم ما دام واقفاً، وذلك لان الرغاء لا يكون في الاكثر الا عند ثقل الجمل وهو واقف.

وماؤكم زعاق: كناية عن سوء اختيارهم وقبيح رأيهم كقولهم: فلان كثير الرماد، فانه كناية عن كونه مضيافاً، ويحتمل أن يكون استعارة تخييلية مكنياً بها عن نقصان جاههم وماء وجههم، مستدعية لتشبيه ماء الوجه المستلزم للجاه وهو معقول، بالماء وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في شدّة الاحتياج اليها

ولطافتها، وهو عقلي، ويخيل أنه من أفراد الماء، والا لم يصحّ جعل ماؤكم مسنداً اليه الزعاق.

قوله كأني بمسجدكم: مشتمل على تشبيه نفسه عليه السلام بالذي يشاهد البعث بالحس البصري، ووجه الشبه: أنه عليه السلام يشاهد بنور بصيرته أن مسجدهم مغمور بالماء، كما أن الحاضر في ذلك الوقت يشاهده بحاسة البصر.

وقوله كجؤجؤ سفينة: مشتملة على تشبيه لهيئة المسجد حين غمر في الماء بهيئة صدر السفينة في الماء، ووجه الشبه: اشتراكهما في الظهور من بين الماء وادارة الماء حولها وخفاء الارض، والتشبيهات الباقية في الرواية الاخرى ظاهرة.

البديع

بين دقاق وشقاق ونفاق وزعاق: السجع المتوازن والترصيع، وبين ذنبه وربه: المتوازي أيضاً.

الفحوى

اعلم أن هذا الفصل مع فصول بعده من خطبة خطبها عليه السلام بالبصرة بعد ما فتحها، روي: أنه لما فرغ من أمر الحرب لأهل الجمل أمر منادياً ينادي في أهل البصرة أن الصلاة جامعة لثلاثة أيام من غد إن شاء الله، ولا عذر لمن تخلف الا من حجة أو علة، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً.

فلما كان في اليوم الذي اجتمعوا فيه خرج فصلّى بالناس الغداة في المسجد الجامع، فلما قضى صلاته قام وأسند ظهره إلى حائط القبلة عن يمين المصلّى فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

ثم قال: يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً، وعلى الله

تمام الرابعة، كنتم، وفي رواية: يا جند المرأة وأتباع البهيمة، وفي رواية: أعوان البهيمة رغا فأجبتم، عقر فانهزمتم، أخلاقكم دقاق، بلادكم أنتن بلاد الله تربة وأبعدها من السماء، بها تسعة أعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه والخارج منها بعفو الله، كأني انظر الى قريتكم هذه وقد طبقها الماء حتى ما ترى منها إلا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طير في لجة بحر.

فقام اليه الأحنف بن قيس(١) فقال: يا أميرالمؤمنين متى ذاك ؟ فقال: اذا صار احميتكم قصوراً ائتفكت البلدة بأهلها أي انقلبت، والمؤتفكات: المدن التي قلبها الله على قوم لوط. الشرف بضم الشين وفتح الراء جمع شرفة القصر. اعلم أنه عليه السلام ذكر في معرض ذمّهم اموراً نبّه بها على كون أقدامهم قد زلّت عن الحقّ، وآرائهم قد وقعت في غمرة الضلالة.

الأول: أشار اليه بقوله يا أهل المؤتفكة: وهو كناية عن كون فسادهم وانحرافهم عن سواء السبيل ليس أمراً قد حدث لهم الآن، بل أمر قد ركز في طبائع آبائهم واجدادهم، وذلك لأن ائتفاك البلدة بأهلها من لوازم الفساد واستحقاقهم عذاب الله، وعلى الله تمام الرابعة: دعا عليهم بايقاع العذاب عليهم في الكرّة الرابعة، حيث خرجوا عن طاعته واستحقّوا به سخط الله.

الثاني: أشار اليه، حيث فوضوا امورهم الى رأي امرأة وعزلوا عقولهم عن التدبير تعويلاً على رأيها، والمعقول والمنقول قد تطابقا على قلة رأيهنّ ونقصان عقولهنّ، ولا خفاء في أن التابع أقل من المتبوع، والا لم تتحقّق التابعية والمتبوعية، قال الشارحون: أراد بها عائشة.

---

(١) الاحنف بن قيس بن معاوية التيمي السعدي ابوبحر البصري، واسمه الضحاك وقيل صخر، والاحنف لقب، ادرك النبي صلى الله عليه وآله، قال الحسن: ما رأيت شريف قوم افضل من الاحنف، ومناقبه كثيرة وحلمه يضرب به المثل، ذكره محمد بن سعد في الطبقة الاولى من اهل البصرة، قال: وكان ثقة مأموناً، وذكر الحاكم انه الذي افتتح مرو الروذ، مات سنة ٦٧ وقيل ٧٢.

الثالث: كونهم اتباع البهيمة: أراد بها الجمل الذي كان تحتها، وهو كناية عن سلب عقولهم بالكلية وعدم الاعتماد على موافقتهم ومخالفتهم، فان من يتلو رغاء الابل ويجيب نداه، ولم يتدبر عن خواتيم أمره وينهزم عند الجرح، فهو بالغ في السفاهة أعلاها، وراكب على الحماقة سنامها، وقد عرفت الكناية في رغا فأجبتم وعقر فهربتم.

الرابع: دقة أخلاقهم: وأراد بها عليه السلام أنهم ثابتون على رذائل الاخلاق، منحرفون عن حاقّ الوسط الذي أمروا بملازمته، ولما كانوا جاهلين بما يقيم أودهم ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد، جائرين غير عادلين، متهورين، صحّ أنهم مستقرون على دقة الأخلاق.

الخامس: كون عهدهم خلافاً وهو اشارة الى الغدر، الذي هو رذيلة في مقابلة الوفاء، الذي هو فضيلة، والذي يدل على نقضهم للعهود أنهم نقضوا عهده عليه السلام ونكثوا بيعته.

السادس: كونهم منافقين في الدين، وذلك لخروجهم عن طاعة الامام العادل الواجب طاعته بمقتضى قوله تعالى: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم(١)»، ويحتمل أن يكون هذا خطاباً لمن كان منافقاً وعلمه عليه السلام.

السابع لله: يتعلّق ببلدهم وهو كون مائهم مالحاً، وقد عرفت انه كناية عن سوء الاختيار وقلّة الجاه، وسبب ملوحته قربه من البحر.

الثامن: كونها أنتن بلاد الله تربة: وذلك لكثرة غلبة الماء عليها وتعفّنها به.

التاسع: كونها أبعد من السماء، وسيعرف بيانها.

العاشر: كونها بها تسعة أعشار الشر: وأراد بها المبالغة في كونها مظهراً للشرور الكثيرة، يعني: لو فرضنا أن الشر يقسم على عشرة أجزاء كان تسعة اجزائه فيها، قال ابن الميثم رحمه الله: ويحتمل أن يريد بالشر مجموع الرذائل الخطيئة المقابلة

---

(١) النساء: ٥٩.

لاصول الفضائل النفسانية التي هي العلم والشجاعة والعفة والسخاء والعدل، اذ كل منها مقابل برذيلتين كما علمت، وتلك عشر رذائل.

ثم قال: وهذا الاحتمال وان كان لطيفاً الا أن فيه بعداً وليس بجيد، لأن اصول الفضائل وامهات الأخلاق أربعة: العفة والعدالة والشجاعة والعلم، وان اعتبرت الاقسام الداخلة لمحب كل منها فيخرج عن خمسين، فلا وجه له الا ما قلناه.

الحادي عشر: كون المقيم بين أظهركم مرتهناً بذنبه: وذلك لأن من صاحبهم وخالطهم لابد وأن ينابز من نتائج أخلاقهم الخسيسة، وينتقش نفوسهم بمثل الملكات التي ترشحت في نفوسهم، فيستحقون العقاب، وذلك لا يكون الا بفعله الذي هو الاقامة بينهم، وهو كناية عن ثباتهم على الافساد.

الثاني عشر: كون الشاخص عنهم متداركاً برحمة من ربه: وذلك لأن الله تعالى قد أعانه في استخلاص نفسه من مصاحبتهم المجلبة للذنوب العظام، المستجلبة للعقوبات، وتلك رحمة من الله تعالى، وهو أيضاً كناية عن توبيخهم عما كانوا ثابتين عليه من الضلال والإضلال، وتعييرهم بما يحسبونه حقاً وصدقاً، هؤلاء هم الذين كانت أعينهم في غطاء عن معرفة الحق، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قوله كأني الى آخره: اشارة الى الاخبار باصابة الغرق بلدتهم غير المسجد، وقد عرفت التشبيهات في البيان، وقد روي: أنها غرقت مرة في أيام القادر بالله، ومرة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها، وغرق من في ضمنها وخربت دورها.

لم يبق منها إلا علو المسجد الجامع حسب ما اخبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان غرقها من قبل بحر فارس ومن ناحية الجبل المعروف بجبل الشام، وهذه الرواية منبئة عن وقوع ما أخبر عنه عليه السلام.

* * *

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ.

(اللّغة)

العقول: جمع عقل، والعقل يطلق على معنيين: أحدهما القوّة المهيّئة لقبول العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة، وإليها أشار أميرالمؤمنين ــ عليه السلام ــ حيث قال: العقل عقلان: مطبوع ومسموع، فلا ينفع مطبوع اذا لم يكن مسموع، كما لا تنفع الشّمس وضوء العين ممنوع، والى الأوّل أشار النّبي ــ صلوات الله عليه وآله ــ حيث قال: ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل، وإلى الثّاني أشار ــ عليه السلام ــ بقوله: ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى.

فخفّة العقول هنا إشارة الى قلّة العلوم المستلزمة لكثرة الجهل، وأصل العقل الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، وعقل الدّواء البطن، وعقل المرأة شعرها. السّفه: خفّة في البدن، ومنه قيل زمام سفيه، أي كثير الاضطراب، وثوب سفيه رديء النسج، ثمّ استعمل في خفّة النّفس لنقصان العقل. الحلم: ضبط النّفس عن أن يغلب عليها هيجان الغضب وجمعه أحلام، ومنه قوله تعالى: «أم تأمُرُهم أحلامُهُم بهذا»، وقد يطلق الحلم على العقل إطلاقاً لاسم المسبّب، يقال حلمه العقل فتحلم، والحلوم أيضا جمعه.

الغرض: الهدف الذي يرمى فيه والقصد، يقال: فهمت غرضك أي قصدك والضّجر والملال، يقال غرض بالمقام يغرض غرضاً أي ضجر منه، وقرينة النّابل معينة للأوّل، النّابل: الرامي، والنّبل السّهم. الأكلة: بالضّمّ اللّقمة، تقول أكلت أكلةً واحدةً أي لقمةً، وهي القرصة أيضاً، والطّعمة أيضاً، يقال هذا الشيء أكلة لك أي طعمة، والأكلة بالفتح المرّة الواحدة حتّى تشبع، والآكل: إسم

فاعل من أكلت الطعام أكلاً ومأكلاً. الفريسة: في أصل اللّغة إسم لما يفرسه الأسد خاصّة ثمّ شاع آستعمالها في كلّ صيد.

قال الجوهري: فرس الأسد فريسة يفرسها وافترسها: أي دقّ عنقها، وأصل الفرس هذا، ثمّ كثر واستعمل حتّى صير كلّ قتل فرساً.

الصّائل: اسم الفاعل من صال عليه صولاً أي وثب وحمل.

(الإعراب ظاهر)

(المعاني)

النّقل من الجملة الاسميّة إلى الفعليّة المشتملة على الفعل الماضي يؤذن بأنّ الخفّة طرأت لعقولهم، والسّفاهة حدثت لحلومهم بعد ثباتها، حيث نكثوا عهده، ونقضوا بيعته ــ عليه السلام ــ، واتّبعوا رأيها، وفوّضوا أمورهم اليها، الفاء: للسببيّة المنادية على أنّ الخفّة والسّفاهة صارتا سببين لاستقرارهم على كونهم في مدرج المطالب الدّال عليه الجملة الاسمية.

(البيان)

الفاء في فأنتم غرض لنابل: استعارة تخييليّة مكنّى بها عن كونهم مقصداً لمن يريد أذاهم، لكونهم في غاية العجز والجبن، لتشبيه هيئتهم في مقابلة قاصديهم بهيئة الغرض في مقابلة الرّامي، ووجه الشّبه: اشتراكهما في العجز عن الدّفع، يعني أنّهم عاجزون وجلون غير قادرين على دفع الأعادي الرامين إياهم سهام الأغراض عن انفسهم، كما أنّ الغرض المهيّأ عاجز عن دفع سهم الرامي عن نفسه، وتخييل أنّهم من أفراد الغرض، وإلّا لم يصح بعده لنابل، ورشّحها بذكر النابل.

وفي أكلة لآكل: أيضاً استعارة مرشّحة تخييلية مكنّى بها عن كونهم

عاجزين وفي معرض أن يطمع في أموالهم ونعمتهم، مستلزمة لتشبيههم باللّقمة والطّعمة، وهما محسوسان، ووجه الشّبه: اشتراكهما في توجّه الرّغبات إليهما لسهولة التّناول، وهو عقلي، وأنّهم من أفراد الأكلة وإلّا لم يصحّ بعدها لآكل.

وفي فريسة لِصائل: أيضاً استعارة تخييلية مكنّى بها عن كونهم بصدد أن يسهل ظفر من يقصد قتلهم، وإهلاكها عليهم مستدعية لتشبيههم بالفريسة، وهما محسوسان، ووجه الشّبه: إشتراكهما في التسّليم عند النّظر إلى القاصد وتخييل أنّهم من أفرادها.

(البديع)

بين الماء والسماء: المطرف، وفي القرائن الباقية: السّجع المتوازي والتّرصيع.

(الفحوى)

إعلم أنّه ــ عليه السلام ــ ذكر أُموراً في معرض ذمّ أهل البصرة: اثنان منها راجعان إلى مكانهم، واثنان أصلان عائدان إلى أنفسهم، وثلاثة منها تابعة لهذين الأصلين لازمة إيّاهما، أمّا الأوّل من الأوّلين بالنّسبة إلى المكان فأشار اليه بقوله: أرضكم قريبة من الماء، وذلك حكم ظاهر يدل بالتّعريض على قلّة عقولهم، حيث اختاروا موضعاً للسّكنى يخافون على أنفسهم وإنّما من استيلاء الماء عليه، والثّاني منهما أشار اليه بقوله: بعيدة من السّماء أي بالنّسبة إلى الأراضي هي سافلة، وكلّ ما كانت أسفل أبعد من السماء.

وقيل: كون ذلك في معرض الذّمّ يصرفه عن ظاهره، وإنّما الإيماء إلى أنّهم لكونهم متخلّقين برذائل الأخلاق كانوا بعيداً من رحمة الله النّازلة من سماء الجود الإلٰهي، قيل: أراد بالسّماء المطر وذلك ظاهر، ووقوع المطر في البصرة قليل.

والاوّل من الأصلين أشـار اليه بقوله: خفّت عقولكم؛أي اضطرب علمهم المستفاد من العـقل الأوّل بتراكم الأهوية على مرآة عقلهم، حيث تركوا ما يصلح أحوالهم إلى ما يفسدها، وهو إيماء إلى حصول الغباوة لهم.

والثّاني مـنهمـا أشار إليه بـقوله: سـفهت حلومكم؛أي خـفّت واضطربت ضبوطهم للنّفس عن غلبة الهوى عليها، وهو وصف لهم برذيلة السّفه، وأمّا الثّلاثة الباقية المعلومة ممّا قرّرناه في بيانها في البيان،والله أعلم.

* * *

١٤ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامْ
فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان

وَٱللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، ومُلِكَ بِهِ الإمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ فَإنَّ في الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْه أضْيَقُ.

اللّغة

إعلم أنَّ العلمـاء اختلفـوا في أصل الله، أصله أله حذفت همزته وأُدخلت عليه الألف واللاّم فخصّ بالباري تعالى، ولتخصّصه به تعالى قال: «هل تعلم له سميّاً»، وأله فلان يأله إلاهة أي عبد فالإله على هذا المعبود.

قيل: أصله مـن أله أي تحير، ويـقصد هذا القول مـا قال أميرالمؤمنين ــ عليه السلام ــ: كـلّ دون صفاته تحيير الصّفات، وضلّ هناك تصاريف اللّغات، وذلك لأنّ العبد في صفاته تحيّر، ولهذا قال النّبي ــ صلوات الله عليه ــ: تفكّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله.

وقيل: أصله مِنْ لاه يـلوه لياهاً، أي احـتجب، وإليه أشـار تعالى بقـوله:

«لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَيُدْرِكُ الأبْصارَ[١]»، يقال: ضاق الشيء يضيق ضيقاً وضيقاً. الجور: الميل عن المقصد والانحراف عن النّهج المستقيم،يقال: جار عن الطريق؛أي مال عنه وجار عليه في الحكم.

الاعراب

اللاّم في لرددته: جواب لو، ومن: شرطيّة فالجور جوابه،والباقي ظاهر.

المعاني

الفاء في فإنّ: فصيحة مفصحة عن أنّ الجملة الّتي بعدها لردّ المنكرين مضمون الجملة الأولى المصدرَّة بالقسم، وأن المسابقة دالّة على محذوفة هي بعثته ــ عليه السلام ــ على التكلّم بهذه الجملة، يعني: ينبغي للمقتطعين أن لا يردّوا حكمي بردّ القطائع ويرضوا به، فإنّ في العدل سعة، ثم أكّد مضمون هذه الجملة الّتي أوردها لردّهم عن الخطأ إلى الصّواب بجملة شرطيّة عامّة مريداً بها إيّاهم ليدخلوا في مقتضى أحكامه ــ عليه السلام ــ، وقد عرفت غير مرّة أنّ إيراد العام وإرادة الخاصّ أقرب إلى القبول،والباقي ظاهر.

البيان

الفاء في فإنّ في العدل سعة: إستعارة تخييليّة مكنّى بها عن أنّ الردَّ من مقتضى العدل، فإنّه ينافي بقاء القطائع بحالها، لكونه جوراً مستدعية لتشبيه العدل وهو معقول، بالجسم الواسع، وهو محسوس، ووجه الشّبه: أنّ من دخل تحت حكم العدل يكون في راحة من جور نفسه وجور غيره، كما أنّ من دخل في المكان الواسع لا تصل إليه كلفة لا من نفسه ولا من غيره بالازدحام، وانّما

---

(١) الانعام: ١٠٣.

قلنا بهذه الاستعارة لأنّ السعة من أوصاف الجسم خاصّة، والكلام فيمن ضاق إلى آخره قريب ممّا قلنا.

البديع

راعى في قوله فإنّ إلى آخره: المقابلة؛ حيث قابل العدل بالجور والسّعة بالضيق.

الفحوى

إعلم أنّ هذا الفصل مع فصول تأتي بعده من الخطبة الّتي خطبها ـ عليه السلام ـ بالمدينة لمّا قُتل عثمان وبويع له، وأوّل هذا الفصل من الخطبة: ألا وَإنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان أو مال أخذه من بيت مال المسلمين لمردود عليهم في بيت مالهم، ولو وجدته قد تُزُوِّج به النّساء وقرن في البلدان لرددته، فانّه إنّ لم يسعه الحق فالباطل عليه أضيق، وهذه الرواية قد أوردها ابن ميثم رحمه الله.

القطيعة: اسم لطائفة من أرض الخراج أقطعها حاكم الوقت لواحد وخصّها به، وجمعها القطائع. قوله: والله لو وجدته إلى لرددته إشارة إلى تضمنهم العزم بردّ القطائع الّتي أقطعها عثمان لأقاربه ولغيرهم منهم، ثمّ نبّه المقتطعين الّذين ربّما لا يطيب لهم ردّها منهم على أنّ الرّدّ إلى المسلمين عدل، وانّ عدل الله يسعهم في ردّ ما اقتطعوه بقوله:

فإنّ في العدل سعة، يعني: الواجب عليهم أن يطيّبوا قلوبهم في الردّ ولا يضيّقوها به، فإنّ في عدل الله سعة لهم، إذ هو مستلزم لرضا المظلوم بإيصال حقّه إليه، ولرضا الظالم بانتزاع ما ليس منه.

ثمّ نبّه بقوله: ومن ضاق إلى آخره على أنّ من لم يرض بعدل الله ولم

يدخل في مقتضاه وضاق العدل على نفسه حين انتزع منه، فالانتزاع منه على سبيل التغلّب في الدنيا والقهر كان أصعب على نفسه وأشدّ وأضيق، لأنّ من ضاق قلبه بانتزاع ما ليس له من يده مع علمه بأنّه ليس ملكه، كان قلبه أضيق إذا انتزع منه ما كان له وهو ضروري.

* * *

١٥ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامِ

لمّا بُويع بالمدينة

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ، إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاَتِ حَجَزَهُ التَّقْوَى[1] عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ. أَلاَ وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاَكُمْ وَأَعْلاَكُمْ أَسْفَلَكُمْ؛ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا.

وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً[2]، وَلاَ كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا الْمَقَامِ وَهٰذَا الْيَوْمِ؛ أَلاَ وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلاَ وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ؛ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ، حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ.

---

(١) في ض وح وب: حجزته التقوى.

(٢) في لك: ماكتمت وسمة بالسين.

فَلَئِنْ أَمَرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ.

قال الشَّرِيف: أَقُولُ: إِنَّ فِي هٰذَا الْكَلاَمِ الأَدْنَى مِنْ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ مَا لاَ تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ الاِسْتِحْسَانِ، وَإِنَّ حَظَّ الْعَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ الْعَجَبِ بِهِ؛ وَفِيهِ ـ مَعَ الْحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا ـ زَوَائِدُ مِنَ الْفَصَاحَةِ لاَ يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ، وَلاَ يَطَّلِعُ فَجَّهَا إِنْسَانٌ، وَلاَ يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلَّا مَنْ ضَرَبَ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحَقٍّ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ. وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

اللّغة

الّذمّة: لفظ مشترك بين العهد والحرمة والأمان، وأراد هنا العهد.

الرّهينة: فعيلة من الرّهن، وهو اسم لما يوضع وثيقة للدّين بمعنى مفعولة أي مرهونة، وذلك مثل قوله تعالى: «كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ رهينة[1]»؛ أي كلّ نفسٍ مقامة في جزاء ما قدم من عمله، ويحتمل أن يكون بمعنى فاعلة، ويكون كناية عن الثّبات والاقامة.

الزّعيم: الضّامن والكفيل وإياه عنى تعالى بقوله: «ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم[2]»، وفي الخبر: الزّعيم غارم.

يقال صرّح فلان بما في نفسه: أي أظهره، وفي المثل: صرّح الحقّ عن محضه؛ أي انكشف الصريح الّذي له نسب ظاهر، والمراد هنا الانكشاف.

العبر: جمع عبرة؛ وهي اسم للحالة الّتي يتوصّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومن ثمّ قيل: العبرة: النّفوذ من ظواهر المدركات بالحسّ إلى

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) يوسف: ٧٢.

ما وراءها من المعاني الباطنة، وأصله من عبر النهر عبوراً؛ إذا تجاوز عن الماء، ومنه تعبير الرؤيا لأنّه تعبر من ظاهرها إلى باطنها بتعبير الرّوح في عالم الغيب.

أمّا العبارة: فهي اسم للكلام الغابر في الهواء من لسان المتكلّم إلى سمع المستمع، وقد عرفت الكلام فيها مشبعاً فلا يحتاج هنا إلى الإعادة. بين يديه: كناية عن قدّامه، يقال: وقف فلان بين يدي ملك؛ أي قدّامه.

المثلة: عقوبة تنزل بالإنسان؛ فيجعل مثالاً يرتدع به غيره، وذلك كالنّكال، وجمعه مثُلات، وقد أمثل السّلطان إذا نكّل به.

حجزه يحجز حجزاً: أي منعه فانحجز؛ والمحاجزة الممانعة، وانّما سمّي معقد الإزار حجزة لأنّه حاجز دون العورة، والحجاز: بلاد سمّيت بذلك لانّها حجزت بين نجد والغور.

التقحّم: التّساقط في المصاعب من غير خبرة ومعرفة؛ يقال: قحم في الأمر ويقحمه إذا رمى بنفسه فيه، من غير التأمّل في خواتمه.

الشّبهات: جمع شبهة؛ وهو أن لا يميّز أحد الشّيئين عن الآخر، لما بينهما من التّشابه عيناً كان أو معنى.

عاد إليه يعود عودةً وعوداً: أي رجع إليه بعد الانصراف عنه أمّا انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة.

الهيئة: الحالة التي تكون بالشّيء محسوسة كانت أو معقولة، لكن الاستعمال في المحسوسة أكثر، والمراد هنا المعقولة.

البلبلة والبال: الهمّ ووسواس الصّدر، ويقال: بلبله إذا ألقاه في الهمّ الشّديد، والبلبلة أيضا التّحريك الشّديد.

الغربلة: نخل الدقيق وغيره؛ في الخبر: سيأتي على النّاس زمان يغربل النّاس فيه غربلة، معناه: أنّ الخيار يذهبون كالمنخول من الغربال والشّرار يبقون كالنخالة.

السّوط: خلط الشيء بعضه ببعض؛ ومنه سمّي المسواط، وسوّطه أي خلطه، وهذا الخلط لمّا كان من ضرب البعض لبعض استعيرت منه لفظة السوّط وهو الذي يضرب به، يقال: سطته بالسّوط أي ضربته.

القدر: إسم لما يطبخ فيه اللّحم، والجمع قدور، قال الله تعالى: «وقدورٍ راسيات[1]»، والقدر مؤنّث.

الكتمان: ستر الحديث، يقال: كتمته كتماً وكتماناً.

الوشمة: بالشّين المعجمة؛ الكلمة الباقية الأثر، يقال: ما كانت بيني وبين فلان وشمة، أي كلام سرّاً وعداوة، وأصله من الوشم وهو النّقش الّذي يغرز في اليد، وبالسّين المهملة: الأثر والعلامة.

يقال كذب كذباً وكذباً وكذاباً: وقد زيدت التّاء في المصدر ليدلّ على الوحدة.

النّبأ: الخبر؛ تقول: أنبأ ونبّأ؛ أي أخبر.

الخطايا: جمع خطيئة على وزن فعيلة؛ وهي اسم من خطأ يخطأ خطأ، والخطأ: الذّنب، وقيل: الخطيئة والسّيّئة يتقاربان، لكنّ الخطيئة أكثر ما يقال فيما لا يكون مقصود إليه في نفسه، بل يكون المقصود سبباً لتولّد ذلك الفعل أن يرمي صيداً فأصاب إنساناً، أو شرب مسكراً فجنى جناية في سكره.

الخيل: لفظ مشترك بين الفرسان والفرس، فمن الأوّل قوله تعالى: «واجلب عليهم بخيلك ورجلك»، ومن الثّاني قوله تعالى: «والخيل والبغال والحمير».

والخيلاء: بضمّ الخاء وكسرها والخال الكبر، يقول منه: اختال، قيل: انّما سمّي الكبر خيلاء لأنّ ذلك الكبر لا يكون إلّا عن تخيّل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه، وإنّما سمّي الفرس خيلاً لما قيل إنّه لا يركب أحد فرساً إلّا وقد وجد

(١) سبأ: ١٣.

في نفسه نخوةً، ووصفه بقوله: شمس حمل أنّ مراده ــ عليه السلام ــ الفرس.

ويقال شمس الفرس شموساً وشماساً: أي منع ظهره فهو فرس شموس وأفراس شمس،فالشّمس جمع شموس.

يقال حملت الشيء: على ظهري أحمله حملاً.

يقال خلع ثوبه ونعله وقائده خلعاً،فقوله: خلعت لجمها من المعنى الثالث.

التّقوى في أصل اللّغة: الوقوى بالواو؛ وهو مصدر كالوقاية، يقال: وقى يقي وقاية ووقوى، فأبدلت عن الواو تاء كما في الوكلان والتّكلان ونحوهما، فقيل تقوى،ثمّ نقل في الشريعة إلى تنزيه القلب عن المعصية والعزم على تركه، ليصير ذلك العزم وقاية بينه وبين المعاصي، فالشّخص إذا نزّه قلبه عنها وعزم على تركها يقال أنّه مُتّقٍ، والتّقوى في القرآن جاءت بمعانٍ ثلاثة:

أحدها: الخشية والهيبة؛ ومنه قوله تعالى: «وإيّاي فاتّقون» أي آخشوني، وقوله تعالى: «وَآتّقوا يَوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى الله». الثّاني: الطّاعة والعبادة؛ ومنه قوله تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقَّ تقاته» أي أطيعوا الله حقّ طاعته على ما قال ابن عبّاس به. الثّالث: تنزيه القلب عن الذنوب؛ وهذه هي حقيقة التّقوى والعهدة فيها، والأوّلان ذريعتان إليها، ألا ترى أنّ الله تعالى يقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسولَهُ وَيَخشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فاولئك هم الفائزون»، ذكر الطّاعة والخشية أوّلاً، ثمّ ذكر التّقوى، واذا عرف حقيقة التّنزيه فلا يبقى لك إشكال في قوله حجزه التّقوى، ولو قلنا أنّ التّقوى ثمّ بمعنى الخشية وهنا بمعنى التنزيه لكان أولى وأنسب بالمقام.

وقيل: التّقوى هو اجتناب كلّ ما يخاف منه ضرراً في دينك، وهو ليس ببعيد عن الصّواب لأنّه مطابق لما روي في الخبر عن النّبي ــ صلى الله عليه وآله ــ أنّه قال: سُمّي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذراً عمّا به بأس.

المطايا: جمع مطية، وهي الدّابّة الّتي يركب عليها.

الذّل بكسر الذّال: اللّين ضدّ الصّعوبة؛ يقال دابّة ذلول أي بيّنة الذّل من دوابٍّ ذلل، ومنه قولهم: بعض الذّل أبقى للأهل والمال فيكون ذلك جمعاً لذلول.

الأزمّة: جمع زمام بكسر الزاي؛ وهو اسم لما يُجعل في أنف البعير لينقاد للقياد، ثمّ استعير للمقود مطلقاً، يقال: ورد فلان وروداً؛ أي حضر، وأورده غيره واستورده أي أحضره، أصل الحقّ: المطابقة الموافقة كمطابقة رجل الباب في حقّه لدورانه على استقامة، والحقّ يقع على معان اربعة:

الأوّل: يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله هو الحقّ.

الثّاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال: الله كلّه حقّ نحو قولنا: الموت حقّ والبعث حقّ.

الثّالث: في الاعتقاد في الشّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه؛ كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثّواب والعقاب حقّ، قال الله تعالى: «يهدي الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ».

الرّابع: يقال للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب و في الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حقّ وقولك حقّ، والمراد بالحقّ هنا يحتمل أن يكون الجمع، لأنّه يقع على الكثير كما يقع على القليل، ولأنّه قد أورد الباطل في مقابله ولا خفاء في أنّ لكلّ حقّ باطلاً يقابله، والباطل ضدّ الحقّ، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه.

وقد يقال ذلك بالاعتبار الى المقال والفعال بطل بطولاً وبطلاً وبطلاناً، ويقال للمشتغل بما لا يجدي له نفعاً لا دنيوياً ولا اخروياً: بطّال و ذو بطالة بكسر الباء لفظ كلّ وضع لضمّ أجزاء الشيء، وذلك ضربان: أحدهما الضّام لذات الشّيء وأحواله المختصّة به، ويفيد معنى التّمام نحو قوله تعالى: «وَلَا تَبْسُطْهَا

كلّ البَسْطِ» أي بسطاناً ما، وقال الشاعر: «ليس الفتىٰ كلّ الفتىٰ إلّا الفتى...[1]» أي التّام الفتوّة.

الثّاني: الضّام للذّوات، ويضاف تارة إلى الجمع المحلّى بالألف واللام نحو ما يلقي ـ عليه السلام ـ إليهم من المواعظ والزّواجر، وما يصلح أحوال معادهم ومعاشهم.

قال ذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم: أي عهدي إيّاكم ثابت على ايفاء ما ألقي اليكم من الأوامر الشّرعيّة، فلا تضطربوا فيه ولا تنحرفوا عنه، فإنّ في امتثالها صلاح معادكم ومعاشكم وقوام أُموركم في الدّنيا والعقبىٰ.

وأكّد عهده بقوله وأنا به زعيم؛ أي والحال أنّي بما أقول كفيل، وكلّ هذا تأكيد للإصغاء إلى قوله، وتعريض بعدم وثوقهم بالحدود الشّرعيّة، ثمّ نبّه على وجوب الأخذ بالتّقوى وعلى أنّه لا يصدّق بالشبهات الا من انغمر عقله تحت حكم الوهم، ولم يعتبر بالعقوبات التي حلّت بمن نبذ التّقوى وراء ظهره، وعلى أنّ المخاطبين منهمكون في الشّبهات بإيراد صورة شرطيّة متّصلة هي في الحقيقة نتيجة قياس مركّب من متّصلتين واستثناء لنقيض التالي لينتج نقيض المقدّم، وهو أنّهم ليسوا ممّن ينكشف لهم العبر، وأشار الى المتّصلة بقوله إنّ من صرّحت إلىٰ الشّبهات.

أمّا القياس المنتج لها فتقديره: انّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلاث اتّخذ التّقوى شعاره، ومن اتّخذ التّقوى شعاره حجزته التّقوى عن تقحّم الشّبهات...[2]، المتّصلة المذكورة أمّا الصغرى: فلأنّ من اجذبته العناية الالهيّة من غمرات الطبيعة، وبصّرته بآفات الدنيا الدنيّة وعيوبها، أوقفته على حالاتها المتبدّلة المتغيّرة المُنزلة لمن مال إليها من أوج الرّفعة إلى حضيض

---

(١) كذا بياض.

(٢) بياض في الاصل.

الذلّة، أو كحّل بصيرته بمكحل التّفكّر في العواقب والا...(١)، بالمصائب والعقوبات النّازلة بمن اتّخذها دار إقامة وركن إليها واغترّ بزخارفها، عرف مدارك الحقّ وخاف من التلطّخ بالدنيا تفادياً من لحوق العذاب به، ونزّه قلبه عن الالتفات إلى مموّهاتها، واتّخذ خوف الله تعالى شعاره بركة ما أفاض على نفسه القدسيّة من النّور المبصر بمعانيها.

وأمّا الكبرى: فلأنّ من عرف منازل الحقّ، واطّلع على مناهل اليقين، وحصل له الامتياز بين الحقّ والباطل بقوّة عقله المميز بينهما، وغلبته على الوهم المعارض إيّاه فهماً اقتضاه واتّصف بصفات المتّقين، صار التّقوي الّذي اتّخذ شعاراً لنفسه مانعاً عن أن يغلب عليه الشّيطان المغوي والوهم المردي، ويلقيانه في غمرات الشّبهات بالضّرورة، وأراد بها ما يزيّن الشّيطان للنّفس بإلقاء الوسوسة من الرّكون إلى بقاء الأُمور التي مصيرها إلى الزّوال والفناء واللّذّات الخالية من البقاء والصفاء.

ثمّ نبّه ــ عليه السلام ــ على كونهم مغمورين في الشّبهات، منهمكين في الالتفات إلىٰ الأهواء والبدع الّتي بعث النّبي ــ صلى الله عليه وآله ــ لرفعها ولبسط ألوية العدل والأخلاق بقوله: ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه.

أي؛ أنّ الفتن الّتي كانت واقعة يوم بعثة النّبي ــ صلوات الله عليه ــ وكانت أسباباً لنزول البلاء على الخلق وابتلاء المحق من المبطل وقد رفعت بواسطة مقدمه ــ صلوات الله عليه ــ ووفردعوته، رجعت الى الحالة التّي كانت عليها.

ولمّا كان الاجتناب عن الشّبهات من لوازم التّقوى، كان الوقوع فيها مستلزماً لعدم التّقوى، إذ نقيض اللازم مستلزم لنقيض الملزوم قطعاً، فيكون ــ

---

(١) بياض في الاصل.

عليه السلام ــ كأنّه أشار بألا إنّ بليّتكم إلى استثناء نقيض التّالي، ليلزم منه أنّهم ليسوا منخرطين في سلك من خصّصهم الله تعالى بنظر العناية، بل انغمسوا في اللذّات الفانية والشّهوات البدنيّة، ثم وبخهم على ثمرة ما كانوا مشتغلين به من اتّباع الأهواء الباطلة وذكر أموراً ثلاثة:

الأوّل: أشار إليه بقوله: لتبلبلّن بلبلة؛ أي أنكم توقعون في الفتن الجسام والكرب العظام، من استيلاء ائمّة الجور عليكم، وتخليط بعضكم ببعض، بحيث لا يبقى لخياركم تمييز عن شراركم.

الثّاني: أشار إليه بقوله: ولتغربلنّ غربلة؛ أي يذهب خياركم ويبقىٰ شراركم بفسادكم في الأرض، وايذاكم أكابركم وأشرافكم، كما يذهب النّقاوة من الغربال تحريك المغربل ويبقي النّخالة فيه.

الثالث: أشار إليه بقوله: ولتسلّطنّ إلى قوله أسفلكم؛ أي لتخلطنّ كما يختلط القدر حتّى ترتفع منازل أراذلكم وأسافلكم، و تنحطّ مراتب أعاليكم وأعاظمكم، بحيث لا يبقى تمييز أصلاً بين الخيّر والشرّير، لغلبة الفتن والأهواء والبدع. وأكّد هذه الأمور التي أخبر عنها ممّا سيقع بهم بالقسم البارّ، ليردعهم عمّا كانوا عليه من الخطأ إلى الصواب.

ثمّ نبّههم على تقلّب الزّمان بهم وتعيير من السّابقين الّذين قصّروا في معاونته ابتداءً ناصرين إيّاه ــ عليه السلام ــ معاونين له، وبالعكس بقوله: وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا، وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا، قيل: والأقرب أنّ معناه سيسبق إلى النّهوض لطلب الخلافة في آخر الزّمان من كان قاصراً عاجزاً عن طلب ما في أوّل الزّمان بوساطة غلبة الفتن، وسيعجز من كان مسابقاً إليها مستعداً لها، ويقصر عن البلوغ إليها وهو مناسب معنىً ولكنّ اللفظ يأباه.

قال بعض الشّارحين: أراد بالسّابقين المقصّرين الّذين قصّروا في نصرته في مبدأ الأمر حين وفاة الرّسول وكان عليهم نصره في ولايته، و بالسّابقين الّذين سبقوا

الّذين نصروه في مبدأ الأمر ثمّ انحرفوا عنه وحاربوا معه، وما قلنا أعمّ، ويحتمل أن يكون المراد بالسّابقين المقصّرين الّذين غلبت عليهم الأهواء في مبدأ الأمر وانهمكوا في استيفاء اللذّات الفانية.

ثمّ أخذته العناية الالهيّة وجذبته إلى حظيرة القدس وبصّرته بعواقب الأمور، فتنبّه من رقدة الغفلة، وأخذ زمام العقل، وردّ نفسه الأمّارة إلى الجادّة المسلوكة، وعقد نفسه في سلك المقرّبين الّذين سبقوا، وبالسّابقين الّذين سبقوا الّذين كانوا في مبدأ الأمر مبالغين في الإعراض عمّا سوى الله تعالى، مشتغلين بما يحصل الزلفى لديه، ثمّ غلبت عليهم الشّقاوة الأ بديّة، وفازت النّفس الأمارة إلى مطمورة الطّبيعة منغمسين في لجج التّقصير.

وقد أشار بهذا المعنى إلى الذين اغترّوا بمصاحبة حضرة الرسالة، وقنعوا بمجرّد الاسم، وادّعوا أنّهم الثّابتون على الجادّة دون غيرهم من التّابعين، وان كانوا بالحقيقة مقيمين في حدود الّذين غير منحرفين عنها بحال ما من الأحوال، وإلى ردّهم عمّا اعتقدوا إلى أنّ الاعتبار بخواتيم الأمور، وهو احتمال جيّد جدّاً فاعرفه.

ثمّ لمّا أراد ــ عليه السلام ــ أن يخبرهم بأنّ ما ألقاه إليهم ليس من قبل نفسه القدسيّة بل أمر قد أخذ من مشكاة النبوّة ومعدن الرّسالة، وأراد أن يصدّقوه في تلك الدّعوى من غير اختلاج ريب في قلوبهم، برّأ نفسه عن أن تتطرّق إليها رذيلة الكذب ونقصان كتمان الخبر بقوله: والله ما كتمت وشمة أي ما اتّهمت قط ... (١) رسول الله ــ صلى الله عليه وآله قرع سمعه، ولا كذبت كذبة أي ما قصدت إلى فرد كذبة من الأكاذيب فضلاً عن أكثرها، وأكّد هذا المعنى بالقسم البارّ ليطمئن قلوبهم بما ألقاه إليهم.

ثمّ بيّن بقوله ولقد نبّئت بهذا المقام: أي والله لقد أخبرت من رسول

---

(١) كذا بياض في الأصل.

الله ــ صلى الله عليه وآله ــ بمقام بيعة الخلق له، وبهذا اليوم أي يوم آجتماعهم عليه، وكلّ ذلك استمالة لقلوبهم وتنفيراً لهم عن الباطل إلى الحقّ، ثمّ لمّا بيّن لهم أنّ الوقوع في الشّبهات يستلزم مجانبة التّقوى وأنّهم واقعون فيها.

أراد ــ عليه السلام ــ أن يوقظهم من سنة الغفلة ويذكّرهم التّقوى، وغاية الخطايا عدّهم أغنياء لا يفهمون إلّا الأمور المحسوسة، وشبّههما بأمرين محسوسين ليشرعوا إلى التّقوى ويجتنبوا عن آرتكاب الخطايا بقوله: ألا وإنّ إلى الجنّة، وقد عرفت ما فيه فلا يحتاج إلى الإعادة هنا.

ثم لمّا بيّن أنّ ههنا طريقين لابّد للنّاس من سلوك أحدهما، وأراد أن يميّز أحدهما عن الآخر قال: حقّ وباطل؛ أيهما حقّ وباطل، أي التّقوى حقّ والخطايا باطل، ولكلّ واحد من طريقي الحقّ والباطل أهل أعدّه القدر الالهي لسلوكه بحسب ما جرى القلم في اللّوح المحفوظ، على ما أشار إليه الرسول ــ عليه السلام ــ: كلّ ميسّر لما خلق له.

ثمّ اعتذر لنفسه ولمتابعيه الثّابتين على الحقّ بقوله: فلئن أمر الباطل لقديماً فعل؛ يعني: لئن كثر الباطل وأهله فليس أمراً بديعاً ما كان في الزّمان القديم، بل كثرة الباطل وقلّة الحقّ ممّا تعاقبت عليه الأزمنة السّالفة، وهذا توطين لقلّته وتنفير لأهل الباطل مع كثرتهم عن اتّباع الباطل، وهذا مثل قول الشّاعر:

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدنا ❊ فقلت لها إنّ الكرام قليلُ

ثمّ أردف ذلك بلفظ في غاية الوجازة، دالّ على قلّة الحقّ مع رجاء أن يعود إلى الكثرة ويمن لها وهو قوله: ولئن قلّ الحقّ فربّما ولعلّ، ثمّ أشار بقوله ولعلّما أدبر شيء فأقبل: إلى استبعاد إقبال الحقّ بعد أن أدبر لضعفه بواسطة تراكم الأهواء والبدع على مرأى قلوب العباد، واسوداد ألواح نفوس أولي السّداد بعد أن كانت بيضاء نيّرة صافية من شبه الباطل، أو بموت الثّابتين على الحقّ القائمين به.

في هذا تنبيه لمن قام بالحقّ على اللّزوم به، والنهوض للذّبّ عن حوزته كيلا ينهدم كلّ القوم، وتارةً إلى ضميره ذلك نحو قوله تعالى: «فسَجد الملائكةُ كُلّهم[(١)]»، أو إلى نكرة مفرد نحو كلّ إنسان، وقوله تعالىٰ: «وهو بكلّ شيءٍ عليم»، عند الاضافة اليها يفيد معنىٰ كلّ واحد واحد، وربّما عرّي عن الاضافة لفظاً، وكان في التقدير مضافاً لمضاف إليه محذوف نحو قوله تعالى: «وكلٌّ في فلكٍ يسبحون[(٢)]»، بقوله لكلّ هكذا؛ أي لكلّ واحد واحد من الحقّ والباطل.

أهل الرجل: من يجمعه وإيّاهم نسب أو دين أو يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد وقرية، ثمّ شاع آستعماله على سبيل الاستعارة لكلّ شيء له تعلّق بطائفة، سواء كان محسوساً أو معقولاً. يقال: أمرهو بكسر الميم أي كثر.

قال أبوالحسن: أمر المال بالكسر أي كثر، وأمر القوم أي كثروا، قال الشاعر: آمرون لا يريبون سهم القعدد، والرّواية الصّحيحة كسر الميم القديم في مقابلة الحديث، وأكثر ما يستعمل باعتبار الزّمان، نحو قوله تعالى: «كالعرجون القديم»، وقد عرفت معناه بحسب العرف، الفعل: التّأثير من جهة مؤثّر؛ وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والّذي حصل من جهة الفاعل يقال له مفعول ومنفعل.

ومنهم من فرّق بينهما وقال: المفعول يقال إذا آعتبر بفعل الفاعل والمنفعل، يقال إذا اعتبر قبول الفعل في نفسه فيكون بينهما مباينة، ومنهم من قال المفعول أعمّ من المنفعل، لأنّ المنفعل يقال لما لا يقصد الفاعل إلى إيجاده وأن يولّد منه حمرة اللّون من خجل يعتري من رؤية انسان، والطّرب الحاصل عن الغناء المحرّك العاشق لرؤية معشوقه، والمفعول يقال لما يقصد

---

(١) الحجر: ٣٠.

(٢) يس: ٤٠.

الفاعل إلى إيجاده، وما أعلم وجه هذا الفرق، القلّة والكثرة يستعملان في الأعداد كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام.

ثمّ يستعار كلّ واحد من العظم والكثرة ومن القلّة والصّغر للآخر، وقلّ إذا اقترن به ما يعبّر به عن النّفي، يقال قلّما فلان يفعل كذا؛ أي لا يفعل، والدليل على أنّه للنّفي صحّة الاستثناء منه على نحوها من النّفي ،يقال: قلّما يفعل كذا إلّا قائماً أو قاعداً أو ما يجري مجراه. أدبر يدبر إدباراً: إذا انهزم في القتال وولّى دبره، والاسم منه الدّبرة وهي الهزيمة في القتال. الإقبال: التّوجّه نحو القُبل كالاستقبال، إلى هنا بيان اللّغات المشكلة من كلامه ــ عليه السلام ــ، من هنا نبيّن المشكلة من كلام السّيّد ــ رضي الله عنه ــ.

الإحسان: يقال على وجهين أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان، والثّاني: احسان في فعله وذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً، ومنه قول أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ: النّاس أبناء ما يحسنونه؛ أي ينسبون إلى ما يعملونه، وهو المراد للسّيّد ــ رضي الله عنه ــ. الحظّ: النّصيب والجدّ، والمراد هنا الأوّل. العُجب والتّعجّب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء.

ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه،يقال: قد أُعجب فلان بنفسه فهو مُعجب برأيه وبنفسه، والاسم منه العُجب بالضّمّ، وحقيقته: استعظام النّفس وخصالها الّتي هي من النّعم، والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم و الأمن من زوالها.

قال ابن السّكّيت(١) : طلعت على القوم؛ أي أتيتهم، وقد طلعت عنهم

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت بكسر السين وتشديد الكاف الأهوازي الإمام اللغوي الأديب، وكان ثقة جليل القدر من عظماء الشيعة، وكان حامل لواء العربية، له كتاب إصلاح المنطق. قال بعض العلماء ما عبر على جسر بغداد مثل إصلاح المنطق، قتله المتوكّل سنة ٢٤٤ لقصة ذكروها في التاريخ.

إذا غبت عنهم، وطلعت الجبل بكسر العين أي علوته، ومنه ما قال السّيّد. والفجّ: الطّريق الواسع بين الجبلين، والجمع فجاج وهو قرينة المراد. يقال: ضربه يضربه ضرباً أي أوقع شيئاً على شيء وضرب في الأرض ضرباً بالفتح إذا سار في ابتغاء الرزق فضربها بالأرجل، ومنه ما قال السّيّد على سبيل الاستعارة.

الصّناعة: في اللّغة اسم حرفة الصّانع، وفي العرف ما أوردناه في صدر الكتاب. العِرق: بكسر العين واحد عروق الشّجر وهي أصولها المثبتة تحت الأرض، وفي الخبر: من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حقّ، والعرق الظّالم أن يجيء الرّجل إلى أرض قد أحياها غيره فيغرس فيها أو يزرع ليستوجب به الأرض، ثم استعير لأصل الإنسان من الآباء.

منه ما روي: أنّ رجلاً من مرارة أتى النّبي ــ صلى الله عليه وآله ــ فقال: إنّ امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال ــ عليه السلام ــ: هل لك إبل فقال: نعم، فقال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: فهل فيها أسود؟ قال: نعم، قال: فلم ذلك؟ قال: لعلّ عرقاً نزع، فقال ــ عليه السلام ــ: لعلّ عرقا نزع.

الأعراب

الواو في وأنا: للحال: والعامل فيها أقول، والضّمير في به عائد إلى ما أقول، وما موصولة، والضّمير العائد إليها في الصّلة محذوف تقديره بما أقوله، حمل عليها أهلها: نعت للسّابق عليه، حقّ وباطل: يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره وهما حقّ وباطل، أي التّقوى حقّ والخطايا باطل، وان يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره في الدنيا حقّ وباطل.

إعلم أنّ ربّ وضع لتقليل المفرد إذا كان مجرّداً عن ما، ولها صدر الكلام، لأنّ معناها معنى الإنشاء في التّقليل، كما أنّ كم لإنشاء التّكثير، ولا تدخل إلّا على نكرة موصوفة، لأنّ وضعها لتقليل نوع من جنس، فإذا ذكرت

الجنس وخصصته بصفة وقرب عليها ما تقتضيه من نوع من جنس، فإذا يجب أن يكون ماضياً لأنّها وضعت لتقليل ما ثبت .

أمّا إذا قرنت بما فيفيد تقليل النّسب المفهومة من الجمل، فإذا قلت: ربّما قام زيد، إنّما قللت النّسبة المفهومة من قولك قام زيد، وإذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الجملة الداخلة هي عليها هنا محذوفة دالّة عليها الجملة السّابقة تقديره: لئن قلّ الحقّ فلربما كثر.

لعلّ: للترّجي، ومن ثمّ قيل لعلّ طمع واشفاق وذلك الترّجي والطّمع تارة من المخاطِب، وتارة من المخاطَب، وتارة من غيرهما، وهنا لانشاء الترّجي من المخاطب، واللام في لربّما جواب الشّرط وفي لقلمّا للقسم.

المعاني

في ذمتي بما أقول رهينة: خاصيتان: إحداهما: كونه جملة اسميّة ليدلّ على الثبوت والاستقرار، الثّانية: تقديم بما أقول لشدة الاهتمام بتلقّيه والإسراع إلى قبوله، والجملة الثانية إنّما أوردها اسميّة وفي معرض الحال لتأكّد مضمون الجملة الأولى، ويقربه إلى القبول في قطع إنّ من إلى الشبهات عما قبله خاصيتان لطيفتان هما بحرا البلاغة، إحداهما: القطع مع التّصدير بأن، ليؤذن بأن ثمّ منكر أو بردّه عن الخطأ إلى الصواب.

الثانية: إفراغ المراد في صورة شرطيّة متّصلة دالّة على العموم إيّاهم على تمكّنهم في الشّبهات، معرضة لهم بأنّهم ليسوا ثابتين على التّقوى، ولا ممّن انكشفت له العبر ليكون أذعن إلى القبول، لما عرفت غير مرّة أنّ إيراد الكلام عامّاً مريداً به الخاص لكونه خالياً من المنافرة، والمواجهة بالكلام الحسن صريحاً أقرب إلى القبول.

---

(١) كذا.

ومن غاية بلاغته أن انتقل من الغيبة إلى الخطاب وصدّر الجملة بألا للتنبيه وان، وقال ألا وإنّ بليّتكم: معبّرا عن وقوعهم في الأهواء والبدع والضّلالات، تعود الثلاثة إلى الحالة التي كانت عليها، وفي الجملة: هذه الخطبة على أنواع أقسام البلاغة أظهر من البيان، أنظر إلى اشتمال قوله حقّ وباطل إلى الآخر على الإيجاز المحمود وغيره، ممّا لا يخفى عليك إن كان ما سقنا إليك من أصول علم المعاني على ذكر منك.

البيان

في ذمّتي بما أقول رهينة: إستعارة تخييلية مكّنى بها عن توطين نفوسهم على ما قال، مستدعية لتشبيهها وهي معقولة بالمتاع الّذي يرهن، ووجه الشّبه: اشتراكهما في تحصيل الوثاقة واطمينان القلب وهو عقلي، وتخييل أنّها من أفراده،وإلّا لم يصحّ جعلها مسنداً إليها لرهينة.

وفي ألا وإنّ بليّتكم: مجاز، حيث أطلق الثّلاثة التي هي مسبّبة عن تشتّت الآراء والبدع وظهور الأهواء، وأراد سببها، وإنّما خصّها بالذكر توبيخاً لهم على ما هم خيارهم وبقاء أشرارهم، مستدعية لتشبيه هيئة أفعالهم من القصد بالأذى والقتل لأخيارهم، بهيئة فعل من يغربل الدقيق لتمييز شيء منه عن شيء، وهما مركّبان، ووجه الشّبه: أنّ أفعالكم تستلزم ذهاب أخياركم وبقاء أشراركم، كما أنّ فعل المغربل يستلزم ذهاب النّقاوة عن الغربال وبقاء النّخالة فيه، وتخييل أنّها من أفعال المغربلين.

وفي لتساطنّ: أيضا استعارة مكنّى بها عن ظهور أئمّة الجور والأرذال بينهم، وخمول أئمّة الهدى والأخيار بينهم، مستدعية لتشبيه هيئة ما يجري عليهم من الخلط وجعل الأسافل أعالي وبالعكس بسبب نار الفتنة، بهيئة ما يجري على ما في القدر من الخلط وجعل أسفله أعلاه وبالعكس بسبب النّار.

ووجه الشّبه :اشتراكهما في رفع التّميّز وهو عقلي. وفي ألا وإنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها: استعارة تصريحية تخييلية مستلزمة لتشبيه الخطايا وهي معقولة بالخيل الّتي تمنع الركّاب، أي يركب ظهرها ومع ذلك فهي مخلوعةاللّحم، وهي محسوسة مركّبة.

ووجه الشّبه: أنّ الخطايا يدخل راكبها على غير طرق الشّريعة من غير اختياره في أعظم موارد الهلاك وهي نار جهنّم، كما أنّ الخيل الشمس الّتي خلعت لجمها يدخل ركّابها في المهالك، وتجري بهم في غير الطرق المسلوكة الى المقصد، وهو مركّب عقلي، وأيضاً لتخيّل أنّها من أفراد الخيل المنعوتة، وإلّا لم يصحّ جعلها مسند إليها للخيل، وما هذه الإستعارة مليحة لطيفة.

قوله فتقحّمت بهم في النّار: دلّ به على الغاية المذكورة من ركوب الخطايا، وانّها خصّها بالذكر لكونها المقصودة وأخفى من ...[١] بقوله شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها على أن المشبّه به هو الخيل الموصوفة بالصّفات الثّلاث لا مطلق الخيل، وعلى أنّ الخطايا غير جارية على جادة الشّريعة مخلوعة لجم الأوامر الشّرعيّة وحدود الدّين عنها غايتها ما ذكرنا.

وفي ألا إنّ التّقوى مطايا إلى الجنّة: استعارة تصريحيّة تخييليّة، مستلزمة لتشبيه التفوّق بلوازمها وهي معقولة، بالمطايا المنعوتة وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في ميل القلب إليها، واشتمالهما على سلامة العاقبة، يعني: كما أنّ المطيّة الذّلول من شأنها أن لا تتجاوز الجادة المسلوكة إلى المقصد ولا تخرج عن طاعة راكبها.

بل تجري به على طمأنينة وسكون من غير إيصال مشقّة وتعب إليه، حتّى توصله إلى مقصده، كذلك التّقوى من شأنها أن يكون السّالك إلى الله تعالى

---

(١) بياض في الاصل.

الرّاكب عليها في رفاهيـة وأمن من جموح الهوى به في موارد الهلكة، إلى أن يوصله إلى المقصد المطلوب.

فحفظ التّقوى صاحبه عن أن يغلب عليه الهوى، وما يقوده إليه بلا اختياره إلى مظانّ الهلاك ، أشبه زلّة المطيّة، كما أنّ اقتحام الخطايا براكبها في موارد الهلكة، ومنعها إيّاه عن أن يسلسها أشبه شموسها، وحدود الشّريعة التي اشتملت عليها التقوى، والتزم به صاحبه من العثور والانحراف عن الجادة المسلوكة إلى الحق، أشبه أزمّة المطايا الّتي هلك راكبها، وأمن بها من خرّجها عن الجادة.

كما أنّ خروج الخطايا عن حدود الدّين ونظام الشريعة، أشبه الخيل التي خلعت لجمها، وكون التّقوى موصلة للآخذ بها السّعادة الأبديّة التي هي جنّة المأوى، أشبه غاية سير المطيّة الذّلول براكبها إلى مقصده الّذي توجّه إليه، كما أنّ كون الخطايا موصلة لصاحبها إلى الشّقاوة السّرمديّة الّتي هي النّار، أشبه غاية وسير الخيل الشّموس التي خلعت لجامها. هذا هو التّحقيق لما بين الاستعارتين، من غير ترك شيء،ولا ينبّه لمثل هذه إلّا المتدرّب بعلم البيان.

البديع

بين بلبلة وغربلة: السّجع المتوازي والتّرصيع، وفي ألا وإنّ الخطايا إلى الجنّة راعى المقابلة؛ حيث قابل أوّلاً الخطايا بالتّقوى، والشّمس بالذّلل، وخلع اللّجام بإعطاء الأزمّة، والنّار بالجنّة، وفي قوله حقّ وباطل: اللّف والنّشر، حيث ذكر بعد ذكر التّقوى والخطايا حقّ وباطل معاً.

وأراد رجوع كلّ منهما الى كلّ من المذكورين، ولا على سبيل التّرتيب والمقابلة، حيث قابل الحقّ بالباطل، وفي الكلمات الباقية: السّجع المتوازي بين فعل ولعلّ، والمتوازي بين لعلّ وأقبل، والمقابلة؛ حيث قابل الكثرة بالقلّة، والاقبال بالادبار.

الفحوى

إعلم أنّه ــ عليه السلام ــ صدّر الكلام أوّلاً بما يقرّب المخاطبين الى ...[١] وتلقّي أوامره ــ عليه السلام ــ باطمينان القلب ووثوق الخاطر، قواعده لقعودهم عن نصره وتثاقلهم عن دعوته، وتعريض لمن تشبّث بالشّبهة الباطلة و بأنّه ليس على الحقّ، وأنّ الحقّ قد فرّ عنه، ولا يقبل عليه ما دام متمسّكا بالباطل، منحرفاً عن الحقّ، اللّهمّ ثبّتنا على الصراط المستقيم، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا عن سلوك النّهج القويم.

وأمّا قول السّيّد ــ رضي الله عنه ــ إنّ في هذا إلى الاستحسان، فمعناه أنّ شيئاً من محاسن كلام العرب ممّا يقع عليه الاستحسان لا يوازي محاسن كلامه الّتي أجاد فيها وأحسن، ولا يبلغ إليها أو لا يبلغ الفكر الّتي بها نفع الاستحسان إلى أدنى محاسن كلامه ــ عليه السلام ــ، ويحتمل أن يكون معنى كلامه ــ عليه السلام ــ الأدنى الذي أحسن النّظر فيه، لا يقدر المستحسن أن يستحسنه بالأوصاف التي اشتمل عليها من البلاغة والفصاحة، لقصوره عن إدراكها، وهو جيّد.

قوله إنّ حظّ العَجَب أكثر من حظ العُجب به: يعني أن يعجب الفصحاء من خواصّ كلامه ــ عليه السلام ــ ونواصعه، أكثر من عجبهم باستخراج محاسنه، وذلك لأنّهم لا يطّلعون على خاصّيّة إلّا و تبدو لهم بليّة أخرى فوقها، لا يمكن لهم التعبير عنها لدقّتها، فيرون أنفسهم دائما في محلّ التّقصير في إخراج ما اشتمل كلامه ــ عليه السلام ــ عليه من النّكت والبدائع.

فلا يقع لهم عجب بأنفسهم حيث قدروا على آستخراج قوله، وفيه مع الحال الّتي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، أي لا يقدر لسان من الألسنة أن يبرز تلك الزوائد كما هي، ولا يطلع فجّها إنسان، أي لا يعلو عالي تلك

---

(١) كذا بياض في الاصل .

الزوائد إنسان ما، يعني: لا يصل ذهن أحد إلى نهاية خواص كلامه ـ عليه السلام ـ.

قوله ولا يعرف إلى بحقّ: أي لا يصدّقني فيما قلت إلّا من تمرّن في هذه الصناعة، وتدرّب فيها، ووردت هذه الفصاحة عن الخلافة المتقدّمين وكانت هي جارية في عروقه، ثمّ قال: **ومايعقلها**؛ أي ما يعلم تلك الزّوائد إلّا العالمون بعلم اليقين، ويحتمل أن يكون الضّمير راجعاً إلى الصّناعة، أي ما يطلّع على دقائق هذه الصناعة إلّا عقول العالمين المؤيّدين من عند الله بذوق سليم وطبع مستقيم.

* * *

شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ، سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ[1] وَآثَارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ؛ هَلَكَ مَنِ ادَّعَى، وَخَابَ مَنِ افْتَرَى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ.

وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لاَ يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لاَ يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا بِبُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لاَئِمٌ إِلاَّ نَفْسَهُ.

اللّغة

الأمام: بفتح الهمزة القدّام، وبالكسر الذي يقتدىٰ به انساناً كان يقتدىٰ بقوله أو فعله، أو كتاباً، أو غير ذلك محقّاً أو مبطلاً.

---

(١) في ر: وروي: عليها في الكتاب وعليها آثار النبوة.

ساع: إسم فاعل من سعى الرّجل يسعى سعياً؛ إذا عمل وكسب وعدا، والمراد به هنا عامل، وكلّ من ولي شيئاً على قوم فهو ساع عليهم، وأكثر ما يقال ذلك في ولاة الصّدقة، فقال: سعىٰ عليها أي عمل عليها وهم السّعاة، فإذا كان بعلى كان عاملاً لغيره، وإذا كان مجرّداً عن الحروف كان عاملاً لنفسه.

ثمّ اعلم أنّ أكثر ما يستعمل السّعي في الأفعال المحمودة. **السّرعة**: نقيض البطء، تقول منه سرع سرعاً مثل صغر صغراً فهو سريع. **نجا**: من النّجاء الممدود وهو المبالغة في السّرعة.

يقال نجا ينجو نجاة ونجاءً: ممدوداً أي أسرع وانفصل من الشيء، والنّجاة النّاقة السّريعة تنجو بمن ركبها، واستنجى أي أسرع، وفي الخبر: إذا سافرتم في الجدوبة فاستنجوا أي فاسرعوا، وأصل النّجا من السّعة، والنّاجي من وسع عليه أمره وخلص من مضيق دفع إليه، والمسرع إذا كان مجاله أوسع كانت سرعته أبلغ، يقال بيني وبين فلان نجاوة من الأرض أي سعة.

يقال طلبت الأرض طلباً: فهو طالب، والطّلب هو الفحص عن وجود الشيء عيناً كان أو معنى.

يقال رجوت فلاناً رجواً ورجاءً ورجاوةً: والرّجاء هو ارتياح القلب لانظار ما هو محبوب عنده، وسينبسط الكلام فيه عند الافضاء إلى الفحوى، وقد عرفت معنى المضلّة فلا نعيده.

الطّريق: السبيل الّذي يطرق بالأرجل أي ضرب، قال الله تعالى: «فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا[١]»، وعنه استعير كلّ مسلك يسلكه الإنسان في فعل محموداً كان أو مذموماً، والطّريق يذكّر ويؤنّث، تقول: الطّريق الأوسط والطريق الوسطى، وهنا قد أنّثها حيث أتى بالوسطى، والجمع أطرقة وطرق.

الكتب: في أصل اللّغة ضمّ أديم إلى أديم بالخياط، يقال كتبت السّقاء إلى

---

(١) طه: ٧٧.

التّعارف[1] ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وفي المقال النّظم باللّفظ لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سمّي كلام الله وإن لم يكتب كتاباً.

والكتاب: في الأصل مصدر، ثمّ سمّي المكتوب كتاباً والمكتوب فيه كتاباً، وقد عرفت تعريفه بحسب الاصطلاح. في باقي الكتاب روايتان:

إحداهما: ما في وما موصولة، والجملة الظرفيّة صلته والمجموع في محلّ الرّفع على الابتداء، وخبره عليها قدّم.

الثّانية: وهي الأصحّ والأشهر باقي الكتاب من البقيّة.

الآثار جمع أثر: وهو وجود ما يدلّ على الشيء، ومن ثمّ يقال للطّريق المستدلّ به عليه من تقدّم آثار، ومنه قوله تعالى: «على آثارهم يهرعون[2]»، ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضّل. النّبوّة: سفارة بين الله تعالى وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم، وتمام الكلام فيها قد عرفت.

المنفذ: إسم مكان من نفذ الكتاب إلى فلان نفاذاً ونفوذاً، ويحتمل أن يكون من نفذ السّهم من الرّميّة.

المصير: مصدر؛ يقال صرت إلى فلان مصيراً، قال الله تعالى: «وإلى الله المصير[3]»، أي المرجع، وهو شاذّ، والقياس مصار مثل معاش.

العاقبة: عند الإطلاق يختصّ بالثّواب نحو قوله تعالى: «والعاقبة للمتقين»، وعند الإضافة قد يستعمل في العقوبة نحو قوله تعالى: «فانظر كيف كان عاقبة الظّالمين[4]»، وهنا قد أطلقها فأراد بها الثّواب المعدّ لمن ختم أمره بالسّعادة والفلاح.

---

(١) كذا.

(٢) الصافّات: ٧٠.

(٣) آل عمران: ٢٨.

(٤) يونس: ٣٩.

الهلاك : يطلق على معان أربعة: الأوّل: افتقاد الشي ء عندك وهو عند غيرك موجود لقوله تعالى: «هلك عني سلطانيه» ، الثاني : إستحالة الشّي ء وإفساده نحو قوله تعالى: «يهلك الحرث والنّسل[١]»، الثالث: الموت نحو قوله تعالى: «وإن امرؤٌ هلك وليس له ولد[٢]»، الرابع: بطلان الشّي ء من العالم وعدمه رأساً المسمّى بالفناء نحو قوله تعالى: «كلّ شيءٍ هالك إلّاوجهه[٣]»، ويقال على سبيل المجاز للعذاب والفقر والخوف الهلاك ، وأراد به هنا الاستحالة.

ويحتمل أن يكون المراد الموت ولكن يحتاج إلى ارتكاب مجاز، يقال: هلك الشي ء يهلك هلاكاً وهلوكاً ومهلكاً بالحركات الثلاث في اللام تهلكة، والإسم منه الهلك بالضّمّ، قال اليزيدي[٤] التهلكة: من نوادر المصادر ليست ممّا يجري على القياس، وقيل التّهلكة ما يؤدي إلى الهلاك . خاب الرّجل خيبة: إذا لم ينل ما طلب. افترى: أي اخترع كذباً، يقال: فرى فلان كذباً إذا أخلقه، وافتراه أخلقه، وأصل الفري القطع.

يقال فريت الشي ء أفريه فرياً: أي قطعته لأصلحه، وفريت المزادة أي خلقتها وصنعتها، ثمّ استعمل في اختراع الكذب الذي قطع به.

أبدى ابداءً: أي أظهر؛ يقال أبدى الله الخلق أي أظهرهم بالإيجاد.

صفحة كلّ شي ء: جانبه، وصفح الشي ء ناحيته، وصفح الإنسان جنبه، وصفح الجبل مضطجعه. أراد بهلك مات.

---

(١) البقرة: ٢٠٥.

(٢) النساء: ١٧٤.

(٣) القصص: ٨٨.

(٤) أبو محمد يحيى بن المبارك العدوي المقرئ النحويّ اللّغوي؛ صاحب أبي عمرو بن العلاء البصري، كان يؤدب أولاد يزيد بن المنصور الحميريّ خال ولد المهدي، واليه كان ينتسب، ثمّ اتّصل بهارون فجعل ولده المأمون في حجره وكان يؤدّبه، وله التّصانيف الحسنة، وكان يجلس في ايّام الرّشيد مع الكسائي ببغداد في مسجد واحد، توفّي بخراسان ٢٠٢.

الجهلة: جمع جاهل نحو فسقة وفاسق. قدر الشّيء مبلغه وهو في الأصل مصدر السّنخ أخصّ من الأصل، ساق الشّجرة من حيث إن الفروع متشعبة منه إلى العروق الدّاخلة في الأرض، يقال له الأصل.

والسّنخ: لا يقال إلّا لما رسخ في الأرض وتوارى فيها، ومنه سنخ في العلوم سنوخاً إذا رسخ فيه، والسّناخ أصول الثنايا وهي الدّاخلة في اللّثة، فتكون هذه الإضافة من باب إضافة الخاصّ إلى العامّ.

البيوت: جمع بيت وهو معروف، وقيل أصل البيت مأوى الإنسان باللّيل، ثمّ قد يقال من غير اعتبار اللّيل فيه، ويقع ذلك على المتّخذ من حجر ومن مدر ومن صوف ووبر وبه شبه بيت الشّعر، وعبّر عن مكان الشيء بأنّه بيته. **الإصلاح**: ضد الإفساد.

والإستصلاح: ضد الإستفساد، إذا قيل من وراء كذا فمعناه من خلفه نحو قوله تعالى: «من وراء إسحق يعقوب»، قد يقال أيضا لإرادة القدّام نحو قوله تعالى: «وكان وراءهم ملك».

قال بعض المحققين: الحمد أخصّ من المدح وأعمّ من الشكر، وأن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره وفيما يكون منه بالتّسخير، فقد يمدح بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحمد يكون في الثّاني دون الأوّل، والشّكر لا يقال إلّا في مقابلة نعمة.

فكلّ شكر حمد وليس كلّ مدح حمداً، وقد عرفت الإطناب فيه فلا يحتاج إلى الإعادة هنا. **اللّوم**: عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، يقال لمت فهو ملوم، وألام: استحق اللّوم والتّلاوم، وأن يلوم بعضهم بعضاً.

الإعراب

أمامه: نصبت على الظّرف، ويحتمل أن يكون ساع سريع نكرة موصوفة

مرفوعة على الإبتداء وخبره نجا، وكذا طالب بطيء وأن يكون نجا ورجا أيضاً نعتين لما سبق، و تكون النكرة الموصوفة خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه سياق الكلام تقديره: بالنّاس أصناف ثلاثة صنف ساع سريع إلى **الآخر،وهوأنسب** بسياق الكلام.

وذلك لأنّ قول مقصر لا يحتمل أن يكون مبتدأ وفي النّار خبره، لكونه نكرة محضة وهي لا **تصلح** للابتداء، فتعيّن أن يكون خبر مبتدأ محذوف، فيسوق الأوّلين مساقة[1] **هادياً** على الاختلاف بينها. جهلاً منصوب على التّمييز، ولا للنّهي الغائب، ولهذا جزم يحمد ويلم.

المعاني

إنّما قال شغل: على البناء للمفعول إمّا للدّلالة على أنّ المقصود بالذّكر هو الشغل لا غيره، أو لأنّه لـمّا كان الشّاغل هو الله تعالى؛ بايجاد الجنّة والنّار، والتّرغيب في **إحداهما**والتّرهيب من الأخرى ترك ذكره تعالى للدّلالة على التّعظيم والإجلال وللإيجاز الّذي هو فنّ عظيم من البلاغة، وإنّما حذف المسند إليه من قوله ساع سريع إلى الآخر إمّا للتعويل على القرينة **العقليّة** مع الاختصار المطلوب، أو لأنّ الاخبار لا يكون صالحاً إلّا للمحذوفة مع اشتماله على الاختصار.

وإنّما نكّر للدّلالة على الأشخاص، **يعني**:كان النّاس منحصر أفراده في ثلاثة أشخاص لا يعنيهم، وإنّما جاء بالفعل الماضي بعد سريع وبطيءلشيء عن أنّ التمكّن في السعي والسّرعة بالاعتقاد والتّجدّد في المبالغة فيها شرط في القسم الأوّل، والتمكّن في المبالغة لا يكفي، بل لابدّ من أن يجدّدها لحظة فلحظة ولا يؤخّرها الى زمان سيجيء، وإنّما لم يأت في القسم الثّالث بوصف غير التّقصير ليدلّ على أنّ مجرّد التّقصير يوجب الدخول في النّار.

---

(١) كذا في الأصل.

ثمّ قطع (اليمين والشّمال مضلّة) عمّا قبله: ليؤذن بالجواب عن **سؤال** من يسأل عن تشتّت الطّرق، وعن بيان ما يجب السّلوك فيه منها، والألف واللام في اليمين للحقيقة والماهيّة أي حقيقتها مضلّة، وكذا في الطّريق، وقطع أيضاً عليها باقي الكتاب ليؤذن بتعليل كونها هي الجادّة. وقد عرفت غير مرّة أنّ إيراد الكلام على سبيل العموم أقرب إلى القبول وأكثر فائدة وإن كان المراد الخصوص.

ومن ثمّ قال ــ عليه السلام ــ هلك إلى **قدره**: مريداً به طائفة معيّنين، الفاء في فاستتروا: **للتّشبيه** الدالّة على أنّ ما قبلها علّة لما بعدها، ولا يحمد حامد إلّا ربّه: **قصر** للفعل من الفاعل في المفعول قصر إفراد، يعني: **ينبغي** أن لا يكون الحمد متوجّهاً من حامد إلّا على ربّه دون غيره، ولا يلم لائم إلّا **نفسه**: أيضاً لقصر الإفراد، ولكن يحتمل هنا أن يكون لقصر القلب وذلك بتنزيل كلّ لائم منزلة من لا يرى أن يلوم نفسه أصلاً، وانما يرى أن يلوم غيرها للمبالغة والتّأكيد، وقد عرفت مثله.

البيان

في اليمين والشّمال إلى الجادّة: إستعارة تخييليّة مستلزمة لتشبيه طرفي الإفراط والتّفريط من الصّراط المستقيم الّذي أمرنا باتباعه، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه**[١]، وهما معقولان، بطرفي الجادّة المسلوكة إلى المقصد من اليمنة واليسرة وهما محسوسان.

ووجه **الشّبه**: إشتراكهما في أنّ **السالك** فيها لا يصلّ إلى المقصد، بل يضلّ **ويضلّ**، وهو عقلي، ولتخييل أنّ الإفراط من أفراد اليمين والتّفريط من أفراد الشّمال، وتشبيه الطريق الوسطى الّتي كتب الله على السّالكين أن يسلكوا فيها أن يصل الى جناب عزّته وهي معقولة، بالجادّة وهي محسوسة.

ووجه **الشّبه**: أنّ الأنبياء والأولياء قد أوضحوها بكثرة المرور عليها، كما أنّ

(١) الانعام: ١٥٣.

الجادّة قد بيّنت بكثرة مرور النّاس والمارّين عليها ، وفي الجملة اشتراكهما في أنّ من أخذ في قطعها يصل إلى المقصد ، في لا يهلك على التّقوى سنخ أصل : إستعارة تخييليّة مكنّى بها عن أنّ أُصول العقائد الّتي يجب إخفاؤها إذا كانت مبنيّة على التّقوى لا تفسد ، مستلزمة لتشبيه جميع الأعمال الظاهرة والباطنة الّتي عليها مدار الإيمان وهي معقولة ، بالأُصول من البناء .

ووجه الشّبه : أنّ الدّين لا يقوم بدونها ، وأيضا لتشبيه أُصول العقائد الواجب خفاؤها بالسّنخ ، ووجه الشّبه : آشتراكهما في الخفاء ، والمانع من عدم اطّلاع الغير. وفي لا يظمأ عليه زرع قوم : إستعارة تخييليّة مكنّى بها أنّ المتثبّت بالتّقوى لا تفسد أعماله الظّاهرة ،مستدعية لتشبيه الأعمال بالزّرع والتّقوى بالماء .

ووجه الشّبه في الأوّل: آشتراكهما في الإثمار والإفادة، غير أنّ كلاً يفيد ما هو مناسب جنسه، فالأعمال تفيد الثّواب والزّرع يفيد النّبات، وفي الثاني: اشتراكهما في تحصيل النُّشو ولكن كلّ بالقياس إلى جنسه. وفي قوله فاستتروا ببيوتكم: كناية عن القعود عن المنافرات والمخاصمات، فإنّ الاستتار في البيوت من لوازم القعود.

البديع

راعى في قوله (ساع إلى رجا) المقابلة: حيث قابل السّرعة بالبطء، والسّجع المتوازي كما بين ادعى وافترى، وبين أصل وقوم :المتوازي، وبين نفسه وربه :المتوازي، ويحتمل أن يكون هو المطرف.

الفحوى

إعلم أنّ هذه الكلمات طائفة من الخطبة الّتي تلونا منها بعضها، خطب بها ــ عليه السلام ــ لمّا فرغ النّاس من بيعته. قوله شغل من الجنّة والنّار أمامه:

أي من كان متذكّراً لهما دائماً، وعالماً بانّه سيصير إلى إحداهما لا محالة، وكانتا قبالة عينه، فقد شغل بهما عن كلّ ما عداهما، ويجب عليه أن لا يشتغل إلّا بما يوصله إلى الفوز بالجنّة الّتي هي مطلوب كلّ طالب، ويبعده عن النّار الّتي تفرّ كل نفس منها.

ويحتمل أن يكون معناه: أنّ الناس من مبدأ عمره إلى منتهاه في سفر، لابدّ من الارتحال عن هذه الدّنيا إلى غاية هي الجنّة والنّار، ومن كان مسافراً إلى غاية معيّنة فلا يليق بحاله أن يشتغل بغير مهمّات تلك الغاية والوسيلة اليها، ثمّ لمّا فرغ ـ عليه السّلام ـ من وجوب الاشتغال بالجنّة والنّار عن غيرهما، قسّم النّاس بحسب ذلك الإشتغال على أقسام ثلاثه وكأنّه قال:

النّاس: إمّا باذلون جهدهم ووسعهم ومفنون طاقتهم في الوصول إلى رضوانه، وهم المشار إليه بقوله ساع سريع نجا؛ أو طالبون له ولكن في سلوكهم بطء وإنّ بطأهم المشار إليهم بقوله طالب رجا؛ أو فارغون عن الطّلب باذلون له بالكليّة ومقصّرون وهم المشار إليهم بقوله مقصّر في النّار ولا مزيد عليها، وان كان يحتمل تحت كلّ قسم مراتب متفاوتة ومنازل متفاضلة ولكن كلامه ـ عليه السّلام ـ لبيان الأقسام الكلّيّة.

فالقسم الأوّل: هم الّذين أغناهم الله عن التلوّث بالدنيا الدنيّة، وفازوا بجنّات النّعيم، وأنجاهم من الدّخول في النّار، وإليهم أشار تعالى بقوله: «والسّابقون السّابقون أولئك المقرّبون في جنّات النّعيم[1]»، وبقوله تعالى: «ثمّ ننجي الّذين اتّقوا[2]».

الثّاني: هم الّذين اغترّوا بحياة الدّنيا، وأنهمكوا في اللذّات الفانية، وألقوا نفوسهم بمتابعة الشّياطين وتسويلاتهم في غيابات الشّقاء، وأعدّوها لإيقاد النّار، واليهم أشار تعالى بقوله: «وأمّا الّذين شقوا ففي النّار لهم فيها زفير

(١) الواقعة: ١٠ ـ ١٢.
(٢) مريم: ٧٢.

وشهيق[١]».

امّا الثالث: فهم الّذين بقوا في منزل التّجاذب من طرقى العلوّ والسّفل، فالطّلب الّذي تمكّن في سويداء قلبه ويجذبه إلى طرف العلوّ ونيل المنزلة الثّانية، وبطؤه عن السّير في قطع السّبيل إلى الحقّ يجذبه إلى طرف السّفل والحرمان عن الوصول إلى الجنّة، ولكن رجاءهم رحمة الله الموصلة كلّ طالب إلى مطلوبه القريبة إلى المحسنين، قد رجّح طرف إحدى الطّلب، فكانت السّلامة على حاله أغلب، والنّجاة إلى أمره في الخاتمة أقرب، وإلى الأقسام الثّلاثة أشار تعالى في أنّه أخذ بقوله: «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير[٢]».

وبقوله تعالى: «وكنتم أزواجاً ثلثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسّابقون السّابقون اولئك المقرّبون في جنّات النّعيم[٣]»، وقد عيّن تعالى لكلّ قسم ما أعدّ لهم بقوله: «فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنّة نعيم وأمّا إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين وأمّا أن كان من المكذّبين الضّالين فنزل من حميم وتصلية جحيم[٤]».

ولما كان الاطّلاع على تمام ما قلناه متوقّفاً على الاطّلاع على حقيقة الرجاء وجب علينا أن نبحث عن حقيقته، ولأنّ ما قال الغزالي ــ رحمه الله ــ في إحياء علوم الدّين فيها وافٍ بمطالبنا نحن نقتصرعليه، إذ الزّيادة على الكمال نقصان.

قال: إعلم أنّ الرّجاء من جملة مقامات السّالكين وأحوال الطّالبين، وإنّما يسمّى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنّما يسمّى حالاً إذا كان عارضاً

---

(١) هود: ١٠٦.
(٢) فاطر: ٣٢.
(٣) الواقعة: ٧ ـ ١٢.
(٤) الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤.

سريع الزّوال، وكما أنّ الصّفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذّهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل؛ وإلى ما بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالّذي هو غير ثابت يسمّى حالاً لأنّه يتحوّل على القرب، وهذا جارٍ في كلّ وصف من أوصاف القلب، وغرضنا الآن حقيقة الرّجا، فالرّجا أيضاً يتمّ بعلم وحال، وعمل العلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل.

بيان ذلك: أنّ كلّ ما تتصوّره النّفس ويلاقيك من مكروه أو محبوب فينقسم إلى: موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظر في الاستقبال، فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى يسمّى ذكراً أو تذكّراً، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمّي وجداً وذوقاً لأنّه حالة تجدها في نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمّي انتظاراً وتوقّعاً، وإن كان مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمّي خوفاً.

وإن كان محبوباً حصل من إخطاره بالبال لذّة للنّفس وارتياح يسمّى ذلك الارتياح رجاء، فالرّجاء هو ارتياح للقلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكنّ ذلك المحبوب المتوقّع لابدّ وأن يكون له سبب، فإن كان آنتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرّجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرّجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنّي أصدق على آنتظاره لأنّه آنتظار من غير سبب.

وعلى كلّ حال فلا يطلق آسم الرجاء والخوف إلّا على ما يتردد فيه، أمّا ما يقطع به فلا، إذْ لا يقال: أرجو طلوع الشّمس وأخاف غروبها وقت المغرب، لأنّ ذلك مقطوع به، نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه، إذا عرفت هذا فاعلم أنّ أرباب القلوب قد علموا أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض

والإيمان وكذا حبّ المعارف إلّا بقيّة[1] كالبذر فيه، وأنواع الطّاعات والعبادات جارية مجرى تقليب الأرض وإصلاحها لإعداد الزّراعة، ونظيره جارٍ مجرى حفر الأنهار لسياقة الماء إليه.

والقلب المستهتر بالدّنيا المستغرق بحبّها والركون إليها، كالأرض السّبخة الّتي لا تقبل الزّرع ولا ينمو فيها النّبات بغلبة الأجزاء الملحيّة عليه، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد إلّا من زرع،ولا ينمو زرع إلّا من بذر، كما لا ينفع إلقاء البذر في الأرض السّبخة كذلك لا ينفع الإيمان مع تخبّث القلب وقذارة النّفس، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة من الله والوصول إلى جناب عزّته برجاء صاحب الزّرع.

فمن طلب أرضاً طيّبة، وألقى فيها بذراً جيّداً غير عفن ولا غبوش، ثمّ أمدّه بسوق الماء العذب إليه وكلّ ما يحتاج إليه في أوقاته المعينة، ثمّ طهّره عن الشّوك والحشيش المضرّ بالنّبات الممانع إيّاه، ثمّ جلس ينتظر من فضل الله دفع الصّواعق والآفات المفسدة إلى أن يتمّ الزّرع ويبلغ غايته، سمّي انتظاره رجاءً، وإن بثّ البذر في الأرض الصّلبة السّبخة المرتفعة الّتي لا ينصبّ إليها ماء ولم يشتغل بتعهّد البذر أصلاً، ثمّ انتظر حصاد الزّرع منه سمّي انتظاره حمقاً وغروراً لارجاءً، وان بثّ البذر في أرض طيّبة ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً، سمّي انتظاره تمنياً. فإذن اسم الرّجاء إنّما يصدّق على آنتظار محبوب حصل جميع أسبابه الدّاخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلّا ما ليس له، فدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات.

كذلك العبد إذا بثّ بذر الإيمان والمعارف الإلهيّة في أرض قلبه، وسقاه بماء الطّاعات والعبادات، وطهّر القلب عن شوك الأخلاق الرديّة المانعة

---

(١) كذا.

لنموّ العلم ونشوء العرفان، وانتظر من فضل الله تعالى أن يثبّته عليه إلى إبّان حصاد عمله وحسن الخاتمة المفضي به إلى المغفرة والرّضوان، كان انتظاره رجاءً حقيقيّاً محموداً في نفسه، باعثاً على المواطنة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت.

وهذه درجة السّابقين المقرّبين الّذين كانوا ساعين سريعين مبالغين في السرّ، وإن بثّ بذر الإيمان في أرض نفسه ولكنّه قصّر في إتمام جميع أسبابه إمّا بأن يكون قد أبطأ في الإلقاء أو في السّقي أو غيرهما، ثمّ انتظر بعد ذلك من فضل الله تعالى أن يبارك له فيه ويلحقه بالمثابين الّذين استحقّوا الثّواب بالإتيان بالأعمال الصّالحة، فيصدق عليه اندراج لكونه قد حصل أكثر أسبابه، وهذه هي درجة القسم الثّاني: وهو الطّالب البطيء الراجي.

وأمّا إن لم يبثّ بذر الإيمان أصلاً في نفسه، أو بثّه ولكن قطع النّظر عن تعهّده بماء الطاعات، أو تعهّده ولكن آنهمك قلبه بحبّ الدّنيا والركّون إلى الشّهوات الفانية، وانغمر في رذائل الأخلاق، ثمّ طفق ينتظر من فضل الله تعالى المغفرة والرّضوان، فذلك غرور وحمق على ما ينبئ عنه قول النبي ــ صلى الله عليه وآله ــ: الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله المغفرة.

قوله تعالى: «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا[1] »، وهذه درجة القسم الثالث: وهو المقصّر في تحصيل أسباب الزّراعة والتزوّد من زاد الآخرة. ثمّ بعد الفراغ من أقسام النّاس خاض ــ عليه السّلام ــ في الطّريق الّذي أوجب الله علينا السّلوك فيها، لنصل إلى المقصد الأصلي، ورفع عليها مناراً بإرسال الرسّل وإنزال الكتب.

قال: اليمين والشمال مضلة: قد عرفت في الحكمة العلميّة أنّ الطّريق الّتي شرّعت للسّالكين إلى الله تعالى هي العلم الّذي هو طريق القوّة النّظريّة، والعمل

---

(١) الأعراف: ١٦٩.

الّذي هو عبارة عن العفّة والشّجاعة والطّريق إلى القوّة العملية، وأنّ المأمور باتّباعه هو العدالة الّتي هي الصّراط المستقيم، وأنّ كلاً منها محتوٍ برذيلتين هما طرفا الإفراط والتّفريط، وأنّ الاجتناب عنهما واجب على كلّ سالك، لكون الواقع في مصديها[1] خارجاً عن قانون العدالة داخلاً في الهاوية والضّلال.

فتكون اليمين والشّمال عبارتين عن الطّرفين، والطّريق الوسطى عبارة عن العدالة المحمودة الواجب رعايتها في أمّهات الأخلاق، وهي الجادّة الواضحة المستنيرة لمن اهتدى، والّتي عليها باقي الكتاب من المقاصد الإلهيّة، ويحتمل أن يكون التّقدير الكتاب الثّاني حكمه الآن وهو القرآن، وقدّمت الصفة وأُضيفت إلى الموصوف لكونها المقصودة بالذكر كقولهم زلال الماء.

يعني: نزل الكتاب على الطّريقة الوسطى دون غيرها، وأن يكون الكتاب اسم جنس يشمل سائر الكتب السّماويّة، ومراده بإضافة الباقي إليه تخصيص القرآن بوصف الالتقاء حكماً. قوله وآثار النبوّة: يعني على الطّريق الوسطى بقيت آثار النبوّة الّتي بها يستدلّ على وجود النّبي وكون ما أتى به من عند الله تعالى.

وقوله ومنها منفذ السنّة: أي من الطّريق الوسطى ابتدأت الطّريقة المأخوذة من النبي ــ عليه السلام ــ، يعني: أنه ــ عليه السلام ــ ما تكلّم بكلمة، ولا فعل فعلاً، ولا أقرّ أحداً على فعل، إلّا وقد راعى قانون العدالة غير منحرف عنها بحال.

أمّا قوله وإليها مصير العاقبة: أي إلى الطّريق الوسطى الّتي هي العدالة مرجع العاقبة الّتي هي الخير في الدّنيا والعقبى، فإنّ بالعدل ينتظم أمر العباد في المعاش، ويلتئم أحوال النّاس في المعاد، إذ لولا العدالة لما تهيّأت أسباب المعاش ولا المعاد.

قوله هلك من ادّعى: يحتمل أن يكون دعا بالهلاك الّذي هو الموت على من ادّعى شيئاً ليس له أهلّيّة ذلك، وأن يكون خبراً عن الهلاك الأخروي

---

(١) كذا في الأصل.

الّـذي هو استحقاق العذاب.

وذلـك لأنّ الـدّعوى إن لم تـكـن مطابـقـة لما في الواقـع كـانت مسـتـلزمة للـكذب أو الجـهل المركّـب، وكلاهـا خصلتان رذيلـتان يجب الاجتناب عنهما، إذ المتلبّس بها مورد نفسه في مـوارد الهلاك ، وإن كانـت مطابقة ولم تكن عن حاجة كانت مستجمعة في الأغلب للعُجب المذموم على ما ينبئ عنه قوله ــ صلى الله عليه وآله ــ: ثلاث مهلكات شحّ مطاع وهوًى متّبع وإعجـاب المرء بنفسه، وإن كانت لمساس حـاجة إليها كـانت مـباحة ولـكن أعلى الوجود فيـكون كالعدم بـالنسبة إلى القسمين الأوّلين.

قوله: وخاب من افترى: أي لم ينـل مطلوبه من جعل الافتراء ذريعة إليه، ويحتمل أن يكون دعا بـالخيبة على من اتخذ الافتراء وسيلة إلى تحصيل مقصوده، قال بعض الشّارحين: معنـاه هلك مـن ادّعى الإمـامة لنـفسه مـع عدم اسـتحقـاقه لها، وخاب من افترى دعـواه لها، لأنّ كـلامه ــ عليه السّـلام ــ في هذه الخطبة مسوق لأمر الإمامة.

قـوله: من أبـدى إلى جـهلـة النّـاس: يعني مـن تشـمّر لتمشيـة الحقّ المجرّد لإظهـاره في مقابـلة كلّ باطل بـدا من المبطلين، وألزمـهم كلمة الحقّ، وحملهم على الـوقوف على الجادّة، فـقد أورد نفسـه في معرض الهلاك بـأيديهم وألسـنتهم، وكأنّه اعتذر بهذا الكـلام لنفسه وأصحـابه المتابعين له عن قعوده عن الطّـلب للإمامة حين آستولى عليها من لا استحقاق له فيها، ونبّههم به على أنّه لا يأمر إلّا بالحقّ الصّرف، ولا ينحرف عنه بحال.

ثم نبّه على أنّ الحقّ لا يأباه إلّا الجاهـل به، الّذي لا يعرف مـبلـغه وقدره وتعدّى طوره وطلب ما لـيس له وعلى أدنى مراتب الجهل. قوله وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره: وإنّما قال ذلك ــ عليه السلام ــ: لأنّ من جهل قدره وتصـوّر لنفسـه مرتبة سامـية ومـنزلة عاليـة يولـد منه الكبر والعجب الـلّذان هما رذيلـتان عظيـمتان،

فيفضيان من تلبّس بهما إلى الخزي في الدّنيا والنكال في العقبى، وهذا تنفير للسّامعين عمّا هم عليه، وتعريض بأنّهم لا يعرفون قدرهم، إذ لو عرفوا لما تهيأوا لطلب الإمامة.

ثمّ دلّ على لزوم التّقوى وإن ذهبت الدّنيا بزخارفها بقوله: لا يهلك على التّقوى سنخ أصل، أي من هيّأ اعتقاده الصّحيح، وما انطوى عليه حبّة قلبه على التّقوى، ولا يتّخذ الدّين وسيلة إلى تحصيل الجاه في الدّنيا، ولم يترك الدّين والعقيدة الصّحيحة الّتي ما يعلمها إلّا هو تفادياً عن ادبار الخلق وذهاب الدّنيا، لا يفسد دينه ويبقى في عقيدته كاملاً مؤمناً، وإليه أشار تعالى بقوله: «أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أسّس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ(١)».

قوله ولا يظمأ عليها زرع قوم: يعني أنّ من بثّ بذر المعارف الإلهيّة في أرض نفسه، وسقاه بماء التّقوى الّذي هو الطّاعات والعبادات، لا يلحق ذلك الزّرع ظمأ يفسده، بل ينمو بأقوى ساق وأزكى ثمرة، وقد عرفت تمام القول فيه، ثمّ لما بيّن أن الأصل في الدّين هو ملازمة التّقوى لا إثارة الفتنة ختم مادّة الفتنة بقوله:

فاستتروا ببيوتكم؛ أي الزموا بيوتكم وحاذروا من المشاجرات المبدية للضّغائن والأحقاد، وأصلحوا ذات بينكم، وكونوا كنفس واحدة، ولا تركنوا إلى الّذين كان أكثر همّهم هدم قواعد الدّين بإثارة الفتن المذيبة للاكباد المفرّقة للأخيار.

قوله: والتّوبة من ورائكم: تطميع للعصاة المتمردين عن الحقّ بالرّجوع إلى الله تعالى، فانّ الطّريق إليه تعالى لا يفسد بمجرّد اتّباع الشّياطين والمعصية، بل التّوبة من خلف العصاة مفتوح، فطوبى لمن تنبّه عن رقدة الغفلة والانهماك في المعاصي، ورجع إلى الله متلافياً لما فات، نادماً على ما سلف، عازماً على التّرك في

(١) براءة: ١٠٩.

الآتي.

قوله: ولا يحمد حامد إلّا ربه ولا يلم لائم إلّا نفسه: إشارة إلى أنّ السّالك في سبيل الله ينبغي أن لا يوجّه الحمد والثّناء إلّا إلى الله تعالى، ويقطع النّظر عن الذّرائع والوسائط، ويقصر اللّوم على نفسه ليكون مجدّا في السّلوك والسّير، ولا يقعده عن الطّلب إقرار النّفس على انحرافها عن سواء السّبيل، بتسويل الشّيطان إيّاها بناءً على أنّ الكلّ فائض من الله تعالى، وإلى هذا التأديب أشار تعالى بقوله: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك[1]»، والله أعلم.

ثمّ اعلم أنّ في بعض النّسخ قول السّيد الرّضيّ بعد هذه الكلمات وفي الأكثر قبلها، ولذلك شرحناه قبلها.

* * *

١٦ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل:

إنَّ أبْغَضَ الْخَلائِقِ إلَى اللهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلامِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ. وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الأُمَّةِ غَارٌّ فِي أَغْبَاشِ[2] الْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ.

بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ مَاقَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إذَا

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) في ح: عاد في اغباش الفتنة وفي م: اغطاش الفتنة وفي ك: غاد وفي ر: عاد في اغطاش الفتنة.

ٱرْتَوَى آجِنٍ[١]، وَٱكْتَنَزَ[٢] مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ؛ جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا ٱلْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى ٱلْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ ٱلشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ: لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ.

فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ، جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى ٱلْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ، يُذْرِي ٱلرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ ٱلرِّيحِ ٱلْهَشِيمِ، لاَ مَلِيءٌ وَٱللهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، (وَلاَ هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ[٣] إِلَيهِ)، لاَ يَحْسَبُ ٱلْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلاَ يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ[٤] مِنْهُ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ أَمْرٌ ٱكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ.

تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ ٱلدِّمَاءُ، وَتَعِجُّ مِنْهُ ٱلْمَوَارِيثُ، إِلَى ٱللهِ أَشْكُو[٥] مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ.

اللّغة

قد بغض الرّجل بغاضة: بالضّمّ أي صار بغيضاً أي عدواً لا ينظر إليه، وأبغض أفعل التفضيل منه.

التوكّل: أن تعتمد غيرك وتجعله نائباً عنك، وكله إلى نفسه أي فوّض أمره

---

(١) في ن وح وب ول وش: ارتوى من آجن.
(٢) في ن ولك: واكثر من غير طائل.
(٣) ساقطة من م ول وش.
(٤) في ض وح: ما بلغ مذهباً لغيره.
(٥) في م ول: أشكو الى الله من معشر وفي ن وح وش: الى الله من معشر.

وما يصلح به أحوال معاشه ومعاده إلى نفسه، والوكيل فعيل بمعنى مفعول.

الجور: الميل عن الاعتدال إلى طرف الإفراط، يقال جار عن الطّريق وجار عليه في الحكم فهو جائر؛ أي ظالم مائل عن اعتداله في الأمر، يقال طعنه فجوره إذا أمال قامته المنتصبة بأن صرعه.

قصد السّبيل: أي سواء الطّريق وحيث يكون سبيلاً إلى المقصد، القصد: الاعتدال بين الإسراف والتقتير، وإنّما يقال لسواء الطّريق القصد لأنّه معتدل لا قريب ولا بعيد، والقصد أيضاً العدل، قال الشّاعر:

على الحكم المأتيّ يوماً إذا قضى قضيته أن لا يجور ويقصد

المشعوف: بالعين المهملة من شعفه الحب أي أحرق قلبه، وبالغين المعجمة من شغفه أي بلغ شغافه وهو غلاف القلب، وقد قرئ بهما قوله تعالى: «قد شغفها حبّاً[1]»، معناه على الأوّل بطنها حبّاً، وعلى الثّاني دخل حبّه تحت الشّغاف. هكذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ، والرواية الصحيحة هنا العين المهملة.

البدعة: الحدث في الدّين بعد الإكمال.

الضّلال: العدول عن الصّراط المستقيم ونضارة الهداية، ويقال الضّلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإنّ الطّريق المستقيم الّذي هو المرتضى صعب جداً، ولهذا قال: استقيموا ولن تحصوا، والضّلال على ضربين: أحدهما: في العلوم النّظريّة كالضّلال في معرفة وحدانيّة الله تعالى، ومعرفة النّبوّة ونحوهما المشار اليهما بقوله تعالى: «ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً[2]».

والثّاني: في العلوم العمليّة كمعرفة الأحكام الشّرعيّة الّتي هي العبادات، ومراده ـ عليه السلام ـ بالضّلالة هنا جنسها الشّامل للضربين، والإضلال أيضاً ضربان: أحدهما: أن يكون سببه الضّلال إما بأن يضلّ عنك الشيء كقولك

---

(١) يوسف: ٣٠.

(٢) النساء: ١١٦.

أضللت البعير أو تحكم بضلالة، فالضّلال هنا سبب للإضلال.

والثّاني: أن يكون الإضلال سبباً للضّلال وهو أن يزيّن الإنسان الباطل ليضلّ كما في قوله تعالى: «و لهمّت طائفة منهم أن يضلّوك وما يضلّون إلّا أنفسهم[١]»، أي مجرون أفعالاً يقصدون بها أن تضلّ فلا يحصل من فعلهم ذلك إلّا ما فيه ضلال أنفسهم كما في قوله ـ عليه السلام ـ: مضلّ لمن اقتدى به.

الهدي: الهداية؛ دلالة بلطف، وستعرف أنواع هداية الله للإنسان في موضعه إن شاء الله.

الحمّال: اسم فاعل شدّد للمبالغة كضرّاب.

القمش: جمع الشّيء من ههنا وههنا، وكذلك التقميش، والشّيء الّذي جمع من المواضع المتفرقة، قمش الجهل على ضربين:

الأوّل: هو خلوّ النّفس من العلم ويسمّى هذا جهلاً بسيطاً، وقد جعل ذلك بعض المتكلّمين معنًى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام كما جعل العلم معنًى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام.

الثاني: إعتقاد الشّيء بخلاف ما كان عليه، يعني لا يعلمه كما هو ويعلم أنّه يعلمه ويسمّى هذا جهلاً مركّباً لكونه مركّباً من خلوّ النّفس عن العلم وٱعتقاد أنّها عالمة به، وهو مبدأ فساد كثير في العالم وهو المراد هنا.

الموضع: المسرع؛ يقال أوضع الرّجل أي أسرع وسار من موضع إلى موضع تعيريان وحهره[٢] الرجل الموضع إذا كان متزلزل الخلق سريع الانقلاب.

الغارّ: بالرّاء المشدّدة الخادع الغافل عن أمور الآخرة.

الأغباش: جمع غبش بفتح الباء وهو البقيّة من اللّيل، ويقال ظلمة آخر الليل، وأراد بها الظلمات.

يقال عمى فعمي فهو عمٍ: وجماعة عمون، والعمى يقال في افتقاد البصر

(١) النساء: ١١٣.

(٢) كذا.

وافتقاد البصيرة وأراد به هنا.

الاول : والعماء السّحاب وأيضاً الجـهالة، وعلى الثّاني حمل بعضهم ما روي أنّه قيل:أين كان ربّنـا قبل أن خلق السّماء والأرض؟ فقال:في عماء تحته عماء وفوقه عماء، ويمكن أن يكون الـعمى الاحتجاب ويحمل الرّواية عليه، وهو احتمال جيّد. العقد: الجمع بين أطراف الشّي ء ويستعمل ذلك لغة في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثمّ يستعار للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما.

الهدنة: إستمالة لـلقلوب الّتي تـفرّق بعضها عن بعض توجب اجتماعها بالمحبّة،من تهادن الأمر أي آستقام.

الأشبـاه: جمع شبه وهو المماثـل للشّي ء في احدى الكيفيّات كاللّون والطّعم، وكالعدالة والظّلـم، وكذا الشّبه والشّبيه. قال أبو زيد[1] : كلّ من بادر إلى الشّي ء فقد أبكر إليه وبكّر أيّ وقت كان،فالتبكير:الإسراع إلى الشّي ء في أيّ وقت كان، وقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ: في الجمعة من بكّر وابتكر وجبت له الجنّة.

يقال بكّر: أي أسرع وابتكر أي سمع أوائل الخطبة.

يقال رويت من الماء: بكسر العين في الماضي والفتح في الغابر ريّاً وروىً مثل رضىً ورضى.

إرتويت وترويت كلّه بمعنى،والرّيان ضدّ العطشان.

اكتنز الشّي ء: إجتمع وامتلأ. الطائل ما فيه غناء وكفاية.

---

(١) سعيد بن أوس بن ثابت الخزرجي البصري؛ اللّغوي المشهور كلماته بين القوم، كان من أئمة الأدب، وغلبت عليه اللّغة والنوادر والغريب، قيل هو يحفظ ثلثي اللّغة، وقد جاء الأصمعي إلى حلقته فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال له: أنت رئيسنا وسيّدنا منذ خمسين سنة. له في الأدب مصنّفات مفيدة،توفّي بالبصرة سنة ٢١٥.

هيّأ يهيّئ وتهيئة: أي اعدّ.

الطّول: الفضل. المبهمات: جمع مبهم، هو الأمر الخافي في النّاس.

الحشو: أي الرّذيلة، يقال لقيت حشو القوم أي أرذلهم، ويقال أيضاً هو من حشو بني فلان أي من رذائلهم، وأصله من الحاشية وهي النّاحية، والمرء إذا كان في الحاشية من القوم ولا مدخل له في أوساطهم يعّد من أرذالهم، ويقال أيضاً لمن تكلّم بكلام ركيك كلامه على الحاشية وكلامه حشو.

الرّثّ: الشّيء البالي، وجمعه رثاث، يقال فلان رثّ الهيئة وفي هيأته رثاثة أي بذاذة، والرأي الرّثّ هو الرأي الضّعيف الفاسد.

اللّبس بفتح اللام: مصدر قولك لبست عليه الأمر ألبس أي خلطت، ومنه قوله تعالى: وللبسنا عليهم ما يلبسون[1]، واللّبس اختلاط الظّلام.

نسج الثوب ينسجه نسجاً.

العنكبوت فعلكوت وهي النّاسجة والغالب عليها التّأنيث، والجمع العناكب والعنكباه، وقيل إنّه ثلاثي الأصل من العكوب بالفتح وهو الغبار، لأنّ نسجها يشبه الغبار، وقيل من العكب على وزن هِجَفّ وهو القصير الضّخم.

الصّواب: يقال على وجهين: أحدهما: باعتبار الشّيء في نفسه، فيقال هذا صواب إذا كان في نفسه محموداً ومرضيّاً بحسب مقتضى العقل والشّرع، نحوقولك: تحرّي العدل صواب والكرم صواب، الثاني: يقال باعتبار القاصد إذا أدرك المقصود بحسب ما يقصده، فيقال أصاب كذا أي وجد ماطلب، وإذا لم يدرك ما طلب يقال إنه أخطأ.

الخطأ: هوالعدول عن الجهة وذلك يقع على أضرب:

الأوّل: أن يريد ــ عليه السلام ــ ما يحسن بإرادته فيفعله وهذا هو الخطأ التامّ المؤاخذ به الإنسان، ويقال فيه خطأ يخطأ خطاء وخِطاء.

(١) الأنعام: ٩.

الثّاني: أن يقصد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال أخطأ خطاء فهو مخطئ، وهذا قد أخطأ في الفعل وأصاب في الإرادة، وهذا هو المعنيّ بقوله ـ عليه السلام ـ: رفع عن أُمّتي الخطأ والنّسيان، وبقوله ـ عليه السلام ـ: من اجتهد فأخطأ فله أجر.

الثّالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتّفق منه خلافه، فهذا مخطئ في الإرادة مصيب في الفعل، فهو بقصده مذموم وغير محمود على فعله، وجملة الأمر: أنّ من أراد شيئاً واتّفق منه غيره يقال أخطأ، وإن وقع منه كما أراده يقال أصاب، ويقال لمن فعل فعلاً لا يحسن وأراد إرادة لا تجعل أخطأ.

لهذا يقال أصاب الخطأ وأخطأ الصّواب، وأصاب الصّواب وأخطأ الخطأ، الحاصل: أنّ الأقسام لا تزيد على أربعة، ووجه الحصر: أنّ ما قصده لا يخلو من أن يكون حسناً أو قبيحاً، فان كان حسناً فلا يخلو من أن يقع منه أم لا، فإن وقع فهو الصّواب التّامّ.

ويقال: إنه أصاب الصواب وإن لم يقع منه، فهو المصيب في الفعل المخطئ في الإرادة، ويقال: إنّه أخطأ الصواب وإن كان قبيحاً، فلا يخلو أن يقع منه أم لا، فإن وقع فهو الخطأ التّامّ، ويقال إنّه أصاب الخطأ وإن لم يقع فهو المصيب في الفعل المخطئ في الارادة، ويقال إنه أخطأ الخطأ، وإذا عرفت أن هاتين اللّفظتين مشتركتان فلابد من أن يعرف المقصد ويتأمّل.

فالظّاهر أنّه أراد بأصاب: أصاب الصّواب، وبأخطأ: أخطأ الصّواب.

الخوف: توقّع مكروه عن إمارة مظنونة أومعلومة، كما أنّ الرّجا توقّع محبوب عن إمارة مظنونة أو معلومة.

الجهلات: جمع جهلة؛ مثل تمرات وتمرة، وهي فعلة من الجهل.

العاشي: السّائر على غير بصيرة، والعشا مقصور مصدر الأعشى وهو الّذي لا يبصر باللّيل ويبصر بالنّهار، والمرأة عشواء، والعشواء أيضاً النّاقة الّتي لا تبصر

أمامها فهي تخبط بيديها كلّ شيء، وركب فلان العشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة، تقول: عشوت الطّريق بضوء النّار فهو عاش أي سار في الليل بضوئها، ولا يكون ذلك إلّا على ضعفٍ من البصر.

العشوات جمع عشوة: وهي أن تركب أمراً على غير شان، يقال أوطأتني عشوة بالحركات الثلاث في العين أي أمراً ملبساً، وذلك إذا أخبرته بما أوقعته به في حيرة أو بليّة. الأذر: التفريق والتّبديل والإلقاء أيضاً.

يقال ذرى النّاس الحنطة: وأذرى أي نثر وبذر، وأذريت الشّيء إذا ألقيته كإلقائك الحبّ للزّرع، فأذراه عن ظهر دابّته أي ألقاه، والمراد هنا المعنى الأوّل، والقرينة الإضافة إلى الرّيح.

الهشيم: النّبات اليابس من الهشم وهو كسر الشّيء الرخو كالنّبات.

الملي ء بالهمزة: الثّقة والغنى، يقال ملئ الرجل أى صار ملياء أي ثقة غنيّاً، والرّواية الياء المدغمة وأصله ما ذكرناه.

يقال أصدرته فصدر: أي رجعته فرجع، والموضع مصدر ومنه مصادر الأفعال.

في يحسب: روايتان: إحداهما كسر السّين، وهي من حسبته صالحاً أحسبه بالفتح والكسر معاً محسبة ومحسبة وحساباً بالكسر أي ظننته وهي الأصحّ.

الثّانية ضمّ السّين، وهي من حسبه أحسبه بالضّم حسب وحسباناً حسبانة إذا أعددته.

النكّرة: ضدّ المعرفة، وقد نكرت الرجل بالكسر نكراً ونكوراً وأنكرته واستنكرته كلّه بمعنى.

لا يَرى: أي لا يعلم، روي لا يُرى بضّمّ الياء أي لا يظنّ والأولى أشهر.

الكتمان: ستر الحديث، يقال: كتمته كتماً، واكتتم به مثله معنى.

الصّراخ: الصّوت للمستغيث، يقال صرخ يصرخ صرخة وصراخاً؛ إذا استغاث عالياً بصوته، والمصرخ المغيث.

العجّ: رفع الصّوت،وعجّج أي صوّت، ونهر عجاج أي لمائه صوت، وفحل عجاج في هديره أي صياح، وقد يجيء ذلك في كلّ ذي صوت من قوس وريح.

الوراثة: إنتقال قنية إليك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد والميراث اسم للقنية الموروثة، وأصله موراث انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، ومن ثم يردّ الجمع إلى أصله ويقال المواريث.

المعشر: جماعة النّاس والجمع معاشر.

العيش: الحياة المختصّة بالحيوان وهو أخصّ من الحياة لأنّ الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي الملك.

السّلعة: بالكسر لفظ مشترك بين المتاع وزيادة تحدث في الجسد كالعدة يتحرّك إذا حرّكت، وقد تكون من حمّصة إلى بطيخة، وهنا أراد الأوّل وجعل أبور وأنفق قرينتين له وبالفتح الشّجة.

يقال سلعت رأسه أسلعه سلعاً: أي شققته.

أبور أفعل التفضيل: من بار يبور بوراً أي هلك، وأباره الله أي أهلكه، البور الرّجل الفاسد الهالك الّذي لا خير فيه.

التّلاوة: تختصّ باتّباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيه من أمر ونهي وترغيب وترهيب، وهي أعمّ من القراءة،وكلّ قراءة تلاوة، ولا ينعكس، وهنا أراد الارتسام،إذحقّ التّلاوة أن يمتثل ما آشتمل عليه.

أنفق: أي أروج من نفق البيع نفاقاً بالفتح أي راج.

أغلى: أي أكثر ثمناً من غلا السّعر غلاء. تحريف الكلام عن مواضعه:أي تغييره.

يقال آنحرف عنه وتحرّف وآحرورف:أي مال وعدل.أعرف: من عرفته

معرفة وعرفاناً.

والمعرفة: إدراك الشّي ء بتفكّر وتدبّر أخصّ من العلم، ويضادّها الإنكار كما يضادّ العلم الجهل. والمعروف: إسم لكلّ فعل يعرف بالعقل والشّرع حسنه.

والمنكر: ما ينكر بهما ومن ثمّ تعلقّ الأمر بالمعروف والنّهي بالمنكر، قال الله تعالى: وأمر بالمعروف وانه عن المنكر(١).

الإعراب

رجل وكله الله: يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه سياق الكلام، تقديره أحدهما رجل، وأن يكون مبتدأ وخبره محذوف تقديره رجل وكله الله أحدهما، وكذا التقدير في ورجل قمش جهلاً، الواو في وليس به للحال، والضمير به للعالم، في من جمع ما قلّ منه روايتان:

إحداهما: تنوين جمع، وتكون الجملة بعده حينئذٍ نعتاً له والجمع محتمل أن يكون مصدراً استعمل مقام اسم المفعول، أي من مجموع.

الثانية: إضافة إلى ما بعده من غير تنوين، وقد اختلفوا في تقديره على قولين:

أحدهما: أنّ ما ههنا يحتاج في تمام الكلام إلى تقدير مثلها معها حتّى تكون ما الأولى هي المضاف إليها.

والثّانية: هي المبتدأ، والتّقدير: من جمع ما الّذي قلّ منه خير ممّا كثر، لكنّه لمّا كان إظهار ما الثّانية يشبه التكرار ويوجب هجنة في الكلام، وكانت ما الواحدة تعطي الغنى عن المقدرة، كان حذفها أولى، الثّاني: أنّ المقدر المحذوف ان على طريقة قولهم تسمع بالمعيدي خير من أن تراه؛ أي من جمع ما إن قلّ خير ممّا كثر، أي من جمع ما قليله خير من كثيره، وهذا التّقدير أقرب إلى الصّواب.

---

(١) لقمان: ١٧.

قاصياً: حال من الضّمير في جلس، والعامل فيه جلس، وضامناً يحتمل أن يكون حالاً بما، وأن يكون وصفاً للأوّل. قوله إلى الله: متعلّق بفعل محذوف مثل أشكو، كما هو مصرّح به في بعض النسخ أو أبرأ، أو ما ضاهاهم. في أبور: روي الرّفع على أنّه نعت سلعة وخبر ليس فيهم، والنّصب على أنّه الخبر، وكذا في انفق.

المعاني

في إن أبغض الخلائق رجلان ثلاث خواصّ:

إحداها: تصدير الجملة بإنَّ ليؤذن تحقيق مضمونها في أذهان المخاطبين المتردّدين في هذا الحكم.

الثّانية: إيراد أفعل التفضيل مضافاً إلى الجمع المحلّى باللام المفيد للاستغراق، ليفيدا المبالغة والتأكد.

الثّالثة: إيراد قوله رجلان على سبيل الإجمال، ثمّ الإتيان بهما على سبيل التّفصيل ليكون أوقع في النّفس.

في رجل وكله الله إلى نفسه فائدتان: إحداهما: كونه منعوتاً بجملة فعلية دالة على الوقوع والتجدّد لحظة فلحظة.

الثّانية: الإتيان بنكرة ثمّ الإتيان بصفتها، ليدلّ على لحوق الذّمّ به من نفس الوصف، ويفيد الإجمال والتّفصيل.

كذا في رجل قمّش جهلاً. الفاء في فهو للسببيّة المؤذنة بأنّ اعتماده على نفسه سبب لبيانه على العدول عن الصّراط المستقيم، وعلى الشّعف بدعا ضلالة الدالّ عليه كون الجملة إسميّة، والفاء في فهو أيضاً للسببيّة الدالّة على أنّ كونه مشعوفاً بدعا ضلالة سبب لبيانه على افتتان الخلق نفسه وضلالة في نفسه إلى الآخر الدالّ عليه كون الجمل اسميّة، وستعرف سلسلة تلك الأسباب والمسبّبات الواقعة في تلك الأوصاف في الفحوى إن شاء الله تعالى.

إنّما حذف المسند إليـه من موضع في جهـال الأمّة، لأنّ هذا الخبر لا يصلح إلّا لضمير غائب يرجع إلى الرّجل المنعوت حقيقة للاختصار المطلوب، وليؤذن بالثّبات الدالّ عليه الاسميّة.

إنّما قطع بكر فاستكثر: ليكون جملة استينافيّة مؤذنة بتعليل سبب تسميتهم عالماً على أنّه ليس بعالم.

جاهل خباط جهالات: أيضاً حذف منه المسند إليه لما ذكرنا، وإنّما قال يذري بلفظ الاستقبال ليدلّ على الاستمرار والتجدد لحظة فلحظة، وإنّما استأنف قوله لا يحسب العلم ليؤذن بتعليل عدم مداين[1] على إصدار ما ورد عليه من المسائل العويصة، والثّاني معلوم من القواعد السالفة.

البيان

في قمّش: إستعارة مكنّى بها عن اجتماع الأمور المجهول في ذهنه، مستلزمة لتشبيه الجهل وهو معقول، بالمتاع وهو محسوس، ووجه الشّبه: اشتراكهما في صلاحيّة الجمع، وهو أيضاً معقول.

في حتّى إذا ارتوى من آجن: إستعارة تخييليّة مرشّحة مكنّى بها عن الجهل والآراء الباطلة على عقائدهم، مستدعية لتشبيه اشتراكهما في الفساد وعدم التّفاوت خاطر العاقل إليهما، ورشّح تلك الإستعارة بذكر الإرتواء.

في فهو من لبس الشّبهات إلى العنكبوت: تشبيه للهيئة المعقولة الحاصلة من وقوع ذهنه في حلّ الشّبهات الّتي ترد عليه، بالهيئة المحسوسة الحاصلة من وقوع الذّباب في نسج العنكبوت، ووجه الشّبه: أنّ ذهن هذا الرّجل الموصوف لا يقدر على حلّ الشّبهات الّتي ترد عليه، ولا يهتدي إلى وجه الحق منها لقلّة علمه، وضعفه عن المعرفة باستنباط المشكلات، كما أنّ الذّباب لضعفه لا يتمكّن من خلاص

(١) كذا في الأصل.

نفسه عن شباك العنكبوت، وفيه أيضاً تشبيه الشّبهات بنسج العنكبوت، ووجه المشابهة آشتراكهما في الوهن الحاصل لهما.

في خبّاط جهالات: إستعارة مكنّى بها عن كثرة الأغلاط الّتي تقع منه في القضايا والوقائع الواردة عليه، مستدعية لتشبيه الهيئة المعقولة الحاصلة من استخراج الأجوبة الصّحيحة عن المقدمات الفاسدة، فالّتي لا تعلّق لها بتلك الأجوبة الصّحيحة عن المقدّمات الفاسدة الّتي لا تعلّق لها بتلك الأجوبة بالهيئة المحسوسة الحاصلة من سير البعير بغير طريق.

ووجه الشّبه: أنّ من أراد أن يستخرجها من المقدّمات الفاسدة فلا يصل إلى المقصد، وإنّما يقع في الفتن المهلكة، كما أنّ البعير القاصد إلى مقصد معيّن إذا سار في غير الطّريق المسلوك إليه، وعدل عنه لا يصل إليه أصلاً، وربّما يقع في المهاوي المهلكة.

في غاش: إستعارة مكنّى بها عن نقصان ضوء بصيرته، وعدم اهتدائه إلى نور الحقّ في ظلمات الجهل، مستدعية لتشبيه الهيئة المعقولة الحاصلة من ظهور نور الحقّ أحياناً للسالك في ظلمات الجهل الّذي لم يكن له القدرة على العلم التّامّ لضعف ضوء بصيرته، بالهيئة المحسوسة الحاصلة من ظهور الطّريق أحيانا للماشي في ظلمة اللّيل.

ووجه الشّبه: أنّ السالك في طريق الدّين إذا لم يستكمل له نور بصيرته بقواعد الدّين، ولم يحصل له العلم التّامّ بكيفيّة السّلوك إلى الله، يظهر له نور الحقّ تارة في سبيله فيلذ بادراكه، ويخفى عليه أخرى فيتألّم بخفاء السّبيل عليه، فيخبط كما أنّ الماشي في ظلمة اللّيل تبين له تارة الطّريق المسلوك فيسلك فيه، ويخفى عليه أخرى فيضلّ عنه فيخبط.

قوله لم يعضّ على العلم بضرس قاطع: إستعارة تمثيليّة تخييليّة مكنّى بها عن عدم تمكّنه في العلم بالقوانين الشّرعيّة، مستدعية لتشبيه هيئة عدم الأحكام

في العلم والقدرة على التقصيّ من حرمانه وهي معقولة، بهيئة عدم المضغ الجيّد للطّعام الّذي يحصل بالعضّ الشّديد عليه وهي محسوسة.

وجه الشّبه: أنّه يضرّ في تحصيل أسباب الإحاطة بالعلوم من الثّبات فيه والدّوام عليه والتّعب الشّديد، وكذا لم يتهيّأ له الخروج عن عهده الآخر عن الأحكام الشّرعيّة، كما أنّ الماضغ إذا لم يجد المضغ ولا يتعب الأضراس بتحريكها لا يقدر على بلع اللّقمة، ولو بلعها لم يبلغ، وربّما يفضي إلى الهلاك، ولتشبيه العلم وهو معقول بالطّعام المحسوس.

وجه الشّبه: اشتراكهما في الانتفاع الحاصل منها، واحتياج كلّ منهما في صيرورته مدداً للحياة إلى تعب شديد، وتخييل أنّه فرد من أفراد الطّعام وإلّا لم يصحّ أن يجعل معضوضاً بالضّرس، ثمّ صار هذا مثلاً شايعاً لكلّ من لم يحكم قواعد العلم، وما يحتاج إليه في الدّين من الأحكام.

قوله يذري الرّوايات إذراء الريح الهشيم: تشبيه لهيئة إلقاء الروايات عن الرسول ـ عليه السلام ـ والأئمّة الهداة ونقلها واحدة بعد أخرى، بنسبة هيئة إذراء الريح المنكسر من النّبات اليابس منه وهي معقولة، ووجه الشّبه: أن الراوي لتلك الروايات لمّا لم يكن مطّلعاً على فوائدها المقصودة منها، كان يبثّها ويخرجها عن حدّ الانتفاع المقصود منها، كما أنّ الريح بإذراء الهشيم تخرجه عن حدّ الانتفاع بالكسر، وفيه تشبيه دقيق لطيف وهو تشبيه الراوي بالريح.

وجه الشبه: اشتراكهما في عدم العلم بما يلقيها، وهذا تشبيه المركّب بالمركّب طرفاه مذكوران، وحرف التّشبيه ووجه الشّبه محذوفان.

قوله تصرخ إلى المواريث: إن كان ممّا حذف فيه المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه تقديره أهل الدماء وأولياء المواريث، فهو كلام مجازي الحذف كقوله تعالى: وٱسأل القرية، وإلّا ففيه ٱستعارة تخييليّة تصريحيّة مستلزمة لتشبيه الدّماء المهراقة بغير حقّ والمواريث المستباحة بالأحكام الباطلة بالمظلوم المشتكي.

وجه الشبه: اشتراكهما في الانظلام وتخييل أنّها من أفراده، وإلّا لم يصحّ إسناد الصّراخ والعجّ إليها، وذلك كقولهم نطقت الحال بكذا وافترست المنيّة.

في قوله ليس فيهم سلعة إلى آخره: إستعارة أيضاً تخييليّة مرشّحة مكنّى بها عن عدم التفاتهم إلى الكتاب ونبذهم إيّاه وراء ظهورهم، إذا فسّر على الوجه الّذي يدلّ عليه، وشدة ميلهم إليه وولعهم به إذا عبّر عن مواضعه وفسّر على حسب آرائهم، مستلزمة لتشبيه الكتاب المتلوّ حقّ تلاوته بالمتاع الخسيس كثر وجوده.

وجه الشّبه: اشتراكهما في عدم رغبات النّاس إليهما، ولتشبيه الكتاب المغيّر عن مواضعه بالمتاع الثمين الّذي قلّ وجوده، ووجه الشّبه: آشتراكهما في ميل الخواطر إليهما، وكثرة رغبات النّاس إليهما والتّخييل، وإلّا لم يصحّ جعل الكتاب مفضّلاً عليه، وبذكر البور والنّفاق رشح.

البديع

راعى و ضالّ عن هدي من كان قبله: المقابلة، حيث قابل الضّلال بالهدى، وفي مضلّ إلى وفاته أيضاً، حيث قابل الحياة بالوفاة، كما في يعيشون جهّالاً ويموتون، وبين الفتنة الهدنة: المتوازي، وبين آجن وطائل: المتوازي، وبين جهالات وعشوات: المتوازي والتّرصيع، وبين عاش وعشوات: ردّ العجز إلى الصّدر، وكذا بين جهالات وجاهل.

في لما يعلم من جهل نفسه: المقابلة حيث قابل العلم بالجهل، وكذا في ليس إلى مواضعه: المطابقة حيث طلب البور بالنّفاق، والمقابلة حيث جعل البور مشتركاً بين السّلعة الخسيسة والكتاب المتلوّ حقّ تلاوته، كما جعل النّفاق في مقابله مشتركاً بين السّلعة النّفيسة والكتاب المحرّف عن مواضعه، وفي قوله ولا عندهم إلى الآخر: المطابقة، حيث طابق النّكرة بالمعرفة والمعروف بالمنكر، وفيه أيضاً ردّ العجز

إلى الصّدر.

الفحوى

إعلم أنّه ــ عليه السلام ــ بدأ أوّلاً بتنفير الخلق عن الرّجلين المشار إليهما بقوله وإنّ أبغض إلىٰ رجلان، يعني: إنّ أبعد الخلائق من رحمة الله تعالى ورضاه المستلزم لمحبّته رجلان، وذلك لأنّ محبته تعالى للخلق راجعة إلى كون أفعالهم جارية على وجه يحفظ نظام العالم، وتلتئم به أحوال بني آدم، فيكون بغضه تعالى عائداً إلى كون أفعالهم خارجة عن قانون النّظام الشّرعي، غير مستمرّة على قواعد العقل.

ولمّا كانت أفعال هذين الرّجلين وأعمالهما مائلة بالكلية عن سنن الشّريعة ونهج الطّريقة، كانا أبغض الخلايق إلى الله، ثم أخذ بفصل كلّ منهما عن الآخر بأوصاف مختصّة، وذكر للرّجل الأوّل أوصافاً ثمانية كلّ سابق منها سبب للاحق:

الأوّل: أنّه وكله الله إلى نفسه؛ إعلم أنّ التّوكّل مشتقّ من الوكالة، يقال وكل أمره إلى فلان: أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمّى الموكول إليه وكيلاً، ويسمّى المفوّض عليه متكلاً عليه ومتوكّلاً عليه، فالتوكّل عبارة عن اعتماد على الوكيل، إعتقد جزماً أو ظنّاً أنه لا فاعل إلّا الله تعالى، وجميع الأسباب والمسبّبات منتهية إلى قدرته، واعتقد مع ذلك أنّه تامّ العلم والقدرة على كفاية العباد، وتامّ العطف والعناية والرّحمة بجملة العباد وبالآحاد.

وأنّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك علم وعناية، فقد فوّض أمره بالكلّيّة إليه، وجعله متوكّلاً عليه، وانخرط في سلك من أحبّه الله تعالى من المتوكّلين، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: إنّ الله يحبّ المتوكّلين.

ومن اعتقد ظنّاً أو جزماً أنّ نفسه أو واحداً غير الله تعالى ممّن يتأتّى منه تحصيل أسباب معاشه في الدنيا، ويقدر على إيصاله إلى المراد، أفاض الله على قلبه

اطميناناً بذلك المعتقد فيه، واتكالاً عليه، فيصير بذلك من المتعدّين من رحمة الله تعالى وعنايته، الخارجين عن نظام المتوكّلين الّذين أحبّهم الله تعالى.

هذا هو المعنى بما قال الرسول ــ عليه السلام ــ: من انقطع إلى الله تعالى كفاه كلّ مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدّنيا وكله الله تعالى إليها. وسيعرف بعيد هذا تمام التّحقيق في التوكل إن شاء الله تعالى.

الثّاني: أشار إليه بقوله فهو إلى السبيل؛ أي أنّه يتمكّن في الجور الّذي هو رذيلة واقعة في طرف الإفراط من فضيلة العبد الّتي هي الصّراط المستقيم والنهج القويم، وهذا مسبّب من اعتماده بالكلّيّة على نفسه الأمّارة بالسوء.

الثّالث: أشار إليه بقوله مشعوف إلى ضلالة: أي مولع حريص بإحداث الأُمور الّتي تخالف قواعد الدّين، يدعو بها النّاس إلى الضّلالة عن سلوك الصّراط المستقيم، وهذا كناية وصف لازم الجور عن قصد السّبيل، وذلك لأنّ من انحرف عنه معتقداً أنّ الحقّ غيره، فبالضّرورة كان يحدث البدع ويتخيّلها كمالات قد حصلت له وفقدت عن غيره، يحرّض النّاس على اقتنائها، فهو من الأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

الرّابع: أشار إليه بقوله فهو إلى به؛ أي أنّه بلاء عظيم لمن اقتدى به واتّبع آثاره محبّاً طريقته مقتفياً بسيرته، وهذا أيضاً مسبّب عن السّابق عليه وهو ظاهر، ويحتمل أن يكون مسبباً عن الوصف الأوّل، وكذا أعاد الفاء، والحاصل أنّ الوصف الأوّل قد استلزم لازمين: أحدهما بالنّسبة الى نفسه وهو أيضاً له لازم كما عرفت، والآخر بالقياس إلى غيره وله لوازم مترتّبة بعضها بالقياس إلى نفسه، وبعضها بالقياس إلى غيره.

الخامس: أشار إليه بقوله ضالّ إلى قبله؛ أي عادل عن سلوك المسلوك إلى الحقّ الهادي إليه الّذي كان عليه الأسلاف المتقدّمون من الأنبياء والأئمّة الهداة والعلماء الدهاة، فإن قيل هذا مثل الوصف الأوّل، قلنا لا، فإنّ الأوّل أعمّ، وذلك

لأنّ الجور ربّما كان بسبب عدم الاهتداء إلى هدى يقتفي أثره، وهنا جائر مع وجود هدى يتّبعه، فيكون كلّ ضالّ عن هدي من كان قبله جائراً عن قصد السّبيل، من غير عكس، فلا يكون تكرار، وهذا وصف مسبّب عن الرّابع، وذلك لأنّ من كان فتنة لمن اتّبعه، ضآلاً عن هدي من كان قبله، وإلّا لم يكن فتنة.

السّادس: أشار إليه بقوله مضلّ إلى وفاته: أي؛ هو سبب إضلال غيره في حياته عن سلوك الجادّة الّتي نهجها الشّارع، ولضلال الضّالّين بعد وفاته بسبب القاء العقائد الباطلة المكتسبة عنه، وهذا أيضا مسبّب عن الخامس، لانّ كلّ من كان ضالاً في نفسه مضلاً لمن اقتدى به بالضّرورة، وهذا الوصف مشتمل على زيادة ليست في الوصف الرابع وهي كونها سبباً لضلال الضّالّين بعده.

السّابع: أشار إليه بقوله حمّال خطايا غيره؛ أي؛ أنّه حامل لأوزار من يضلّه كاملة يوم القيمة «ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم ألاساء ما يزرون»، وقول النّبيّ ــ صلّى الله عليه وآله ــ: من سنّ سنّة سيّئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقوله ــ صلوات الرحمن عليه ــ: أيّما داعٍ دعا الى الهدى فاتّبع، كان له مثل أجر من تبعه ولا ينقص منه شيء.

فإن قيل: كيف يمكن أن يوصل الله تعالى العقاب الّذي يستحقّه الأتباع الضّالّون إلى الأئمّة الطّغاة المضلّين وقد قال الله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى(١)»، وقال تعالى أيضاً: «ولا تزر وازرة وزر أخرى(٢)».

قلنا: المراد أنّ الرؤساء المضلّين إذا أحدثوا في الدّين بدعاً يضلّون بها النّاس عن سلوك الصّراط المستقيم لم يحدثوا إلّا عن نفوس تراكمت عليها حجب الظّلمات ناشئة من الجهل المركّب والاعتقادات التي حبوها صحيحة، صارت ملكات راسخة عليها، قد اسودت ألواحها عن قبول الأنوار الإلهيّة، وحوائل يحول

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) الانعام: ١٦٤.

بين أربابها والرّحمة.

بحيث يكون في الشّدّة والقوة أضعاف الحجب الطّارية على قلوب المهتدين بضلالتهم المقتفين بآثارهم، وكلّما كانت الحجب أكثف وأكثر، كان البعد من رحمة الله تعالى الّذي هو عين الوزر أكثر، فلا جرم كانت أوزار المضلّين وسيئاتهم أكثر من أوزار الضالّين التّابعين لهم.

وقد أشار النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ في الحديث المذكور إلى هذا المعنى بقوله: كان عليه مثل وزر من تبعه ولا ينقص منه شيء، وإذا عرفت هذا في جانب السّيّئة فاعتبر مثله في جانب الحسنة وتدبر في قوله تعالى: «إن الحسنات[1]»، وقول النبيّ ـ عليه السّلام ـ: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، ترى ما ترى، ولا خفاء في أنّ هذا الوصف لازم عمّا قبله.

الثّامن: أشار إليه بقوله رهن بخطيئته؛ أي مرهون به الّتي صارت أغلالاً وسلاسل يمنعه عن الصّعود إلى مطالعة أنوار الملكوت، والانخراط في سلك المقربين الساكنين في حظائر القدس، فتمحّض ممّا ذكر أنّ كونه وكله الله إلى نفسه هو السّبب الأوّل لهذه الأسباب والمسبّبات على الترتيب الّذي تلوناه عليه، واعلم أنّه ـ عليه السلام ـ ذكر للرّجل الثّاني عشرين وصفا:

الأوّل: أشار بقوله قمش جهلاً؛ أي جمع في نفسه أسباب الجهل من مواضع متفرّقة، وصار نفسه يجمع أنواع الجهل.

الثّاني: أشار إليه بقوله موضع إلى الأمّة؛ أي سائر في جهّال الأمّة «من عرمان ولا حره[2]» أي يمشي على غير طريقة الحقّ ويقتدي بأفعال جهّال الأمّة، قيل معناه مطرح ليس من أشرف النّاس، وما ظفرت في كتب اللّغة بهذا المعنى للمسرع.

الثّالث: أشار إليه بقوله غارّ في أغباش الفتنة؛ أي غافل في ظلمات

(١) هود: ١١٤.

(٢) كذا.

الخصومات، غير عالم بطريق الاهتداء إلى وجه الخلاص عن تقصيها، وإخراج نور العلم، وفي بعض النّسخ عاد بالدال المهملة، أي ساع في إثارة الفتن المظلمة.

الرّابع: أشار إليه بقوله عمٍ بما في عقد الهدنة؛ أي أنّه أعمى البصيرة بما يحفظ نظام العالم من الاتفاق الّذي يحصل بالصّلح والمسالمة بعد وقوع المهاجرة والمحاربة، جاهل لمصالح النّاس.

الخامس: أشار إليه بقوله قد سمّاه أشباه النّاس عالماً وليس به؛ أي أنّه قد حسبه الجهّال المقلّدون الّذين يشابهون الإنسان الحقيقيّ في الصّورة المحسوسة دون الصّورة المعقولة المستلزمة للكمال وللعلم عالماً، والحال أنّه في نفس الأمر خالٍ من العلم.

السّادس: أشار إليه بقوله بكر إلى كثر؛ أي أنّه من أوّل العمر أسرع في جمع الشّبهات والآراء الباطلة، جمع منها ما كان قليله خير من كثيره بكثير، وكاذبه أكثر من صادقه، وهذا يصلح تعليلاً للوصف السّابق الّذي هو لتسميتهم إيّاه عالماً، وقد عرفته في المعاني.

السّابع: أشار إليه بقوله حتّى إذا إلىٰ قاضياً؛ واستكثر منها حتّى إذا حصل الاستغناء من غيره في جمعها لكثرتها عنده، جلس بين النّاس قاضياً يجعل الغاية من الاستكثار الشّرطيّة المذكورة.

الثّامن: أشار إليه بقوله ضامناً لتخليص ما التبس على غيره؛ أي ملتزم بفصل الحكومات بين النّاس، وحسم موادّ الخصومات الّتي أشكلت على غيره.

التّاسع: أشار إليه بقوله فإن إلى رأيه؛ أي إن عرضت عليه إحدى الوقائع المبهمة الخافية على أكثر النّاس المتلبس حلّها عليهم، أعدّ لحلّها كلاماً كثيراً لا طائل تحته، ساقطاً عن نظر العلماء الراسخين من رأيه الضعيف، وليس حلاً لها، ثمّ حكم بكونه قطعيّاً لا يمكن أن يكون غيره حلّاً لها وهذا يدلّ على اعتقاد العلم في حقّه مع أنّه ليس بعالم، وكأنّه تفصيل لقوله وليس به.

العاشر: أشار إليه بقوله فهو إلى العنكبوت؛ أي أنّه في إدراك وجوه الخلاص والتقضّي عن عهدة أجوبة الوقائع المشكلة والقضايا المبهمة، كالّذباب الواقع في شباك العنكبوت، ضعيف عاجز حتّى يموت على عجزه وضعفه.

الحادي عشر: أشار إليه بقوله لا يدري إلى أن يكون قد أخطأ؛ أي غير متقن بما يحكم به، بل إنّما يتّبع مجرّد ظنّه الّذي أكثره على الخطأ المحض، لكونه ليس جارياً على قانون الاجتهاد المعتبر.

الثاني عشر: أشار إليه بقوله جاهل؛ أي أنّه جاهل عظيم يقع في الأغلاط الكثيرة، لعدم علمه بالقوانين الشّرعيّة، وقد عرفت وجه الإستعارة فيه.

الثالث عشر: أشار إليه بقوله عاشٍ ركّاب عشوات؛ أي أنّه سائر على غير طريقة الحقّ، ركّاب أُمور ملتبسة، لا يشمّ منها رائحة الحقّ، وقد عرفت التّحقيق فيه في البيان.

الرابع عشر: أشار إليه بقوله لم يعضّ على العلم بضرس قاطع؛ أي لم يكن متقناً علمه بالقوانين الشّرعيّة، ولا محيطاً بها وقد عرفته أيضاً.

الخامس عشر: أشار إليه بقوله يذري إلى الهشيم؛ أي ينقل الروايات واحدة بعد أُخرى من غير أن يكون لها إفادة للنّاس، بل يخرجها عن حدّ الإفادة لعدم علمه بمصادرها ومواردها ورعاية طرقها، وقد عرفته أيضاً في البيان.

السّادس عشر: أشار إليه بقوله لا مليء إلى عليه؛ أي ليس له قوّة بإصدار الأجوبة عن المسائل المشكلة الّتي ترد عليه، لعدم إحاطة علمه بالأصول الّتي يستخرج منها الفروع.

السّابع عشر: أشار إليه بقوله لا يحسب إلى أنكره؛ أي لا يعدّ العلم الحقيقي الّذي ينبغي أن يتعب في تحصيله، ويبذل المهجة في طلبه، شيئاً من جلة ما أنكره، أي أنّه لا يلتفت إلى العلم أصلاً، ولا يعدّه شيئاً يمكن أن ينكر عليه،

بل يعدّه أقلّ من المنكر «عنده بالمن دوجه[١]» أولا يظنّ العلم الحقيقي فضيلة يجب اعتقادها والإذعان لها، بل لا يظنّه شيئاً من جملة ما أنكره، لعدم اعتباره عنده بالكلّيّة.

الثّامن عشر: أشار إليه بقوله ولا يرى إلىٰ لغيره؛ يعني إذا حصل عنده ظنّ في مسألة مشكلة جزم به، ولو عرض عليه قول آخر لغيره أظهر يعضده العقل والنّقل لم يلتفت إليه، ولم يعبأ به، ولم ير في الوجود قولاً أوفق ممّا ذهب إليه.

التّاسع عشر: أشار إليه بقوله إن أظلم إلى نفسه؛ يعني إذاأشكلت عليه واقعة من الوقائع الواردة عليه تغافل عن سماعها وسترها عن العلماء بحلّها كيلا يطّلع على جهله أرباب العلم ويفضح بينهم وتختل قواعد منصبه، وهكذا جرت عادة قضاة زماننا لجهلهم وغوايتهم لا يعلمهم إلّا هو ـ عليه السلام ـ.

العشرون: أشار اليه: «بقوله...[٢]» إلى المواريث؛ وقد عرفت معناه في البيان، ثمّ لمّا فرغ من بيان أوصاف الرّجلين ممّا يوجب أن يكون أبغض الخلائق إلى الله تعالى، أردف ذلك بالتنفّر عنهما وعن طريقتهما المجلبة للبغضاء بالتّشكّي أو الإبراء منهما ومن غيرهما من الجهّال، ليكونٰ أبلغ في القبول، وهوقوله إلى الله: أي أشكو إلى الله من طائفة تكون حياتهم مستمرّة على الثبات على الجهل المركّب المخزي في الدّنيا والآخرة، ومماتهم على العدول عمّا هو الجادّة.

وهذا الوصف أي الموت على الضّلال لازم عن العيش على الجهل، فان من عاش جاهلاً مات ضالاً، وإليه أشار قوله تعالى: «يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه امداً بعيدا[٣]»، وأشار النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ: إنّما هي أعمالكم تردّ إليكم، ثمّ ذكر لازمين من لوازم عيش الجهّال:

---

(١) كذا.

(٢) كذا بياض في الاصل.

(٣) آل عمران: ٣٠.

أحدهما: أشار إليه بقوله ليس فيهم إلىٰ عن مواضعه؛ أي إذا حمل الكتاب على المطالب المنزل هو عليها والمقاصد المطلوبة من إنزاله نبذوه وراء ظهورهم، معرضين عنه إعراضهم عن السّلعة الخسيسة الّتي لا آحتياج لهم بها، وإذا حمل على مقاصدهم محرّفاً عمّا نزل عليه أقبلوا إليه وتنافسوا فيه اقبالهم على السّلعة النفيسة الّتي مسّت حاجتهم إليها ومالت نفوسهم إلى اقتنائها.

الثّاني: أشار إليه بقوله ولا عندهم إلى المنكر؛ أي ليس عندهم أنكر من المعروف لمخالفته إعراضهم، ولأنّ المعروف إنّما يعرفه من آقتفى آثار العقل والشّرع، ويميّز بهما الحسن عن القبيح، وهم معزولون عنها ولا عندهم أعرف من المنكر لكونه على منوال مآربهم، ولانّ من أنكر المعروف لكونه قبيحاً عنده، فقد عرف المنكر واعترف به لكونه حسناً عند رأيه.

«قال ابن ميثم[(١)]» ــ رحمه الله ــ ما معناه: أنّ أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ قسّم في موضع آخر النّاس إلى ثلاثة أقسام: عالم ومتعلّم وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق، والرّجلان المشار إليهما لكونهما على طرف الجهل المضادّ للعلم ومتبوعين ليسا من القسم الأوّل ولا من الثّالث، فيكونان من الثّاني بالضّرورة.

المراد من المتعلّم من ترفع درجته عن درجة الهمج، واكتسب ذهنه شيئاً من الاعتقادات، ولكن لم ينته إلى درجة العلماء القادرين على الاستنباط والتصرف في المسائل العويصة، فاعتقاد أنّه إمّا أن تكون مطابقة كلّها أو بعضها أو ليست مطابقة أصلاً، وعلى التقديرات الثّلاث، فإمّا أن يتصدّى بنفسه للحكم بين النّاس من القضاء والإفتاء أو لا فهذه أقسام ستّة:

اــ من اعتقد المطابق ولم يتصدّ لشيء من المناصب.

بــ من اعتقد كذلك وتصدّى.

---

(١) كمال الدّين: ميثم بن علي بن ميثم البحرانيّ، العالم الرّباني والحكيم المتألّه، جامع المعقول والمنقول، صاحب الشروح على نهج البلاغة، يروي عن المحقّق نصيرالدين الطّوسي، ويروي عنه العلاّمة الحلّي،توفّي سنة ٦٧٩.

جـ ـ اعتقد المطابق ولم يتصد لشيء منها.

د ـ من اعتقده وتصدّى.

هـ ـ من اعتقده ولم يتصدّ.

و ـ من اعتقدهما وتصدّى. فالأوّل خارج عن الرّجلين المذكورين بأوصافهما، أما الثّاني والرابع والسّادس فهما منهم، الأوّل منها هو من تصدّى لسائر المناصب سوى القضاء، والثّاني هو من تصدّى للقضاء، وأمّا الثّالث والخامس فهما داخلان في المعشر الّذين قد شكا إلى الله منهم، وهو تقرير لطيف ولكن يمكن انقسام آخر يطول الكتاب بذكرها.

* * *

١٧ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
في ذمّ آختلاف العلماء في الفتيا

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ في حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذٰلِكَ عِنْدَ الَّذِي[١] آسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلٰهُهُم وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ! وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ!

أَفَأَمَرَهُمُ آللهُ تَعَالَى بِالاخْتِلاَفِ فَأَطَاعُوهُ؟ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ؟ أَمْ أَنْزَلَ آللهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ؟ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ آللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ؟

وَآللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: (مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) وَقَالَ:

---

(١) في ض وح ول وش: عند الإمام الّذي.

(فِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ) وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لاَ اَخْتِلاَفَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً). وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ.

اللّغة

يقال استفتيت الفقيه في مسألة فأفتاني: أي طلبت جوابها منه فأجابني عنها، والاسم الفتيا والفتوى وهما اسمان للجواب عمّا يشكل من الأحكام. أحد: يستعمل في النّفي لاستغراق جنس النّاطقين، ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق نحو: ما في الدّار أحد أي لا واحد ولا اثنان فصاعداً لا بالاجتماع ولا بالافتراق، ويستعمل في الإثبات على ثلاثة أوجه:

ا ــ أن يكون مضمماً إلى العشرات نحو أحد عشر وأحد عشرين.

ب ــ أن يكون مضافاً لقوله تعالى: أمّا أحدكما فيسقي ربّه، كقوله ــ عليه السلام ــ: ترد على أحدهم، أو مضافاً إليه بمعنى الأوّل نحو يوم الأحد.

ج ــ أن يكون مطلقاً وصفاً وليس ذلك إلّا في وصف الله سبحانه نحو قوله تعالى: قل هو الله أحد.

قال الجوهري: القضاء: الحكم، والجمع الأقضية، والقضيّة مثله والجمع القضايا، وقيل: القضاء فصل الأمر قولاً كان أو فعلاً.

القضيّة: يقال لكلّ أمر مقطوع به من قولك هو كذا أو ليس، وهو قريب ممّا قالوا في تعريفها قول يصحّ أن يقال لقائله صدقت أم كذبت.

الرأي: إعتقاد النّفس أحد النّقيضين عن غلبة الظّنّ.

عصى يعصي عصياناً ومعصية: إذا خرج عن الطّاعة فهو عاص وعصيّ.

التّبليغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد.

فرط: إذا تقدّم تقدّماً بالقصد يفرط، والتّفريط أن يقصّر في الفرط، يقال ما فرطت في كذا أي ما قصّرت.

القرآن: في الأصل مصدر نحو كفران ورجحان، قال الله تعالى: إنّ علينا جمعه وقرآنه(١)، وقد خصّ بالكتاب المنزل على محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ وصار له كالعلم، كما أنّ التوراة لمّا أنزل على موسى، والإنجيل لمّا أنزل على عيسى.

قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار اليه تعالى بقوله: ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون(٢)، وبقوله في وصفه: تبياناً لكلّ شيء، الظّاهر والباطن من العلم، والقرآن تارة يراد بهما المعارف الجليّة والمعارف الخفيّة، وتارة العلوم الدنيويّة والعلوم الأُخرويّة، وأراد بهما هنا الأوّل.

يقال شيء أنيق: أي حسن يعجب، وآنقني الشيء أي أعجبني، وأصله من أنق بكسر العين في الماضي، والفتح في الغابر، أنقاً أي فرح، والأنيق الفرح والسّرور. العمق: والعمق قعر البئر والفجّ والوادي، وتعميق البئر وأعماقها جعلها عميقة، يقال عمق فهو عميق.

فنى الشيء يفنى: وأفناه غيره، انقضى انقضاءً أي انتهى وكذا تقضّى.

الغرائب جمع غريب: وهو اسم لكلّ شيء فيما بين جنسه عديم النّظير، وللمتباعد أيضا عن مكانه، وأراد هنا المعاني الّتي لا يوجد نظائرها في جنس المعنى.

الإعراب

إذا قوبل به همزة الإستفهام فمعناه، أي نحو أزيد في الدار أم عمرو، أي أيهما وهنا كذلك، وقد عرفت تمام الكلام فيه في المعنى، وفي أنّ القرآن روايتان

(١) القيامة: ١٧. (٢) الزّمر: ٢٧.

إحداهما بالفتح ويكون عطفاً على أنّ الكتاب والعامل فيهما ذكر، الثّانية بالكسر وهي للابتداء، والباقي ظاهر.

المعاني

الإتيان بألف الاستفهام مع أم للتقرير والإنكار، قوله لا تفنى عجائبه: جملة استئنافيّة دالّة على الجواب عمّن سأل عن كميّة كون باطنه عميقاً، والباقي معلوم ممّا سلف.

البيان

في باطنه عميق: إستعارة تخييليّة مكنّى بها عن اشتماله على كثرة المعارف الخفيّة الّتي لا يدركها إلّا الخائض في بحر التّوحيد، مستلزمة لتشبيه باطنه وهو معقول، بالبئر البعيد قعرها وهي محسوسة، ووجه الشّبه: اشتراكهما في البعد الحاصل لهما والكثرة.

البديع

بين كلّ من أنيق وعميق وعجائبه وغرائبه: السّجع المتوازي والتّرصيع، وبين الظاهر والباطن: المطابقة.

الفحوى

إعلم أنّه ــ عليه السّلام ــ ساق هذا الكلام لبيان الرّد على من زعم أنّ كلّ مجتهد مصيب، وأنّ الحقّ ليس إلّا مع واحد، وهذه مسألة مستفاضة في علم الأصول فلا نطوّل الكتاب بذكرها، وأيضاً لردّ القائلين بالقياس الظنّي الّذي ليس سنده النّصّ القاطع، قوله ترد على أحدهم إلى جميعاً: إشارة إلى حالهم الّتي

يسلكونها وهو ــ عليه السّلام ــ ينكرها من المخالفة في مسألة واحدة، وتصويب الإمام جميع الأقوال.

قوله وإلههم إلى نبيّهم واحد: إشارة إلى حجّة تزييف ما ذهبوا إليه هي قياس الضّمير، وهذه المقدّمة صغرى والكبرى محذوفة، وهي كلّ قوم كانوا كذلك فلا يسوغ لهم أن يخالفوا في حكم واحد، لينتج أنّ هؤلاء لا يجوز لهم الاختلاف في حكم واحد.

أمّا الصّغرى فضروريّة مسلّمة لا اختلاف فيها، وأمّا الكبرى فقد أشار إلى بيانها بقوله أفأمرهم إلى وأدائه: يعني إن جاز لهم الاختلاف فلا يخلو من أن يكون لأمر الله تعالى لهم فائقاً، أم لنهيه تعالى إيّاهم، فلمّا انتهوا وعصوه، أم بسكوت منه في الأمرين.

وعلى التقدير الثّالث: فجواز الاختلاف إمّا أن يكون لأنّ الدّين كان ناقصاً واستعان بهم على إتمامه، أو كانوا شركاء له فعليه أن يرضى بما يقولون ولهم أن يقولوا ما تعلّقت به إرادتهم كما هو دأب الشّركاء، أو لأنّه تامّ ولكن قصّر الرسول ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ عن ادائه إلى النّاس وتكميله، فهذه أقسام خمسة لا يمكن المزيد عليها بحسب اطّراد العرف والعادة بين النّاس وكلّها باطلة.

أمّا بطلان **الأوّل**: فإنّ الدّين مأخوذ من كتاب الله الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويصدّق بعضه بعضاً، وأنّه لا اختلاف فيه، وأكّد هذا بقوله فقال: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، يعني: لكن لم يكن فيه اختلاف أصلاً فلا يكون من عند غير الله فيكون من عند الله، وكلّ ما كان كذلك فلا يتشعّب عنه إلّا الأقوال الّتي لا اختلاف فيها إذ الفرع بجد وحد[1] ولاصل ويقفو أثره، فلا تكون الأقوال المختلفة مستندة إلى كتاب الله تعالى الّذي هو مجمع الأوامر الإلهيّة.

---

(١) كذا في الأصل.

أمّا بطلان الثّاني: فظاهر، لأنّ عدم جواز المعصية لله بالاختلاف مستلزم لعدم جواز الاختلاف.

أما بطلان الثّالث: فلقوله تعالى: ما فرّطنا في الكتاب من شيء، وفيه تبيان كلّ شيء.

أما بطلان الرّابع والخامس: فلوضوحهما أعرض عن الدليل عليه، ثمّ دلّ بقوله إنّ القرآن إلى آخر: على أنّ ألفاظ القرآن المنزل من عند الله إذا حقّقوا معانيها واطّلعوا على جلائلها وأتعبوا أنفسهم في آستخراج دقائقها، كان كافلاً بجميع مطالب النّاس، أي ألفاظه الّتي صبّت المعارف الإلهيّة في قوالبها لكونها في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة ممّا يعجب النّاس المتأمّلين فيها، الّذين قرعت أسماعهم وباتوا متحيّرين في أساليب تراكيبها، أو إنّ العلوم الظّاهرة الّتي تفهمها العلماء ألفاظه[1] حسنها ممّا يونقهم، وإنّ العلوم الخفيّة الّتي أدرجها الله تحت هذه الألفاظ وسترها عن أعين القاصرين بعيدة المدرك، لا يصل إلى جواهرها إلّا الراضة من العلماء الراسخين الّذين أيّدهم الله بحكمه وفصل خطاب.

لأنّ معانيه العجيبة الّتي اشتمل عليها غير متناهية لا تفنى بكرور الأعوام ومرور الأيّام، ولا تنتهي بكثرة التردّد، ولأنّ النّكت الغريبة الّتي لا توجد نظائرها في غيره من الكتب أكثر من عديد الحصى، واحدى من تفاريق العصا، لا ينقضي بتضارم ضوارم الأذهان، وتوارد خواطف الأبصار، ولا يكشف الظّلمات المتراكمة على مرآة النّفس الحاجبة إيّاها عن مقابلة الفيض الإلهي النّاشئة من الجهل البسيط، إلّا بأنواره السّاطعة وأسراره اللامعة.

* * *

---

(١) كذا.

١٨ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلام

قاله للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه فقال: يا أميرالمؤمنين هذه عليك لا لك فخفض ـ عليه السلام ـ إليه بصره ثمّ قال:

مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّالِي! عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ وَلَعْنَةُ اللاعِنِينَ، حَائِكٌ ٱبْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ٱبْنُ كَافِرٍ، وَٱللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَٱلإِسْلاَمُ أُخْرَى، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلاَ حَسَبُكَ، وَإِنَّ ٱمْرَءاً[1] دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ ٱلأَقْرَبُ، وَلاَ يَأْمَنَهُ ٱلأَبْعَدُ.

أقول: يريد ـ عليه السّلام ـ أنّه أُسر في الكفر مرّة، وفي الإسلام مرّة.

وأمّا قوله ـ عليه السّلام ـ دلّ علىٰ قومه السّيف: فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالدبن الوليد باليمامة، فإنّه غرّ قومه ومكربهم حتّى أوقع بهم خالد، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه عُرف النّار، وهو اسم للغادر عندهم.

اللّغة

دريته ودريت به دريًا ودرية ودراية: أي علمت به وأدريته أي أعلمته.

اللّعن: طرد وإبعاد على سبيل السّخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع عن قبول فيضه وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء.

حاك الثّوب يحوكه حوكاً وحياكة: نسجه فهو حائك، وقوم حاكة وحوكة أيضاً، ونسوة حوائك والموضع محاكة، وقد جاء حاك يحيك حيكاناً وحياكة فهو حائك إذا حرّك بين منكبيه وفجج بين رجليه، وسيعرف في الفحوى تحقيق أنّه من أيّهما.

---

(١) في ش: فان امرا دل.

الكافر في اللّغة: الّذي كفر درعه بثوب أي غطّاه ولبسه فوقه، وكلّ شيء غطّى شيئاً فقد كفره، والكافر أيضاً الزّارع لأنّه يغطّي البذر بالتّراب، وقد يوصف به اللّيل أيضاً لستره الأشخاص، وفي المتعارف صار اسماً لمن يجحد الوحدانيّة أو النبوّة والشّريعة أو يلبسها، وإنّما سمّي به لأنّه يستر نعم الله عليه والشّريعة.

يقال: كفر لمن أخلّ بالشّريعة وترك ما لزمه من شكر الله، والكفر ستر الإيمان بجحوده، وقد كفر بالله كفراً، والكفر أيضاً جحود النّعمة وهو ضدّ الشّكر، أي سترها بترك أداء شكرها، يقال قد كفره كفراناً وكفوراً، والكفران في جحود النّعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدّين أكثر، والكفور فيهما جميعاً.

قال الله تعالى: «فأبى أكثر النّاس إلّا كفوراً[1]»، هذا في الدّين، وقال تعالى في جحود النّعمة: «ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فانّ ربّي غنيّ كريم[2]»، وأراد ـــ عليه السّلام ـــ بالكفر هنا الكفر في الدّين. يقال أسرت الرّجل أسراً وإساراً فهو أسير ومأسور، أسره يأسره أسراً شدّه بالأسار وهو القيد، ومنه سمّي الأسير، وكانوا يشدّونه بالقيد فسمّي كل أخذ أسيراً وان لم يشدّ به.

الإسلام: في أصل اللّغة الدّخول في السّلم وهو الصّلح، وفي الشّرع يطلق على معنيين: أحدهما أعمّ والآخر أخصّ. أحدهما: هو الاعتراف باللّسان سواء كان معه اعتقاد أم لا، وهو أعمّ من الإيمان، وكذا قال تعالى: «قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا[3]».

فأثبت العامّ ونفى الخاصّ، والآخر: هو مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله تعالى في جميع ما قضى وقدر، فهو أخصّ من الإيمان إن

---

(١) الإسراء: ٨٩.
(٢) النمل: ٤٠.
(٣) الحجرات: ١٤.

لم يدخل الوفاء فيه، وإيّاه عنى تعالى حكاية عن ابراهيم بقوله: «أسلمت لربّ العالمين»، وبقوله: «إنّ الدّين عند الله الإسلام».

فداه وفاداه: إذا أعطى فداه، والفَداء والفِداء حفظ الإنسان عن النائبة، عنه يقال أيضاً: فديته بمال وفديته نفسي وفاديته بكذا. الدلالة: ما يتوصّل به إلى معرفة الشّيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارة والرّموز والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حي، والدلالة في الأصل مصدر، يقال: قد دلّه على الطّريق يدلّه دَلالة ودِلالة ودَلولة، والفتح أعلى، والدالّ مَن حصل منه ذلك.

يقال ساق الماشية يسوقها سوقاً وسياقاً فهو سائق وسوّاق: شدّد للمبالغة أي حرّضها على المشي بإكراه.

الحتف بالتاء المنقّطة بنقطتين من فوق: الموت، يقال: مات فلان حتف أنفه إذا مات من غير قتل ولا ضرب، وقد يروى بالياء المنقّطة بنقطتين من تحت: وهو الجور والظّلم، يقال: حاف عليه يحيف أي جار.

قال الجوهري: يقال هو حَريّ أن يفعل بالفتح أي خليق جدير، لا يثنى ولا يجمع، وأنشد الكسائي[١]:

وهنّ حرىً ان لا يثبنك نقرة * وأنت حرىً بالنّارحين تثيب.

وإذا قلت هو حر بكسر الرّاء وحري على فعيل، ثنّيت وجمعت فقلت هما حريّان وهم حريّون وأحرياء وهي حريّة وهنّ حريّات وحرايا وأنتم أحراء جمع حرو، منه اشتقّ التحرّي في الأشياء ونحوها، وهو طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظنّ. المقت: البغض الشّديد لمن رآه متعاطياً لقبيح، يقال: مقت مقاتة فهو

---

(١) أبوالحسن علي بن حمزة الكوفي البغدادي النحوي اللّغوي، أحد القرّاء السبعة، مؤدّب محمد الأمين، كان الكسائي في مدينة السّلام، وكان أولا يقرئ النّاس بقراءة حمزة ثمّ اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها النّاس في خلافة هارون، مات الكسائي بالري في سنة ١٧٩، وكان مع هارون في رحلته إلى خراسان، ومات أيضاً معه محمد بن الحسن الشّيباني الفقيه وصلّى عليهما هارون، وقال: اليوم دفنّا الفقه والعربيّة.

مقيت، ومقته مقتاً فهو مقيت وممقوت. أمن يأمن أمناً: أي اطمأنّت نفسه وزال الخوف عنها.

الإعراب

إعلم أنّ ما يقع في كلام العرب على عشرة أوجه: خمسة في الأسماء وخمسة في الحروف، وإذا كان اسماً يستوي فيها الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث:

فالأوّل من الأسماء موصولة بمعنى الّذي نحو قوله تعالى: «ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم[1]»، وقوله ــ عليه السلام ــ ما عليّ ممّا لي.

والثّاني منها نكرة نحو قوله تعالى: «إنّ الله نعما يعظكم به»، أي نعم شيء هي، وقد اجيز أن يكون ما في قوله: إنّ الله تعالى لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما زائدة، ونظيره في كلامه ــ عليه السلام ــ.

الثّالث منها للاستفهام وقد عرفت في المعاني أنّ الاستفهام يقع به على وجهين، وذلك مثل قوله ــ عليه السّلام ــ: مايدريك.

الرابع منها للمجازات نحو قوله تعالى: «ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها[2]».

الخامس منها للتعجّب نحو قوله تعالى: «فما أصبرهم على النّار[3]». وأمّا الحروف: فالاوّل منها: أن يكون مع ما بعده بمنزلة المصدر كأن النّاصبة مع الفعل المستقبل الداخلة عليه نحو قوله تعالى: «وممّا رزقناهم ينفقون[4]»، والدليل خلو الكلام من الضّمير العائد لفظاً وتقديراً، وقوله ــ عليه السلام ــ: لمايعلم من جهل نفسه.

والثّاني منها: أن يكون للنّفي نحو قوله ــ عليه السلام ــ: والله ما أنكروا عليّ

---

(١) يونس: ١٨.
(٢) فاطر: ٢.
(٣) البقرة: ١٧٥.
(٤) الأنفال: ٣.

منكراً، ونظائره اكثر من أن يحصى.

الثّالث: الكافّة وهي الّتي تكف أنّ وأخواتها عن العمل لفظاً، وتفيد الحصر معنى نحو قوله تعالى: إنّما يخشى الله من عباده العلماء[١] »، وقوله ـ عليه السّلام ـ : إنّما ينتظر بأوّلكم آخركم.

والرابع منها: المسلّطة وهي الّتي تسلّط اللّفظ على العمل بعد أن لم يكن عاملاً، كما في إذما وحيثما، فإنّ إذ وحيث لا يعملان بمجرّدهما في الشّرط، ويعملان عند دخول ما عليها، نحو: إذما تفعل أفعل، وحيثما تخرج أخرج.

والخامس منها: الزّائدة لتوكيد اللفظ، في قوله: اذ ما فعلت كذا، وقولهم: إمّا تخرج أخرج، ومثله قوله تعالى: «فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرّحمن[٢] ».

المعاني

ما يدريك ممّا عليّ ممّا لي: إستفهام عن النّسبة على سبيل الإنكار والتوبيخ.

حائك ابن حائك: قد حذف منه المسند إليه أمّا للاعتماد على القرائن المقاليّة والحالية، أو لأنّ الخبر لا يصلح إلّا له حقيقة، فذكره خارج عن البلاغة، أو لتطهير اللّسان عنه، والنّسبة على أنّه ينبغي أن لا يذكر باللّسان، وقطع عمّا قبله ليؤذن بتعليل الاستفهام على سبيل الإنكار المستلزم لجهله وغباوته.

كذا في منافق ابن كافر: قد حذف منه المسند إليه أيضاً لما ذكرنا، وقطع ليؤذن بتعليل استحقاقه اللّعن الكثير.

والحاصل أنّه ذكر جملتين أوّلاً: إحداهما استفهاميّة مؤذنة بالجهل، والأخرى اسميّة دالّة على استحقاقه اللّعنة من الله تعالى ومن اللاعنين بأجمعهم، ثمّ راعى

---

(١) فاطر: ٢٨.	(٢) مريم: ٢٦.

على طريقة اللّف والنّشر، وأتى بجملتين مستأنفتين دالتـين على...(١) التعليل لما ذكر أوّلاً على الترتيب، وهذا من البلاغة فنّ لا يدرك...(٢)، ولا يشقّ غباره.

ثمّ أتى بجملة مصدّرة بالقسم ولامه ليثبت مضمونها عند من كان ذهنه غير حازم به، وكذا الجملة المصدّرة بأن واللام إنّما أوردهاليردّ بها المنكرين لما قالوا إليه، وردعهم عمّا اعتقدوا في حقّه.

الفاء في فما فداك : فصيحة مفصحة عن أنّ عدم الفداء مسبّب عن سبب محذوف تقديره رضيت بهما، وما هزّت أعطاف رجوليّتك، ولا ثارت نار حميّتك، فما فداك .

البيان

حائك ابن حائك : إستعارة تخييليّة مكنّى بها عن قلّة تدبّره بالعواقب، وبزارة عقله، ونقصان استعداده لوضع الأشياء في مواضعها، مستدعية لتسمية هذا الرّجل بالحائك ابن حائك وهما محسوسان، ووجه الشّبه: ألّا يهتمّ بالأمور الكلّيّة الّتي ينتظر بها أُمور معاشه ومعاده، بل لا يتفكّر إلّا في الأمور الجزئيّة المحسوسة، كما أنّ الحائك، لاشتغال فكره بأوضاع الخيوط المتفرقة المحسوسة، وترتيبها ونظامها على الوجه الّذي يتهيّأ منه النسج، لا يتدبّر في عواقب الأُمور الكليّة، بل هو غافل عنه بالكلّيّة وهو عقلي، ويحتمل أن يكون قد كنّى بها عن كونه كاذباً، فإنّ من لوازم الحياكة الكذب.

إعلم أنّ نسبة الأسر إلى الكفر والإسلام مجازيّة عقليّة، إذ العقل يشهد على أنّ الأسر هو أهل الكفر وأهل الاسلام من باب الحذف، كما في قوله تعالى: «وسأل القرية»: وهي كناية عن الضعف مع جبن وقد أثبت(١)، إذ كونه قد أسر مرّتين من لوازمهما، وكذا نسبة الفداء إلى المال والحسب نسبة

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) كذا.

مجازيّة عقليّة، إذ الفعل يشهد على الفادي هوالأشعث دونهما، من باب إسناد الفعل إلى السّبب الصّوري أو المادي، وإنّما خصّهما بالذكر للتأكيد والمبالغة، وليكون كناية عن البخل وقلّة عرضه وما يعدّ من المفاخر.

وفي قوله دلّ على قومه السّيف: مجاز عقليّ، وقد روي أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ رفع غزلاً إلى حائك من بني النّجّار لينسج له صوفاً، وكان ـ عليه السّلام ـ يأتيه متقاضياً، ويقف على بابه ويقول ردّوا علينا غزلنا استجمل به في النّاس، والحائك يكذب ويعده مواعيد عرقوبيّة، ولم يزل يماطله حتّى توفّى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ، ومن كان مرتكباً للأخلاق الخسيسة، مباشراً هو وأبوه للأعمال الرّكيكة الدنيّة، لم يكن من شأنه الاعتراض على مثله ـ عليه السلام ـ.

اعلم انّ الناس قد اختلفوا في هذا على اقوال:

الأوّل: أنّه كان هو وأبوه ينسجان برود اليمن، وإنّما عيّره بذلك لاستلزام تلك الحرفة الأخلاق الخسيسة ودناءة الهمّة لاعتبار نفسها، لأنّه ـ عليه السّلام ـ لا يعيّر أحداً بما هو جائز في الشّرع، فمنها الكذب الّذي هو رأس كلّ خطيئة، وكناية عن الظّلم والغدر، وكذا في ساق إليهم الحتف، ويحتمل أن يكون استعارة تخييليّة مكنياً بها عن ظلمه وعن كونه سبباً... والموت إليهم مستدعية لتشبيه الحتف وهو معقول بالماشية وهي محسوسة.

الثّاني: قال بعض الشّارحين: إنّ الأشعث كان من ملوك كندة واكابرها، وإنّما عيّره بذلك لأنّه إذا مشى يحرّك منكبيه، ويفجّج بين رجليه كمشية المخانيث، ويعضد هذا القول قوله ـ عليه السلام ـ: **فما فداك من واحدة منها مالك ولا حسبك**، الدالّ على أنّ له مالاً وحسباً.

الثّالث: قال بعض المحقّقين: حرفة خسيسة، والحائك والغزّال والقطّان والمعلّم ضعفاء العقول، لأنّ معاملتهم ومخالطتهم مع النّساء اللّواتي عقولهنّ ضعيفة،

والصّبيان لا عقول لهم، ومن كان يختلط مع ضعفاء العقول كان قليل العقل ضعيفه، كما أنّ المخالط لرزين العقل يكتسب دراية العقل وقوّته. وممّا يؤيّد هذا القول ما روي عن الثّقات، عن الصّادق ــ عليه السلام ــ أنّه قال:

عقل أربعين معلّماً عقل حائك، وعقل حائك عقل امرأة، والمرأة لا عقل لها. عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنّه قال: لا تستشيروا المعلّمين ولا الحوكة، فإنّ الله تعالى قد سلبهم عقولهم، وهذا القول مناسب للاستعارة الّتي تلوتها عليك.

الرابع: أنّه مأخوذ من حاك الشّعر يعني أنّه يكسب بالشّعر الّذي أحسنه أكذبه مالاً، ومن كان فكره دائماً مشغولاً بترتيب الأكاذيب الموزونة، فلا يكون له منصب الاعتراض على من لم يعزم البتّة على أن يقع في حمّى الكذب، فضلاً عن الكذب، وما ذكرناه من الاستعارة[١] ... بالمقام وأليق بنظام الكلام، ثمّ دلّ على سبب استحقاقه اللّعن بقوله: منافق ابن كافر الدالّ بالمطابقة على أنّه مبطن للكفر معلن للإيمان حقناً لنفسه عن السّيف والسّنان.

ثمّ نبّه على قلّة عقله وغاية جبنه وعدم ... في المحاربة والقيام بين يدي الخصم دفعاً مكائده عن نفسه وماله بقوله: والله لقد أسرك إلى أخرى. روي أنّه كان الأشعث في الجاهليّة في الأسر، ففدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، ووفد على النبيّ ــ عليه السّلام ــ في سبعين رجلاً من كندة فأسلم على يديه، ولمّا توفّى رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله ــ ارتدّ بحضر موت، ومنع أهلها من تسليم الصّدقات وأبى البيعة لأبي بكر.

فبعث إليه زياد بن لبيد بعد ان كان عاملاً عليها ورجع عنها، ثمّ أمدّه بعكرمة بن أبي جهل في فئة عظيمة من جند الإسلام، فقاتلهم الأشعث بقبائل كندة قتالاً شديداً في وقائع كثيرة، وكان رئيسهم الأشعث، فالتحق بقومه إلى حصنهم، فحاصرهم زياد وبلغ العطش، فبعث الأشعث إلى زياد يطلب منه الأمان

(١) كذا في الأصل.

لأهله ولبعض قومه، وكـان من عقله انّه لم يطلب نفسه بالتّعيين فلما نزل أمره وبعث مقيّداً إلى أبي بكر بالمدينة، فالتمس من أبي بكر أن يستبقيه لحرمه ويزوّجه أخته ام فروة، فبذل التماسه أبوبكر وفعل ذلك.

قد روي ما يدلّ على عدم اهتمامه بأمور الدّين وقواعد الإسلام، وهو أنّه بعد أن خرج من مجلس عقده بأمّ فروة، أصلت سيفه ودخل ونحر كلّ بعير رآه، وذبح كلّ غنم استقبله، ودخل داراً من دور الأنصار فصاح به النّاس من كلّ جانب، وقالوا: قد ارتدّ الأشعث مرّة ثالثة.

فأشرف عليهم من السّطح، وقال: يا أهل المدينة إنّي غريب ببلدكم أولمت بما نحرت وذبحت... كلّ إنسان ما وجده، وليعد إليّ من كان له حقّ عليّ حتّى أرضيه، وفعل ذلك، فلم يبق دار من دور المدينة إلّا وقد أوقد فيها بسبب تلك اللّحوم، فضرب بالمدينة المثل وقالوا: أولم من الأشعث، وفيه قال الشّاعر:

لقد أولم الكندي يوم ملاكه	وليمة حمال لنقل العظائم
لقد سلّ سيفاً كان مذ كان مغمداً	لذي الحرب منه في الطّلى والجماجم
فاغمده في كل بكر وسايح	وعير وثور في الحشا والقوائم
فقل للفتى الكندي يوم لقائه	ذهبت بأسنى ذكر أولاد دارم

هذا الأشعث هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، ثم دلّ على بخله وشدّة اهتمامه بالمال الدنيوي وقلّة الحسب بقوله: فما فداك أي ما حفظك من الوقوع في واحدة من المرتين مالك وحسبك، أي قبل الأسر، أمّا بعد الأسر فقد عرفت أنّه فدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، ثمّ دلّ بقوله: وإن امرأً إلى الأبعد على شدّة ظلمه بقومه وغدره إيّاهم.

فما ندري أيّ الأمرين أرشد، فوجد الأشعث بذلك شبهة في تركه ــ عليه السلام ــ وجه المصلحة واتّباع الآراء الباطلة، وأراد إفحامه فقال هذه عليك لا لك، وجهل وتجاهل أنّ وجه المصلحة قد يترك محافظة على بيضة الدّين،

فقال ـــ عليه السلام ـــ: هذا جزاؤكم حيث تركتم الجزم، فظنّ الأشعث انّه قال هذا جزائي، فقال الكلمة.

فنظر ـــ عليه السلام ـــ إليه نظر مغضب، ثمّ أنكر عليه إنكاراً على سبيل التّوبيخ، ونسبه إلى الجهل وقال ما يدريك ما عليّ ممّا لي: أي من أين علمت التّميز بين ما يعود نفعه إليّ وبين ما يرجع ضرّه إليّ، وممّن علمت ومن أعلمك بهذا التّميين، ومفهومه أنّك جاهل بحالي، ولا يليق بالجاهل أن يعترض على من هو أعلى منزلة منه، بل لا يجوز له، ومن اعترض على إمام وقته جاهلاً بما يعترض به جهل مركّب.

فلا يكون إلّا بسبب كفر تمكّن في سويداء قلبه، وشبهة ترشّحت في باطنه، ومن كان حاله كذا فهو مستحّق للّعن والإبعاد من رحمة الله تعالى في الدّنيا، والعقوبة في العقبى على ماينبيء عنه قوله تعالى: «أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين»، ثمّ دلّ على جهله ونقصان عقله حائك ابن حائك.

وجه الشبه: اشتراكهما في الانقياد وقبول الإكراه من المكر، وفي عرف النّار استعارة تخييليّة مكنّى بها عن كونه علماً واضحاً للغدر المستلزم للعباد إلى النّار، مستدعية لتشبيهه بالأعلام المنصوبة في المواضع العالية، يستدلّ بها الخابطون على الطّرق.

وجه الشبه: اشتراكهما في الظّهور والاستلزام، يعني: كما أنّ الأعلام من استدلّ بها تهديه إلى الطّريق القويم، كذا هذا الرّجل من انقاد لأمره واتّبعه قاده إلى النّار.

ويحتمل أن يكون استعارة تخييليّة مكنّياً بها عن تغريز قومه بالأكاذيب المموهة، واخفائه العواقب من نار الحرب أو الاخرة عنهم مستدعية لتشبيهه بعرف الضّبع، ووجه الشبه: أنه بمكره وكثرة مكائده وحيله قد ستر عنهم ما وراه ممّا ذكرنا، كما انّ العرف لكثرته وتزاحمه يستر ما وراه.

البديع

ما يدريك إلى كافر: اللّف والنّشر على ما عرفت، وبين السّيف والحتف: السّجع المتوازي والتّرصيع، وبين الأقرب والأبعد: المطابقة والمتوازن.

الفحوى

إعلم أنّه ــ عليه السلام ــ خطب بالكوفة وذكر أمر الحكمين وانباء القوم عما اقتضت الأوقات من المصالح المخلفة بحسبها، فقام إليه رجل من أصحابه وقال: نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا.

قد روي: أنّه لمّا طلب الأمان من زياد بن لبيد، طلبه ليفرّ بنفر من أشراف قومه، فظنّ الباقون أنّه أخذ الأمان لجميعهم، فنزلوا من الحصن ساكنين بناء على ظنّهم، فلمّا خرج الأشعث مع من طلب الأمان له دخل زياد الحصن فقتل المقاتلة صبراً فذكّروه الأمان، فقال: إنّ الأشعث لم يطلب الأمان إلّا لعشرة من قومه فوافاه كتاب أبي بكر بالكف عنهم وحملهم إليه، فحملهم إليه.

هذا هو المراد بقوله دلّ على قومه السّيف وساق إليهم الحتف: حيث ساقهم إلى الحرب وقاد الحرب إليهم وسلّمهم إلى القتل، ومن يدلّ السّيف على قومه فحريّ جدير أن يبغضه أقاربه، ولا يأمن من مكائده أجانبه، وقد أورد أكثر الشارحين أنّ ما حكاه السّيّد ــ رضي الله عنه ــ من حكاية الأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غير موجود في وقائع خالد باليمامة، ولكن جلّ جناب السّيّد أن يقع في جمعه الافتراء، فضلاً عن الافتراء، وعدم الوجدان لا يدلّ على العدم.

فتمخّص ممّا ذكرنا: أنّه ــ عليه السّلام ــ نسبه إلى جمع الرّذائل من الجهل والغباوة الدالّ عليها ما يدريك، وحائك ابن حائك، والجور المستفاد من قوله منافق ابن كافر، والإنظلام والقتل الدالّ عليها والله لقد أسرك، والبخل واللّوم الدالّ عليها فما فداك من واحدة منها مالك ولا حسبك، كدلالته على قلّة العقل

والظّلم والغدر الدالّ عليها وإنّ آمراً إلى آخره، ومن كان مستجمعاً للرّذائل لا يستحقّ أن يعترض على من استجمع الفضائل النفسانيّة.

* * *

١٩ ـ وَمِنْ خُطْبَة لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فَإِنَّكُمْ لَوْ[١] عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلٰكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَاقَدْ عَايَنُوا[٢]، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ، وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، بِحَقٍّ[٣] أَقُولُ لَكُمْ لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ.

اللّغة

الجزع: ضدّ الصّبر، وقد جزع من الشّيء بالكسر في الماضي والفتح في الغابر، وأجزعه غيره.

الوهل: بفتح الهاء الفزع مع الدّهشة، يقال وهل يوهل وهلاً، ووهلت إليه أي دهشت برؤيته، ولقيته في أوّل وهلة أي قبل كلّ شيء، والوهلة ههنا إشارة إلى الدهشة الّتي ينبغي أن تعلم.

إنّ السمع: تارة يعبر به عن الأذن نحو قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم[٤]»، وتارة عن فعله أي عن السّماع، نحو قوله: «إنّهم عن السّمع

---

(١) في ح ول وش: لو قدعاينتم.

(٢) في ش: ما عاينوا.

(٣) في ح: وبحق أقول.

(٤) البقرة: ٧.

لمعزولون[١]»، وتارة عن الفهم يقول اسمع ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت يعني ولم تفهم، وقوله تعالى، «سمعنا وعصينا» أي فهمنا ولم نأتمر لك، وهنا المراد الفهم.

يقال: أمره فأطاع له: أي انقاد، ومثله طاع له يطوع طوعاً، والطّاعة أيضاً مثل الطّوع ولكن أكثر ما يقال في الائتمار لارتسام فيما روسم[٢].

يقال حجبه يحجبه حجباً: أي منعه عن الوصول، فالمحجوب الممنوع عنه، والحجاب السّتر. يقال طرحت الشّيء وبالشّيء إذا رميته، **فالطّرح**: هو إلقاء الشّيء وإبعاده، وأطرحه أي أبعده، والطّرح بالتّحريك: **المكان البعيد**.

يقال أبصر يبصر تبصيراً: أي عرف وأوضح، وأبصرت الشّيء أي رأيته، والبصر لفظ مشترك بين حاسّة الرؤية كما في قوله تعالى: «كلمح بالبصر[٣]»، وبين العلم كما في قوله تعالى: «ما زاغ البصر وما طغى[٤]»، ويقال أيضاً لقوّة القلب المدركة بصيرة وبصر، نحو قوله: «فبصرك اليوم حديد[٥]»، ومن الثّاني يقال بصرت به أي علمته، قال تعالى: بصرت بما لم يبصروا به، والبصير العالم.

الهداية: دلالة بلطف، يقال: هدىٰ فاهتدىٰ أي دلّ على الطّريق فأخذ الدلالة وطفق في سلوكها، والاهتداء أيضاً يقال لما تحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، أمّا في الأمور الدنيويّة كما في قوله تعالى: «وهو الّذي جعل لكم النّجوم لتهتدوابها[٦]»، وفي الأمور الأخرويّة كما في قوله تعالى: «وإنّا إن شاء الله لمهتدون[٧]»، ويقال أيضاً لطلب الهداية ولتحرّيها.

الجهر: يقال لظهور الشّيء بإفراط حاسّة البصر، نحو قوله تعالى: «لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة[٨]»، أو حاسّة السّمع، نحو قوله تعالى: «وإن تجهر

---

(١) الشعراء: ٢١٢.
(٢) كذا.
(٣) القمر: ٥٠.
(٤) النجم: ١٧.
(٥) ق: ٢٢.
(٦) الانعام: ٩٧.
(٧) البقرة: ٧٠.
(٨) البقرة: ٥٥.

بالقول فإنّه يعلم السّرَّ وأخفى[1]»، والمجاهرة في الحرب المباراة بها. العبر: جمع عبرة، والعبرة والاعتبار اسمان للحالة الّتي يتوصّل بها من معرفة المشاهد الظّاهر إلى معرفة غير المشاهد الباطن، وقد عرفت تمام التّحقيق في أوّل الكتاب.

الزّجر: المنع والنّهي، يقال زجره وازدجره فانزجروا وازدجروا، يقال أيضاً زجرت الإبل فانزجرت أي؛ كلّفتها السّير السّريع فأسرعت، والزّجر الفال لتسارعه إلى الوهم، والمعنيان محتملان هنا، ولكنّ الثّاني أدقّ. البشرة: ظاهر الجلد، والأدمة باطنه، كذا قال عامّة الأدباء، وقال أبوزيد بعكس ذلك، وعبّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً لطهارة جلده من الشّعر، بخلاف الحيوانات الّتي عليها الصّوف أو الشّعر أو الوبر.

الإعراب

ما في ما قد عاينوا وما قد عاين: موصولة، وما قد عاينوا في محلّ الرفع على أنّه مفعول محجوب، وما في قريب: ما مصدرية، وهي مع ما بعدها في موضع الرفع بالابتداء، وقريب خبره قدّم عليه، تقديره: طرح الحجاب عنكم قريب، والباقي واضح.

المعاني

إنّما قال محجوب عنكم ولم يقل حجب، ليؤذن باستقرار هذا الحجاب وثباته، وإنّما أتى بالصّلة مع الموصول، ليؤذن بتفخيم أمر ما عاينوه وتعظيم شأنه، وفي قريب ما يطرح الحجاب: قدّم المسند للاهتمام بشأنه ولأنّه المقصود بالذكر، وليؤذن بالقصر للإفراد والقلب، على تقدير تنزيل المخاطبين منزلة المعتقدين بخلافه، ان كان الخطاب مع المؤمنين الّذين اعتقدوه ولكن لم يعملوا بمقتضاه، أو تصوّروا

---

(١) طٰهٰ: ٧.

غيره مشاركاً له في القرب، وإلّا فهو جارٍ على أصله ونكره، إمّا لأنّ المقصود ليس إلّا مجرد إسناد المسند اليه إلى المسند، أو للدّلالة على تعظيم القرب وتهويله.

وجعل المسند إليه فعلاً مع ما المصدرّية ليكون في تقدير المصدر، ليؤذن بتجدّد الطّرح، وإنّه ليس بأمر ثابت، بل هو ممّا يطرح لحظة فلحظة، غير أنّ ليس للمطروح منه شعوريّة، فإنّ كلّ ساعة انقضت من عمره فقد طرح شيئاً من الحجاب، وهذه خواصّ لا يدرك قعرها إلّا المتدرّب بعلم المعاني والذّوق السّليم والطّبع المستقيم.

في لقد بصرتم إن أبصرتم: إن قلنا أنّ الشّرط جزاؤه محذوف تقديره إن أبصرتم فقد انتفعتم به في الدّنيا والعقبىٰ وهو الأظهر، قد جعل الفعل الماضي شرطاً إمّا للإظهار في رغبة الوقوع، وإمّا لإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، وقدّم الجملة القسمية عليها، ليؤذن بأنّ الكلام سيق لرد المتردد إلى الصّواب.

وإن قلنا إنّ جزاءه الجملة القسمية قدّم على الشّرط للاهتمام بشأنه، وأنّ مضمونها بالحقيقة واقع، ولكن لمّا كان المقصود من التبصّر الإبصار، والإبصار غير حاصل، كان التّبصير غير حاصل، وهو دقيق فاعتبر مثل ما قلنا في الجملتين الأخرين وفي ما يبلغ إلى البشر: القصر للقلب إن كان الخطاب مع المنكرين، لكون المبلّغ هو البشر، أو مع المعترفين به والنّازلين منزلهم، حيث لم يعملوا بما هو طريقة المعترفين، وإن كان مع المعترفين العاملين ولكن اعتقدوا المشاركة بالقصر، قصر إفراد هذا وهو القدر الضروريّ بهذا العلم، فيه أضعاف ما ذكرنا.

البيان

ظاهر وكذا البديع.

الفحوى

إعلم أنّ كشف الغطاء عن تحقيق هذه الكلمات اليسيرة المحتوية على

المعاني الكثيرة الجمّة مسبوق بتقديم مقدمة. إعلم أنّ النّفس الإنسانيّة الهابطة من مشاهدة أنوار كبريائه تعالى، ما دامت متعلّقة بهذا البدن المحسوس، مشغولة بالتصرف فيه وتدبير ما ينتظم به أحوال معاشه، فإنّها محجوبة عن مطالعة أنوار عالم الغيب والملكوت بظلمة الهيئات البدنيّة والمعارضات الوهميّة والخياليّة، والتصرّفات المحسوسة الجزئيّة العائد نفعها إلى البدن وتوابعه، ولكنّ ذلك الحجاب يتفاوت تفاوتاً عظيماً في الضّعف والقوّة والزيادة والنّقصان.

النّاس فيه على منازل متباينة ومراتب متفاضلة، فأشّدهم حجباً وأكثفهم حجباً الكفّار، كما أشار التّنزيل الإلٰهي إلى كثافة حجابهم وقال: «وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون(١)»، وأشار بالسّدّ الأوّل إلى الصّفات السّبعيّة الباعثة على الغضب والعداوة والحقد والحسد والمفاخرة وسائر الرذائل التّابعة للقوّة العصبيّة، وبالسّدّ الثّاني إلى اقتناء الشّهوات البدنيّة، والانهماك في اللّذّات الوهميّة الفانية المنبعثة من القوّة الشّهويّة في التأخير، وهي متأخّره عنها.

وكذا اذا هاج الغضب خمدت نار الشّهوة، وأشار بأغشيناهم إلى الاعتقادات الفاسدة والخيالات الباطلة، الناشئة من غلبة قوّتي العصبية والشّهويّة على القوّة الملكيّة الداعية إلى الخير والصّلاح، ولمّا كان من شأن السّدّ منع من وراءه عن الاطّلاع على ما في الطّرف الآخر، بحيث لا يمكن الارتقاء إلّا بتعب شديد وزمان كثير، كأنّ الكفار منعت أبصار بصائرهم عن مشاهدة أنوار الحقّ، كما أنّ الحجب المحسوسة تمنع الأبصار الظاهرة عن نور الشّمس.

وإلى هذا أشار تعالى بقوله: وهم لا يبصرون، وبقوله: وعلى أبصارهم غشاوة، وبقوله: صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون(٢)، وهذا المقام لا يسع أكثر من هذا، وأرقّهم حجباً وأخفّهم حجاباً الأنبياء والأولياء، الّذين أفنوا طاقتهم في

---

(١) يس:٩.

(٢) البقرة: ١٨ .

تصفية بواطنهم بتسخير ما سواه تعالى أوّلاً عن ألواح نفوسهم، ثم بالتّشبّث بالأوامر الإلهيّة والاجتناب عن نواهيها، وصقلوا مرأى قلوبهم بإلقاء حجب الغفلة والركون إلى اقتناء الشهوات البدنيّة، وقهر القوّتين الباعثتين عليها، واستشرقوا من شموس المعارف الإلهيّة، فأشرقت من آفاق قلوبهم فاطّلعوا على سرادقات العزّة.

وإلى هذا المقام أشار أميرالمؤمنين ــ عليه السّلام ــ بقوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، ولكن مع غاية جهدهم أنّهم ما داموا في هذه الأبدان فهم في اغطية من هباتها وان ضعفت، واغشية من أستارها وان دقّت، وبين هاتين المرتبتين مراتب أُخرى لا تزال تتفاوت شدة وضعفاً وزيادة ونقصاناً، إلى ان يتّصل بأحد الطّرفين، وبحسب تفاوتهم في الحجب، وقع التّفاوت بين منازلهم في إدراك الحقّ، وبالوقوف على أسرار الدّين، وحصل التّباين بين ورودهم في النّار الّذي لابد لكلّ منهم على ما ينبئ عنه قوله تعالى:

«وإنْ منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً[١]»، ولن يصل الإنسان إلى مشاهدة اليقين إلّا بعد مفارقة النّفس من هذا البدن المحسوس، وحينئذ يوم تبلى السّرائر «يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً»[٢]، وأمّا قبل المفارقة فلا يحصل الادراك ومشاهدة الأُمور كما هي، لأنّ البدن يمنعها وإن حصلت على اعتقاد جازم برهاني أو نوع من المكاشفة، كما في حقّ الأولياء الّذين ربّاهم الله في حجر الولاية، وأرضعهم رضاع المحبّة، وهتك الحجب النورانيّة عليهم.

غير أنّ تلك المشاهدة مشوبة بشائبة من معارضة الوهم والخيال، ولذلك لم يزل رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله ــ يكثر في دعائه: اللّهمّ أرنا الأشياء كما هي، وأشار إلى عدم مفارقة الوهم بحال ما: إن الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وبقوله: أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك، وقال في دعائه: اللّهمّ ألهمني

---

(١) مريم: ٧١. (٢) آل عمران: ٣٠.

رشدي، وأعذني من شرّ نفسي، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك.

وإذا عرفت هذه فاعلم أنّه ـ عليه السّلام ـ أيقظ الغافلين من رقدة الغفلة وما كانوا متهالكين عليه، وينبئهم على أنّ وراءهم أحوال الآخرة وعذابها لو عرفتموها لما حصلت منكم الغفلة أصلاً، فضلاً عن الرّكون إلى الدنيا، بشرطيّة متّصلة مصدّرة بأنّ للتحقيق والتوكيد مشار إليه بقوله:

فإنّكم لو عاينتم إلى أطعتم: يعني أنكم لو شاهدتم بعين اليقين ما شاهد من سبق منهم إلى الآخرة، ورفع حجاب البدل من أمام بصائرهم من الأهوال والنّكال، لجزعتم على ما فرّطتم في جنب الله وفزعتم ودهشتم ممّا شاهدتموه تمسّكتم بالأوامر الواردة على ألسنة الأنبياء وأطعتم لداعي الله تعالى.

وقدّم الجزع لأنّه السبّب للفزع، لأنّ من لم يفرّط أصلاً لم يخش من النّكال، ثمّ الفزع لأنّه السّبب الدّاعي إلى فهم الأوامر الإلهيّة وسماعها، ثمّ السّماع لأنّه هو السبّب في الطّاعة، والقرينة الحاليّة مشعرة بأنّ الواو هنا للترتيب، وممّا يشهد على صحّة هذه الملازمة قوله تعالى: «ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون[1]»، فيجيبهم لسان العزة: «أولم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النّذير فذوقوا فما للظّالمين من نصير[2]».

ثمّ نبّه على نقيض اللازم بوجود ما يستلزمه، وهو الحجب الحائلة بين بصائرهم وبين تلك الأهوال، إذ لولاها لشاهدوها، ولو شاهدوها لجزعوا وفزعوا وسمعوا وأطاعوا، وكأنّه اعتذار عن لسان حالهم، ثمّ أشار إلى تزييف هذا الاعتذار مهدداً لهم وموبخاً إيّاهم تثبيطهم في العمل معولين على هذا الاعتذار بقوله:

وقريب ما يطرح الحجاب: أي إن الموت الّذي هو رافع لحجب الأبدان، وكاشف عن أهوال القيامة وأحوال الطّامّة ليس ببعيد عنكم، بل ممّا يتوقّع لحظة فلحظة وقوعه، وما هو متيقّن الوقوع كالواقع، فلا ينبغي لكم أن تغتروا بهذه الدّنيا

---

(١) السّجدة: ١٢.

(٢) فاطر: ٣٧.

وما هو لذّات أبدانكم، وتجعلوا عمدة تقصيركم في طاعة الله سبحانه الخيال المجرّد، وإلى هذا أشار القرآن الكريم وقال: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[١]».

ثمّ أردف هذا الكلام بما يمكن أن يكون تزييفاً ثانياً لهذا العذر، وقال ولقد بصرتم: يعني وإن كانت الأبدان صاحبة[٢] من مشاهدة ما يوجب الفزع والجزع والسّماع والإطاعة، ولكن لقد عرفتم به بإرسال الأنبياء المتواترة المخبرين عنها، ولكن إنّما ينفعكم لأنّكم ما فتحتم بصائركم إليها، واسمعتم إيّاه في الكتب الإلهيّة والأخبار النبويّة.

ولكن إنّما لم يجدكم لأنّكم ما أصغيتم إليه، ولا عملتم بمقتضاه، وهديتم عليه بالدلائل الواضحة والبراهين اللائحة، بحيث ارتفع اللّبس بالكليّة، وصار كالمشاهد عياناً، ولكن لم يفدكم فائدة، لأنّكم ما اهتديتم به، وهذا توبيخ لهم عمّا كانوا عليه وما بدان بال[٢]» السمّع والبصر والعقل إنّما تنفع صاحبها إذا سمع كلام الله، وعمل بمقتضاه، ونظر إلى العبروالأمثال، واعتبر بامور الآخرة، واقتفى العقل آثار حكمه تعالى، وتنبيه لهم على الفرار إلى الله بطريق الإعتبار.

وإنما خصّ السّمع والبصر بالذّكر لأنّ الاعتبار لا يمكن إلّا بهما أو بأحدهما، ثمّ لـمّا كان ما بصروا به وأسمعوا به أمرين ربّما ينكرونها، أردف بكلام يشعر بثباتها وهو قوله: بحقّ أقول لكم لقد جاهرتكم العبر: أي أقول لكم بحقّ لا بباطل؛ والله لقد برزلكم واستقبلكم من الباطن إلى الظّاهر ما يحوجكم إلى النّفوذ من الظّاهر إلى الباطن، وكشف لكم ما يعرفكم بأمور الآخرة من المصائب النّازلة بهم وبمن سلف، ونهيهم بالنّواهي المنهية إليهم الوعيدات الهائلة والعقوبات الحاضرة.

ويحتمل أن يكون معناه سلك بكم بأمر يكون الوصول إلى معناه الباطل

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) كذا.

في أسرع مدّة، وأشار القرآن الكريم إلى هذا وقال: «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر[١]»، ثمّ دلّ على أنّ الإنصاح والإرشاد إلى النّهج القويم والصّراط المستقيم لا يمكن فوق ما جاءت به الكتب السماويّة، ونطقت به ألسنة الرّسل بقوله وما يبلّغ إلى البشر: أي لا يمكن أن يبلّغ إليكم رسالات ربّكم بعد رسل السّماء الّتي هي الملائكة المؤدّون أوامر الحقّ إلى الأنبياء إلّا الرّسل الّذين قد شاركوكم في الصورة البشريّة.

ولا يمكن الإيضاح أزيد من هذا، وقد تواتر إليكم الأنبياء وليعرفوكم» بما هو بعد للعصاة فلا تركنوا إلى الّذين ظلموا وتطيعوهم وتنقادوا لأوامرهم، والتفتوا إلى الله تعالى فإنّ ما بلّغ إليكم كافٍ في الإلتفات إلى الله تعالى، والله الهادي إلى التوفيق.

* * *

٢٠ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ ٱلسَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ؛ تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

قال الشريف: أقول: إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه، وبعد[٢] كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، بكلّ كلام لمال به راجحاً[٣]، وبرز عليه سابقا. فأمّا قوله عليه السلام: «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة، وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها.

---

(١) القمر: ٥ ـ ٦.
(٢) في ش: وكلام رسوله.
(٣) في ش: رجحاناً.

اللغة

الغاية من كلّ شيء: نهايته.

الأمام: بفتح الألف المقصد، من أمّ يؤمّ إذا قصد، يقال وراء أبد كذا أي خلفه هو مأخوذ من واريت كذا أي سترته، وخلف الشيء جهة لازمة له متوارية عنه.

قال المفسرون معنى قوله تعالى: «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً»، أي كان قدامهم وتلك الجهة متوارية عنهم، وقيل وراءهم. الساعة: جزء من أجزاء الزمان وهو الحال، وقد يعبّر به عن القيامة. قال تعالى: «اقتربت الساعة[1]»، قال: وعنده علم الساعة، سميّت بها لسرعة حسابه، وقيل الساعات التي هي القيامة ثلاثة: الساعة الكبرى وهي بعث الناس للمحاسبة، وهي التي أشار اليها النبي صلى الله عليه وآله بقوله: لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحّش وحتى يعبد الدرهم والدينار.

والساعة: وهي موت أهل القرن الواحد، وذلك نحو ما روي أنه رأى عبدالله بن أنيس، فقال: إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة، فقيل إنه آخر من مات من الصحابة. والساعة الصغرى: وهي موت الإنسان، فساعة كلّ إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله: حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة. الحدو: سوق الإبل والغناء لها، يقال حدوت الإبل حدواً وحداءً، ويقال للشمال حدواء لأنها تحدو السحاب أي تساقه.

لحقه ولحق به لحاقاً: بالفتح أي أدركه وألحقه به غيره وألحقه بمعنى، ولحق لحوقاً أي ضمر. الأول: هو الذي يترتب عليه غيره ويستعمل على أربعة أوجه:

الأول: المقدّم بالزمان، كقولك: علي عليه السلام أول ثم جعفر عليه السلام.

---

(١) القمر: ١.

الثاني: التقدّم بالرتبة، كقولك: الملك أول ثم الوزير.

الثالث: التقديم بالمكان، كقولك للخارج من فارس إلى تبريز: اصفاهان أول ثم قاشان، وللخارج من تبريز الى فارس: قاشان أول ثم اصفاهان.

الرابع: التقدم بالصناعة، كقولك: الأساس اول ثم البناء، وهنا قسم آخر يقال له التقدّم بالذات، كقولك: حركة الإصبع أول ثم حركة الخاتم، ويقال للأول في الاقسام آخر، وهنا أراد التقدّم والتأخر الزمانيين، يقال: برز الرجل أي فاق على أصحابه، وبرزت الشيء تبريزاً أي أظهرته وبيّنته. غور كل شيء: قعره، يقال فلان بعيد الغور، والغور المطمئن من الأرض.

انقع بالقاف: من نقع الماء العطش نقعاً ونقوعاً؛ أي سكّنه، في المثل: الرشف أنقع أي أن الشراب الذي يترشّف قليلاً قليلاً أقطع للعطش وانجع وان كان فيه بطءٌ. النطفة: لفظ مشترك بين معنيين أحدهما: الماء الصافي قلّ أو كثر والجمع النطاف، والثاني: ماء الرجل، والجمع نطف وقوله: أنقع قرينة معينة لأنّ المراد الأول.

الإعراب

يحدوكم: يحتمل أن يكون صلة لموصول قد حذف تعويلاً على القرائن الحالية المعينة تقديره الساعة التي يحدوكم، وأن يكون خبر مبتدأ قد حذف، لان الظاهر يشعر به وهو أنسب بالمقام، ويلحقوا مجزوم على أنه جواب الأمر.

المعاني

إنّها صدّر الجملتين بإنَّ لتحقّق مضمونها في أذهان المخاطبين الباقين في التردّد المقصرين بالعمل بما هو مقتضاها، ثم قطع تحدوكم ليؤذن بالتحليل وحذف المسند إليه إما لأن الخبر لا يصلح إلّا له حقيقة أو ادعاء، أو للتعليل على شهادة

العقل، وانما ينتظر القصر للقلب على تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين المعتقدين خلافه، واشتمال الكلمات الأربع على الإيجاز الذي هو فن عظيم القدر من البلاغة اظهر من البيان.

البيان

في إنّ وراءكم الساعة: استعارة تخييلية مكنّى بها عن أنهم يفرّون من الموت ويسبقون عليه، والموت يتأخر عنهم يطلبهم تأخر المهروب منه من الهارب، مستدعية لتشبيه تأخر الموت عن وجود الإنسان ولحوقه إليه لحوقاً طبيعياً عقلياً بتأخر المهروب منه اللاحق بالهارب لحوقاً حسياً، ووجه الشبه: اشتراكهما في التأخر، وتخييل أن التأخر العقلي من أفراد التأخر الحسي، وانما ذهبنا الى هذا التشبيه لأن لفظة الوراء موضوعة للجهة المحسوسة.

وفي يحدوكم: استعارة تخييلية مكنّى بها عن أنّ الموت يقودهم إلى الآخرة التي هي المقصد الاصلي لكل قسمة على غفلة منهم، مستدعية لتشبيهين أحدهما: تشبيه الموت وهو معقول بالحادي للإبل وهو محسوس، ووجه الشبه: أن الموت ذكره خامل للنفوس الإنسانية على قطع عقبات طريق الآخرة ومزعج لها كما أن الحادي[1] ... يحمل الابل على قطع الطريق البعيدة الوعرة وهو عقلي. الثاني: تشبيه الناس المخاطبين بالإبل وهما محسوسان.

ووجه الشبه: اشتراكهما في حصول الغفلة عما يتعلق بصلاح حالهما، من رعاية البدن عن التعب الكثير، وجدّهما في السير لاشتغالهما بأهوال الموت والحداء السائقين، ويحتمل أن نقول إن الساعة عبارة عن الزمان، وحينئذ يكون استعارة تخييلية مكنّى بها عن سرعة لحوقهم إلى الموت الذي هو غاية كلّ سالك في طريق الآخرة، مع غفلة منهم مستدعية لتشبيه الزمان بالحادي.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

ووجه الشبه: أنّ الزمان يسيرهم ويمنّيهم التسويف، ويذهلهم عن أحوال نفسهم، كما أن الحادي يسيرها ويشغلها عن مراعاة نفسها بعناية، وهوعقلي،وهو جيد.

في تخفّفوا: استعارة تخييلية مكنّى بها عن الأمر بالزهد الحقيقي، الذي هو تنحية كل ما سوى الحق عن درجة الاعتبار، مستدعية لتشبيه هيئة الأعراض الحاملين للأوزار المانعة من الصعود الى درجات الأبرار، الملتفتين إلى طيبات الدنيا التي هي كالأحمال الثقيلة على القلب المتوجه الى المقصد الاصلي عن لذّاتها بالكلية، وحذف كلّ شاغل عن درجة الاعتبار وهي معقولة، بهيئة تخفيف الحامل للأشياء الثقيلة المانعة إياه السير في الطريق النافذة إلى مقصده الأصلي وهي محسوسة.

وجه الشبه: أنّ الهيئة الأولى معينة على قطع عقبات الآخرة على أسرع زمان وأقرب دوران، كما أنّ التخفيف معين له على قطع الطريق وهو عقلي، وستعرف تمام الكلام فيه في الفحوى. في فإنّما ينتظر بأولكم آخركم: إستعارة تخييلية مكنّى بها عن أنّ الذين درجوا أوّلاً ينتظرون وصول الباقين بموتهم إليهم، ليجمعهم البعث الأكبر في مجمع واحد، مستدعية لتشبيه طلب الحكمة الإلهية وصول جميع الخلق إلى غايتهم وهو معقول، بانتظار قوم أرادوا وصول أواخرهم إلى أوائلهم، ووجه الشبه: اشتراكهما في الإرادة والطلب.

البديع

راعى في أمامكم وراءكم: المطابقة،وكذا في أولكم وآخركم.

الفحوى

اعلم أنّه عليه السلام أدرج معاني جمّة ومواعظ حسنة وحكماً بالغة في

كـلمات أربع يسيرة وجيـزة، وهي في الحقيقة ألطـف العبارات وأبلغ الإشارات.

الأولى: قوله: فإنّ الغـاية أمامكم، اعـلم أن الغاية مـن خلق الإنسان هي أن يـعبد الله تعالى ويعرفه، ويرتقي مـن مدارج الحيوانية إلى معارج الإنسانية، ويحصّل الحياة الأبدية والسلامة البـاقية، ويعدّ نفسه لأن ينخرط في سلك السابقين المقرّبين الذين لا يكون أُنسـهم إلّا بـذكر الله تعالى، ولمّـا كانت الغايـة من كلّ ذي غاية متأخرة عنه وكـان ذو الغاية مـتوجهـاً إليها، كانت الـغاية قـدّام الشي ء، فتكـون الغاية من خلق الإنسان أمامه.

فن أقـبل إلى الطريق المسلـوك إليها، وشـمّر الذيل مجدّاً في سـلوكـها، فقد قاربها وحصلت له درجات الأبرار، ومـن أعـرض عـن السير فيهـا أو توانى، أو سلك سبيلاً غير مسلوك إليها، فقد خسر خسراناً مبيناً واتصل بدار البوار، والى تلك الغاية أشار بقوله تعالى: وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون(١)، ودلّ بهذه أنّ كلّ من لم يتوجه إليها لم يكن له خلاق من الانسانية ولا شرف.

وذلك لأن كل ما أوجد لفعل وغاية فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم. ولـذلك يسلـب كثيراً ما عن الشي ء اسـمه اذا وجد فعلـه ناقصا، كقـولهم للفرس الـرديّ ليس بـفرس، وللإنسان الرذل لـيس بانسان، ويقال أيضاً فلان لا عين لـه ولا سمع إذا بطل فعـل عينه وأُذنه وإن كان شحـمها باقياً، ولهذا نفى السمع والبصر والنطق عن الكفار حيث لم يعملوها في مواضعها.

وقال: صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون(٢)، فالإنسان تحصل له الإنسانية، بقدر مـا يحصل له الـقـرب من الغـاية، فمن قام بـالعبـادة حق العبـادة فقد اسـتكمل الانسانية، ومن رفضها فـقد انسلخ منها فصار حيـواناً دون الحيوان، كما قال في حق الكفار: إن هم إلّا كالأنعـام بل هم اضلّ سبيلاً(٣)، وقال: إنّ شرّ الدوابّ ـــ الآية،

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) البقرة: ١٨.

(٣) الفرقان: ٤٤.

وأخرج كلامهم من جملة البيان فقال:وما كان صلاتهم عند البيت إلّا مكاءً وتصدية(١) . والكلام في هذا المقام طويل فليقتصر على ما أوردناه، فانه كاف لمن تيسر له، ولا ينتفع بالأكثر منه من يعسر عليه.

الثانية: قوله: وإن وراءكم الساعة، أي وإن الموت الذي كتب عليكم وانتم تفرّون منه فرار الشاة من الذئب يكون متأخراً عنكم تأخراً عقلياً متوارياً عنكم يوم وروده، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا إلّا بالتهيئة لأسباب القرب منه، ولا تضيّعوا أعماركم في طلب اللذات الفانية التي لا تبق لكم بعد وصول الموت.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمر: إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فانك يا عبدالله لا تدري ما اسمك غداً.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه ونعم ما قال: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك لا يدري أساخط عليه رب العالمين أم راض عنه. وتحدوكم(٢) قد عرفته.

الثالثة: قوله: تخفّفوا تلحقوا، أي اقطعوا العلائق الدنيوية، وخفّفوا ظهور قلوبكم عن أثقال الأوزار المانعة من السير في سبيل الله، واهدموا الشواغل عن قبالة أعينكم، ووجّهوا وجوه قلوبكم نقية من أدناس التعلقات الخارجية إلى القبلة الحقيقية التي امروا بالتوجه إليها، لتلحقوا بدرجات الأبرار السابقين، الواصلين إلى ساحل عزته، النابذين كلّ ماله في الوجود العارضي وراء ظهورهم، غير ناظرين إلّا إلى وجوده الباقي السرمدي الذي هو ينبوع كل وجود.

فإنّ سبب وصولهم ليس إلا التخفيف، وذلك لأن الفيض الإلهي لا بخل فيه، وإنما المانع من بدو أثره عدم استعداد النفس الإنسانية، فإذا استعدّت بقطع العلائق والتوجّه اليه بالكلية، أشرقت عليها شموس المعارف الإلهية، وأجرى في

---

(١) الأنفال: ٣٥.

(٢) كذا في الأصل.

أودية القلوب ينابيع الحكمة، على ما ينبئ عنه قول النبي صلى الله عليه وآله: من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، والى هذا الأمر أشار صلوات الله عليه بقوله: نجا المخفّون وهلك المثقلون.

قال بعض الشارحين: من وقعت سفينته في لجّة البحر، وهبت الرياح العواصف، واضطربت الأمواج، فلا بدّله من التخفيف والقاء الأمتعة في الماء حتى ينجو، لأن النجاة في تلك الحال أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة، وأمواج التخيّلات والتوهمات أعظم التطاماً من أمواج البحر، والتخفيف الحقيقي هو خلوّ القلب من حب الدنيا والأهل والمال وجميع الشهوات، وهو عين ما قلناه، غير أن فيه تشبيهاً لطيفاً.

الرابعة: قوله فإنّما ينتظر بأولكم آخركم: هذا تحريض على الجدّ في التخفيف المأمور به، وذلك لأن من علم أنه منتظر للسابقين الذين ماتوا أولاً، ولا يدري في أي وقت يصل إليهم، استعدّ دائماً لورود الموت الذي يقطع انتظارهم ولا يشتغل بغير أسبابه، وقد عرفت تمام الكلام فيه.

إعلم أنّ هذه ألفاظ يسيرة في الوجازة هي أعلام على النّار، ومواعظ حسنة تسوق المستمعين إلى الإذعان، وحكم بالغة تجري في القلوب مجرى الماء في عروق الأغصان، لوتليت على الحجارة لانفجرت منها عيون الماء، أو على الكواكب لا نتثرت من آفاق السماء ميسرت[١] نواصعها إلّا في أذهان البلغاء، ولا يتغلغل ركابها إلا في أفكار الفصحاء، وكفى بما أورد السيد رضي الله عنه في مدحه.

اعلم أنه راعى في قوله: ما أنقع نطفتها من حكمة استعارة تخييلية مرشّحة مستدعية لتشبيه الحكمة المشتملة هي عليها بالماء الصافي، ووجه الشبه: اشتراكهما في الصفاء وافتقار الخلق إليهما، وإن الحكمة مادة للحياة الأبدية الباقية، كما أن الماء الصافي مادة للحياة الدنيوية، ورشّحها بذكر أنقع، والباقي ظاهر.

* * *

(١) كذا.

٢١ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهُ السَّلامْ

أَلاَ وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَرَ حِزْبَهُ، وَٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ. لِيَعُودَ ٱلْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ ٱلْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ. وَٱللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ(١) تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ؛ فَلَئِنْ(٢) كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ(٣) دُونِي فَمَا ٱلتَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ! يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ!!

يَا خَيْبَةَ ٱلدَّاعِي! مَنْ دَعَا؟ وَإِلاَ(٤) ما أُجِيبَ؟ وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ؛ فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ ٱلسَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ، وَمِنَ ٱلْعَجَبِ(٥) بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلاَدِ، هَبِلَتْهُمُ ٱلْهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ، وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

اللغة

ذمرته ذمره ذمراً: أي حثثته، وتذامر القوم أي حثّ بعضهم بعضاً، هذا على رواية التخفيف وهي الأشهر، أما على الرواية الأخرى وهي التثقيل، فيحتمل أن يكون من التذمير التشجيع، وهو من الذمر وهو الرجل الشجاع، وأن يكون من تذمر إذا غضب، ويكون معناه اغضب، والأول أليق. الجلب: الجماعة الرفيعة

(١) في ش: حقا تركوه.
(٢) في ش: فان كنت.
(٣) في ش: كانوا تركوه.
(٤) في ض وح: إلا م أجيب.
(٥) في ض وب: من العجب بعثهم.

أصواتهم من الزحام، وأصله من جلب على فرسه يجلب بالضم جلباً إذا صاح به من خلفه واستحثه ليسبق.

العود: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إما بالذات أو بالعزيمة والقول، والرجوع والعود إلى ما كان منه البدء، وتقدير البدء مكاناً كان أو فعلاً أو قولاً، وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه، فيكون الرجوع أعم من العود،فقال: عاد إليه يعود عودة وعوداً، وفي المثل: العود أحمد، والمعاد المصير والمرجع، والآخرة معاد الخلق.

رجع نفسه يرجع رجوعاً: ورجعه غيره، وهنا قد استعمله لازماً.النصاب، والمنصب الأصل، يقال جعلت كذا أجعله جعلاً ومجعلاً، وهو لفظ عام في الأفعال كلها، وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ويستعمل على خمسة أوجه:

أ ــ استعمل مقام طفق فلا يتعدى،نحو جعل زيد يقول كذا.

ب ــ استعمل استعمال أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد،نحو قوله تعالى: «وجعل الظلمات والنور[١]».

قوله تعالى: «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة».

ج ــ في اتخاذ شيء من شيء وتكوينه منه، نحو قوله: وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً.

د ــ في تصيير الشيء على حالة دون حالة، فيتعدى إلى مفعولين نحو جعله نبياً أي صيره، ونظيره قوله تعالى: «الذي جعل لكم الأرض فراشاً[٢]».

هـ ــ الحكم بالشيء على الشيء حقاً كان أو باطلاً.

أما الحق فنحو قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا[٣]» ،وأما الباطل فنحو قوله تعالى: «ويجعلون لله البنات[٤]».وهنا هذا

(١) الانعام: ١.

(٢) البقرة: ٢٢.

(٣) الانعام: ١٣٦ .

(٤) النحل: ٥٧.

القسم بين: موضوع للخلل بين الشيئين ووسطهما، ولا يستعمل بين إلا فيما كان له مسافة نحو بين البلدان، أو عدد ما اثنان فصاعداً نحو بين الرجلين وبين القوم، ولا يضاف إلى ما يقتضي الوحدة إلّا إذا كرر نحو ومن بيننا وبينك حجاب، ونحو قوله عليه السلام: بيني وبينهم نصفاً، ويقال هذا الشيء بين يديك أي متقدماً لك، ويقال هو بين يديك أي قريب منك. النصف: مشترك بين أحد شقي الشيء، والنصفة وهو الاسم من الإنصاف، قال الفرزدق[(١)]:

ولكن نصفاً لو سببت وسبني ‏ ‏ ‏ ‏ بنو عبد شمس من مناف وهاشم

والإنصاف في المعاملة العدالة، وذلك أن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا مثل ما يناله، والانتصاف والاستنصاف طلب النصفة. سفكت الدم والدمع أسفكه سفكاً: أي هرقته. يقال ولّى الرجل البيع ولاية أي تقلده، وأصل ولوه وليوه استثقلت الضمة على الياء، فحذفت كسرة اللام وابدلت منها الضمة ليناسب الواو. التبعة: مايلحق الانسان من درك. الحجة: البرهان، يقال حاجّه يحجّه أي غلبه بالحجة. الأُمّ بإزاء الأب: وهي الوالدة القريبة التي ولدته والبعيدة التي ولدت من ولدته، ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو مبدئه أمّ.

قال الخليل: كل شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى أمّاً. قال تعالى: «وإنه في أم الكتاب»، أي اللوح، وذلك لكون العلوم كلها منسوبة إليه ومتولدة منه، وقيل: الفاتحة أم الكتاب لكونها مبدأ الكتاب، وقيل لمكة أم القرى: وذلك لما روي ان الدنيا دحيت من تحتها. الإباء: شدّة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء، قال الله تعالى: ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره. أعطاه يعطيه مالاً،

(١) أبو فراس همام بن غالب الشاعر المشهور، كان أبوه من أجلّة قومه، سيد بادية تميم، وله مناقب مشهورة ومحامد مأثورة، والفرزدق صاحب القصيدة المعروفة في مدح الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، وهذه القصيدة ذكرها أبوالفرج في الاغاني وابن خلكان في وفيات الأعيان.

أعطاه:أي أناله ويتعدى إلى مفعولين، والاسم العطاء.

قد حدّ السيف يحدّ حدّة: أي صار حدّاً وحادّاً وسيوف حداد وألسنة حداد، والحدّة ما يعتري الانسان من الغضب، تقول حددت على الرجل أحدّ حدة وحدّاً. عن الكسائي. برز الرجل يبرز بروزاً: خرج وأبرزه غيره، البراز والمبارزة في الحرب. الطعان: المضاربة بالرمح، الطعن الضرب بالرمح وبالقرن وما يجري مجراها. الجلاد: المضاربة بالسيف، يقال يجالد القوم بالسيوف، وأصله من جلده الحد جلداً أي ضربه وأصاب جلده.

هبل: أي ثكل، والثكل والثكل فقدان المرأة ولدها، والهبول المرأة التي لا يبق لها ولد، والثكول التي ثكلت ولدها. يقال: هدّدت فلاناً وتهدّدته إذا زعزعته بالوعيد. الرهبة والرُهب والرَهب: مخافة مع تحرّز واضطراب، قال مقاتل: خرجت التمس تفسير الرهب فلقيت اعرابية وأنا آكل، فقالت: تصدّق عليّ فملأت كفّي لأدفع إليها، فقالت: ههنا في رهبي أي كمّي. والترهيب: التخويف، والترهّب التعبّد، وهو استعمال الرهبة، والرهبانية غلوّ في تحمّل التعبّد من فرط الرهبة.

الاعراب

مفعول فطمت محذوف دلّ عليه سياق الكلام: أي فطمتهم، خيبة: مصدر اقيم مقام اسم الفاعل، وهي في التقدير نعت للداعي، أي الداعي الخائب، ثم أتى بالمصدر وجعله مضافاً الى الموصوف لأنه المقصود بالذكر، وليعلم من أول النظر أن دعاءه لا ينال ما طلب، ومفعول ما لم يسمّ، فاعل اجيب ضمير عائد إلى الداعي، وإلى من تتمة أجيب،وما استفهامية تقديره: إلى أي شيء أجيب هذا الداعي.

إعلم أنّ أن على أربعة أوجه:

أ ــ الداخلة على الفعلين الماضي والمستقبل، ويكون ما بعده في تقدير المصدر وينصب المستقبل، نحو: أعجبني أن تخرج، وان خرجت أن خروجك.

ب ــ المخففة من الثقيلة نحو: أعجبني أن زيداً منطلق.

ج ــ المؤكدة نحو قوله تعالى: «لما أن جاء البشير».

د ــ المفسرة لما يكون بمعنى القول نحو: ان امشوا واصبروا، وهنا هي المفسردة اذ يعينهم بمعنى القول وابرز أمر وكذا أصبر، وروي ان ابرز وان اصبر بفتح الزاء والراء على أن ناصبة جاعلة للفعل في تقدير المصدر، والأولى أشهر. الواو في قوله وما اهدد بالحرب للحال. وكان تامة بمعنى: والله لقد ثبت من أول عمري الى الآن حال كوني غير مضطرب بالوعيد بالحرب، ولا خائف من الضرب.

المعاني

إنما صدّر عليه السلام اكثر الجمل بأنّ وحرف القسم واللام، الكلام انما ساقه على المنكرين لمضمونها. قوله: هم سفكوه أفاد القصر للافراد، إذ الكلام مع من نسب الدم إليه وحده ونفى عن غيره. والا عندهم: أيضا للقصر للافراد. انما قطع يرتضعون عما قبله ليؤذن بتعليل مضمون الجملة السابقة عليه. من دعا: استفهام على سبيل الانكار والتحقير، وكذا ما اجيب. وحد السيف: الحد مصدر كان في التقدير وصفاً للسيف بمعنى حاد ثم قدّم على الموصوف، جعله مضافاً الى السيف للاهتمام بشأنه ولأنه المقصود بالذكر، واشتمال اكثر هذه الكلمات على الايجاز الذي هو من أعلى افانين البلاغة أبين من البيان.

البيان

في يرتضعون أماً قد فطمت: استعارة مكنى بها عن إثارة الفتن التي انخمدت بمكان رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن التماسهم منه عليه السلام أن يخصصهم بالصلات من ثلث المال، ويفضل بعضهم على بعض، مستدعية على الأول لتشبيهات أربعة:

الأول: تشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله بالامّ وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في احتياج الفروع الى تربيتهما.

الثاني: تشبيه الذين أسلموا بالأولاد وهما أيضا محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في احتياج الحاصل لهم الى الرسول والامّ ليطّلعوا على ما به صلاح معادهم ومعاشهم.

الثالث: تشبيه هيئة دعوة الرسول إياهم إلى ما ألف به نفوسهم، وانقطعوا بسبب اشتغالهم بما دعاهم إليه عما كانوا عليه قبلها، من العقائد الفاسدة والخيالات الباطلة، بهيئة قطع الامّ أولادها المرتضعين عن الارتضاع، باشتغالهم بالمألوفات المحدّدة من المآكل الطيبة، ووجه الشبه: اشتراكهما في قطع الاطماع عما كانوا عليه، وهو عقلي.

الرابع: تشبيه هيئة إثارتهم الفتن التي قد تولوا عنها، بهيئة طلب الأولاد المفطومين من اللبن، ووجه الشبه: اشتراكهما في طلب ما قطعت أطماعهم عنه، وعلى التقدير الثاني أيضا يستدعي تشبيهات أربعة: تشبيه نفسه عليه السلام أو الخلافة بالام، ووجه الشبه ما عرفت، والباقية معلومة مما ذكرنا.

البديع

بين حزبه وجلبه: المتوازي، وبين أوطانه ونصابه: المطرف، ولو قلنا انه المتوازن لكان أولى، وبين تركوه وسفكوه: المتوازن والترصيع، وقد راعى في كفى به شافياً المطابقة، حيث طابق الباطل بالحق، وبين الطعان والجلاد: المطرف، وبين الحرب والضرب: المتوازي والترصيع.

الفحوى

إعلم أنه عليه السلام نفّر أصحاب الجمل عما كانوا عليه من التثبث

بالشبهة الباطلة التي أخذوابها. قوله: ألا وان الشيطان إلى نصابه قد عرفت تفسيره فيما سبق فلا يحتاج هنا الى الاعادة. وفي ليعود: إشارة الى أن المذاهب الباطلة والعدول عن الطريق قد زالت مقارها بمقدم الرسول عليه السلام، ويحث الشيطان حزبه على إثارة الفتن والمحاربة لتعود الى مقارها، وترجع الى الحالة التي كانت عليها قبل مبعث الرسول عليه السلام.

وفي هذا تنفير السامعين عن مخالفته، وجذب لهم الى موافقته، ثم دلّ على ما ادّعوه من تخلفه عن عثمان أنه منكم وأنكروا عليه بسببه ليس بمنكر، بل المنكر انكارهم عليه بقوله: ما أنكروا عليّ منكرا الدال بالمطابقة على انكارهم المنكر وان زعموا أنه منكر، وبالالتزام على أنهم قد أقدموا على منكر وهو انكارهم ما ليس بمنكر.

ثم نبّههم على أنهم لوعملوا بالعدل وعرفوه لعلموا أنَّ دعواهم باطلة كاذبة بقوله: ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً. قوله: وإنهم ليطلبون حقاً الى سفكوه؛ أي انهم ليطلبون حقاً مني هو دم عثمان ما تركه إلّا هم، فلا ينبغي أن يطلبوا مني مافات بسببهم، روى ابوجعفر الطبري: أن علياً عليه السلام أتى عثمان فقدم المدينة والناس يجتمعون على طلحة في داره، فبعث عثمان إليه يشكو من طلحة، فقال عليه السلام: أنا اكفيكه، فانطلق إلىٰ دار طلحة وهي مملوءة بالناس.

فقال له: يا طلحة ما هذا الأمر الذي صنعت بعثمان؟ فقال طلحة: يا أباالحسن بعد أن مس الحزام الطبيين. فانصرف علي عليه السلام الى بيت المال فأمر بفتحه فلم يجدوا المفتاح، فكسر الباب وفرق ما فيه على الناس، فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده، فسرّ عثمان، وجاء طلحة الى عثمان فقال له: يا أميرالمؤمنين اني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، جئتك ثانياً، قال عثمان: والله ما جئت ثانياً ولكن جئت مغلوباً، الله حسبك يا طلحة.

روى أبوجعفر أيضاً: أنه كان لعثمان على طلحة بن عبيدالله خمسون ألفاً،

فقال له طلحة يوماً: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هولك معونة على مروءتك، فلما حضر عثمان قال علي عليه السلام لطلحة: انشدك الله الا[١] ... عن عثمان فقال: لا والله حتى يعطي بنو أمية الحق من أنفسها، وكان علي عليه السلام يقول بعد ذلك: لحا الله ابن الصعبة أعطىٰ عثمان ما أعطى وفعل، وبالجملة فدخولهم في قتل عثمان ظاهر معلوم لمن مارس كتب التواريخ وطالعها.

وهذا توطئة لتقرير الحجة عليهم وهو أنهم قد دخلوا فيه، وكل من دخل في أمر فلا يخلو من أن يكون بالانفراد أو بالشركة لا غير، وعلى التقديرين: ليس أن يطلبوا دمه، وأشار الى القسم الثاني بقوله: فلئن كنت الى منه؛ أي لئن كنت شريكهم في هذا الدم فان لهم لنصيبهم من الدم المطلوب بالضرورة، فعليهم أن يبدأوا بتسليم أنفسهم الى أوليائه.

أشار الى القسم الاول بقوله: ولئن الى عندهم ؛أي لئن تقلدوا هذا الأمر من غير مشاركة فالطلب لا يتأتى إلا منهم، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا من غيرهم، ثم اكد مضمون هذه الحجة بقوله: وان أعظم حجتهم لعلى أنفسهم لكون دخولهم فيه أمراً بيناً لا يدفع، ومكشوفاً لا يتقنّع، ثم دلّ على أنَّ مطلوبهم من هذا الأمر ليس دم عثمان بل إثارة الفتن التي نامت بمقدم رسول الله صلى الله عليه وآله، واحياء البدع والأهواء الباطلة التي اندرست بظهور دعوته عليه السلام بقوله: يرتضعون الى اميتت، وقد عرفت الاحتمال الآخر.

ثمّ عجب من عظيم خيبة الدعاة إلى قتاله بقوله: يا خيبة الداعي، واستحقر المدعوّين لقتاله واستفهم منهم على سبيل الاستهزاء والسخرية بقوله: من دعا، أي ليس المدعوّون إلا أعوام الناس الذين جعلوه ذريعة الى قتاله عليه السلام بقوله: والى ما أُجيب، ثمّ دلّ على رضائه بمقتضى حجة الله عليهم وعلمه بما يصنعون بقوله: وإني لراض الى فيهم.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

وحجة الله تعالى عليهم هي الأوامر الصادرة عن الله الآمرة بقتال البغاة، مثل قوله تعالى: «فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله[1]»، وحاصل المعنى يرجع الى أنه راض بترك مقاتلتهم ورجوعهم عما كانوا يطلبون منه، وعفوه عنهم بسبب ما نسبوه إليه، وتفويضه الى امر الله تعالى وعلمه بحالهم.

قوله فان إلى الحق: أي إن امتنعوا من الرجوع وثبتوا على الباطل أعطيتهم حد السيف، أي اقاتلهم قتالاً شديداً بحيث يستقيم أودهم، وكفى بالسيف شافياً من داء الباطل وناصراً للحق، ثم تعجّب من حالهم، حيث هددوه بالحرب وطلبوا منه المطاعنة، مع علمهم بحاله عليه السلام في الشجاعة وتحمله في المكاره بقوله ومن العجب الى للجلاد. قوله هبلتهم الهبول: دعاء يدعو به العرب على من تصور أمراً عجيباً من نفسه، أي ثكلتهم الثواكل.

أشار الى عدم مبالاته بالحرب وشدة قيامه بالضرب، وجذب السامعين الى موافقته بقوله: واني على يقين من ربي: أي أني ثابت مستقر على اليقين الذي لا يحوم حول حماه ريب، وحصل من ربي بلا واسطة وليس لي شبهة على ديني، وهذا تعريض بحالهم بأنهم ليسوا مستقرين بالحقّ ولا ضالّين عن الشبهة في الدين ـــ والله اعلم ـــ.

* * *

---

(١) الحجرات: ٩.

٢٢ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَقَطْرِ[١] ٱلْمَطَرِ: إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَإِذَا[٢] رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ، فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَتُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ[٣] فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ[٤]، وَكَذٰلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ.

يَنْتَظِرُ مِنَ ٱللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ ٱللهِ فَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ ٱللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا[٥] ٱللهُ لِأَقْوَامٍ، فَاحْذَرُوا مِنَ ٱللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَٱخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَٱعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلاَ سُمْعَةٍ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ ٱللهِ يَكِلْهُ ٱللهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ[٦] لَهُ، نَسْأَلُ ٱللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ ٱلْأَنْبِيَاءِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ، عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ[٧] بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ ٱللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ

---

(١) في ض وب: كقطرات المطر.
(٢) في ح: فان رأى.
(٣) في ر: وروي ينتظر من الله اول.
(٤) في ض وب: ويرفع بها عنه المغرم.
(٥) في ش: وقد جمعها الله.
(٦) في ض: لمن عمل له.
(٧) في ش: ان نزلت به.

يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ.

اللغة

الأمر: الشأن وجمعه أمور، ومصدر أمرته اذا كلفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام شامل للأفعال والأقوال كلها، وعليه ورد قوله تعالى: «وإليه يرجع الأمر كلّه[١]»، ويقال للإبداع أمر، وعليه ورد قوله تعالى: «ألا له الخلق والأمر[٢]»، وهو يختصّ بالله تعالى دون غيره، وعليه حمل قوله تعالى: «إنّما أمرنا لشيء»، الآية فيعتبر عن[٣] ... بأقصر لفظ أبلغ ما يقدم به بيتا يفعل الشيء، ويقال لحكم القدرة الالهية على الممكنات في الأزل بما يمكن ان يكون لكل منها بحسب استعداده، وعليه ورد: «أوحىٰ في كل سماء أمرها[٤]»، وهنا أراد المعنى الثالث.

القطر: المطر؛ والقطر أيضا جمع قطرة، وأيضا مصدر لقولك قد قطر الماء وغيره يقطر وقطرته إما يتعدى ولا يتعدى، وهنا الاضافة الى المطر عيّنت المعنى الثاني. القسم: اقر اذا النصيب[٥].

يقال: قسمت كذا قسماً.

الغفير: الزيادة والفضل؛ يقال: ما فيهم غفيرة أي فضل يحملهم على المغفرة للذنوب، والغفر في الأصل التغطية، ولأن الزائد على الشيء ساتر له يقال الغفر.

وروي عفوة، والعفوة: الخيار من الشيء؛ يقال أكلت عفوة الطعام أي خيارها، والعفوة مثل الصفوة.

أهل الرجل: من يجمعه وإيّاهم نسب أودين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد؛ فأهل الرجل في الأصل من يجمعه وإيّاهم مسكن واحد، ثم

---

(١) هود: ١٢٣.
(٢) الأعراف: ٥٤.
(٣) كذا بياض.
(٤) فصلت: ١٢.
(٥) كذا.

تجوز به فقيل أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإيّاهم نسب، ويعرف في اسرة النبي عليه السلام اذا قيل أهل البيت، وعبّر بأهل الرجل عن امراته.

يقال غشيه يغشاه غشياناً: أي جاءه وأغشاه إياه غيره.

الدناءة: الخساسة والحقارة، و الدنيء بالهمز الدون الخسيس.

الخشوع: والخضوع بغض الطرف والتطامن في أصل الوضع، يقال خشع خشوعاً أي خضع، ثم كثر استعماله في الضراعة في القلب لله تعالى، وقد روي: اذا خشع القلب خشعت الجوارح.

يقال غرى بالأمر يغرى: أي أولع به ولهج، والاسم الغَراء بالفتح والمدّ، وأصل ذلك من الغِراء بالكسر وهو ما يلصق به، وأغريت فلاناً بكذا أي ألهجت به.

قال تعالى: «فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء[1]».

اللّئام: جمع لئيم؛ وهو الذي أكسب نفسه أمراً خسيساً استحق به الملامة.

السهم الفالج: الفائز من الفلج؛ يقال قد أفلج الرجل على خصمه يفلج فلجاً وأفلجه الله عليه، والاسم الفُلج بالضم.

القِداح: جمع قِدح بكسر القاف وهو سهم الميسر؛ وأيضاً السهم قبل أن يراش ويركب عليه نصله، ويجمع أيضاً على أقدح وأقاديح.

الغنم في الأصل: اصابة الغنم والفوز به ثم يستعمل في كل مظفور به من جهة العدى أو غيرهم، والمغنم اسم يغنم وجمعه مغانم.

المغرم: ما يصيب الإنسان في ماله من ضرر الغير جناية منه؛ يقال غرم كذا غرماً ومغرماً، والغريم يقال لمن له الدين ولمن عليه الدين، والغرام ما يصيب الانسان من شدّة وبلاء. البريء: اسم فاعل من البراءة والنزاهة. الخيانة والنفاق:

---

(١) المائدة: ١٤.

واحد إلّا أنّ الخيانة يقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم تداخلا.

فالخيانة: مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة، يقال خنت فلاناً وخنت أمانة فلان، وعليه ورد قوله تعالى: «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم[1]»، والاختيان مراودة الخيانة، وانّما قال تعالى: تختانون أنفسكم[2]، ولم يقل يخونون لأنه لم يكن منهم الخيانة بل كان الاختيان، فان الاختيان تحرك شهوة الانسان لتحرّي الخيانة على ما أشار إليه بقوله: إنّ النفس لأمّارة بالسوء.

الحسن: عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، واستحسانه إمّا من جهة العقل أو الهوى أو الحس، والحسنة عبارة عن كل ما يسر من نعمة ينال الانسان في نفسه وبدنه وأحواله، والحسنى ما يثبت الحسن ولكن الفرق بين الثلاثة أن الحسن يقال في الأعيان والاحداث؛ يقال رجل حسن وعلم حسن، وكذلك الحسنة اذا كانت وصفاً واذا كانت اسماً فتعارف في الأحداث، وأمّا الحسنى فلا يقال إلّا في الأحداث دون الأعيان، والحسن اكثرما يقال في تعارف العامة في المستحسن بالبصر، واكثرما جاء في القرآن للمستحسن بالبصيرة.

الخير: ما يترتّب فيه الكل كالعقل والعدل والعلم والشيء النافع، والشر ضده؛ قيل الخير ضربان: خير مطلق وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال وعند كل أحد، كما وصف عليه السلام به الجنة فقال: لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة، وخير وشر مقيّدان وهو يكون خيراً لواحد وشرّاً لآخر، كالمال الذي يكون ربما كان خيراً لزيد وشرّاً لعمر.

لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن مكان طيب. روي أنّ علياً عليه السلام دخل على مولى له فقال: الا أوصي يا أميرالمؤمنين؟ قال: لا، لأن الله تعالى قال: إن ترك خيراً وليس لك مال كثير. والخير والشر يقالان على وجهين:

---

(١) الأنفال: ٢٧. (٢) البقرة: ١٨٧.

أحدهما: أن يكونا اسمين كما تقدّم نحو قوله تعالى: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير[١]، والثاني: أن يكونا وصفين ويقدرهما بقدر أفعل منه نحو هذا خير من ذاك وأفضل، وقوله تعالى: نأت بخير منها[٢]، ونحو قوله عليه السلام: فما عند الله خير له.

الرزق لمعان ثلاثة: العطاء الجاري دنيوياً كان أو أخروياً: النصيب نحو قوله تعالى: وفي السماء رزقكم وما توعدون[٣]، ونحو قوله عليه السلام: رزق الله، ويحتمل أن يكون المراد به الأولى وهو أظهر، وأوّل ما يصل إلى الجوف ويتغذى به، وقد يقال الرزق ما ينتفع به، والجمع الارزاق، وبمعنى العطاء هو مصدر قولك رزقه الله الحرث كسب المال وجمعه، وفي الخبر: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، والحرث ايضاً الزرع، والحرّات الزّراع، وقد حرث واحترث مثل زرع وازرع، الثاني أظهر، والأول محتمل هنا.

الصلاح: ضد الفساد وهما مختصّان في اكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، نحو قوله تعالى: ولا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها[٤]، وأخرى بالسيئة، نحو قوله تعالى: خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً[٥]. الحذر والحذر: التحرز، يقال حذرت الشيء بالكسر في الماضي والفتح في الغابر حذراً، ورجل حذر وحذر أي متيقظ متحرّز.

والتحذّر التخويف. الخشية: خوف يشوبه تعظيم، واكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، قال الله تعالى: إنّما يخشى الله من عباده العلماء[٦]، والخوف توقّع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة؛ فيكون الخوف أعمّ من الخشية.

التعذير في الأمر: التقصير فيه؛ والمعذر المتهاون في الأمر، وقيل: من يرى أنّ له عذراً ولا عذر له. العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد فيكون الفعل

---

(١) آل عمران: ١٠٤.
(٢) البقرة: ١٠٦.
(٣) الذاريات: ٢٢.
(٤) الأعراف: ٥٦.
(٥) التوبة: ١٠٢.
(٦) فاطر: ٢٨.

أعمّ، لان الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها العمل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلّما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلّا في قولهم البقر العوامل، يستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة.

الرياء: اسم من أراءت الشاة أي عظم ضرعها فهي مراء، ورجل مراء وقوم مراؤون، وفي العرب حقيقته طلب المنزلة بالعبادات وأعمال الخير، ويقال فعله رياء او سمعة أي ليراه الناس ويستمعوا به.

الشهداء: جمع شهيد، والشهيد هو في الاصل الشاهد والمشاهد للشيء، نحو قوله تعالى: معها سائق وشهيد(١)، واختصّ في العرف بالقتيل في سبيل الله، وانّما سمّي بذلك لحضور الملائكة إيّاه على ما يدلّ عليه قوله تعالى: تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا(٢)، ولأنّ أرواحهم تحضر عند الله تعالى على ما ينبئ عنه قوله تعالى: ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم(٣)، وقوله: والشهداء عند ربهم(٤).

السعادة: معاونة الامور الالهية على نيل الخير ويضادها الشقاوة، يقال منه سعد الرجل فهو سعيد، مثل سلم فهو سليم، وسعد فهو مسعود، ولا يقال مسعد، وجمع السعيد السعداء، والسعادة ضربان: دنيوية واخروية، والدنيوية ثلاثة أضرب: نفسية وبدنية وخارجية، وأراد هنا السعيد المأخوذ من السعادة الأخروية وان كان يحتمل العموم.

العشيرة: أهل الرجل الذين يتكثّر بهم أي يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وذلك أنّ العشيرة هو العدد الكامل، فصارت العشيرة اسماً لكل جماعة من أقارب الرجل يتكثّر بهم.

والعشير: المعاشر؛ وفي الخبر أيكنّ تكثرن العشير أي الزوج، لأنه يعاشرها

---

(١) ق: ٢١.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) الحديد: ١٩.

وتعاشره. دافع عنه ودفع بمعنى، تقول دافع الله عنك السوء دفاعاً. الحيطة: بالكسر الحياطة، وهما من الواو، وقد حاطه يحوطه حيطاً وحيطة وحياطة أي كلاءة ورعاة، وقد جاءت الرواية بها، والأصحّ الحيطة على وزن البيئة، وهي اسم للإحاطة حفظاً. يقال: لمت الشيء أي جمعته وأصلحته.

الشعث: انتشار الأمر، يقال لمّ الله شعثك؛ أي جمع أمرك المنتشر، وأيضاً مصدر الأشعث: أي المغبر الرأس، وتشعيث الشيء تفريقه، والتشعث التفرّق.

العطف: في الأصل يقال في الشيء إذا ثني أحد طرفيه إلى الآخر، كعطف ..(١) والوسادة، وقد يستعار للمثل، والشفقة اذا عدّي بعلى، يقال عطفت عليه أي أشفقت، وأعطفهم أفعل التفضيل منه، والدليل عليه تعديته بعلى.

النازلة: الشدة والمصيبة؛ يقال فلان أصابته نازلة أي شدة، وكذا يقال نزلت به نازلة.

لسان الصدق: قيل الذكر الجميل بين الناس، والاولى أن نقول: هو الثناء على الرجل بعده بما لم يكن المثني فيه كاذباً، بل صادقاً، ويكون كما قال الشاعر:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وخير: هنا أيضاً بمعنى أفعل من كذا.

الاعراب

الى كل نفس: متعلق بينزل، وهو مع متعلقه في محلّ الرفع على أنه خبر إنّ. ما في ما لم يغش: للمدة، ويظهر صفة لدناءة، الفاء في فيخشع عطف على يظهر إن حملنا الخشوع على المعنى اللغوي، وإن حملناه على المعنى العرفي الذي هو الخشوع لله، فقيل الفاء للابتداء ومعناه هنا بل، والأولى أن نقول جواب إذا للشرط قدّم عليه للاهتمام بشأنه، ويعضده وجود الواو في قوله: وتغرى بها لئام الناس.

---

(١) بياض في الاصل.

في تغرى روايتان: التاء للتأنيث باعتبار الجمع الذي اقيم مقام فاعله وهو لئام الناس، والتاء للتذكير باعتبار تقديم الفعل المؤنث غير الحقيقي نحو طلعت الشمس، في به أيضاً روايتان: إحداهما: ضمير المذكر العائد الى ظهور الدناءة، أو ذكرها الدال عليه الفعل، كقولهم: من كذب كان شراً له.

الثانية: ضمير التأنيث العائد الى لفظ الدناءة وهي أظهر دراية، وتلك أصح رواية، وكالفالج خبر والياسر نعته.

توجب: يحتمل أن يكون نعتاً لفوزه، وأن يكون جملة استئنافية، داعي الله منصوب على أنه بدل من إحدى، وما في فما موصولة، وعندالله جملة ظرفية، المجموع في محل الرفع على الابتداء وخبرله وخبره، واذا فاذا للمفأجاة، وتجيء بعدها الجملة الاسمية في الاكثر، والواو في ومعه للحال، في العمل الصالح روايتان:

إحداهما: الرفع على الابتداء، والثانية: النصب على أنّه اسم إنّ وهو المال، وليست بتعذير نعت لخشية، وفي غير رياء نعت لمصدر محذوف تقديره عملاً مستقراً في غير رياء، الضمير في إنه لا يستغني للشأن، والباقي واضح.

المعاني

تصدير الجملة الأولى بانّ مع اشتماله على تشبيه المعقول بالمحسوس دالّ على أن المراد بايرادها ردّ المنكر المخطئ في الحكم الى الصواب، وأنه قد نزّل المخاطبين منزلة الاغنياء الذين لا يعرفون إلا المحسوسات.

الفاء في فإنّ للتشبيه الدالّة على أنّ عدم الكون له فتنة سبب لأن ينخرط في سلك من حاز الفضيلة المشتملة عليها الجملة بعدها، أو على أن الكون سبب للخروج عن سلكهم.

تصدير قوله إنّ المال الى آخره بأن مع قطعه عما قبله يؤذن بتعليل ما قبله، وبأن المقصود بالإيراد والمخطئ المتردّد إلى الثبات على الصواب، واشتماله على

الايجاز سيما؛

قوله والعمل الصالح: أيضاً من البلاغة، وتصدير يجمعهما الله بقد يشعر بأنّ اجتماعهما قليل نادر قلّما يتفق، واحذروا من الله ما حذركم: آية في الايجاز لأنّه كنّى بهما عن جميع المناهي المترتّب عليها الوعيد كما في قوله تعالى: «فغشيهم من اليمّ ما غشيهم[1]»، وايراد المصدر الموصوف بعد الأمر بالخشية للدلالة على تربية الفائدة والاهتمام بشأن المأمور به، واشتمال التراكيب الباقية على الخواصّ المعلومة من القواعد السالفة أظهر من البيان.

البيان

في قوله إن الأمر ينزل الى آخره: تشبيه هيئة نزول الأمر الإلهي من السماء وهي معقولة، بهيئة نزول قطرات المطر وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في التتابع والتتالي وفي الاختلاف؛ يعني كما أن البقاع تختلف بكثرة إصابة المطر وقلّتها، كذلك النفوس الانسانية تتفاوت في المقسوم بالزيادة والنقصان، وان حملنا السماء على غير معناها ففيه أيضاً استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه الجود الالهي وهي معقولة، بالسماء وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في العلو والارتفاع، وكون النازل منهما يقع على المجاري من غير تفاوت، وستعرف تمام التقرير في الفحوى، وكذا في الارض استعارة مستدعية لتشبيه عالم الكون والفساد بالأرض، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاسفلية والقبول.

في قوله فإنّ المرء المسلم الى قوله وحسبه: تشبيه للرجل الموصوف بالصفات المذكورة بالفالج الياسر وهما محسوسان، ووجه الشبه ما أشار إليه بقوله: وكذلك المرء الى آخره، وستعرف تمام التقرير فيه في الفحوى، والباقي حال عما فيه طائل.

(١) طه: ٧٨.

البديع

فإن الأمر الى نقصان: راعى المطابقة؛حيث قابل السماء بالأرض، والزيادة بالنقصان، كما في المغنم والمغرم، وبين الشهداء والسعداء: المتوازي والترصيع، وبينهما وبين الانبياء: المتوازن، والباقي ظاهر.

الفحوى

إعلم أنه عليه السلام أشار في هذا الفصل إلى تأديب الفقراء بترك الحسد وسائر الرذائل التابعة لدناءة النفس وخساسة الهمة، وثانياً إلى إرشاد الأغنياء إلى بذل الفضل من الأموال للفقراء سيّما اذا كانوا اقارب لهم، وترغيبهم الى اقتناء الذكر الجميل، وتزهيدهم عن جمع المال لغيره، المقصود منهما تنفير ضعفاء النفوس عن الإصغاء الى معاوية والاغترار سروسه(١)، ودعوتهم الى متابعته، وهنامقصدان، وقبل الخوض في المقصود ذكر السبب الحامل له عليه السلام على إنشاء هذه الخطبة:

روي: انه لما فشا في الناس عطايا معاوية في أهل الشام، ولم يكن عند علي عليه السلام مال ولم يكن كمعاوية مال(٢)... ذلك مالت قلوب الناس الى معاوية حتى استبان ذلك في أهل العراق(٢)... بعض القوم لئلا يلحقوا بالشام، فقام عليه السلام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أما بعد... الى آخره.

المقصد الأولى: في تأديب الفقراء بترك الرذائل؛ اعلم أنه عليه السلام مهّد أولاً قاعدة كلية مبينة أنّ كل ما يصل إلى كل نفس من زيادة مال أو جاه أو خدم وحشم وولد، ونقصان في ذلك فإنه بمقتضى القسمة التي تولّاها بنفسها على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «اعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى(٣)»، وقوله: «نحن قسمنا

---

(١) كذا.

(٢) كذا بياض في الاصل.

(٣) طه: ٥٠.

بينهم معيشتهم[(١)]»، وأثبتها في اللوح المحفوظ، فيه ما جرى ويجري في الكائنات بالقلم الالهي بقوله: فان الأمر أي بحكم القدرة الالهية على الممكنات بالوجود المشار إليه بقوله: كن ينزل من السماء الجود الالهي إلى كل نفس بما قسم لها نزولاً قد عبّر عنه قوله تعالى: «وما ننزله إلا بقدر معلوم[(٢)]».

ويحتمل أن يكون المراد بالسماء والأرض حقيقتها؛ على معنى أن الحركات الفلكية لما كانت أسباباً معدة لما يحدث في الأرض، صح نسبة النزول إليها، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: «وفي السماء رزقكم وما توعدون[(٣)]»، وانما قدّم هذه القاعدة ليبني عليها ما هو المقصود من عقد الفصل، ثمّ لما فرغ من تمهيدها طفق عليه السلام في تأديب من حصل النقصان في حقه من النفس أو المال أو الأهل، بالنهي عن الانسان بما حصل لغيره من الأمور والنفاسة، وقال: فاذا رأى إلى فتنة.

قال بعض الشارحين: أراد بالفتنة هنا الحسد لا غير، ويحتمل أن يكون المراد بها أعمّ وهو الضلال عن طريق الحق، بالتفات نفسه إلى أحد الأمور المذكورة والاشتغال بما لا يعنيه ولا يهمه، ويلهيه عن الاشتغال بما هو الواجب عليه، أي إذا وقع نظر أحدكم على من حصلت له الزيادة في أحدها، وأنت ممن حصل له النقصان في أحدها، فلا تعدلنّ عن سلوك الطريق بالحسد عليه، أو جعل نفسه من توابعه طمعاً في مال وغيرهما، فإنّها أمور يذهل الشاغل بأحدها عن القبلة الحقيقية التي أُمروا بالتوجّه إليها، ويضلّه عن الصراط المستقيم، فيكون المنهيّ بالحقيقة الضلال المتتبع للرذائل.

ثمّ لما نهى عليه السلام عن الافتتان بأحد الأمور المذكورة، وأراد أن يشير إلى فضيلة والانتهاء عليها، أو هي إلى كون الفتنة دناءة بقوله: ما لم يغش دناءة، ثمّ أتى بتشبيه مفصح عن حال من انتهى عنه، وقال عليه السلام: فإنّ المرء إلى آخره؛

---

(١) الزخرف: ٣٢.
(٢) الحجر: ٢١.
(٣) الذاريات: ٢٢.

أي ان المرء المذعن لأوامره تعالى بالقلب واللسان المنقاد لها، ما دام لم يرتكب أمراً خسيساً يظهر عنه، فتكسب نفسه خلقاً رديئاً، ويصير نفسه ذليلاً له إذا لم يذكر بين الناس من غاية الخجالة، ويستحيي من فعله إذا ذكر، ويولع لئام الناس به وعوامّهم في مثل فعله.

هذا على المعنى اللغوي، أما على المعنى العرفي للخشوع فمعناه: ما لم يرتكب أمراً خسيساً يظهر عنه ويولع به لئام الناس، وأراد بهم بأن يأتوا بمثله ويقتدوا به، بل إذا ذكر بين الخلق تضرّع إلى الله تعالى ويطلب الاستغفار منه، ويخاف من أن يقع مثله منه مرة أخرى تفادياً عن عقابه المعدّ للعاصي، فيكون قوله ويغرى بها لئام الناس: مقدّماً في التقدير على فيخشع.

أمّا وجه التشبيه فقد أشار إليه عليه السلام بقوله: وكذلك؛ اي كالفالج الياسر في الصفة المذكورة للمرء المسلم، وبقوله البريء من الخيانة: بيّن أنّ مراده بالإسلام هنا الاسلام الذي هو فوق الإيمان؛ يعني المنقاد لأوامره المجتنب عن نواهيه بجوارحه، الطاهر البريء من مخالفة عهد الحق في السر الذي لا يعلمه إلّا هو؛ أي المصدّق لما يأتي به من الأعمال بالقلب.

ينتظر من الله تعالى الفوز باحدى الخصلتين الحسنيين إما أن يجيب داعي الله[١] ... تعالى عن هذه الدنيا الدنية نقيّاً عن أدناس الذنوب، فما عند الله ممّا أعدّه لاوليائه المقرّبين ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، خير له من الأمور الحاصلة له في الدنيا من التعب والنصب.

وإلى هذا أشار تعالى بقوله: «وما عند الله خير للأبرار[٢] »، وقوله: «والله عنده حسن المآب »، فيفوز بالنعيم الدائم والحياة الأبديّة التي هي الحياة الطيّبة، وإذا فاز بهما أمن من الوقوع في الخسران بالضرورة، فيكون كالفالج الياسر الذي فاز بالقدح الذي أثبت له الغنم ونفى عنه الغرم.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) آل عمران: ١٩٨.

لو قلنا أنّ المراد بداعي الله الحوادث الربانية والسوانح الالهية، التي تسنح له وتفيض على ساحة القلب حقيقة الزهد الحقيقي، والالتفات عما سواه تعالى، فيطّلع بها على حقائق الأشياء فيهين عند ميزان عقله كل موجود سواه، ويرى ما أعدّه الله تعالى للمقبلين إليه المدبرين عمّا سواه لكان قريباً من الصواب.

وإمّا أن يخصّه الله تعالى في الدنيا بكثرة الرزق ويفتح عليه أبوابه، فيصبح وقد فاز بالجمع بين المال الجمّ والبنين، مع بقاء الحسب والدين له، فيفوز في الدنيا بالمغانم الكثيرة، ويأمن من العقاب الأليم المعدّ لأعدائه.

فيكون أيضاً كالفالج الياسر، وانتظار احدى الحسنيين أفضل عند من له أدنى مسكة من الافتتان بفتنة الحسد وغيره، وتدنيس لوح النفس برذائل الأخلاق وكمال النهى بغليه(١) المشتملة على التشبيه، يدلّ بالمطابقة على النهي عن الرذائل، كذا يدلّ بالالتزام على الصبر على بلاء الله.

فان قيل الاطّلاع على هذا التشبيه مسبوق بالاطّلاع على كيفية اللعب بالميسر الذي نهى الله تعالى عنه، فلابدّ من الإشارة إليها.

فنقول أنّ السهام المسمّاة بالقداح سبعة الفذّ بالذال المعجمة وله فرض واحد، التوأم وله فرضان، الضريب بالضاد المعجمة وله ثلاثة فروض.

الحلس: بكسر الحاء في الصحاح وفي المجمل بفتح الحاء وكسر اللام وله أربعة فروض، النافس وله خمسة فروض، والمسبل وله ستة فروض، المعلى وله سبعة فروض، وليس بعد هذه السهام سهم له فرض، إلّا أنهم يدخلون مع هذه السبعة أربعة أخرى يسمّونها أوغاد او أسماؤها المصدر، ثم المضعف ثم المسح ثم السفيح.

فاذا اجتمع ايسارا يجيء أخذ كل منهم قدحاً وكتب عليه اسمه أو علّمه بعلامته، ثم أتوا بجزور فينحرها صاحبها ويقسمها عشرة أجزاء، ثم أتى برجل معروف بأنه لم يأكل لحماً قط بثمن، إلّا أن يصيبه عند غيره ويسمّى الحرصة،

---

(١) كذا في الأصل.

فيجعل على يديه ثوب و يعصّب رؤوس أصابعه بعصابة لئلاّ يلبس الفروض، ثمّ يدفع إليه القداح، ويقوم خلفه رجل يقال له الرقيب فيدفع إليه قدحاً منها من غير أن ينظر إليها، فن خرج قدحه أخذ من أجزاء الجزور بعدد الفروض التي في قدحه.

ومن لم يخرج قدحه حتى استوقب أجزاء الجزور، غرم بعدد فروض قدحه كأجزاء تلك الجزور، من جزور أخرى بصاحب الجزور الذي نحرها، فان اتّفق أن خرج المعلى أولاً فأخذ صاحبه سبعة أجزاء من الجزور، ثم خرج المسبل فلم يجد صاحبه إلّا ثلاثة أجزاء أخذها وغرم له من لم يفز قدحه ثلاثة أجزاء من جزور أخرى، واما الأوغاد فليس في خروج أحدها غنم ولا غرم.

قوله عليه السلام إن المال إلى الآخر: إشارة إلى تحقير أسباب الدنيا بالنسبة إلى العمل الصالح الذي هو سبب لتحصيل ما في الآخرة، فاشار أولاً إلى ما هو أعظمها وحقّرها بقوله: ان المال والبنين حرث الدنيا، وانّما قلنا انّهما أعظم المعيشات الدنيوية بقوله تعالى:

«المال والبنون زينة الحيوة الدنيا[١]»، وهذا في تقدير قياس ضمير قد حذف كبراه، تقدير القياس: المال والبنون حرث الدنيا، وحرث الدنيا حقير بالنسبة إلى حرث الآخرة، لينتج أنّ المال والبنين حقيران بالنسبة إلى حرث الآخرة الذي هو العمل الصالح.

فيكون الإتيان بالعمل الصالح أولى عند العاقل من إحراز المال والبنين، أما الصغرى: تشبيه بذاتها، وأما الكبرى: فللمنقول والمعقول، أما المنقول فلقوله تعالى: «فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة إلا قليل[٢]»، وقوله تعالى: «والآخرة خير وأبقى[٣]»، وقوله تعالى: «انّما الحيوة الدنيا لعب ولهو[٤]»، «وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان»، ولا ريب في أن اللعب لا مجال له في مقايسة بما هو الواهب للحياة

---

(١) الكهف: ٤٦.
(٢) التوبة: ٣٨.
(٣) الأعلى: ١٧.
(٤) محمد: ٣٦.

الطيبة.

واما المعقول فلأنهما من الأمور الفانية، والعمل الصالح من الأمور الباقية، وما هو به أبقى خير مما ليس كذلك، فضلاً عن الفاني، وهذا ترغيب في الاقبال إلى الله تعالى بالكلية، وتنفير عن الافتتان باللذات الدنيوية، ثم دل على وجوب التوكّل على الله فيما هو قصارى أمانيكم، وهو الجمع بين الجزأين لواحد، فانه الجامع لا غيره تعالى بقوله: وقد يجمعهما الله لأقوام، ويدلّ أيضاً بالالتزام على أن الصبر في الطلب من اللوازم، لأن الله تعالى قلّما يجمعهما لأحد.

ثم لما فرغ عليه السلام بالكلية لا بدونه، وأراد أن يشير إلى طريق الاقبال إليه على سبيل الإجمال أشار أولاً إلى الاجتناب عن نواهيه تعالى بما هو مستلزم له، وقال: فاحذروا من الله ما حذركم؛ أي تحرّزوا من عذاب الله تعالى المعدّ للعاصين المتمرّدين.

احذروا ممّا خوّفكم من نفسه وهدّدكم عليه لو خرجتم عن طاعته، واخشوه من الله خشية صادقة سوبه[١] من التقصير في طاعته، مستلزمة لمحافظة أوامره والاجتناب عن نواهيه، فانّ الخوف سوط يسوق العبد إلى نيل السعادة الأبدية على ما ينبئ عنه قوله تعالى: رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه.

إعلم أن الخوف من لوازم العرفان، فمن عرف الله تعالى خاف منه بالضرورة، وكلما كانت الخشية أكثر كان صاحبها أكمل في العرفان، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء[٢]»، وأشار الرسول صلوات الله عليه بقوله: أنا أخوفكم بالله، ولكن ينبغي أن لا يكون الخوف ...[٣] العظيم لمن خشي منه.

(١) كذا في الأصل.
(٢) فاطر: ٢٨.
(٣) كذا بياض في الأصل.

وإليه أشار صلى الله عليه وآله بقوله: من خاف الله تعالى خافه كلّ شيء، ومن خاف غير الله خوّفه الله من كلّ شيء، وروي أنه تعالى أوحى إلى داود: خفني كما تخاف السبع الضاري، وأقلّ الخوف هو أن يستلزم الإعراض عن الذنوب المهلكة، وأعلاه أن يستلزم الزهد الحقيقي.

ثمّ أشار إلى إخلاص العمل لله بقوله: واعملوا إلى آخره؛ أي اعملوا خالصاً لله تعالى من غير أن يشوبه رياء للناس أو سمعة، فان الرياء محبط للعمل على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون [(١)]»، وقوله تعالى:

«فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً[(٢)]»، وقوله صلى الله عليه وآله: إن المرائي ينادى يوم القيامة باربعة أسماء: يا مرائي، يا غاوي، يا فاجر، يا خاسر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له، فلا أجر لك عندنا.

وقد عرفت معنى يكله الله إلى من عمل له في السابق، وهذا الخبر دال عليه عاضد له، وعلامة الرياء ما أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذمّ، ثم لما كانت همّته عليه السلام مقصورة على طلب السعادة الأبدية والحياة الطيبة، طلب من الله أولاً الحياة الباقية ببقاء الرب، التي هي سبب لتحصيل السعادة والانخراط في سلك السعداء.

قال: فاسأل الله منازل الشهداء التي هي الحياة عند ربهم على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله[(٣)]»، ومعايشة السعداء أي ...[(٤)] معهم في

(١) الماعون: ٥-٦.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) آل عمران: ١٧٠-١٧١.
(٤) كذا بياض في الأصل.

الخلد على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «وأما الذين سعدوافي الجنة خالدين[١]»، ومرافقة الأنبياء أي المصاحبة معهم التي لا تحصل إلا باطاعة الله ورسوله على ما دلّ عليه قوله تعالى: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً[٢]».

هذا تأديب للفقراء بما هو اللائق بحالهم، وإيذان لهم بأنّ المطلوب ينبغي أن لا يكون إلّا المراتب الثلاث المرتّبة بالترتيب المذكور، والحياة مقدّمة على التعيّش، اذ لولاها لما أمكن، ثم هو مقدّم على المرافقة، ولا يمكن لأحد تقرير المراتب على ما هي عليه إلّا مثله عليه السلام.

المقصد الثاني: في تأديب الأغنياء وحثّهم على التعطّف في حقّ الفقراء ذوي الأرحام والإحسان إليهم، وأشار إلى أمرين: أحدهما: عدم استغنائهم عن معاونتهم، والآخر: أنّ البذل خير من الحفظ، وقال مشيراً إلى الأول: أيها الناس إلى آخره؛ أي ان الناس وان كانوا ذوي ثروة ومال عظيم، لا يستغنون بمالهم عن الأعوان والأنصار يذبّون عنهم بأيديهم صولة صائل، ويدفعون عنهم بألسنتهم افتراء قائل.

وأولى الناس بعدم استغناء الرجل عنه: العشيرة والقبيلة؛ فانهم أعظم الناس حفظاً من ورائه، وأشدّهم دفاعاً عنه، وألـمّهم لشعثه؛ أي أشدّهم جمعاً لانتشار أموره في الدنيا، وأعطفهم عليه عند نازلة إن نزلت به؛ أي أشفقهم عليه في دفع الأذى إن نزلت به نازلة من شدة ومحنة أو بلاء، وذلك لأنّ القرابة مظنّة الشفقة ومظنّة التحنّن والرحمة.

قال مشيراً إلى الثاني: ولسان الصدق إلى آخره: يعني أن الغاية من المال أمران: أحدهما: الجمع والإدّخار ليرث منه غيره بعد موته، والآخر: البذل والايثار واكتساب الذكر الجميل والثناء الحسن بما صدق بين الناس، ولا ريب أن الثاني

(١) هود: ١٠٨.
(٢) النساء: ٦٩.

عند كلّ عاقل أفضل وأرجح، وكفى بذكر جمع المال وهو توريث الغير، المستلزمة لذكر الموت الذي هو هادم اللذات، باعثاً على البذل والإيثار وترك محبته، والنزول عن الجمع لمن لمح ببصيرته عاقبة أمره والله الموفق.

* * *

ومنها: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ عَنِ الْقَرَابَةِ بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ(١).

قال الشريف: أقول: الغفيرة ههنا الزيادة والكثرة، من قولهم للجمع الكثير: الجمّ الغفير، والجماء الغفير. ويروى «عفوة من أهل أومال»، والعفوة: الخيار من الشيء، يقال: أكلت عفوة الطعام؛ أي خياره، وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلام»، فَإِنَّ الْمُمْسِكَ خَيْرَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ إِنَّمَا يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضْطَرَّ إِلَى مُرَافَدَتِهِمْ قَعَدُوا عَنْ نَصْرِهِ، وَتَثَاقَلُوا عَنْ صَوْتِهِ فَمُنِعَ تَرَافُدَ الأَيْدِي الْكَثِيرَةِ، وَتَنَاهُضَ الأَقْدَامِ الْجَمَّةِ.

اللغة

العدول: الانحراف.

الخصاصة والخصاص: الفقر، وأصلها من الخصاصة بمعنى الثلمة والخلل، يقال: بدت الشمس من خصاصة الغيم أي من خلله، والخصاص الفرج بين

---

(١) في م: من قومه المحبة.

الأثافي، وانما سمّي الفقر بها لاختلال حال الفقر، كما أنَّ العرب سمّت البيت من قصب خصّاً لانه لا يخلو من فرج وثلم.

يقال سددت الثلمة: ونحوها أسدها سداً أصلحتها وأوثقتها.

امساك الشيء: التعلق بـه وحفظه، قال الله تعالى: «فامساك بمعروف»، الإهلاك :هنابمعنى الإتلاف والإعطاء.

قبض الشيء يقبض قبضاً: أي أخذه، والقبض خلاف البسط،يقال: صار الشيء في قبضك وفي قبضتك ؛ أي في ملكك ، وقيل: القبض تناول الشيء بجميع الكف نحو قبض السيف، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله وذلك إمساك ، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل قبض.

قال تعالى: «ويقبضون أيديهم» : أي يمنعون من الانفاق وهو تحقيق جيد جداً، وهنا أراد إمساك اليد عن البذل.

اليد الجارحة: وأصله يدي؛ لقولهم في جمعه أيد،وأيد افعل، وافعل في جمع فعل نحو أفلس، وقيل يدي نحو عبيد، وقد جاء في جمع افعل؛ نحو أزمن وأجبل وأصله يدتان يدل على أنّ أصله فعل، واستعير اليد للنعمة وجمع على أياد، يقال: يديت إليه؛ أي أحسنت إليه، وللحوز والملك مرة، يقال هذا في يد فلان؛ أي في حوزه وملكه، وللقوة مرة،يقال:لفلان يد على كذا ومالي يد عليه، ويده مطلقة عبارة عن ايتاء النعم، ويده مغلولة عبارة عن إمساك النعم، وستعرف تمام البحث فيه في موضعه.

اللّين: ضدّ الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يستعار للخلق ولغيره من المعاني، يقال: فلان ليّن وفلان خشن، وكلّ واحد منهما يمدح به طوراً ويذمّ به طوراً، بحسب اختلاف المواقع. حاشية الرجل:جانبه وأيضاأخدامه وأتباعه.

المرافدة والترافد: التعاون.

الاعراب

يرى بها: في موضع النصب على الحال والضمير بها للقرابة.
وأن يسدّها: بدل الاشتمال من القرابة، والباقي ظاهر.

المعاني

قوله: ألا إلى أهلكه: مشتمل على أنواع من المؤكّدات المعنوية الدالّة على المبالغة، ألا لتنبيه عما كان عليه إلى سماع الكلام ولا يفوت عليه شيء، ادخال نون التأكيد في يعدلنّ مجيء أحدكم ثم الاتيان بحال منه، الإتيان بالمبدل ثم المبدل الدال على أن المراد به تكرير الحكم لزيادة التقرير والايضاح، إدخال الباء للاستعانة على أنَّ الموصول والصلة الدال على أن السد أمر سهل وما يحصل به السد أمر حقير، ثم أكد هذا المقصود بجملتين شرطيتين دالين على العموم ليكون أقرب إلى القبول، والباقي ظاهر.

البيان

في أن يسدّها: استعارة تخييلية مكنّى بها عن اصلاح حال الفقراء ذوي الأرحام، ببذل المال لهم ومعاونتهم في المضائق والشدائد، مستلزمة تشبيه هيئة منع الاختلال إلى حالهم بالايثار وهي معقولة، بهيئة منع جسم لجسم وهي محسوسة، ووجه الشبه: أن الباذل يمنع ظهور اختلال حال لقريب للناس بايتاء النعمة، كما أن السادّ يمنع ظهور ما وراء الجسم لمن لا يريد أن يظهر عليه بضرب الحاجز وهو عقلي، وبجعل أن الهيئة الأولى من أفراد الهيئة الثانية.

وفي من تلن حاشيته: استعارة تخييلية أيضاً مكنى بها عن التواضع، مستدعية لتشبيه جانب الرجل في التذلل واظهار الخشوع وهو معقول، بالجسم الليّن وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في نعومة المس والمخالطة، لكن كل بالنسبة

إلى جنسه وهو معقول.

البديع

راعى في بالذي: المقابلة؛ حيث قابل الزيادة بالنقصان، والامساك بالاهلاك ، وفي أمسكه وأهلكه: المتوازي.

الفحوى

إعلم أنه عليه السلام أراد بهذا الكلام النهي عن العدول والانحراف عن سدّ حاجات الأقرباء الفقراء ذوي المسكنة والمتربة، ببذل الفاضل من أموالهم، بقوله الذي لا يزيده ان أمسكه: نبّه على تحقير ما يسدّ به اختلال أحوالهم في قلوبهم، أي بالقدر الذي لا يؤثر زيادته في صلاح حاله إن أمسكه، ولا نقصانه في فساد حاله إن أتلفه بالبذل، لمرارته وقلّته بالنسبة إلى ماله وثروته.

وهذا قول القائل لمن يريد أن يسهّل عليه أمراً حقيراً يتشدّد عليه طلبه؛ هذا الأمر لا يضرّك إن تركته، ولا ينفعك إن أخذته بالنسبة إلى صلاح حالك، قيل: ويحتمل أن يريد بالزيادة والنقصان الثواب في الآجل والذكر الجميل في العاجل، بل يكون سبباً لفساد حاله، أما في العاجل فلأنّ من يمسك خيره عمن محتاج إليه مع استغناء عنه استحقّ العذاب الأليم بمقتضى قوله تعالى: «والذين يكنزون[1]»، وأما في الآجل فلأنَّ الممسك منخرط في سلك البخلاء المذمومين عند الناس، وأما إتلافه فلا ينقص ثواباً ولا لحوق عار بل يكون سبباً للثواب الكثير بدلالة قوله تعالى: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون»، وللذكر الجميل في الدنيا بدلالة المقالات الصادرة من أولي النّهىٰ في مدح الكرماء والأسخياء، والأول أظهر، والثاني بعيد.

(١) التوبة: ٣٤.

ثم دلّ على أنَّ البذل خير من الامساك بالنسبة إلى الباذل نفسه بقوله: ومن يقبض يده إلى أيد كثيرة؛ ومعناه ما ذكره السيّد الرضي رضي الله عنه، وترتيب هذا الدليل على النظم الطبيعي أن يقال: من أمسك خيره عن عشيرته فقد أمسك عنهم نفع يد واحدة، وكل من أمسك عنهم نفع يد واحدة فقد منع من نفسه نفع أيد كثيرة بالضرورة العادية، ينتج أنَّ من أمسك خيره عن عشيرته فقد منع من نفسه نفع أيد كثيرة، ولكن منع نفع الأيدي الكثيرة عن نفسه باطل، لا يقدم عليه إلا جاهل، والملزوم أيضا مثله.

ثم اشار إلى لين الجانب والتواضع المستجلبين لاستدامة المودّة التي هي سبب لانتظام حال المتواضع في المعاش والمعاد، وميل القلوب إلى قبول أقواله ومتابعة أفعاله، بقوله: ومن تلن حاشيته إلى آخره؛ وبمثل هذا التأديب قال الله تعالى لنبيه في غير موضع: «واخفض جناحك [١]»، وإذا كان التواضع سبباً لائتلاف القلوب والألفة، كان الغلظ والتكبر سبباً للتباعد والتنافر، على ما يدلّ عليه قوله تعالى: «ولو كنت فظاً غليظ القلب [٢]».

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى فضيلة التواضع حيث قال: إنّ التواضع لا يزيد العبد إلّا رفعة فتواضعوا رحمكم الله، وقال: إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة، وقال عيسى عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة.

طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يؤتون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمتطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى، والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى، ولو حملنا الحاشية على الاتباع والخدم فمعناه أيضاً ظاهر مما قلنا.

* * *

---

(١) الحجر: ٨٨. (٢) آل عمران: ١٥٩.

٢٣ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ

وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلاَ إِيهَانٍ، فَاتَّقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ، وَفِرُّوا إِلَى ٱللهِ مِنَ ٱللهِ، وَٱمْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ. فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً.

اللغة

الغيّ: جهل من اعتقاد فاسد، وذاك أن الجهل قد يكون كون الانسان غير معتقد أصلاً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شي ء فاسد، ويقال للقسم الثاني أنه غيّ، يقال: قد غوى بالفتح يغوي غيّاً وغواية فهو غاو وغو وأغواه غيره فهو غوي على وزن فعيل، والغيّ الخيبة.

الإدهان: الغش، والمداهنة التلطف مع الخداع والغش.

الإيهان: التقتير والإضعاف، يقال أوهنه ايهاناً.

العبد: يقال على ثلا ثة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع وهو الذي يصح بيعه وابتياعه، ومنه قوله تعالى: العبد بالعبد، الثاني: عبد بالإيجاد وذلك لا يكون إلّا لله تعالى، الثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان:

الأوّل: عبد الله مخلصاً وإيّاه عنى بقوله: إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان(١)، والثاني: عبد الدنيا واغراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه عنى عليه السلام بقوله: تعس عبدالدرهم تعس عبد الدينار، وعلى هذا التقرير يصح أن يقال ليس كل انسان عبد الله، فان عبد الله بهذا المعنى هو العابد المخلص في خدمته، ولكن الناس كلهم عباد الله إمّا اختياراً أو تسخيراً، وجمع العبد الذي هو سيرق عبيد، وجمع العبد الذي هو العابد عباد.

---

(١) الإسراء: ٦٥.

فالعباد اذا اضيف الى الله تعالى أراد بهم العابدين. فرّ يفرّ فراراً: أي هرب، والمفرّ: موضع الفرار ووقته. مضى الشيء يمضي مضيّاً: أي ذهب. نهجت الطريق: إذا أثبتّه وأوضحته، يقال: اعمل على ما نهجته لك، ونهجت الطريق أيضاً إذا سلكته، وأنهج الطريق أي استبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً، قاله الجوهري. وقيل أوضح عصبه أي علقه وربطه بكم كالعصابة. الفلج: الفوز والظفر الآجل. والآجلة ضد العاجل والعاجلة. المنح: العطاء يقال منحه ويمنحه، والاسم المنحة وهي العطيّة،واستمنحه أي طلب منحته.

الاعراب

ما في قوله ما عليّ: للنفس، والظاهر أن مِن في مِن قتال بمعنى في، ومِن في إدهان للبيان، واسم ما بمعنى ليس محذوف تقديره:ما عليّ في قتال من خالف الحق وخابط الغي شيء من إدهان ولا إيهان. وعباد الله قد حذف منه حرف النداء.

آجلاً وعاجلاً: منصوبان على الظرف. ومنح: يقتضي مفعولين وهنا أحدهما المخاطبون الذين اقيموا مقام الفاعل، والآخر الضمير المنصوب العائد إلى الفلج. ما في بما عصبه موصولة بمعنى الذي.

المعاني

الفاء في فاتقوا الله: يحتمل أن يكون للسببية الدالة على أنّ مضمون الجملة السابقة جملة على الأمر بالتقوى، وأن تكون فصيحة مفصحة من سبب محذوف تقديره: إذا لم يكن في إدهان في قتال من خالف الحق فلا تخالفوا في الحق واتقوا الله.

الفاء في فعليّ ضامن: ظاهراً لربط الجملة الاسمية بالفعلية على سبيل

العطف، وباطناً فصيحة مفصحة عن محذوف هو سبب لما بعدها، الا تيان بالصلة مع الموصول في الذي نهجه لكم وعصبه بكم للايذان بتعليل الآمر به، وايراد هذا المعنى في الجملة الاسمية الدالة على السوب[1] صريح في استقرار الضمان عليه عليه السلام.

البيان

في فعليّ ضامن لفلجكم: استعارة تخييلية مكنّى بها عن توطين قلوبهم على حصول الفوز لهم بالضرورة، مستدعية لتشبيه التزامه عليه السلام فلجهم، بهيئة التزام الضامن دين المضمون له، الثابت في ذمة المضمون عنه، ووجه الشبه: اشتراكهما في الالتزام، وتوجّه المطالبة، وحصول التوطين.

البديع

بين الحق والغيّ: المطابقة والمتوازن، وكذا بين آجلاً وعاجلاً.

الفحوى

إعلم أنه عليه السلام ردّ أولاً قول من قال إن مداهنته عليه السلام في محاربة أعدائه المخالفين في الحق الخابطين في الغيّ أولى له من النهوض للحرب، وقال ما عليّ أي ليس مصانعتهم واجبة عليّ من طريق الدين ولا عليّ في قتالهم عجز، وفي ذكره عليه السلام اياهم بصفة مخالفة الحق ومخابطة الغيّ ينبّه السامعين على أن استحقاقهم للقتال بسبب اتّصافهم بالصفتين، وعلى أنَّ كلّ من اتّصف بهما واجب على إمام الوقت زجرهم عمّا كانوا عليه بالقتال، وان من لم يتّصف بإحداهما فلا يستحقّ إلّا الفوز.

---

(١) كذا في الاصل.

ثم أردف عليه السلام هذا بأربعة أوامر دالة على كيفية السلوك الى الله تعالى المستلزمة لأنَّ من تكيّف بها سلم من الوقوع في مخالفة الحق والخبط في الغيّ:

الاول: قوله: فاتقوا الله؛ وهو أمر بتقوى الله تعالى المستلزم للاجتناب عن مناهيه، بل عن الالتفات عن كلّ ما سواه تعالى اليه تعالى، وتخصيص عباد الله بالخطاب بعد الأمر المتناول للعموم للإشارة إلى أنّ امتثال هذا الأمر لا يتهيأ الا لمن شمر عن ساق الجد وتوجه الى السبيل المسلوك إليه تعالى.

الثاني: وفروا الى الله من الله: قيل معناه فروا من الله باعتبار ذنوبكم، وفروا الى الله باعتبار توبتكم وايابكم، الأولى أن يكون إشارة الى تخليص السير عن كل موجود سوى الله اعتبارياً كان أو تحقيقياً، والاقبال بالكلية الى قبلة وجوده القائم الباقي الذي لا اعتبار لوجود آخر بالنسبة اليه.

قال بعض المحققين: فرار العبد الى الله تعالى على ثلاث مراتب بعد نقص كل موجود سواه تعالى: أدناها: الفرار من بعض آثار أفعاله الى بعض؛ كالفرار من أثر غضبه إلى أثر رحمته، واليه أشار تعالى حكاية عن المؤمنين في التضرّع اليه تعالى: «ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا[1]»، وهذه المرتبة لمن لم ير في الوجود إلّا الله تعالى وأفعاله. وأوسطها: الفرار من بعض صفاته إلى بعض، وذلك عند الترقّي من مشاهدة الأفعال إلى مصادرها.

وهذه لمن لم ير في الوجود إلّا الله تعالى وصفاته. وأعلاها: الفرار من الذات إليها لقوله تعالى: لا ملجأ من الله إلّا إليه، وهذه مرتبة من ارتقى من مقام الصفات إلى ملاحظة الذات، ولم يرفي الوجود إلّا ذاته تعالى وتقدس، ونفى جميع صفاته تعالى. وإلى المقامات الثلاثة أشار رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله في دعائه: أعوذ بعفوك من عقابك، وهو كلام صادر عن مشاهدة الأفعال.

ثم ترقّى عن هذا المقام إلى مصادرها وهي الصفات، وقال: أعوذ برضاك

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

من سخطك، ثمّ لما رأى ذلك نقصاناً في التوحيد ترقّى عن مقام مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات، وقال: أعوذبك منك، وهذا فرار منه إليه بعد قطع النظر عن الأفعال والصفات، وإذا حققت هذا فاعلم أنه عليه السلام أمر باحراز قصب السبق في مراتب التوحيد.

الثالث: قوله: وامضوا في الذي نهجه لكم.

أي اذهبوا في الطريق الذي أوضحه لكم من الطريق الواضح العدل والصراط المستقيم، اللذين قد نصب عليهما الأوامر الالهية والأحكام الشرعية دلائل واضحة ومناراً بيّنة لا يحدّ عنهما إلّا المخالف للحق الخابط في الغي.

الرابع: قوله قوموا بماعصبه بكم: أي قوموا بما ناط بكم من التكاليف الواردة على ألسنة المرسلين، واستقيموا فيه واثبتوا عليه، وهذا أمر بالثبات والاستقامة. إعلم أنه عليه السلام بيّن بهذه الأوامر الأربعة كيفية السير إلى الله والسلوك، وراعى الترتيب المرعيّ فيه.

فأشار بالأمر الأول إلى مقام التنحية والنقض والتفريق الذي هو أول مقام السالكين، وبالأمر الثاني إلى تخليص السير بالكلية عما سواه إلى التوحيد المحض، الذي هو أيضاً المقام الثاني للكاملين في السلوك إلى الله تعالى، ولو قلنا أنه غاية سلوك السالكين لكان حسناً، وبالأمر الثالث إلى التشبّث بالأوامر الشرعية والسلوك في الطريق الذي أوضحه الشارع، وبالأمر الرابع إلى الاستقامة فيما أمر به وهي مقام صعب للسالك.

ومن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خوطب بقوله تعالى: «فاستقم كما أمرت[(١)]»: شيّبتني سورة هود. فعليّ ضامن إلى آخره: أي إذا امتثلتم بالأوامر المذكورة، وصفّيتم بواطنكم عن الحجب المانعة من إفاضة الحق، وحصّلتم الاستعداد المستلزم لقبول الفيض الذي لا يخل فيه، حصل لكم الفوز

(١) هود: ١١٢.

بجنات تجري من تحتها الأنهار التي هي العاب[1] بالحقيقية لمن أطاع الله تعالى ورسوله على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار[2]» في الآجل إن لم يتم استعدادكم في الدار العاجلة فتعطوه فيها.

ولمّا كان هذا ترتيب الفوز بالسعادتين أو بالسعادة الأصلية أمراً واجباً في الحكمة الالهية، وطّن عليه السلام نفوسهم وضمن لهم عنه وقال: فعليّ ضامن، وهذه الكلمات اليسيرة في غاية الجزالة معنى، ونهاية الوجازة لفظاً، لو تليت على الصّخرة الصّمّاء لأرعبت لها وتفجّرت منها الأنهار، لا يعقلها الّا من تمرّن في البلاغة والفصاحة، وراض نفسه القدسية في رياض التوحيد، وبلغ إلى نهاية مراتب التفريد.

* * *

٢٤ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيدالله بن عباس وسعيدبن نَمْران لما غلب عليهما بُسرُبن أبي أرْطاة، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي، فقال:ـ

مَا هِيَ إلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إنْ لَمْ تَكُونِي إلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ . فَقَبَّحَكِ ٱللهُ.

وتمثّل بقول الشاعر:

لَعَمْرُأَبِيكَ ٱلْخَيْرِيَا عَمْرُوإنَّنِي ... عَلَى وَضَرٍمِنْ ذَاٱلْإِنَاءِ قَلِيلِ

ثمّ قال عليه السلام:

أُنْبِئْتُ بُسْراًقَدِ اطَّلَعَ ٱلْيَمَنَ، وَإنِّي وَٱللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمَ

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) النساء: ١٣.

سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ: بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي ٱلْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ ٱلْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ. فَلَوِ ٱئْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعَلَاقَتِهِ!

ٱللّٰهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، ٱللّٰهُمَّ مُثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلْمَاءِ، أَمَا وَٱللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ:

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ ... فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ ٱلْحَمِيمِ

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

قال الشريف: أقول: الأرمية جمع رمي وهو السحاب، والحميم ههنا: وقت الصيف، وإنّما خصّ الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشدّ جفولاً وأسرع خفوفاً لأنه لاماء فيه. وإنّما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك: قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

اللغة

البلاد: جمع بلد وبلدة وكذا البلدان جمع، والبلد في العرب اسم للمكان المختصّ المحدود المتأثّر باجتماع قطانهم واقامتهم فيه؛ من قولهم بلد من مكان أي أقام به فهو بالد وبقي البلد أي الأثر، والجمع بلاد، والبلدة أيضاً الأرض وأيضاً الصدر يقال اللفظى المقيمة للوجود الذهني مقام اللفظى وإن يكون ضمير القصة فعلى الأولين.

أقبضها: يحتمل أن يكون خبراً ثانياً بعد خبر وأن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أنا أقبضها، وهي أقرب الى البلاغة وعلى الثالث أقبضها خبر الكوفة.

أنت في قوله فان لم تكوني إلّا أنت بدل من الضمير الذي قبل إلّا في تكوني، وخبر كان محذوف، والجملة الفعلية وهي:

تهبّ أعاصيرك: يحتمل أن تكون جملة معترضة بين الشرط والجزاء، دعاء عليها أو إخبار عنها بمضمونها وأن تكون حالاً منها، ونظيره قوله تعالى: «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا[1]»، فقبّحك جواب الشرط. في ذا الإناء روايتان: إحداهما: ذا الإناء: بالألف، وذا اسم إشارة حذف منه ها، تقديره هذا الاناء وهي الأشهر.

الثانية: ذي الاناء: بالياء وهو بمعنى الذي، يعني الذي في الاناء وهو اللبن، يقال ضربه حتى ألقى ذا بطنه أي رجيعه، ويقال الذئب يغبط بذي بطنه أي مما في بطنه، ونظير هذا البيت قول الراعي[2]:

ولما قضت من ذي الاناء لبانة * أرادت إلينا حاجة لا نريدها

يعني أنه رغب عن امرأة رغبت عنه، وقليل نعت لو ضرّ. أنبأ اذا كان بمعنى أعلم يقتضي ثلاثة مفاعيل، وهنا الأول الضمير لنفس المتكلم الذي اقيم مقام الفاعل، والثاني يسراً، والثالث قد اطّلع اليمن، والباقي واضح.

المعاني

ما هي إلا الكوفة: فيه القصر للإفراد، وأقبضها وأبسطها جملة استئنافية دالة على الجواب عن السؤال المقدّر عن سبب هذا الحصر، ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب، وجعل الكوفة مخاطبة مريداً أهلها، وقال فان لم تكوني إلّا أنت، وجاء بالقصر ثانياً للتأكيد والاحتقار بشأنها، الباء في باجتماعهم للاستعانة.

---

(١) البقرة: ٢٤.

(١) الراعي شاعر من بني نمير، وهو عبيد بن الحصين، والراعي لقب له، وهو من رجال الحماسة.

الفاء في فأبدلني: للسببية الدالة على أنّ سآمته عليه السلام منهم وسآمتهم منه عليه السلام صارتا باعثتين له عليه السلام على هذا الدعاء، والباقي معلوم من الضوابط المذكورة.

البيان

أقبضها وأبسطها: كنايتان عن وجوه التصرّف فيها تصرّف الحكّام في مملكتهم، وذلك لأن القبض والبسط من لوازم القدرة النافذة المستلزمة لوجوه التصرّف.

الأعاصير: إن كانت باقية على حقيقتها فعناها واضح، وإلّا فهي استعارة تخييلية مكنّى بها عن حدوث الآراء المختلفة والأهواء المتفرقة، المقلقلة للأحشاء، المفرّقة للخواطر، المشوّشة لنظام العالم، مرشّحة مستلزمة لتشبيه الأهواء والبدع وهي معقولة، بالرياح المثيرة للسحاب وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الأذى الحاصل منهما والانزعاج وهو عقلي، وتخييل أنها من أفراد الاعاصير، وأمّا كونها مرشّحة فلان الهبوب من لوازم المشبه به، وفي تمثّله عليه السلام بالبيت المذكور راعى تمثيلاً على وجه الاستعارة، ولو قلنا استعارة تمليحية لكان أقرب الى ما قررناه في البيان، وهذه الاستعارة مستدعية ما لهيئة مملكته بالقياس الى ما استولى عليه خصمه من البلاد، بهيئة ما اشتمل عليه الإناء من البقية بالنسبة إلى الطعام الذي اشتمل عليه.

وجه المشابهة: اشتراكهما في الحقارة بالنسبة، أو لتشبيه الكوفة بالوضر الباقي في الاناء وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الحقارة والقلة وهو عقلي، ولتشبيه الدنيا بالإناء المملوء من الطعام، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في العزّة والكثرة.

قوله فلو ائتمنت الى بعلاقته: كناية عن خيانتهم لأمانتهم في عهده على

قبول أوامره، وذلك لأنّ من يخون في الشيء اليسير من متاع الدنيا، فبالضرورة ان يخون بالشيء الكثير من أمور الدين، فالذهن ينتقل من هذه الخيانة في العهود الموثوقة على الامور الدينية، ومنها إلى الخيانة في عهده عليه السلام على قبول أوامره.

قوله عليه السلام اللهم مث الى الماء: راعى عليه السلام فيه تشبيهاً احد طرفيه معقول؛ وهو الموث في القلوب، الذي هو عبارة عن تبددها بمخالطة الخوف العظيم والقلق الجسيم واحاطتها بهما، والآخر محسوس وهو ذوبان الملح في الماء، ووجه الشبه: اشتراكهما في التفرّق واستيلاء الغير عليهما.

البديع

راعى عليه السلام في اقبضها وأبسطها: المطابقة، وفي التمثّل: إرسال المثل.

في قوله باجتماعهم إلى فسادكم: أيضا المقابلة؛ حيث قابل الاجتماع بالفراق، والحق بالباطل، والمعصية بالطاعة، والأمانة بالخيانة، والصلاح بالفساد، والباقي بيّن.

الفحوى

إعلم أن السبب الباعث له عليه السلام على انشاء هذه الكلمات هو أن قوماً كانوا من «صنعا[1]» من شيعة عثمان يعظّمون قتله، فبايعوا علياً عليه السلام على سبيل النفاق، فلما اختلف الناس عليه بالعراق، وتحرّك في بواطنهم داعية الخلاف، وكان العامل من قبله عليه السلام يومئذ على صنعاء عبيدالله بن العباس[2]، وعلى الجند بها سعيد بن نمران، فلما قتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه

(١) صنعاء عاصمة بلاد اليمن، قال عمارة بن أبي الحسن: ليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء، وهو بلد في خط الإستواء، وهي من الإعتدال من الهواء بحيث لا يتحوّل الانسان من مكان طول عمره صيفاً ولا شتاءً، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف.

(٢) عبيدالله بن عباس بن عبدالمطلب أبو محمد الهاشمي؛ أمّه أمّ الفضل، رأى النبي صلى الله عليه وآله وروى

←

بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، أظهر هؤلاء الشقاق طالبين بدم عثمان، فأنكر عليهم عبيدالله بن العباس، فاتفقت كلمتهم على منابذة علي عليه السلام فحبسهم.

فكتبوا إلى أصحابهم بالجند، فعزلوا سعيدبن نمران[1] عنهم، وأظهروا أمرهم من الخلاف، ونبذوا العهد وراء ظهورهم، وشقّوا عصا الوفاق، فوافقهم خلق كثير ممّن ليس لهم من الدين خلاق، فمنعوا أداء الزكوات، فكتب عبيدالله وسعيد إليه عليه السلام كتاباً ينهي إليه الخبر، فكتب عليه السلام إلى أهل اليمن والجند كتاباً يوبّخهم على ما أظهروه ويهدّدهم فيه، ويخوّفهم من الله تعالى، فأجابوه بأنا منخرطون في سلك المطيعين إن عزلت عنا هذين الرجلين: عبيدالله وسعيداً.

ثم كتبوا إلى معاوية مخبرين إيّاه ما كانوا عليه، فوجّه اليهم بسربن أرطأة[2]، وكان قائداً من قوّاد معاوية فظاً سفّاكاً للدماء، فقتل في طريقه بمكة داود وسليمان ابني عبيدالله بن العباس، وبالطائف عبدالله بن المدان وكان صهراً لابن عباس، ثم انتهى الى صنعاء وقد خرج عبيدالله وسعيد واستخلفا عليها عبيدالله بن عمر الثقفي، فقتله بسر وأخذ صنعاء، فلما قدم ابن عباس وسعيد على علي عليه السلام بالكوفة أخذ يحثّ عليه السلام الناس على الجهاد فتثاقلوا فقام الى

عنه، وعنه ابنه عبدالله وسليمان بن يسار ومحمد بن سيرين، قال ابن سعد: وكان أصغر سناً من عبدالله، وكان سخياً جواداً، وكان تاجراً، استعمله علي عليه السلام على اليمن، وحجّ بالناس سنة ٣٤ و ٣٧، ومات بالمدينة سنة ٨٧.

(١) سعيدبن نمران الهمداني؛ من نسّاب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم، استعمله علي عليه السلام على جند اليمن، وبعد وقعة بسربن أرطأة رجع إلى الكوفة، وكان يكتب لعلي، وكان مقيماً بالكوفة الى ان استشهد علي عليه السلام، ولما تسلّط معاوية على بلاد المسلمين واستعمل زياداً على العراق، اخذ سعيدبن نمران مع حجربن عدي وأرسله الى معاوية، وخلّى معاوية سبيله بشفاعة حمزة بن مالك الهمداني، ورجع إلى الكوفة، وفي ايام عبدالله بن الزبير كان على قضاء الكوفة.

(٢) بسربن ارطاة العامري القرشي؛ ابوعبدالله الرحمان، قال ابن عساكر: سكن دمشق وشهد صفّين مع معاوية وكان على الرجّالة، ولاه معاوية اليمن وكانت له بها آثار غير محمودة، وقيل أنّه خرف قبل موته، وفعل بمكة والمدينة افعالاً قبيحة، حكى المسعودي أنّ علياً دعا على بسر أن يذهب عقله، وانّه خرف ومات في سنة ٧٤.

المنبر وقال:

ما هي إلّا الكوفة: وهو كلام يقال في معرض الحقارة والقلّة، يعني ليس لي من البلاد التي انفّذ الحكم فيها إلا الكوفة، وانها بالنسبة الى البلاد التي استولى عليها الخصم حقيرة، فما أفعل بها وكيف أتمكّن من مقاومة الخصم ودفعهم بأهلها، وهذا كقول من في يده مال قليل لمن طلب منه أمراً عظيماً لا يهيّأ الا بمال عظيم: ما في يدي إلّا هذا القدر اليسير من المال، فكيف يتهيأ الفوز به والقيام بطلبه.

ثمّ التفت وقال إن لم تكوني الا أنت: عدة لي وجنة اتقي بها من العدو نصيباً من الملك والخلافة، فلا أُريدك فأبعدك عن الخير، وهذا ذمّ لها بعد ذكر حقارتها لكون أهلها بعيدين عن الخير والصلاح، ثم نبه على حقارتها بالنسبة الى ما استولى عليه خصمه من البلاد، بتمثله عليه السلام بالبيت؛ أي أتى على شيء حقير من هذا الأمر كالدرن الباقي في الاناء، ثم خاض عليه السلام أولاً بقوله: انبئت الى استيلاء بسر على اليمن وخروجها من التصرّف، يعني: اعلمت أن بسراً قد استولى على اليمن.

ثم خوّفهم بما غلب على ظنّه الذي لا يخطئ من صيرورة الدولة منهم الى مخالفيهم بقوله:

وإنّي لاظنُّ إلى فسادهم، ثم أردف ذلك بذكر إمارات مغلّبة لوقوع ذلك المظنون في الخارج، فذكر أربعة امور من قبلهم هي أسباب الانقهار، واربعة اخرى يقابلها من قبل الخصم هي إمارات القهر، وقابل كلّ فعل منهم رديء بفعل حسن هو ضده من قبل الخصم، ليرتدعوا بذلك عن اختيار الافعال القبيحة إلى الفرار إلى الأفعال الجميلة.

الأول من أفعال الخصم: اجتماعهم وان كان على باطل؛ وهو التصرف بغير الحقّ في البلاد، ومن أفعالهم التفرق عن الحق، وهو تصرّفهم المستحق باذن ولي الأمر.

الثاني من أفعال الخصم: انقيادهم لأوامر الإمام الجائر في الباطل، ومن أفعالهم خروجهم عن امتثال اوامر الإمام العادل في الحق.

الثالث من أفعال الخصم: أداؤهم الأمانة الى صاحبهم وهي الوفاء بالعهود والمواثيق، ومن أفعالهم الخيانة في الامانات والغدر في العهود، حتى صار الغدر سجيّة لأهل الكوفة.

الرابع من أفعال الخصم: رعاية الصلاح في امورهم لئلاّ تختلّ قواعد نظام أحوالهم، ومن أفعالهم اظهار الفساد المهدّم لقواعد الدين، وهما تابعان لطاعة الامام ومعصيته، ثم أردف ذلك بما يفهم منه كل أحد أنهم غير ثابتين على طريق الوفاء بالعهود.

وقال فلو ائتمنت الى بعلاقته: أي لو اتخذت احدكم أميناً على قدح لا قيمة له لخشيت أن يذهب مني، مع علاقة لغلبة الخيانة والغدر على طباعكم، واذا كان حالكم في الامور الخسيسة الحقيرة بهذه المثابة في الخيانة، فما أتوقع منكم الوفاء بالعهد على قبول أمري.

وهذا تعيير لهم بنقض العهد، وتوبيخهم عما كانوا عليه من التثاقل والقعود عن نصره، ثم شكا منهم الى الله، وأعلن ما في ضميره وضمائرهم من الملالة والسآمة بحسب ما شهدت به قرائن أحوالهم بقوله: اللهم مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني، والسآمة والملالة اسمان مترادفان.

ولو قلنا أن الملالة عبارة عن إعراض النفس عن الشيء بواسطة تطرّق الفتور الى القوى البدنية، لكثرة صدور الأفاعيل منها، والسآمة عبارة عن الإعراض بوساطة دلالة دليل بان عندها أن ما يطلب غير ممكن حصوله، لكان أنسب للمقام وأليق لمراعاة كلامه عليه السلام من التكرار.

أما ملالته عليه السلام فلأنه عليه السلام لم يظهر الشكوى منهم إلّا بعد أن

عجزت قواه عن اصلاح أودهم من الانسان[(١)] والأفعال، وأما سآمته عليه السلام فلانه لم ييأس منهم إلّا بعد أن بان عند نفسه بمشاهدة القرائن الحالية أن تقويمهم غير ممكن له، وأما ملالتهم منه عليه السلام فلان قواهم الضيقة فترت عن ذب تكرار أوامره المترادفة عليهم بالجهاد، واما سآمتهم فلاعتقادهم أن مأربهم لا يتأتى منه عليه السلام بوساطة قرائن خارجية لا حسب[(٢)] عند نفوسهم.

ثم اردف تلك الشكاية بالتضرّع الى الله تعالى في الخلاص منهم بقوله: فأبدلني خيراً منهم؛ أي في الدنيا بان يكونوا قوماً صالحين يلوح من أفعالهم آثار الانقياد، ويبوح من أقوالهم إمارات الاعتقاد، لكون نظرهم لا يكون إلّا بنور الله في الآخرة، ثم دعا الله عليهم بقوله: وأبدلهم بي شرّاً منّي ليستريحوا منّي واستريح منهم، فإن قلت: في هذا الدعاء اشكال من وجهين: أحدهما: يقتضي ان يكون هو ذا شرّ، جلّ جنابه المعلّى أن يحوم حول الشرّ، الثاني: أنه عليه السلام دعا بالشرّ.

قلنا: أما الجواب عن الأول فهو: أنه كلام وارد على اعتقادهم في حقّه لا في نفس الأمر، يعني شرّاً منّي بحسب اعتقادهم أنّ فيّ شرّاً عليهم، ويحتمل أن يكون هذا على سبيل التهكّم بهم، كقوله تعالى: «فبشّرهم بعذاب أليم»، أما الجواب عن الثاني فن وجهين: أحدهما: أنّه إنّما دعا عليهم بان يبدله شرّاً منهم، لأن فيه رعاية لمصلحة عائدة اليهم في المعاد، وهي إمّا جذبهم الى الله تعالى، وذلك لأن ذلك الدعاء بمشهد طائفة عظيمة منهم، أو نزول المدعو به عليهم عقيب دعائه عليه السلام، ليعلموا فضله عليه السلام ويقرّوا بولايته، وليعرفوا أن ذلك بسبب تركهم الجهاد ومخالفتهم طاعته.

الثاني: أنه إنّما دعا عليهم لعلمه بأنهم ممن لا يرجى صلاح حاله في المعاش أو المعاد، ومن كان كذلك فعدمه أولى من وجوده، ولذلك بسط بساط الجهاد وحثّ الشرع عليه، وعلى ذلك حمل قوله: اللهمّ مُث قلوبهم كما يماث الملح في الماء؛

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل.

أي أذب قلوبهم في الغمّ والحزن وإصابة المشقّة، بحيث لا يبق لها رسم ولا اسم، كما يذاب الملح في الماء.

روي: أنه ولد الحجّاج بن يوسف في اليوم الذي دعا عليه السلام، وقيل في ليلته، وقيل بعد زمان قريب، وعمل الحجّاج بالكوفه.

٢٥ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَىٰ التَّنزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ علىٰ شرِّ دِينٍ، وَفي شرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خشْنٍ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، والآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ.

من الصفو[١]، وقد كدر الماء بالكسر في الماضي، والفتح في الغابر كدراً فهو كدر وكدر أيضاً مثل فخذ وفخذ، كدر الماء بالضم فيهما كدورة مثلة، وكذلك يكدر وكدّره غيره تكديراً. الجشب: الطعام الرديء، وقيل الطعام الذي لا أدم معه، الأرحام: جمع رحم، والرحم رحم المرأة، ومنه استعير الرحم للقرابة، لكونهم خارجين من رحم واحد. الأصنام: جمع صنم وهو اسم الجثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب يعبدونها متقرّبين به الى الله تعالى.

---

(١) سقط هنا بقية شرح الخطبة وكذا سقطت الخطبة التي تليها مع شرح لغاتها وتفسيرها.

قال بعض المحققين: كلّ ما عبد من دون الله تعالى، بل كلّ ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم، وعلى هذا الوجه قال الله حكاية عن ابراهيم(ع):«وجنبني وبنيّ أن نعبد الاصنام[٢]»، اذ نحن نعلم بالضرورة أن ابراهيم(ع) مع تحققه بمعرفة الله تعالى واطّلاعه على حكمته، لم يكن ممّن يخاف أن يعود الى عبادة تلك الخشب التي كانوا يعبدونها، فكأنه قال: اجنبني عن الاشتغال بما يصرفني عنك.

اللغة

النصب: عبارة عن وضع الشيء وضعاً ثانياً كنصب الريح والبناء والحجر، يقال نصبت الشيء إذا أقمته. الآثام: جمع اثم، وهو اسم للافعال المبطئة عن الثواب، وما قال عليه السلام: البرّ ما اطمأن اليه النفس والاثم ما حكّ في صدرك حكم البرّ والاثم لا تفسيرهما. العصب: اطناب المفاصل ولحم عصب كثير العصب، والمعصوب في الأصل المسدود بالعصب المنزوع من الحيوانات، ثم يقال لكل شدّ عصب.

الإعراب

نذيراً: مفعول له. الواو في قوله وانتم معشر العرب: للحال؛ أي أنّ الله بعث محمداً ليكون نذيراً للعالمين وحال كونكم على شرّ دين، فمعشر العرب منادى مضاف حذف منه حرف النداء.

منيخون: خبر، والاولى ان يكون خبر مبتدأ محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، والباقي واضح.

---

(٢) ابراهيم: ٣٥.

المعاني

إنّما صدّر الجملة الاولى بأنّ ليردعهم عن الانكار إلى الإقرار بنبوّته، ولمّا كانت الجملة الواقعة هنا حالاً وهي، أنتم على شرّدين غير واردة على أصل الحال، لكونها اسمية دالة على الثبوت، وان كانت واردة على نهجها لكونها مثبتة، أدخل الواو لما سبق في الضابط المذكور في المعاني من افتقارها الى الواو اذا كانت اسمية مثبتة، وتقديم معشر العرب على خبر المبتدأ للإيذان بأنهم المقصودون للخطاب دون غيرهم، وأنّ المخاطبين ليسوا إلا طائفة مخصوصة، وانما أورد على ليؤذن بأنهم مشتغلون على شردين لا بالعكس.

وفي هذا مبالغة عظيمة في ثباتهم على الكفر.

في منيخون بين حجارة: فائدتان : احداهما:الاختصار الحاصل من حذف المسند إليه، للتعويل على القرائن الحالية التي يستدل بها العقل على وجوده.

والثانية: قطعه عما قبله مع كونه جملة اسمية، ليؤذن بتعليل استقرارهم في شرّدان وقطع أيضاً تشربون الكدر مع إيراد المعنى الذي يتضمنه في الجملة الفعلية، ليؤذن أيضاً بتعليل استقرارهم في شردار بوجه آخر مغاير للوجه الأول، ثم قطع الاصنام فيكم منصوبة مع أنه عليه السلام أورد مضمونه في الجملة الاسمية، ليؤذن بتعليل كونهم على شردين[١] ... نصب الأصنام مستقرّ بينهم، والباقي معلوم من القواعد السالفة.

البيان

في منيخون: راعى استعارة تخييلية مكنّياً بها عن عدم تدبّرهم في الأمور المحسوسة التي يدركها كلّ بليد، مستدعية لتشبيههم بالجمل وهما محسوسان، ووجه الشبه:اشتراكهمافي عدم العقل، وتخييل أنهم من افراد الجمل.

---

(١) كذا.

في الآثام بكم معصوبة: استعارة تخييلية مكنّى بها عن لزوم الآثام لهم في تلك الحال، مستدعية لتشبيه هيئة لزوم الآثام بهم وهي معقولة، بهيئة إحدى الشيئين إذا شدّ بالآخر وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الانفكاك والملازمة.

البديع

راعى بين خشن وبين صمّ: التحسين والمتوازن، كذا بين الكدر والجشب، وبين منصوبة ومعصوبة: المتوازن مع الترصيع.

الفحوى

إعلم أن هذا الفصل من خطبة طويلة خطب بها قبل مسيره الى النهروان، ومقصوده من ايراده ترفيق قلوب العرب التي هي أشد قسوة من الحجارة، وجذبهم من الالتفات الى الدنيا الموبق للملتفت، المبعد عن ملاحظة أنوار كبريائه، فذكر أولاً: ان النبي صلى الله عليه وآله مبعوث من قبل الحق، وذكر أحد شقّي الغاية من البعثة: وهي كونه نذيراً للعالمين، وذلك لأنها بالنذارة والبشارة معاً، وانما خصّها بالذكر لأنها اقواهما في الردع عما كانوا عليه من الانهماك في استيفاء اللذات الحاضرة التي تجدها كل نفس.

فان المشتغلين بها المقيّدين بالأمور المحسوسة وهم أكثرهم، قلّما يلتفتون إلى ما وعدوا به من الجنة وأنواع اللذات العقلية التي لا تدرك إلّا بوجود شرائط قلّما تحصل، ويتركون اللذات الحاضرة، ولأجل انّ أذهان أكثر الخلق مربوطة بالمحسوسات. ما أخبر الله تعالى عن اللذات العقلية إلّا على مثال اللذات الحسية ليلتفتوا إليها، ثم عقب ذلك بكونه أميناً على التنزيل، ليتنبهوا أنّ الإنذارات الواردة على لسانه هي من عند الله تعالى، جاء بها الرسول الأمين غير خائن فيها بتحريف

ولا تبديل.

فيتأكد في قلوبهم ما فهموه من الانذارات الملقاة إليهم، ليكون أدعى إلى القبول والانفعال عن أقواله، ثم أتى بجملة واقعة حالاً في معرض مدحه عليه السلام وذمهم وهي قوله: أنتم على شرّ دين؛ أي مستقرون ثابتون على شرّ دين هي عبادة الأصنام من دون الله، واتخاذ الأنداد، ثمّ أردف ذلك بتذكيرهم ما كانوا فيه من شر دين، قيل: أراد بالدار نجد وتهامة والحجاز، وقيل: الدار: القبيلة كما في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أخبركم بخير دور الأنصار.

ثم استأنف جملاً لبيان كون دارهم شرّاً وبيّن شرّيّته من وجوه تتعلّق بالمعاش والمعاد، أما الوجوه المتعلقة بالمعاش فهي: كون المساكن رديئة والماء كدراً والطعام رديئاً، ومع هذه فبينهم بساط الظلم بالطفل[1] وقطع الأرحام مبسوط فنبّه بقوله: منيخون بين حجارة خشن وحيّات صمّ على أن مساكنهم بين الحجارة الخشن التي لا نداوة بها ولا نبات، ومع هذا فهي مواضع للحيّات الصمّ التي لا علاج لسمومها لكونها في غاية الشدّة، وبقوله: تشربون الكدر على أن ماءهم غير صافٍ بل هو كدر لا يشربونه إلا عند غلبة العطش عليهم وخوفهم من التلف، ومثل هذا الشرب ينافي التنعّم والالتذاذ.

وبقوله: وتأكلون الجشب على أن مآكلهم في غاية الرداءة، وقد سئل بعض العرب: أي الحيوانات يأكلون من البادية فقال: نأكل كلّما دبَّ ودرج إلّا أم حنين، وام حنين: دويبة قدر كف الانسان. وبقوله: تسفكون إلى أرحامكم على أن مراسم الأمن والأمان والشفقة مرفوعة بينهم بالكلية، وبقوله: الأصنام فيكم منصوبة على كونهم على شردين، فان قيل: لم قدّم بيان كونهم على شردار على بيان كونهم على شر دين؟

(١) كذا.

قلنا: ليتذكروا بذلك نعم الله تعالى الجسام عليهم بواسطة مقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيرتدعوا عن الفساد و ...[1] إلى الصلاح، فيعلموا أنهم على شردين ويصدّقوه في إخباره عن حالهم، فكان بيان كونهم على شردين، وهذا كله وإن كان في معرض الذم لهم، ولكنّه مدح للنبي صلوات الله عليه وآله.

* * *

ومنها: فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَنِ الْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ.

اللغة

ضننت بالكسر في الماضي والفتح أيضا أضن ضناً: أي بخلت، وهو ضنين أي بخيل. الاغضاء: ستر العين بادناء الجفون.

أغضى الليل: أي أظلم، وليلة غاضية شديدة الظلمة.

القذى: ما تتأذى العين به إما رؤية واما مماسّة، يقال قذيت عينه تقذي قذى فهو رجل قذي العين في وزن فعل إذا سقطت في عينه قذاة، قال الأصمعي: قذت عينه يقذي قذياً؛ رمت بالقذى، وأقذيت عينه أي جعلت فيها القذى، وقذيتها تقذية أي أخرجت منها القذى.

الشجى: ما ينشب في الحلق من عظم وغيره، وقيل: الشجى الغصّة التي تأخذ الحلق من همّ أو حزن وهو الشجو وهو الحزن، يقال: شجاه يشجوه بالكسر يشجي شجى، فيكون الشجى اسماً ومصدراً.

الصبر: الامساك في ضيق، في الأصل وفي العرف هو حبس النفس على

---

(١) كذا في الأصل.

ما يقتضيه العقل أو الشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عامّ وربّما خولف من أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فان كان حبس النفس بمصيبة صبراً لا غير ويضادّه الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة ويضادّه الجبن.

وإن كان في مانئه[1] مضجرة سمّي رحب الصدر ويضاده الضجر، وإن كان في امساك كلام سمّي كتماناً ويضادّه المبذر، وقد يعبّر عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار أن لا ينفكّ على الصبر بل هو نوع من الصبر، وأراد به هنا رحب الصدر، ويحتمل أن يكون بمعنى اضطرب .

الكظم: مخرج النفس؛ يقال :أخذ بكظمه أي بمخرج نفسه، والكظم أيضاً تجرّع الغيظ، ومنه قوله تعالى: «والكاظمين الغيظ[2]». المرارة: ضدّ الحلاوة؛ يقال هذا شيء مرّ، والجمع أمرار، وهذا أمرّ من كذا. والعلقم: أصول الحنظل؛ وهو شيء يشبه به المرارة لأنّ مرارته لذاعة.

الاعراب

أهل بيتي: مرفوع على انه بدل من معين، وأمرّ أفعل التفضيل، وهو نعت لمنعوت محذوف، الباقي واضح.

المعاني

في قوله ليس لي معين إلّا أهل بيتي: الحصر للإفراد على تنزيل المخاطبين منزلة من يرى أنّ له معيناً غيرهم، الفاء في فضننت للسببية الدالة على أن القصر المذكور حاسبا[3] للضنة بهم.

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) كذا في الأصل.

البيان

في أغضيت على القذى: استعارة تخييلية مكنّى بها عن فتوره عن المقاومة، وقعوده عن القيام إليهم، مع مشاهدته ما يكون ظلماً في حقه، مستدعية لتشبيه هيئة ستره عليه السلام ظلمهم عليه عن الناظرين بالتحمّل والصبر على المشقّة، وهي معقولة، بهيئة ستر المغضي عينه عن الناظرين بادناء الجفون، والصبر على تحمّل ما وقع فيها من المؤذي وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الايذاء البالغ والتحمّل والستر.

في شربت على الشجى: أيضاً استعارة تخييلية مكنّى بها عن تحمّله الظلم عليه وصبره على الانظلام، مستدعية لتشبيه هيئة قعوده عليه السلام عن المقاومة معهم وحمل نفسه على الصبر، مع مشاهدته لحظة فلحظة أموراً جارية على غير نظام الشريعة، خصوصاً الظلم في حقه وهي معقولة، بهيئة شرب الماء على الشجى وهي محسوسة، وجه الشبه: اشتراكهما في الألم الشديد وعدم الالتذاذ والإساغة، وهو عقلي.

وفي صبرت على أخذ الكظم: أيضاً استعارة تخييلية مكنّى بها عن صعوبة الصبر على الانظلام وما يفوت من حقه، مستدعية للتشبيه المذكور وقريب منه.

في وعلى أمرّ من طعم العلقم: أيضاً استعارة تخييلية مكنّى بها عمّا يجده من شدة التألم بسبب فوت حقه، مستدعية لتشبيه هيئة صبره على فوت حقه بهيئة الصبر على أكل العلقم وذوقه وطعمه، ووجه الشبه: اشتراكهما في الأذى والألم، وإنّما قال أمرّ لأنَّ ما يجده من الألم نفساني، وبالجد أكل العلقم ألم بدني، والألم النفساني أشد من الألم البدني بكثير يجده كلُّ عاقل، وهذه الاستعارات الأربع في غاية الحسن والنفاسة ونهاية الجمال واللطافة، لا يعرفها إلّا المدرب بعلم البيان، والله أعلم.

البديع

بين القذى والشجى: التجنيس المتوازي، وبين العلقم والكظم: المطرف.

الفحوى

إعلم أنه عليه السلام ذكر في هذا الفصل بيان صورة حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر الخلافة، وهو اقتصاص في معرض التظلّم والشكاية لمن تلبس بها، وأشار أولاً إلى أنه قد أجال الفكر في أن الأولى بحاله القيام بطلبه، والمقاومة مع من أخذها، أو الصبر، فرأى أنه لا معين له إلّا أهل بيته من العباس بن عبدالمطلب وبنيه أبي سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب وغيرهم وهم قليلون بالنسبة إلى من لا يعينه ويعين عليه.

فبخل بهم عن الموت لأنه علم بالقرائن الحالية أنه لو قاوم بهم لقتلوا، ثم لا يحصل له مقصوده، ولما ضنَّ بهم عن الموت نسب بالصبر وكنّى عنه بالاستعارات الأربع على ما عرفتها، والكلام في أن الشقاق هل وقع بين الصحابة في أمر الخلافة بيّن لا يدفع، ومكشوف لا يتقنّع، لا يحقّقه إلا العاقل الذي يطرح العصبية والهوى عن نفسه، ويطالع كتب التواريخ المؤلفة، وليس علينا إلا بيان ما يتعلّق بما اشتمل عليه نهج البلاغة، والباقي موكول إلى نظر المؤرخ، والله الهادي إلى التحقيق.

* * *

ومنها: وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى ٱلْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْمُبَائِعِ[1]، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شُبَّ لَظَاهَا، وَعَلاَ سَنَاهَا (وَٱسْتَشْعِرُوا ٱلصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إلَى ٱلنَّصْرِ)[2].

اللغة

المبايعة والبيعة: اسمان للعهد الذي يجري بين طائفة على الطاعة لمعيّن، وإنّما سمّي بهما لأن الباع عدهه[3] المبايع هو الذي يلقي البيعة، والمباع هو الذي يقبلها.

الفرق بين الإيتاء والإعطاء: أنّ الإيتاء إعطاء لشيء من غير تعبّد وطلب، فكأنه إحضار للعطية بين يدي آخذها، وهو من أتى يأتي، ويتعدى بالألف فقال آتى يؤتي، كقولنا جاء وأجاء، وكلّ عطيّة من الله سبحانه ايتاء، لأنها من غير استحقاق وطلب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[4]».

والإعطاء: أعمّ من الإيتاء.

الخزي: مهانة تشور صاحبها وتخجله، وخزى الرجل يخزى خزياً إذا تشوّر وخجل، والخزيان للنادم الخجل.

الأخذ: حوز الشيء وتحصيله؛ وذلك يكون تارة بالغلول، نحو قوله تعالى: «معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده[5]»، وتارة بالقهر نحو أخذته الحمى، ومنه قوله تعالى: «لا تأخذه سنة ولا نوم[6]»، وهنا أراد الأول. الأهبة:

---

(١) في ض وح وب: يد البايع.

(٢) ساقطة من ن ول وش.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) الحديد: ٢١.

(٥) يوسف: ٧٩.

(٦) البقرة: ٢٥٥.

عدّة يتّقي بها الحوادث، وتأهّب إذا استعد، يقال أعدّه لأمر كذا: هيّأه له، والاستعداد للأمر: التهيّؤ له.

العدّة بضمّ العين: الإستعداد؛ يقال كونوا على عدّة أي استعداد، والعدة أيضاً ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح، يقال أخذ للأمر عدة به، وعدة الحرب ما يعدّ من الآلات والسلاح.

يقال شببت النار والحرب أشبّها شبّاً وشبوباً: إذا أوقدتها، ولتوقّد الحرارة الغريزية في الشبّان يعبّر عن حالهم بالشباب.

اللظى: النار؛ وقيل اللهب الخالص، يقال لظيت النار وتلظّت، قال الله تعالى: «ناراً تلظّى[1]»، ولظى اسم من أسماء النار غير مصروفة، قال الله تعالى: «إنها لظى».

علا في المكان: يعلو علوّاً، وعلي في الشرف بالكسر يعلى علاء. السنا مقصوراً: ضوء البرق، وأيضاً نبت يتداوى به، وذكر علا قرينة معينة للمعنى الأول.

السناء ممدوداً: الرفعة، السني: الرفيع، وأسناه وسناه: أي رفعه. في بعض النسخ: استشعروا الصبر فانه أدعى إلى النصر. الاستشعار: اتخاذ الشيء شعاراً، والشعار ما يلي الجسد من الثياب ويلازمه.

الاعراب

الضمير الفاعل في لم يبايع: عائد إلى عمرو بن العاص، وفي يؤتيه إلى معاوية، والضمير المنصوب فيه لعمرو بن العاص، الحرب تؤنّث، يقال وقعت بينهم حرب ولذا أنّث عليه السلام الضمائر العائدة إليها.

---

(١) الليل: ١٤.

المعاني

الفاء في فلا: للسببية الدالة على أن المبالغة المشروطة علّة لدعائه عليه السلام بعدم الظفر والخزي، وفي فخذوا: فصيحة مفصحة عن سبب محذوف لهذا الأمر تقديره فأعطاه الثمن على البيعة وبايع هواياه علىٰ مخالفتي، فخذو[١] أو اشتمال هذه الكلمات على الايجاز أظهر من البيان، وفي فقد: الظاهر أنها لعطف الجملة الخبرية على الإنشائية، ويحتمل أن يكون سببية.

البيان

في خزيت أمانة المبتاع: مجاز في الإفراد والتركيب معاً، أما في الإفراد فلأنه عليه السلام كنّى عن بلاد المسلمين، التي تولّى معاوية حكمها بالاستيلاء بالأمانة، كناية بالاستعارة المستلزمة لتشبيه البلاد بالأمانة وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في المحافظة عن تسلّط غير المؤتمن عليها والخيانة والردّ إليه وهو عقلي، أما في التركيب فلأنه عليه السلام أسند الخزي إلى الأمانة نظراً إلى أنها السبب للخيانة فيها المستلزمة للحوق الخزي بصاحبها.

في قوله شبّت لظاها: استعارة مكنّى بها عن بدء إمارات الحرب منهم، مستدعية لتشبيه إمارات الحرب بلهب النار وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما علامات على أمرين هما: مظنّة الهلاك ومحلّ الفتنة وهو عقلي. وعلا سناها: يحتمل أن يكون ترشيحاً للاستعارة السابقة، وأن يكون استعارة مكنّياً بها عن ظهور علامات الحرب، بحيث اشتهر بين الناس وارتفع ذكره مستدعية للتشبيه المذكور.

---

(١) كذا في الاصل.

البديع

بين اهبتها وعدتها: السجع المتوازي، وكذا بين لظاها وسناها، والباقي ظاهر.

الفحوى

روي: أنه عليه السلام لما نزل بالكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه فيه إلى البيعة، فأهمّه ذلك، فدعا قوماً من أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان فأجابوه، فأشار أخوه عتبة بن أبي سفيان بالاستعانة بعمرو بن العاص وكان بالمدينة[1] فاستدعاه، فلما قدم عليه وعرف حاجته إليه، جعل يمدح علياً عليه السلام في وجهه ويفضّله ليخدعه عما يريد منه، وكان قبل ذلك قد طلب من معاوية مصر وهو يماطله وعمرو يمتنع عن مساعدته، حتى رضي معاوية أن يعطيه مصر.

فعاهده على ذلك وبايع عمرو معاوية، وكتب له بمصر كتاباً، هذا هو المعنى بقوله: ولم يبايع أي عمرو معاوية حتى شرط أن يؤتيه؛ أي يعطي معاوية عمراً بيعته إياه ثمناً هو مصر، ثمّ دعا على المبايع البائع لدينه وهو عمرو بعدم الظفر في الحرب، أو بالثمن الذي أخذه على البيعة المذهبة لدينه بقوله: فلا ظفرت يد المبايع، وأردف ذلك الدعاء بالدعاء على المبتاع الذي قبل البيعة منه بالثمن الذي التمس المبايع منه وهو معاوية بخزي أمانته التي هي بلاد المسلمين، وهو عبارة عن لحوق الخجالة يوم القيامة به، حيث خان في بلاد الإسلام، توبيخاً له وذمّاً.

قال وخزيت أمانة المبتاع: وظهرت دعوة معاوية عمراً من الشام، ومبايعة

---

(١) هذا مخالف للتاريخ، ولم يقل به أحد، والصحيح أن عمرو بن العاص كان مقيماً بفلسطين حين قتل عثمان، وبعد مبايعة الناس لأمير المؤمنين عليه السلام وقتل طلحة والزبير استدعاه معاوية إلى دمشق، فأجابه وباع دينه بدنياه.

عمرو له لاحت إمارات الشقاق والنفاق، فأمر عليه السلام أصحابه بالتأهب للحرب، وإعداد ما تحتاج الحرب إليه، والباقي معلوم ممّا ذكرنا، والله أعلم.

* * *

٢٦ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَى، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً[(١)] عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمْلَةَ ٱلْبَلاَءِ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءِ[(٢)]، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأسهاب[(٣)]، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ.

أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ[(٤)] هٰؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: أغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَٱللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتِ الْغَارَاتُ عَلَيْكُمْ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ.

وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ[(٥)] وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، والأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلاَئِدَهَا وَرِعَاثَهَا[(٦)]، مَا تَمْتَنِعُ[(٧)] مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاِسْتِرْحَامِ.

---

(١) في ش: فمن تركه ألبسه الله.

(٢) في ح وض: والقماءة.

(٣) في ن: على قلبه بالاسداد.

(٤) في ش: إلى حرب.

(٥) في ش: فهذا أخو غامد قد وردت.

(٦) في ح: ورعثها.

(٧) في م وب: ما تمنع.

ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ[(١)] لَهُ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً؛ فَيَا عَجَباً ـ وَٱللهِ ـ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ ٱجْتِمَاعُ[(٢)] هٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقُكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى؛ يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ.

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ[(٣)] فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ[(٤)]، كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ، (فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ[(٥)]) فَأَنْتُمْ وَٱللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ، يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ! مَعْرِفَةٌ وَٱللهِ جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً[(٦)]، قَاتَلَكُمُ ٱللهُ!!

لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلاَنِ، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ[(٧)]: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلٰكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ.

---

(١) في ض وح: ولا أريق لهم دم.

(٢) في ش: من اجتماع.

(٣) في م: في السير في الشتاء.

(٤) في ش: يسبخ عنّا البرد.

(٥) ساقطه من م وب.

(٦) في م: واعقبت ذمماً، وفي ك ون: واعقبت ندماً، وفي ل وش واعقبت ذمّاً.

(٧) في ح: لقد قالت قريش.

لله ِ أبُوهُمْ!! وَهَلْ أحَدٌ مِنْهُمْ أشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا، وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أنَاذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ، وَلَكِنْ لاَ رَأيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!!

اللغة

الجهاد: مصدر جاهد، يقال جاهد في سبيل الله مجاهدة وجهاداً، والجهاد: هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان: أحدهما: يدرك كفتح الباب ونحوه، وكفتح الغلق والقفل والمتاع، الثاني: ما يدرك بالبصيرة كفتح الهمّ وهو ازالة الغمّ، وذلك ضربان:

أحدهما: في الأمور الدنيوية كفقر يزال بإعطاء المال.

والثاني: فتح المنغلق من العلوم نحو قولك: فلان فتح باباً من العلم مغلقاً.

الأولياء: جمع وليّ، ووليّ الله: هو العبد المؤمن الذي فوّض أمره الى الله بالكلّية قاطعاً نظره عن غيره بحال ما، فيحبه الله ويرضى عن أفعاله وأقواله، وليس هذا مقام اطالة الكلام فيه.

الدرع: هي المتخذة من الحديد ليلبسها المحارب ويدفع بها تأثير السهام والسيف وغيرهما وهي مؤنّثة، والجمع القليل: أدرع وأدراع، وإذا أكثرت فهي الدروع الحصينة المحكمة.

الجنة: الترس؛ وهو ما يستر المرء عن الخصم حال المقاتلة ويقيه عن ضربه.

الذلّ: ضدّ العزّ.

شملهم الأمر: يشملهم لغة فيه لم يعرفها الأصمعي.

البلاء: الغمّ الكثير، وانّما سمّي بلاءً لأنّه يبلي الجسم.

ديّثه: أي ذلّله، وطريق مذلّل، وانّما سمّي الذي لا غيرة له، لأنه قد

ذلّل نفسه لكلّ آت.

قال الجوهري: الصَّغار بالفتح: الذل والضيم، وكذلك الصغر بالضمّ، والمصدر الصغر بالتحريك، يقال قد صغر الرجل بالكسر في الماضي والفتح في الغابر صغراً، والصاغر الراضي بالضّيم، قيل: الصغار الدناءة في النفس، وهو من الصغر دناءة الهيكل، وكلاهما محتمل.

يقال قؤ الرجل قاءة: صار قيئاً وهو الصغير الذليل، وأقماته أي صغرته وذللته، فالقماء الذلة والحقارة، والقماءة صغر القامة، ولكون القصر والحقارة متلازمين، يعبّر بأحدهما عن الاخر.

قال الشاعر:

تبيّن لي أنّ القماءة ذلّة ٭ وأنّ أعزاء الرجال طوالها

ضرب عليه: اذا حجر عليه، يقال ضربت على يد فلان أي منعته من التصرف، قال الله تعالى: فضربنا على آذانهم(١)، أي حجرنا عليها.

الاسهاب: ذهاب العقل، يقال أسهب الرجل على البناء للمفعول إذا ذهب عقله من لذع الحية، وقيل: أصله من التوسّع في الشيء، والسهب: الفلاة الواسعة والفرس الواسع الجري، وبئر سهبة أي بعيدة القعر واسعة، وانّما يقال لذاهب العقل المسهب لارتفاع ضبط العقل عنه، فهو متوسع في أحواله وأقواله وحركاته وسكناته.

يقال اديل الحقّ منه: أي غلب عليه عدوّه وأخذ الحق منه، من إدالة الغلبة. سيم: أي أُذيق.

قال الله تعالى: يسومونكم سوء العذاب(٢)، أي يذيقونكم.

الخسف: النقصان؛ يقال رضي فلان بالخسف أي بالنقيصة، وبات فلان بالخسف أي جائعاً، ويقال سام الخسف وسامه خسفاً أو خُسفاً بالضمّ اي

(١) الكهف: ١١.
(٢) البقرة: ٤٩.

أولاه ذلاً، ويقال كلّفه المشقة والذلّ.

النِصف بكسر النون وسكون الصاد: الإسم من الانصاف.

القتال والمقاتلة: المحاربة وتجر القتل.

العلانية: ضدّ السرّ، واكثر ما يقال ذلك في المعاني دون الأعيان.

يقال: أعلنته يعلن، قال: ثم إني أعلنت لهم واسررت لهم اسراراً(١)، أي سرّاً وعلانية.

الغزو: الخروج إلى محاربة العدوّ، قال: غزا يغزو غزواً، فهو غازٍ، وجمعه غزاة كقاض وقضاة، وغزى مثل سابق وسبق، وغزي مثل حاج وحجيج، وغزاء مثل فاسق وفسّاق.

قطّ: معناها الزمان، يقال ما رأيته قطّ، قال الكسائي: كانت قطط فلمّا سكنت الحرف الأول للادغام جعل الآخر متحرّكاً بإعرابه. عقر الدار: وسطها ومعظمها.

العقر: أصل الشيء؛ وإنّما سمّي معظمها عقراً لأنه أصل الدار. تواكل القوم: إذا وكل كلّ واحد منهم الأمر إلى صاحبه.

شنّ الغارة: شنّها شناً إذا صبّها وأفرغها، وشنّ أفرغ، من الشنّ وهو الدلو المتمزق يتّخذ من الجلد البالي فينصب عنه الماء.

الغارات: جمع غارة، والغارة اسم من الإغارة على العدوّ.

غامد: حيّ من اليمن.

الخيل: أراد به الفرسان، كما في قوله تعالى: وأجلب عليهم بخيلك ورجلك (٢)، والقرينة الحالية والمقاليّة معنية إياهم.

الأنبار: اسم بلد قريب من بغداد على طريق الشام واقع على حافّة الفرات.

---

(١) نوح: ٩. (٢) الاسراء: ٦٤.

أزال: أي اخرج. والخيل هنا يحتمل أن يكون المراد بها الخيول وهو الأغلب، وأن يكون الفرسان.

المسالح: يحتمل أن يكون جمع مسلح وهو الاصطبل الذي هو موضع سلح الدّواب وهو الروث، وحينئذ يكون المراد بالخيل الدواب، وأن يكون جمعا لمسلحة هي القوم ذوو السلاح، والمسلحة أيضا كالثغر والمرقب، وفي الخبر: كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العذيب(١)، وحينئذ يكون المراد بالخيل الفرسان.

المعاهدة: الكافرة التي عاهدت أهل الاسلام فسكنت ديارهم، والمعاهد من المشركين كأهل الذمّة من أهل الكتاب.

انتزع الشيء ينتزع انتزاعاً: أي أقلعه.

الحجل: بالفتح والكسر الخلخال.

القُلب: السوار، وانما سمّي به لتقلبه في الساعد والحه(٢) اذا تحلقت سمّيت قلباً لمشابهتها السوار.

القلائد: جمع قلادة، وهي اسم لما في العنق من الطوق وغيره.

الرعاث: القرطة، واحدتها: رعثة ورعثة بالتحريك، وترعثت المرأة أي تقرّطت، قيل: الرعاث ضرب من الخرز والحلي، وقيل: كان يتخذ من مهن حليّ يتزينون بها.

الامتناع: الاحتراس. الاسترجاع: قول المرء لنائبة أصابته: إنا لله وإنا اليه راجعون.

والاسترحام: طلب الرحمة.

الصرف: ردّ الشيء من حالة إلى حالة، أو ابداله بغيره، يقال: صرفته وانصرف، والانصراف هنا أراد به الرجوع.

---

(١) العذيب: تصغير العذب وهو الماء الطيب، وهوماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة اميال، وهومن منازل حاج الكوفة، وقيل هوحدّ السواد، وكانت مسلحة للفرس، وقد اكثر الشعراء من ذكرها.

(٢) كذا في الأصل.

الوفر: المال الكثير، والموفور الشيء التام، يقال وفرت الشيء أتممته وأكملته أفره وفراً، ووفر الشيء بنفسه وفوراً، الوافر التام بالوفر أي الحامل له.

الكلم: التأثير المدرك باحدى الحاستين: السمع والبصر، وكلمته جرحته جراحة بان أثرها.

الأسف: الغضب والحزن معاً، وقد يقال لكلّ واحد منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب وشهوة الانتقام.

فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الحزن والغضب، فقال: مخرجهما واحد، واللفظ مختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهر غيظاً وغضباً، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهر حزناً وجزعاً.

أللوم: عذل الإنسان بنسبته الى ما فيه لوم، يقال: لمته فهو ملوم.

يقال فلان جدير بكذا: أي خليق، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجديرون.

جلب الشيء يجلبه جلباً وجلباً: اذا جذبه.

الهمّ: الحزن الذي يذيب الإنسان، يقال همت الشحم فانهمّ، والهمُّ ما هممت به في نفسك، والقرينة الحالية معينة للأول.

يقال قبحاً له وقبحاً: أي نحاه عن الخير.

الترح: ضدّ الفرح، وهو الحزن، يقال: ترحه تتريحاً أي أحزنه.

الغرض: الهدف المقصود بالرمي، ثم جعل لكل غاية يتحرّى إدراكها.

حمارة القيظ: بتشديد الراء شدة الحر في الصيف، وربّما خفّف في الشعر للضرورة، والجمع حمار، وأن العرب تعبّر عن الشدة بالحمرة لأنّها لون الدم الذي يتّفق اراقته في الخطوب الشديدة، وموت أحمر إذا وصف بالشدّة.

في الحديث: كنّا إذا احمرَّ البأس اتّقينا برسول الله. التسبيخ: التخفيف، يقال: سبخ الله عنك الحمّى أي خففها، وفي الحديث: أنه عليه السلام قال لعائشة حين دعت على سارق سرقها: لا تسبخي عنه بدعائك عليه؛ أي لا تخفّفي عنه إثمه، قال الشاعر:

فسبّخ عليك الهمّ واعلم بأنه ◦ إذا قدّر الرحمن شيئاً فكائن

وسبخ الحر: فتر وخف.

صبارّة الشتاء: بتشديد الراء؛ شدّة برده لإحباس الناس فيه عن السعي والحركات، وأصلها من الصبر وهو الحبس.

القُرّ: بضمّ القاف وتشديد الراء، البرد، يقال: يوم قرّ وليلة قرة أي باردة.

الانسلاخ: الانفصال عن الشيء المحيط كالثوب والجلد واشباههما، يقال: انسلخ الشهر من سنته، والرجل من ثيابه، والحبّة من قشرها، والنهار من الليل.

الحجال: جمع حجلة بالتحريك، والحجلة للعروس: بيت يزين بالثياب والاسرّة والستور، وأراد بربات الحجال النساء.

الحلوم: جمع حلم؛ وهو ضبط النفس عن الغضب في الأصل، ويراد به العقل على سبيل المجاز اطلاقاً لاسم المسبّب وارادة السبب، وهنا يحتمل الأمران.

المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأمره أخصّ من العلم، ويضاده الانكار.

الندم والندامة: التحسّر من تغيير رأي في أمر فائت.

القيح: المدة لا يخالطها دم، يقول: منه قاح الجرح يقيح وقيح الجرح ويقيح. شحنتم: أي ملأتم.

الغيظ: غضب كامن للعاجز، يقال غاظه فهو مغيظ.

جرعت الماء أجرعه جرعاً وجرّعه غيره تجريعاً، يقال: جرّعه غصص الغيظ فيجرعه؛ أي كظمه.

النغبة: بضم النون الجرعة، والجمع النغب، قال ابن السكيت: نغبت من الإناء بالكسر نغباً؛ أي جرعت منه جرعاً.

التهمام: تفعال من الهمّ، وهو شدة الغمّ والحزن.

المراس: الممارسة والمعاجلة وقوة الجلد والاصطبار على الشي ء، يقال: رجل مرس إذا كان جلداً شديد العلاج.

ذرف على المائة تذريفاً: أي زاد.

الاعراب

وافرين: حال من فاعل انصرفوا. أسفاً: مفعول له، أي: لومات لأجل الأسف على ما فات منه. عجباً: الأول منادى نكرة كقولهم: يا رجلاً خذ بيدي، الثاني: نصب على المصدر من المصادر التي يحذف منها أفعالها؛ مثل حمداً وشكراً، وانّما كرّره تأكيداً. الضمير في به ملوماً عائد إلى الموت الدالّ عليه مات، على طريقة قولهم: من كذب كان شرّاً له.

يحتمل أن يكون العجب الأول مصدراً والثاني تأكيداً والمنادى محذوفاً تقديره: ياقوم اعجبوا عجباً. ويميت القلب نعت لعجباً.

فقبحاً لكم وترحاً: منصوبان على المصدر من المصادر المذكورة. فراراً نصب على المفعول له تقديره: كل هذا يقولونه لأجل الفرار.

أنفاساً: حال من نغب التهمام. ها: للتنبيه. وأنا مبتدأ، والجملة بعده خبر.

المعاني

إنّما ذكر الجهاد وفضّله أولاً على سبيل الإجمال، ثمّ فصّل وخاطبهم بالخطاب الخالي عن الاقتصاص بالمقصود، بل المشتمل على توبيخهم على القعود حين دعاهم، ثم أتى بالمقصود ليكون أقبل لما مرّ غيره ان الكلام إذا سيق على

سبيل العموم ثمّ على الخصوص كان أقرب إلى المفعول، إنّما أتى بالمسند إليه مضمراً غائباً في قوله: وهو لباس؛ لذكر المطهر أولاً والاهتمام بشانه.

الفاء في فمن تركه رغبة ألبسه الدالة على أن ما قبل الجملة علّة لما بعدها، وفي فوالله ما غزي إلى ذلّوا خاصيتان: إحداهما: التصدير بالقسم المؤذن بأن الكلام مع المنكر، وبأنه إنّما أورده ليردّه عن الخطأ إلى الصواب، الثانية: القصر للقلب؛ يعني ليس الأمر ما تصوّرتم من أنّ القعود عن المقاتلة والمقام في البيت أولى بالعزّة، بل هما موجبان للذلّة.

الفاء في فتواكلتم: فصيحة مفصحة عن محذوف هو سبب للتواكل تقديره: فما أطعتموني وتثاقلتم عن دعوتي وقعدتم عن نصري وجبنتم فتواكلتم. هذا في قوله هذا أخو غامد: يحتمل أن يكون لإ تمام توبيخهم والشروع في الغرض؛ أي مضى هذا أوتمّ، وأن يكون للتحقير مثل قوله في الشقشقية إلى هذه النظائر، وهو أقرب إلى البلاغة، إذ كما أنه يؤذن بتحقير الرجل، كذا يؤذن بنسبتهم إلى الجبن والعجز على سبيل التعريض، حيث قعدوا عن مقاومته.

وافرين: حال على الأصل، وحيث كان وصفاً غير ثابت واسم فاعل، وعلى النهج حيث كان خالياً عن حرف النفي.

ما نال رجلاً منهم كلم: جملة استينافية مقررة لمضمون الجملة السابقة.

الفاء في فقبحاً لكم: للسببية الدالة على أنّ التفرّق على الحق سبب للدعاء عليهم مع اشتماله على الإيجاز.

يغار عليكم: جملة استينافية دالّة على تعليل صيرورتهم غرضاً يرمى.

حلوم الأطفال: أيضاً جملة استئنافية مؤذنة بتعليل نفي الرجولية عنهم، وحذف منه المسند إليه تعويلاً على القرائن التي يشهد العقل بها على الوجود، أو لأن هذا الخبر لا يصلح أدعا(١) إلاّ لهم.

---

(١) كذا في الأصل.

والله جرّت ندماً: أيضاً جملة استئنافية حذف منها المسند إليه لما عرفت، وقد صدّرت بالقسم ليردّها المخالف لمضمونها إلى الموافقة تقديره: تلك معرفة والله جرّت ندماً هل أحد منهم: استفهام عن الثبوت على سبيل الإنكار، ومثل هذا التركيب أي ادخال هل على الاسم لا يصدر إلا من البليغ العارف بمواقع البلاغة، وذلك لأنّا قد بيّنّا في المعاني أنّ هل مختصّ بالفعل ولا يدخل على الاسم، إلا اذا كان مراد المتكلم عدم التجدّد، بل الثبات على ما دخل عليه هل.

ومن ثمّ كان قوله تعالى: «فهل أنتم شاكرون[1]»، ادخل في الإنباء عن طلب الشكر من قوله فهل تشكرون، والله أعلم. ثم حقق ثباته في الحرب وممارسته لها بادخال اللام للقسم في: لقد نهضت، ولكن في: لكن لا رأي لردّ من اعتقد فيه عليه السلام أنّ ليس له رأي إلى أنّ له رأياً، ولكن يمنع من ظهور أثره مانع هو عدم اطاعة القوم، والله أعلم. إعلم أنّ تحت كلّ كلمة خواصّ لو أطفق أذكرها لخرج كتابنا هذا عن حدّ الاعتدال، ولأفضى إلى التطويل.

البيان

في الجهاد باب من أبواب الجنة: تشبيه واقع في المرتبة العليا من بدايتها، وهي ذكر المشبّه والمشبّه به بذوات حرف التشبيه ووجه الشبه، وقد عرفت علوّها في المقصد الثاني في البيان من القاعدة الثانية، وهذا تشبيه للمعقول وهو الجهاد، بالمحسوس وهو الباب، ووجه الشبه: أنّ المسلم بسبب الجهاد يدخل الجنة ويستحقها كما ان با[2] من الباب يدخل الدار وهو عقلي، في لباس التقوى: استعارة تصريحية، المستعار منه فيها وهو الثوب الذي يلبس محسوس، والمستعار له وهو الجهاد معقول.

وجه الشبه: أن الجهاد يدفع حرارة العذاب وبرودته، كما أن اللباس يدفع به الحرّ الشديد والبرد الشديد، وهو عقلي.

(١) الأنبياء: ٨٠.

(٢) كذا في الأصل.

في درع الله الحصينة: أيضاً استعارة تصريحية مرشحة، المستعار منه فيها وهو الدرع التي يلبسها المقاتل لردّ سهام الخصم حسّي، والمستعار له وهو الجهاد عقلي، ووجه الشبه: أنَّ الجهاد يدفع سهام مكائد الأعداء في الدنيا، وسوء العذاب في الآخرة، كما أن الدرع يتّقى بها عن تأثير سهام العدوّ وهو عقلي، وقد رشّحها بذكر الحصينة.

في جنّته الوثيقة: أيضاً استعارة تصريحية مرشّحة، المستعار منه فيها وهو الجنة التي يتّقى بها من تسلط العدوّ بأثرة عليه حسّي، والمستعار له وهو الجهاد عقلي، ووجه الشبه: أنّ الجهاد من تلبّس به أمن من أن يتسلّط العدوّ عليه، وزال عنه الخوف منه، كما أن الجنة يتخذها المقاتل قدّامه ليأمن من سطوات الخصم وتأثيراته وهو عقلي، وقد رشحها بذكر الوثيقة.

في ألبسه الله ثوب الذلّ: أيضاً استعارة تصريحية مرشحة، المستعار منه فيها هو الثوب محسوس، والمستعار له وهو الذلّ عقلي، ووجه المشابهة: أن الذل يحيط به احاطة الثوب لابسه وهو عقلي، وقد رشحها بذكر لباس.

ضرب على قلبه بالإسهاب: أيضاً استعارة تصريحية، المستعار منه فيها يضرب الخيمة وما شاكلها وهو أمر حسّي، والمستعار له الثبت والدوام وهو عقلي، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاحاطة؛ يعني قلّة العقل وذهابه يحيط به كإحاطة الخيمة بمن فيها، وتلك الاستعارة مثل ما في قوله تعالى: وضربت عليهم الذلّة والمسكنة.

إنّما أسند الاماتة إلى العجب: إمّا لانّه مثير للعجز الذي هو في آخر الأمر، وجرّ المرء إلى الهلاك، فيكون إطلاقاً لاسم الشيء باسم ما يؤول اليه، أو لأنّه استعارة بالاماتة عن الاعجاز استعارة مكنياً بها، مستدعية لتشبيه الموت وهما عقليان، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم حصول المطلوب معهما، وهو ايضا عقلي.

حين صرتم غرضاً يرمى: استعارة تخييلية مكنّى بها عن غاية عجزهم في

مقاومة العدوّ، مستدعية لتشبيههم بالهدف الذي يجهل مقصوداً بالرمي وهما محسوسان.

وجه الشبه:اشتراكهما في عدم القدرة على الدفع والعجز وهو عقلي. في ينسلخ عنّا البرد: استعارة تصريحية؛ المستعار منه فيها وهو ظهور المسلوخ من جلدته، والمستعار له وهو ظهور آثار الحرارة من آثار البرودة محسوسان، ووجه الشبه هو ما يعقل من[1] مديب أحدها على الآخر وهو عقلي، ومثلها في قوله تعالى: نسلخ منه النهار[2].

حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال: تشبيه لحلومهم بحلوم الاطفال، ووجه الشبه:اشتراكهما في كونهما في غير مواضعهما، وتشبيه لعقولهم بعقول النساء.

وجه الشبه: المشاركة في النقصان وعدم تعقّل الأمور المختصّة بتدبير المدن والحرب، وهذان التشبيهان واقعان في أعلى مراتب التشبيه وأقواها.

في قاتلكم الله: مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، وذلك لانّ المقاتلة غير ممكن اطلاقها على الله تعالى، والمراد بها حقيقتها، ولكن لما كانت مستلزمة للعداوة المستلزمة للطرد واللّعن والإبعاد عن الرحمة، كانت مستلزمة للطرد وغيره، لأن لازم اللازم لازم، فيكون مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم وارادة اللازم البعيد.

ملأتم قلبي قيحاً: استعارة تخييلية مكنّى بها عن بلوغ ألم قلبه الحاصل من عدم طاعتهم لأوامره، وقعودهم عن نصره الى الغاية، مستدعية لتشبيهين:

أحدهما: تشبيه عدم طاعتهم لأمره وتثبّطهم بالجرح الواقع في العضو المجروح، وعدم طاعتهم يؤلم قلبه، الثاني: تشبيه غاية فعلهم بغاية فعل الجرح، ووجه الشبه:اشتراكهما في تحصيل الألم البالغ إلى الغاية وهو عقلي، ومن قال

---

(١) كذا في الاصل.

(٢) يس: ٣٧.

عبّر بالقيح عن ألم قلبه اطلاقاً لاسم الغاية على ذي الغاية فقد أخطأ، فإنّ القيح ليس غاية ألم القلب حتى يقول هذا.

في شحنتم صدري غيظاً: استعارة قريبة ممّا ذكرنا، في جرّعتموني نغب التهمام: استعارة مكنّى بها عن عدم مطاوعتهم لأوامره المترادفة عليهم، وقعودهم عن نصره في المحرمات، مستدعية لتشبيه هيئة ادخالهم الهمّ على نفسه وتكرار ذلك منهم، بعدم انقيادهم، وهي معقولة، بهيئة ادخال المجرّع الماء ونحوه في الحلق وعلى سبيل التكرار، وهي محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في حصول الأثر من الغير، وهو عقلي.

قوله أنفاساً: مجاز في الدرجة الثانية، وذلك لأنّ النفس حقيقة في الهواء الداخل والخارج في بدن الحيوان من قبل الطبيعة، ثم استعمل عرفاً لمقدار ما يشرب من الشراب في مدّة ادخال الهواء بقدر الحاجة اطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق، ثم استعمله هٰهنا في كلّ مقدار يزداد عليه من الهمّ من قبل أصحابه وقتاً فوقتاً، فيكون واقعاً في الدرجة الثانية.

البديع

بين الحصينة والوثيقة: السجع المتوازي، ولو لم يعتبر وجود التاء لكان السجع متوازياً.

بين البلاء والقباء: المتوازي مع الترصيع، كما بين الخسف والنصف، وبين كلم ودم: المطرف.

كذا بين الأطفال والحجال، وبين ندماً وسدماً: المتوازي والترصيع والتجنيس المضارع.

بين قيحاً وغيظاً: المتوازن، والباقي سهل استخراجه.

الفحوى

إعلم أنّ هذه الخطبة مشهورة، ذكرها أبوالعباس المبرّد وغيره من أساطين التواريخ، والواعين لكلام الصحابة والتابعين، قال ابوالعباس المبرّد: روي أنّه لما انتهى إليه ورود خيل معاوية الأنبار، وقتل حسان بن الحسان البكري،خرج مغضباً، فجرّ رداءه حتى اتى النخيلة[١] ومعه الناس، فرقى ربوة من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى صلى الله عليه وآله ثم قال: أما بعد إلى آخره.

قوله فانّ الجهاد الـىٰ منع النصف: إشارة الى حثّ السامعين على الجهاد بذكر فضائله حصول[٢] والامور التي تنفر عنها الطباع وتمجّها الاسماع لمن تركه، فذكر من فضائله اموراً:

الاول: كونه باباً من أبواب الجنة، وذلك لأن الجهاد ثلاثة: جهاد العدوّ، وجهاد الشيطان الكامن الجاري في ابن آدم مجرىٰ الدم في البدن، وجهاد النفس التي هي أعدى الاعداء، على ما ينبئ عنه قوله عليه السلام: أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

قوله عليه السلام: جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم، ويدخل وجوب عمومها في قوله تعالى: وجاهدوا في الله حقّ جهاده؛ لمّا كان الطريق إلى الله تعالى هو العبادات المتمّمة على تطويع النفس الأمّارة بالسوء ومنها الجهاد، كان كلّ من أركانها باباً من أبواب الجنة، يدخل به إلى التي هي غاية سعي العارفين المجاهدين.

---

(١) نخيلة تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، وهو الموضع الذي خرج اليه علي لما بلغه ما فعل بالانبار من قتل عامله عليها، وخطب خطبة مشهورة ذمّ فيها أهل الكوفة، ونخيلة اليوم معروفة بخان النخيلة على منتصف الطريق من النجف الاشرف إلى كربلاء المقدسة.

(٢) كذا.

الثاني: كونه باباً فتحه الله لخواصّ من أوليائه، وأراد بالخُلّص: الأولياء الذين صدقوا ظنونهم بالله تعالى، وعرفوا النفس الكامنة وخالفوا أوامرها، وقطعوا العلائق الدنيوية وفوّضوا أُمورهم بالكلّيّة إلى الله، وسلّموا نفوسهم اليه تعالى، وأخلصوا دينهم لله، وفارقوا أهلهم وأموالهم وأولادهم، وذبّوا الكفار عن حوزة الدين.

هم في جميع الأحوال صابرون وشاكرون معترفون لا يزول موثرا بالحقيقة ألا وهو الله، فمن وصل الى هذه المرتبة في الاسلام فقد فرغ من جهاد الشيطان والنفس أو مع مقاومتها لا يقدر أن يصل اليها ولا يبالي بأن يلقي نفسه في الجهاد للذبّ عن الدين، فلا جرم كان هذا الباب مفتوحاً دائماً.

فان قيل: فما معنى قول الصحابة لمّا(١) رجعوا عن جهاد المشركين: رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر؟ قلنا: أرادوا بالجهاد الأكبر: الجهاد مع النفس، وانّما كان أكبر لوجوه:

أ ـ أنّ مضرّة النفس لكونها مضرّة أخروية باقية، أعظم من مضرّة العدوّ الظاهر لكونها دنيوية فانية، وكلما كانت المضرّة أعظم كان الجهاد أكبر.

ب ـ أنّ النفس عدوّ كامن لازم لا يفارق بحال، بخلاف العدوّ فله ظاهر مبين لا يبرز نفسه للمقاتلة في كل سنة إلّا مرة أو مرّتين، ولا ريب أنّ جهاد العدوّ الملازم الكامن أعظم من جهاد من كان ظاهراً مفارقاً.

ج ـ أنّ مكائد النفس أُمور محققنة مصبوبة في قوالب الصفاء والمودّة لا يكاد يعرفها إلّا العارف بالنفس كما هي، بخلاف مكائد العدو الظاهر فانّها يعرفها كلّ أحد، ولا خفاء في أنّ دفع المكائد التي لا يمكن الوقوف عليها إلّا بعد تعب عظيم بالجهاد، أشق واكبر من دفع المكائد التي لا يحتاج في معرفتها إلى مشقّة وكلفة.

---

(١) في الحديث المشهور المستفيض: قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رجع من احدى غزواته: رجعنا من الجهاد الأصغر وبقي علينا الجهاد الأكبر، قالوا: يا رسول الله وما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس.

الثالث: كونه لباس التقوى إلى الوثيقة، وقد عرفت في البيان معناه، ثمّ عقّب عليه السلام الكلام في الفضائل بلحوق الأُمور المنبوذة طبعاً بمن تركه رغبة عنه من غير عذر يخلفه، وقال: فمن تركه ألبسه الله ثوب الذلّ؛ أي أحاط الله به الذلّ كإحاطة الثوب به، وشمله البلاء: أي أصابه البلاء بسبب ظفر العدوّ عليه، وديّث بالصغار والقماء: أي اذلل بالضيم ودناءة النفس والحقارة من قبل العدوّ، وضرب على قلبه بالاسهاب: أي حجر على قلبه بقلّة العقل العملي المرشد الى التدابير في الضرب، أما لاستيلاء الوهم عليه بحسب استيلاء الخوف، ولعدم مبالاته بالامور الشرعية بحسب استيلاء الخوف، أو لعدم مبالاته بالامور الشرعية.

ويحتمل أن يكون معناه لزم قلبه قلّة العقل لزوم المضروب على الحائط، وأن يكون معنى الاسهاب بكثرة الكلام: أي احيط به كثرة الكلام عن غير فائدة، لغلبة الخوف عليه، وهكذا شأن الخائف الجبان كثيراً ما يخبّط في الكلام.

ثمّ لما فرغ من بيان فضائل الجهاد ولحوق الأمور المنبوذة طبعاً بمن تركه من غير عذر، خاض عليه السلام في توبيخهم على تركهم الجهاد وقال: ألا وإني؛ أي

إني قد دعوتكم إلى قتال أصحاب معاوية ومحاربتهم في جميع الأزمنة والأوقات والأحوال، وقد نصحت لكم وقلت أخرجوا لغزوهم قبل خروجهم لغزوكم، وقد نبهتكم على ما كان انا أعلم به منكم من القاعدة الكلية التي لا ريب فيها، وهي المشار اليها بقوله:

فوالله ما غزي قوم إلّا ذلّوا: يعني من لم يستقبل الحوادث خصوصاً قصد العدو بالدفع قبل وقوعها، وذهل عن وقوعها أو تغافل عنه وتكاسل حتى وقعت بحيث اضطرّته إلى الدفع، كان ذلاً وصغاراً له.

وذلك لأن للأوهام أفعالاً عجيبة؛ تارة تثير في النفس قوة، وأخرى تثير ضعفاً وفتوراً وجبناً، وكان السبب في لحوق الذلّ بمن غزي في داره هو الأوهام، وذلك لأنّ وهمه يحكم بأنّ العدو ما قصده إلّا لاعتقاد الضعف فيه والقوة في نفسه، فحينئذ نظراً لنفس ذلك المتوهم الفعال فينقهر عن المقاومة، وإذا حصل الانقهار نظراً لأن الضعف في النفس حصل الذل والعجز، وأما العدوّ القاصد فيحكم وهمه بضعف الخصم الذي توجّه إليه، بسبب أنه لو كان قوياً شجاعاً لما مكّنني من المجيء إلى باب داره، فيحصل له العزة والغلبة .

ثمّ دلّ بقوله فتواكلتم إلى الأوطان: على أنهم ما قبلوا نصيحته لغزو أعدائهم قبل أن يغزوهم، وقابلوها بالتواكل الذي يشمّ منه رائحة التكاسل والتخاذل الذي يذاق منه الجبن، حتى ظهر العدو عليهم، وافزع الغارات عليهم، وأخذوا أملاكهم وأوطانهم بالقهر والاستيلاء، ثمّ عقّب ذلك الكلام الدالّ على ذكر العدوّ المطلق بذكر العدوّ المعيّن، وابتدأ بقصة ما ورد على الانبار.

قال: هذا أخو غامد إلى آخر القصة، قيل اسمه سفيان بن عوف، وهو صاحب معاوية، أغار على عسكر أميرالمؤمنين بعد صفّين، يعني قد بلغت عسكره الأنبار، وقد قتل عامله من قبل أميرالمؤمنين عليه السلام وهو حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها: أي أخرج دوابكم وافراسكم عن اصطبلّها،

أو دفع فرسانكم المقيمين على الثغور والمراقب عنها فانهزموا، وفعل بالمسلمات والمعاهدات ما لا يفعل إلّا بالأذلاء والعجزة، ونهب أموال المسلمين على ما ذكره عليه السلام مفصلاً، وهتكوا حرمتين.

ثمّ رجعوا حال كونهم تامّين بالمال والمنال، ما أصاب رجلاً من ذلك العسكر جراحة، ولا قتل منهم واحد، بل انصرفوا غانمين غير غارمين، ثمّ دلّ بقوله:

فلو أن إلي جديراً على أن الأولى الحق لصاحب الغيرة والحمية أن يموت من الحزن على ما أصاب المسلمين من نهب أموالهم، وهتك حرمة ذراريهم، وتقاعدهم عن المقاومة معهم والمكاوحة، وبخّهم على ما كانوا عليه من التكاسل في القيام بالحق، مع جدّهم في الباطل، ونادى العجب وكرّر، هذا تنفير لهم عن التقاعد وحثّهم على الجهاد.

ثم عقّب ذلك التعجّب بالدعاء عليهم ببعدهم عن الخير وإصابتهم الحزن بسبب تفريطهم.

قال: فقبحاً لكم وترحاً، ثم بيّن الموجب لاستحقاقهم كونهم ممن يدعى عليه، ووبّخهم بما يأنف منه أهل المروءة، ويستحي منه من كان له أدنى رجولية، ويوجب لهم الخجل بسبب صيرورتهم أغراضاً للرماة يقصدها كل رام بالرمي، يغار عليهم، والأولى لهم أن يغيروا ويغزوا، وكانوا هم الأولى بالغزو، ويعصى الله وهم راضون به، ثمّ دلّ بقوله: فاذا إلي البرد على أنهم إذا طولبوا بالخروج للجهاد يجعلون تارة شدة الحر عذراً، وأخرى شدة البرد، وليس غرضهم إلّا التكاسل والفتور عن الحرب، لضعف نياتهم وعجزهم عن المقاومة.

ثم قبل عليه السلام أعذارهم واحتجّ عليهم بأنكم إذا كنتم تفرون من الحرّ والبرد اللذين هما مشقّتان أسهل من مشقة السيف، فبالضرورة أن فراركم من السيف أكثر، ثمّ عقّب ذلك الاحتجاج بثلاثة أوصاف في معرض الذمّ لهم:

الأول: أنه أطلق عليهم مشابهة الرجال بالصورة المحسوسة، ونفى عنهم الرجولية التي بها الصورة المعقولة للانسان، المستلزمة لصفات الكمال من الحميّة والغيرة والأنفة، ليستلزم نفيها نفي هذه الكمالات، إذ نفي الملزوم المساوي مستلزم

لنفي اللازم.

الثاني: أنه أثبت أنّ حلومهم لكونها ليست واقعة في مواقعها كحلوم الأطفال، يعني إن تصوروا قعودهم عن المقاومة معهم حلماً محموداً فذلك تصوّر باطل، لأنه حلم في غير موضعه، فكل حلم في غير موضعه فهو مستلزم للجبن المجلب للذمّ.

الثالث: أثبت لهم نقصان العقول، وأنّهم ليّنون يحبّون التنعّم والترفّه، قاصرون همّتهم على الأمور الحربية العائدة إلى اللذات الحسية، كالنساء المتفردات بالقعود في الحجال المزينة اللاتي ليس لهن همّ إلا الالتذاذ بالأمور المحسوسة، غافلات عن تدبير المعاد وما يتعلّق به من لوازم قلّة العقل، ثمّ عرّفهم بقوله: لوددت إلى سدماً أنه متمنٍّ عدم رؤيتهم وعدم معرفتهم بالكلية، إذ معرفتهم ما أورثت له عليه السلام الآ ندامة على الدخول في أمرهم، والحزن على تقصيرهم في الذبّ عن الدين.

ثمّ عاد عليه السلام إلى الدعاء عليهم بقوله: قاتلكم الله أي أبعدكم الله من رحمته السابقة على غضبه، قال المفسّرون معنى قول العرب: قاتلكم الله: لعنكم الله، وقال ابن الأنباري: المقاتلة من القتل، فاذا أخبر الله بها كان معناها اللعنة، لأن من لعنه الله كان بمنزلة المقتول الهالك، ثمّ شكا منهم بقوله: لقد ملأتم إلى أنفاساً وقد عرفت معناه في البيان.

قوله: وأفسدتم عليّ رأيي: إشارة إلى تمام شكايته عليه السلام منهم، يعني أنهم لم يلتفتوا إلى قولي وخذلوني، وخرجوا من طاعتي، وما قبلوا مني كل رأي القيت إليهم، وأقدموا على أمور خارجة عن نظام الرأي الشديد، فتوهّم القوم أنّ هذا من نتيجة رأي فحسبوه رأياً مني فاسداً، حتى قالت قريش ان ابن أبي طالب وان كان

رجلاً شجاعاً غير أنه لا علم له بالحرب، ثمّ ردّ عليه السلام بقوله: لله أبوهم إلى آخره على قريش في نسبتهم له عليه السلام إلى قلّة العلم بالحرب، قوله: لله أبوهم كلمة يتكلّم العرب بها في معرض المدح.

ثمّ انكر عليهم واستفهم منهم على سبيل الإنكار وسألهم عن رجل هو أشدّ ثباتاً للحرب منه وأقدم فيها مقاماً منه، يعني ليس رجل هو أشد معالجة مني، ثم نبّههم على صدق هذه الدعوىٰ اللازمة من الاستفهام على سبيل الانكار، بقيامه في الحرب من حين بلوغ سنه عشرين إلى آخر عمره، وهو بعهد الستين.

يعني: كنت أربعين سنة مباشراً للحرب ممارساً لها، فكيف أحد غيري أعلم بأمورها مني، ثمّ بيّن أن فساد الرأي ليس حاصلاً مني على ما تتوهمه قريش في حقّي، بل إنّما نشأ من عدم مطاوعتهم، وذلك لأنّ أثر الرأي الشديد في الحروب في الخارج إنّما يظهر بمطاوعة الأصحاب والجنود، هذا هو المعنى بقوله عليه السلام: ولكن لا رأي لمن لا يطاع، والله أعلم.

* * *

٢٧ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ (أَقْبَلَتْ[(١)]) أَشْرَفَتْ بِاطِّلاَعٍ؟ أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلاَ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ؟ أَلاَ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ؟ أَلاَ وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ.

فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ نَفَعَهُ عَمَلُهُ[(٢)]، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ، وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ

(١) ساقطة من ب.

(٢) في ح وض: فقد نفعه.

خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ، أَلاَ فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ؟ أَلاَ وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلاَ كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا.

أَلاَ وَإِنَّهُ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ(١) الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَقِمْ بِهِ الْهُدَى يَجُرَّبِهِ الضَّلاَلُ إِلَى الرَّدَى. أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ، تَزَوَّدُوا(٢) مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ(٣) أَنْفُسَكُم بِهِ غَداً.

قال الشريف: أقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الا تّعاظ والإزدجار، ومن أعجبه قوله عليه السلام: «أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ»، فإن فيه ــ مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه ــ سراً عجيباً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسبقة الجنة، والغاية النار»، فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل «السبقة النار» كما قال «السبقة الجنة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها، فلم يجز أن يقول «والسبقة النار»، بل قال «والغاية النار»؛ لأن الغاية ينتهي إليها من لا يسرّه الانتهاء ومن يسرّه ذلك، فصلح أن يعبّر بها عن الأمرين معاً، فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال الله تعالى: قل تمتّعوا فإنَّ مصيركم إلى النار»، ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقتكم ــ بسكون الباء ــ إلى النار، فتأمّل ذلك؛ فباطنه عجيب وغوره بعيد.

وكذلك أكثر كلامه عليه السلام، (وفي بعض النسخ، وقد جاء في رواية

(١) في م: من لم ينفعه الحق.

(٢) في ض وح: فتزودا وفي ب: فتزودوا من الدنيا ما تحرزون.

(٣) في ش وحاشية م: تحوزون وفي ر: روي تحرزون.

أخرى «والسبقة الجنة» ـ بضم السين ـ، والسبقة عندهم: اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال أو عرض، والمعنيان متقاربان، لأن ذلك لا يكون جزاءً على فعل الأمر المذموم، وإنّما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود).

اللغة

الدنيا: مؤنث من الأدنى، والأدنى يحتمل أن يكون من الدنوّ لقربها من الناس، والأخرى لتأخرها عنها، ومن ثمّ قال بعض الصوفيّة: الدنيا مادنا من قلبك فشغلك عن ربك، وقال عز من قائل: إذ هم بالعدوة الدنيا؛ أي القربى، وأن يكون من الدنيء المهموز ولين همزه والدنى الدون السفلة، وسمّيت دنيا لدناءتها وتسفّلها، وقيل لميلها إلى السفل والأدوان، ويقصد هذا الاحتمال ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ على شاة ميتة فقال: أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟ قالوا: من هوانها ألقوها.

قال: والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة. والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصى، وأن يكون من الدنية وهى النقيصة.

الإدبار: ضدّ الإقبال؛ وهو التوجه إلى الشيء.

آذنت: أي أعلمت؛ الإيذان: الإعلام بطريق مخصوص، وذلك بإمرار القول على الاذن، ثم يستعمل في كلّ إعلام مجازاً.

التوديع: عند الرحيل، والاسم: الوداع، وهو من ودع يدع ودعا أي ترك، والمودع تارك للمودع.

يقال أشرفته: أي علوته، وأشرفت عليه أي إطلعت عليه من فوق، وذلك الموضع مشرف بحسب ما يمكن.

المطّلع: المأتي الظاهر؛ ولهذا يقال للموت المطّلع، قال عمر: لو أنّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطّلع، وطلاع الأرض ما طلعت عليه الشمس، والمطّلع الموت.

قال الجوهري: تضمير الفرس: أن تعلفه حتى يسمن ثمّ تردّه إلى القوت وذلك في أربعين يوماً، وهذه المدة يسمّى المضمار، والموضع الذي يضمر فيه الخيل أيضاً مضمار.

السباق: هو مصدر مرادف للسابقة، ويحتمل أن يكون جمعاً لسبقة كنطفة ونطاف، وأن يكون جمع سبق كجمل وأجمال، والسبقة والسبق وكذا السبقة اسماً لما يجعل للسابق من مال أو عرض.

المنيّة: الموت.

بئس الرجل يبأس بؤساً وبيساً: اشتدّت حاجته، والبأس: العذاب، والبأس: الشدة في الحرب، تقول منه بؤس الرجل يبؤس بأساً إذا كان شديد البأس فهو بئيس على وزن فعيل أي شجاع، وعذاب بئيس أي شديد.

الأمل: امتداد النظر إلى ما يرجوه من بين يديه، يقال أمل خيره يأمله أملاً وكذلك التأميل، قيل الأمل الاسم منه وأملته رجوته فهو مأمول.

الأجل: المدّة للشيء، وهنا أراد به المدة المضروبة لكل نفس من العمر.

جار عن الطريق يجور جوراً: أي مال عن القصد.

الردىٰ: الهلاك، يقال رديً بالكسر يردى، رديً أي هلك، أرداه غيره، ورجل ردأ أي هالك.

يقال ظعن يظعن ظعناً: إذا شخص من بلد إلى بلد أي ذهب.

قال تعالى: يوم ظعنكم.

الزاد: المذخر الزائد على ما يحتاج إليه في الوقت، وقال الجوهري: هو طعام يتّخذ للسفر، يقول منه زوّدت الرجل فتزوّد، والمزود ما يجعل فيه الزاد، والمزادة ما

يجعل فيه الزاد من الماء.

الهوى: مقصور ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية.

تحرزون: أي تحفظون، وأصله من الحرز وهو الموضع الحصين، وتحرّزت أي توقّيت.

وفي بعض النسخ يجوزون أي يعبرون، وأصله من جزت الموضع أجوزه جوازاً أي سلكته وسرت فيه، وفي أصحّها يحوزون أي يسوقون به سوقاً خفيفاً، من حاز الابل يحوزها ومحيزها حزاً وحيزاً أي ساقها ليناً، وحوز الابل ساقها إلى الماء، والباقي ظاهر، وليس في كلام السيد رضي الله عنه زيادة غلق فلا يحتاج إلى تفسير ما فيه.

الاعراب

اعلم أن المضمار والسباق: قد وردا مرفوعين ومنصوبين؛ أما رفع المضمار فعلى أنه خبر إنّ واليوم اسمها، تقديره: إنّ اليوم المضمار، وأما نصب المضمار فعلى أنه اسم لإنّ واليوم خبره، ولكن فيه اشكال منشؤه أن المضمار يحتمل أن يكون عبارة عن الزمان، فلو أخبر عنه باليوم لكان ذلك اخباراً بوقوع الزمان في الزمان، فيكون الزمان محتاجاً الى زمان آخر وهو محال، والجواب: انا نقول اذا كان المضمار اسماً للمكان فلا إشكال فيه.

اما اذا كان بمعنى الزمان فلا نسلم أنه لو أخبر عنه باليوم لكان محوجاً الى أن يكون للزمان زمان، وهو محال، وانّما يحوجه لو كان المضمار اسماً لمجرد الزمان وليس كذلك، اذ هو اسم لما هو الزمان جزؤه ويجوز مثل ذلك، نحو إنّ مصطبح القوم اليوم، واما نصب السباق فعلى أنه اسم إن وغداً خبره وهو ظاهر، وأما رفعه

فقال بعض الشارحين: على أنه خبر إنّ وهو باطل، لأنه لو كان خبراً لكان غداً اسمه، ولو كان غداً اسمه لكان مبتدأ في الأصل والسباق خبره.

ولكن لا يجوز هذا لأنه لو جاز هذا لكان السباق محمولاً على غداً بالضرورة، واذا كان محمولاً عليه فإما أن يكون حمل هو، كحمل الحيوان على الانسان في قولنا: الانسان هو الحيوان، وهو المسمى في عرف أرباب الميزان بحمل المواطاة، أو يكون محمولاً عليه بتوصل ذي، كحمل البياض على الجسم في قولنا: الجسم ذو بياض، اذ لا ثالث لهما ولا يمكن هنا اعتبار الحمل بأحد المعنيين، فيمتنع أن يكون خبر إنّ، اللهم إلّا على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه، على تقدير: إنّ غداً مرفوعاً بالابتداء، خبره غداء، واسم إنّ ضمير الشأن.

ويمكن أن نقول حمله على الابتداء يستلزم حذف ضمير الشأن الذي هو الخبر، وحمله على الخبر يستلزم المجاز، واذا تعارض المجاز والاضمار تساويا فلا أولوية.

قوله: لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها.

اعلم أنّ أرى تقتضي مفعولين: أحدهما هنا محذوف هو المشبّه، والآخر نام طالبها فيكون في محل النصب، والضمير في طالبها وهاربها عائد الى المفعول الأول المحذوف الدال عليه القرينة المقالية والحالية، تقديره: لم أر نعمة كالجنة نام طالبها، ولا نقمة كالنار نام هاربها. الضمير في أنه من لم ينفعه الحق للشأن، ويجر مجزوم على جواب الشرط، والضمير في به عائد الى مَن، والباقي ظاهر.

المعاني

قد صدّر أكثر الجمل الموردة في هذه الخطبة بألا، لتنبه السامعين عن رقدة الغفلة، وتشفرهم لسماع ما ألقي اليهم، وبأن لتحقق مضمونها في أذهانهم، ويزيل الحيرة التي كانوا مبتلين بها، والباقي ليس فيه شيء دقيق محتاج الى ذكره، مما يسهل استخراجه من القواعد السالفة في المعاني.

البيان

في أدبرت: استعارة تخييلية مستدعية لتشبيه هيئة تقضي أحوال الدنيا بالقياس الى شخص التحص[١]، من اسباب ومال وجاه وتغيّرها، وهي معقولة، بهيئة مفارقة الحيوان وبعده عن الانسان، وهي محسوسة، ووجه الشبه اشتراكهما في البعد عن الانسان والمفارقة عنه.

وفي آذنت بوداع: استعارة تخييلية مكنى بها عن مفارقتها عن الانسان بوجه يحصل له الشعور بها بتقضّي أحوالها شيئاً شيئاً، مستدعية لتشبيه هيئة مفارقتها عن الانسان المحب لها وهي معقولة، بهيئة ارتحال الصديق عن صديقه المحبّ له، وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما المستلزمين لأسف المفارق عنه وحزنه، وهو عقلي، وتخييل انها من أفراد هيئة ارتحال الصديق، وان الدنيا من أفراد المودع، وإلا لم يصح اسناد الايذان بالوداع اليها، وذلك لقولهم: نطقت الحال بكذا، وافترست المنية.

وفي آذنت أيضاً استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه هيئة دنوها من الانسان بتقضّي العمر شيئاً فشيئاً، وهي معقولة، بهيئة اقبال الحيوان الى الانسان، وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في صلاحية الاتصال في العاقبة، وهو عقلي.

وفي أشرفت: استعارة تصريحية مستدعية لتشبيهها، وهي معقولة، بالمكان العليّ المرتفع، وهو محسوس.

ووجه الشبه: أن الآخرة عالية بالنسبة إلى الدنيا وهي سافلة، كما ان المكان العالي عال بالنسبة الى السافل، وهو عقلي، فتكون استعارة المستعار منه فيها محسوس، والمستعار له معقول، ووجه الشبه عقلي. وفي باطّلاع أيضاً استعارة مكنى بها عن احاطتها بجميع الأحوال التي يكون الانسان عليها علماً، المستعار منه فيها

---

(١) كذا في الأصل.

فقال بعض الشارحين: على أنه خبر إنّ وهو باطل، لأنه لو كان خبراً لكان غداً اسمه، ولو كان غداً اسمه لكان مبتدأ في الأصل والسباق خبره.

ولكن لا يجوز هذا لأنه لو جاز هذا لكان السباق محمولاً على غداً بالضرورة، واذا كان محمولاً عليه فإما أن يكون حمل هو، كحمل الحيوان على الانسان في قولنا: الانسان هو الحيوان، وهو المسمى في عرف أرباب الميزان بحمل المواطاة، أو يكون محمولاً عليه بتوصل ذي، كحمل البياض على الجسم في قولنا: الجسم ذو بياض، اذ لا ثالث لهما ولا يمكن هنا اعتبار الحمل بأحد المعنيين، فيمتنع أن يكون خبر إنّ، اللهم إلّا على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه، على تقدير: إنّ غداً مرفوعاً بالابتداء، خبره غداء، واسم إنّ ضمير الشأن.

ويمكن أن نقول حمله على الابتداء يستلزم حذف ضمير الشأن الذي هو الخبر، وحمله على الخبر يستلزم المجاز، واذا تعارض المجاز والاضمار تساويا فلا أولوية.

قوله: لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها.

اعلم أنّ أرى تقتضي مفعولين: أحدهما هنا محذوف هو المشبّه، والآخر نام طالبها فيكون في محل النصب، والضمير في طالبها وهاربها عائد الى المفعول الأول المحذوف الدال عليه القرينة المقالية والحالية، تقديره: لم أرنعمة كالجنة نام طالبها، ولا نقمة كالنار نام هاربها. الضمير في أنه من لم ينفعه الحق للشأن، ويجر مجزوم على جواب الشرط، والضمير في به عائد الى مَن، والباقي ظاهر.

المعاني

قد صدّر أكثر الجمل الموردة في هذه الخطبة بألا، لتنبه السامعين عن رقدة الغفلة، وتشفرهم لسماع ما ألقي اليهم، وبأن لتحقق مضمونها في أذهانهم، ويزيل الحيرة التي كانوا مبتلين بها، والباقي ليس فيه شيء دقيق محتاج الى ذكره، مما يسهل استخراجه من القواعد السالفة في المعاني.

البيان

في أدبرت: استعارة تخييلية منستدعية لتشبيه هيئة تقضي أحوال الدنيا بالقياس الى شخص التحص[(١)]، من اسباب ومال وجاه وتغيّرها، وهي معقولة، بهيئة مفارقة الحيوان وبعده عن الانسان، وهي محسوسة، ووجه الشبه اشتراكهما في البعد عن الانسان والمفارقة عنه.

وفي آذنت بوداع: استعارة تخييلية مكنى بها عن مفارقتها عن الانسان بوجه يحصل له الشعور بها بتقضّي أحوالها شيئاً شيئاً، مستدعية لتشبيه هيئة مفارقتها عن الانسان المحب لها وهي معقولة، بهيئة ارتحال الصديق عن صدُيقه المحبّ له، وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما المستلزمين لأسف المفارق عنه وحزنه، وهو عقلي، وتخييل انها من أفراد هيئة ارتحال الصديق، وان الدنيا من أفراد المودع، وإلا لم يصح اسناد الايذان بالوداع اليها، وذلك لقولهم: نطقت الحال بكذا، وافترست المنية.

وفي آذنت أيضاً استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه هيئة دنوها من الانسان بتقضّي العمر شيئاً فشيئاً، وهي معقولة، بهيئة اقبال الحيوان الى الانسان، وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في صلاحية الا تصال في العاقبة، وهو عقلي.

وفي أشرفت: استعارة تصريحية مستدعية لتشبيهها، وهي معقولة، بالمكان العليّ المرتفع، وهو محسوس.

ووجه الشبه: أن الآخرة عالية بالنسبة إلى الدنيا وهي سافلة، كما ان المكان العالي عال بالنسبة الى السافل، وهو عقلي، فتكون استعارة المستعار منه فيها محسوس، والمستعار له معقول، ووجه الشبه عقلي. وفي باطّلاع أيضاً استعارة مكنى بها عن احاطتها بجميع الأحوال التي يكون الانسان عليها علماً، المستعار منه فيها

(١) كذا في الأصل.

محسوس، وهو العالم المطلع على أحوال الشيء، والمستعار له معقول وهو الآخرة، ووجه الشبه: اشتراكهما في العلم وهو عقلي.

هذا ان اعتبرنا المسند إليه لاشرفت الآخرة بالحقيقة، اما لو كان بالحقيقة هو رب الآخرة، وقد كنى بها عن تعظيمه كما يكنى عن الرجل الفاضل بحضرته ومجلسه، فلا يكون الامجاز بالحذف، والقرينة له الاطلاع، إذ الاطلاع لا يمكن أن يكون إلّا للعالم العارف العاقل.

في اليوم المضمار: تشبيه لليوم الذي كنى به عن مدة عمر الانسان بالمضمار، وهما محسوسان، ووجه المشابهة: ان الانسان في مدة عمره يستعد بالتقوى والرياضة الشاقة والأعمال الصالحة، لأن ينخرط في سلك السابقين الى لقاء الله تعالى، المقربين في حضرته، كما يستعد الفرس بالتضمير لأن يسبق على مثله، ويكون من جملة الأفراس التي من شأنها السبق.

ويحتمل أن يكون فيه استعارة مكنياً بها عن أن الدنيا التي هي عبارة عن مدة عمر كل شخص بالنسبة إليه، محل العمل المعد للانخراط في مسلك السابقين مستدعية للتشبيه المذكور، وهوجيد.

وفي غداً السباق: استعارة مكنى بها عن أن الآخرة وقت مسابقة بعض الناس على بعض، بحسب تفاوتهم في الأعراض، عما عدا الواحد الحق، والاقبال إليه بالكلية، مستدعية لتشبيه هيئة مسابقة بعض الناس على عرصة القيامة التي هي محل اعتبار أحوالهم، بسبب الأعمال الصالحة والرياضة الشاقة في الدنيا.

وهي معقولة، بهيئة مسابقة بعض الأفراس على بعض في العرصة المعينة للتسابق التي هي محل اعتبار تفاوتها في الغد، وبحسب قلة الضمير وكثرته، وهي محسوسة، ووجه الشبه: أن كل من كان أقطع لعلائق الدنيا عن قبله، وأشد توجها الى الله، وأخف ظهراً من تقبل الملكات الرديئة بعد الموت في الآخرة، بسبب كثرة نفسه بالطاعات والعبادات والرياضات الصعبة في الدنيا التي هي المضمار،

كان أسبق ممن كان اقل استكمالاً منه، واثقل ظهراً بأعباء الأوزار وأغلق قلباً بالدنيا، بسبب قلة سعيه في الاعراض والاستكمال.

كما ان الفرس التي اكثر تضميراً في المضمار وأسبق في وقت السباق ممن ليس كذلك، وهو عقلي، والحاصل أن تفاوت التضمير وعدمه ووجوده كما يتبين في وقت المسابقة، كذا تفاوت النفوس الانسانية باتباع الشهوات والميل الى اللذات الفانية، والاعراض عنها بالكلية، والاقبال الى القبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجّه اليها بالكلية، انما تبين في الآخرة، وهذا هو معنى قول السيد رضي الله عنه: فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه.

اما ان جعلنا السباق جميعاً لسبق فعناه أن في الآخرة يحصل الأجر المعدّ لمن يسبق في الدنيا ويلحق، انما يحصل له بعد مفارقة النفس عن البدن وفي الآخرة، ولكن التشبيه المذكور باق، وذلك لأن السباق دائماً يقع بعد وجوده.

وفي قوله خسر عمله: استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه العامل في الدنيا بالأعمال الصالحة المقصر فيها، بالتاجر الذي يتّجر برأس المال ويفوت في يده بسبب تقصيره.

ووجه الشبه: أنّ المقصّر في العمل فات منه العمل، كما أن المقصر في حفظ رأس المال فات منه، وفيه أيضاً تشبيه للعمل برأس المال، ووجه الشبه: أن العمل مما يكسب به الكمالات الأخروية التي هي الأرباح الباقية، كما أن رأس المال مما يكسب به الأرباح بالتجارة، وذلك لأن الخسران عبارة عن فوات رأس المال بالكلية، أو تطرق النقصان إليه.

قوله لم أركا لجنة: تشبيه للنعمة بالجنة، ووجه الشبه استراكهما في كونهما مرغوباً إليهما. وفي ولا كالنار نام هاربها: تشبيه للنقمة بالنار، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما منفوراً عنهما.

---

(١) كذا في الأصل.

في قوله ألا وانكم قد أمرتم بالظعن: استعارة تصريحية المستعار منه الانتقال من بلد الى آخر، وهو محسوس، والمستعار له الانتقال من عالم الحيوانية الذي هو عبارة عن السفر الى الله، وهو معقول، ووجه الشبه: اشتراكهما في قطع المراحل، غير أن المراحل في المستعار منه محسوسة تقطع بالرحل والحمل ونحوه، والمراحل في المستعار له معقولة تقطع بقدم العقل وخطى النفس، وهو عقلي.

وفي دللتم على الزاد: استعارة أيضاً تصريحية، المستعار منه فيها الطعام المتخذ للسفر، وهو محسوس، والمستعار له هو الأعمال الصالحة، وبالجملة التقوى، وهو معقول، ووجه الشبه: أن الامور المقربة الى الله تعالى من العمل الصالح مما تقوى بها النفس على قطع المراحل المعقولة الى أن تصل الى جنابه المقدس، كما أن الطعام تتقوى به الطبيعة على الحركة الحسية في قطع المراحل المحسوسة، الى أن تصل الى المقصد، وهو عقلي.

البديع

بين وداع واطلاع: السجع المتوازي.

في قوله فان الدنيا الى آخره: راعى المقابلة؛ حيث قابل الدنيا بالآخرة، والادبار بالاقبال، كما في قوله:

ألا فاعملوا: حيث قابل الرغبة بالرهبة.

في قوله: لم أر كالجنة؛ حيث قابل الطالب بالهارب، والجنة بالنار، وفي من لم ينفعه؛ حيث قابل الحق بالباطل.

في قوله: من لا يستقيم؛ حيث قابل الاستقامة بالجور عن الطريق، والهدى بالضلال، وراعى بين الهدى والردى: المتوازي.

الفحوى

اعلم أن هذه الوصية من الخطبة (رقم ٤٥) التي أولها الحمد لله غير مقنوط من رحمته، وسيجيء في بعد ان هذا الفصل مشتمل على احد عشر تنبيهاً:

الاول: أشار إليه بقوله: أما بعد فان الدنيا الى وداع؛ وهو اشارة الى تنفير الدنيا والركون اليها، لما أن أحوالها متقضية آيلة الى الزوال، وكل من أنس بها فهو سعب(١) من مفارقتها، ويقع في حزن عظيم وأسف جسيم، وقد عرفت في البيان تمام الكلام فيه.

الثاني: أشار إليه بقوله: وإن الآخرة قد أقبلت؛ وهو تنبيه على الاقبال إلى الآخرة المقبلة عليكم المطّلعة على سرائركم، الكاشفة لكم ما تعملون اليوم، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً(٢)».

قد قال أمير المؤمنين عليه السلام: من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا من النار مهرباً، أولها من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها، وقال(٣) الفضيل ونعم ما قال: لو كانت الدنيا من ذهب تفنى، والآخرة من خزف تبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، وكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى.

الثالث: أشار بقوله: ألا وان اليوم إلى الغاية النار؛ وهو تنبيه على أن تحصيل الأسباب المعدّة للوصول إلى درجة السابقين المقربين انما يمكن في مدة عمر

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) آل عمران: ٣٠.

(٣) فضيل بن عياض الابيوردي؛ عابد زاهد مشهور، كان في ابتداء أمره يقطع الطريق بين نسا وابيورد، ثم تاب ورحل إلى مكة، روى عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام اخباراً، وابنه محمد بن فضيل أيضاً من مشاهير الزهاد، ولهما قصص وحكايات مذكورة في كتب الرجال.

كل انسان، لا قبلها ولا بعدها، ومن راض نفسه فيها وقطعها عن العلائق المذهلة عن الإقبال إلى القبلة الحقيقية التي هي معرفة الواحد الحق، وضمرها بالأعمال الصالحة والطاعات، فقد فاز بعد أن مات وقامت قيامته بدرجات الجنة التي أعد الله للمتقين، وجعلها حظراً لمن سبق في عرصات القيامة بسبب ثقل موازينه بالحسنات.

ومن لم يرض نفسه وانهمك في اللذات الحسية، واشتغل باقتناص المقتنيات الفانية الدنيوية، وأعرض عن القبلة الحقيقية، فقد وقع في أسر الملكات الرديئة، ولذع عقارب الهيئات البدنية التي هي غاية كل نفس غرقت في لجج بحار الدنيا، واستغرقت في حبها بعد المفارقة عن الدنيا، واستحق النار التي هي معدة للمتمردين الفاسقين عن أوامره تعالى، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب[1]».

وبقوله والسبقة الجنة والغاية النار: أن المستبق إليه الذي أشار إليه أولاً على سبيل الاجمال للسابقين هو الجنة، وان غاية سعي المقصرين هو الدخول في النار، وما ذكره السيد الرضيّ رضي الله عنه في الفرق بين الغاية والسبقة واف بمراده عليه السلام، إلا أن ههنا بحثاً: وهو أن النار غاية عرضية أو ذاتية، ولما كان المقصود بالقصد الأول للانسان المقبل إلى الدنيا هو تناول اللذات الحاضرة المستلزمة لدخول النار، إلا من شاء الله خلاصه، كانت الغاية الذاتية هو التناول والدخول هي العرضية.

الرابع: أشار إليه بقوله أفلا تائب من خطيئة قبل منيته؛ وهو تنبيه على أنّ الاتيان بالتوبة التي هي عبارة عن انزجار النفس الأمارة بالرجوع إلى الله واجب قبل الموت، ولما كان تمام السلوك إلى الله بالتخلية والتحلية، وكانت التخلية مقدّمة في السير على التحلية، قدّم التنبيه على وجوب التوبة التي من التخلية، على

(١) الشورى: ٢٠.

التنبيه على وجوب الاتيان بالأعمال الصالحة، التي هي من التحلية.

الخامس: أشار إليه بقوله: ألا عامل إلى قوله وضره أجله؛ وهو تنبيه على وجوب العمل الصالح، لخلاص النفس من أسر الشيطان وقهره قبل يوم البؤس، الذي هو كناية عن الموت والعذاب اللازم للنقصان اللازم عن التقصير في العمل، ثم نبههم على الزمان الذي يمكن لهم العمل فيه، وهو الأيام التي يصرفونها إلى الآمال المهدمة لقواعد الاعمال، وعلى أنّ تلك الفرصة ستنقطع بالأجل القاطع لأيام امهال كل شخص.

ثم نبه بقوله فمن عمل إلى أجله: على أن من أتى بالأعمال الصالحة في الأيام التي محل الاتيان بها فيها، قبل انقطاعها بالأجل، فقد نفعه عمله، حيث استحق به الثواب المعدّ للعاملين في الآخرة، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات[1]»، ومن نفعه عمله لم يضرره أجله بالضرورة بل نفعه، إذ يرفع الحجاب بينه وبين مطلوبه المعدّ له.

قوله ومن قصر إلى أجله: على أن من غلبت عليه الشقوة ولم يأت بالأعمال في زمان الفرصة حتى ينقطع بوصول الأجل وبمضي الفرصة، فقد فات عمله الذي هو رأس مال الآخرة، ومن فات عنه عمله وخسر به فقد ضره أجله إذا وصل إليه، لأنه يقربه إلى النار التي هي غاية المقصرين على ما عرفت، وقد قال الله تعالى: «ومن يعص الله ورسوله و يتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين[2]».

السادس: أشار إليه بقوله: ألا فاعملوا إلى الرهبة؛ وهو تنبيه على وجوه التسوية بين العمل في الرهبة والعمل في الرغبة على العاملين، يعني: الواجب على من عمل لله أن لا ينظر إلى الأمر الخارجي من اللذة والرهبة ويعمل مخلصاً له، ولا يعرض عنه حال صفاء اللذات الحاضرة بالطغيان، ويقبل إليه حال ما ابتلى بنازلة

---

(١) البقرة: ٢٥.
(٢) النساء: ١٤.

نزلت به، فان مثل ذلك ليس من شأن المخلص في العبودية، بل من شأن من عمل للطمع.

إلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: ((وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه فلمّا نجّاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا(١)))، وانما شأن المخلص الموقن أن لا ينظر إلى كونه عاملاً له، فضلاً عن العمل وعن الشدة والرخاء، ويجعل الصبر مع الله شعاراً في حالتي السراء والضراء، وهذا مقام العارفين بالله الكاملين في العبودية.

السابع: أشار إليه بقوله: ألا اني لم أر الى هاربها؛ وهو تنبيه للنائمين في مراقد الغفلة عن الجنة والنار، وتعجّب من حال طالب الجنة، كيف يغفل عنها ويقصر في طلبها بالأعمال الصالحة، ومن حال الهارب من النار، كيف ينام عن دفعها، ولا يعمل الصالح ليقرب من الجنة ويبعد من النار، تقدير الكلام: اني لم أعلم قط نعمة مثل الجنة في غاية الكمال وتمامها يصفه يوم الطالب، ولم ار نقمة مثل النار في عظيم العذاب يصفه يوم الهارب، والحاصل أن الذي يقضي منه العجب حال الجنة بالموقن كيف يقعد عن طلبها، وحال الموقن بالنار كيف ينام عن طلب الخلاص منها.

الثامن: أشار إليه بقوله: ألا وانه من لم ينفعه الحق يضرره الباطل؛

وهو تنبيه على أن مضرة الباطل لازمة لعدم منفعة الحق، وأراد بالحق الاقبال على الله بلزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعقائد المطابقة لما في نفس الأمر، وبالباطل الالتفات عن طريق الحق بالاشتغال بما لا يجدي نفعاً في الآخرة، بيان الملازمة: أن بين الحق ومنفعته، وهي الوصول إلى حضرته المقدسة واستحقاق الأجر الجزيل والثواب الجميل، ملازمة على سبيل التوبة، كما بين الحق والباطل، وبين الباطل ومضرته وهي البعد عن رحمة الله تعالى واستحقاق دخول النار.

---

(١) الاسراء: ٦٧.

وإذا عرفت ذلك فاذا لم ينفعه الحق كان الحق بالنسبة إليه معدوماً، إذ لو كان موجوداً لكان نافعاً له، واذا لم يكن الحق موجوداً بالنسبة إليه كان الباطل موجوداً، إذ عدم الحق مستلزم لوجود الباطل، وكلما كان الباطل موجوداً كان مضراً به، إذ وجود الباطل مستلزم لمضرته، فثبت ان من لم ينفعه الحق لعدمه عنده، يضرره الباطل لوجوده عنده.

التاسع: أشار إليه بقوله: ومن لا يستقم به الهدى يجرّ به الضلال إلى الردى؛

وهو بينة على وجوب الأخذ بزمام الهدى، وعلى أن عدم الاستقامة على الهدى مستلزم للانحراف عن سلوك الصراط إلى الوقوع في احد جانبي الافراط والتفريط الموجب للهلاك الأبدي، وأراد بالهدى الايمان بالله والاستضاءة بنور العلم وسلوك الصراط المستقيم وبالضلال الخروج عن طاعة الله سبحانه والجهل.

يعني: من لم يجعل الايمان ونور العلم فائدة إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، فالضرورة تقود الضلال عن الجادة إلى مهاوي الهلاك، وبأن الملازمة قريبة مما مرّ، وذلك لأنه إذا كان وجود الضلال المستلزم للجرّ بالانسان إلى مهاوي الردى، والانحراف به عن الصراط المستقيم إلى سواء الجحيم.

العاشر: أشار إليه بقوله: ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد؛

وهو تنبيه على أنه تعالى قد أمرهم بالانتقال من دار الدنيا إلى دار البقاء بالاتيان بالأعمال الصالحة، حيث قال: «ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين[1]»، وقال: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم[2]»، وعلى أنه قد أمرهم باتخاذ الزاد، حيث قال: «وتزودوا فان خير الزاد التقوى[3]»، وقد عرفت تمام الكلام فيه في البيان.

الحادي عشر: أشار إليه بقوله: وان أخوف إلى آخره[4]؛

---

(١) الذاريات: ٥٠.
(٢) آل عمران: ١٣٣.
(٣) البقرة: ١٩٧.
(٤) كذا في نسخة الاصل.

٢٨ ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي ٱلصُّمَّ ٱلصِّلاَبَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ ٱلأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلاَ ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ، دِفَاعَ ذِي ٱلدَّيْنِ ٱلْمَطُولِ.

لاَ يَمْنَعُ ٱلضَّيْمَ ٱلذَّلِيلُ. وَلاَ يُدْرَكُ ٱلْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ، أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ ٱلْمَغْرُورُ وَٱللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ[(١)] وَٱللهِ بِالسَّهْمِ ٱلأَخْيَبِ[(٢)]، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ، فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ.

أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ، مَا بَالُكُمْ! مَا دَوَاؤُكُمْ! مَا طِبُّكُمْ! ٱلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ! أقوالاً[(٣)] بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ وَغَفْلَةً مِنْ[(٤)] غَيْرِ وَرَعٍ؟ وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟!

البيان[(٥)]

هو تنبيه على الاجتناب[(٤)] فاز بالسهم الأخيب، راعى استعارة مكنياً بها عن ان حصولهم له عليه السلام لا يجديه نفعاً، بل ربما يجر ضراً، مستدعية لتشبيهين: أحدهما: تشبيه نفسه وخصومه باللاعبين بالميسر، وهما محسوسان، ووجه الشبه:

---

(١) في ض وح: فقد فاز.

(٢) في ك: روي بالقدح الاخيب.

(٣) في ل وش: أقولاً بغير علم.

(٤) في ش وك وحاشية م: وعفة من غير ورع.

(٥) كذا في الأصل.

* لقد سقط من الأصل بعض شرح الخطبة المتضمن للغة والإعراب والمعاني وقسم من البيان.

اشتراكهما في طلب الربح والفوز على الآخر، يعني: كما أن اللاعبين بالميسر يتوقعون باللعب خروج القداح الموجبة للغنم الرافعة للغرم، كذلك كلّ منه عليه السلام ومن خصومه يتوقع بالمقابلة الفوز على الآخر.

الثاني: تشبيه المخاطبين بالسهام الخائبة التي لا غنم لها، والتي فيها غرم، كالسهم الذي لم يخرج حتى استوفيت أجزاء الجزور ويوجب على صاحبه غرماً وخيبة، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم الانتفاع وتوقع الغرامة، وهو عقلي، واطلاق الفوز هنا مجاز من باب اطلاق اسم الشيء باسم ضدّه، كما في قوله تعالى: «وجزاء سيئة سيئة مثلها[١]». وفي ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل: أيضاً استعارة مكنى بها عن تقاعدهم عن نصره وعدم تجاوزهم أوطانهم وعدم ايذائهم الخصوم مستدعية لتشبيهين:

أحدهما: تشبيه رجال الحرب بالسهام، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما عدة للحرب ودفع العدو، وهو عقلي، والثاني: لتشبيه المخاطبين بالسهام التي انكسرت فوقها ولا نصل لها، وهما محسوسان، ووجه الشبه: انهم لا يتجاوزون عن مقاعدهم ولا ينبعثون عن أوطانهم ولا يدفع بهم الخصوم، كما أن السهام الموصوفة بالوصفين لا تتجاوز عن القوس ولا يدفع بها العدو، وهو عقلي، والباقي ظاهر .

البديع

بين أبدانهم وأهوائهم: المتوازي والترصيع، وبين علم وورع: المتوازن، والقسم المتخلل بين المغرور ومبتدئة حشو مليح[٢].

---

(١) الشورى: ٤٠.
(٢) كذا في الأصل.

الفحوى

روي أن السبب في هذه الخطبة: أن معاوية لما سمع باختلاف الناس على عليّ عليه السلام بعد قصة الحكمين، وتفرقهم عنه عليه السلام، وقتله من قتل من الخوارج، بعث الضحاك بن قيس في نحو أربعة آلاف فارس وأشار إليه بالنهب والغارة، فأقبل الضحاك يقتل وينهب حتى مر بالثعلبية(١) فأغار وأخذ أمتعتهم.

وقتل عمرو بن عميش بن مسعود أخا عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقتل معه ناساً من أصحابه، فلما بلغ الخبر أمير المؤمنين عليه السلام حث أصحابه على لقاء العدو وحرّضهم على الجهاد، فتقاعدوا عن صوته وتأخّروا، فرأى منهم عليه السلام آثار التكاسل.

فخطبهم بهذه الخطبة ووبخهم فيها على ما يقدمون عليه في أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم، ونبههم على ذمه، وعلى أنه غير واقع على سنين حسن السيرة، أما أحوالهم فأشار إلى خروجها عن نظام الطريقة المعهودة الثابتة بالعقل والشرع بقوله: المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، وذلك لأن الاجتماع بالأبدان مع التفرق بالآراء يوجب التخاذل، ويفرق شمل مصالحهم ويشق عصا وفاقهم، فلا يكون مطابقاً للامام المذكور، أما قولهم: وأشار إلى أنها غير جارية على قانون العدل.

يقول: كلامكم يوهي الصمّ الصلاب: أي أقوالكم في المجالس نحن نفعل كذا ولا محل لخصومنا في مقابلنا يرخي القلوب.

الثانية: الشديدة التي لا يزعجها إلا مزعج قوي ويلينها ويلقي الرعب فيها، وإنما كانت خارجة عن القانون لأن من شرط الرجولية والعدالة في الأقوال أن لا يتلفظوا بما لا وجود له في الخارج، ولهذا ذم قوماً باظهارهم القول قبل إيقاعهم العمل، حيث قال:

---

(١) الثعلبية بفتح أوله من منازل طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق، قال الزجاجي: سميت الثعلبية بثعلبة بن دودان بن أسد، وهو أول من حفرها ونزلها.

أرعدوا وأبرقوا: وأما أفعالهم فأشار إلى ضعفها وامترامها[١] بالعجز بقوله:

وفعلكم يطمع فيكم الأعداء: أي قعودكم عن الحرب وتثاقلكم عن صوته، وطلبكم الفرار عند لقاء القتال، يحسر العدو عليكم.

بيّن عليه السلام كيفية اطماع فعلهم فيهم الأعداء بقوله:

إذا جاء القتال قلتم حيدي حياد.

ثم اعتذر لنفسه متضجّراً من تقاعدهم عن نصره، معرّضاً بعدم ثباتهم على الرجولية والشجاعة.

قال: ما عزّت دعوة من دعاكم: أي من دعاكم وقع في حصص الذلة، ومن عارضكم بالشدة والمفاسد فقد اختص بالبلية والتعب.

ثم نبه بقوله اعاليل بأضاليل: على أن ما يتعلّلون به حين يدعوهم إلى القتال ليس إلا ضلالاً عن سبيل الله وأموراً باطلة، وأن دفاعهم ليس إلا للتكاسل والطمع في عدم الاطاعة.

ثم نبه بقوله لا يمنع: على أن من اتخذ المذلة شعاره لا يقدر أن يدفع الظلم عن نفسه، مريداً به رجوعهم عن الجبن الذي هو عين المذلة إلى الشجاعة، وبقوله لا يدرك: على أن الانسان لا يدرك حقه إلّا بان يبذل الطاقة في طلبه معرّضاً بتوبيخهم على التواني، ثم بيّن لهم على سبيل التقريع عن تعيين الدار التي يحفظونها عن تسلط الغواة عليها، بعد دار الاسلام التي هي مأواهم ودار العز والكرامة، وعن تعيين الامام الذي يجعلونه مقتدى بعده بقوله: وأي دار إلى تقاتلون.

والحاصل: أن لكم لا بد من حماية دار ومتابعة امام، ولا نسبة لدار بدار الاسلام، ولا لامام غيري بامامتي، فاقتدوا بي وذمروا الأعداء عن دار الاسلام، ثم دلّ بقوله:

---

(١) كذا في الأصل.

المغرور: على أن ليس في الدنيا مخدوع مغرور إلا من غررتموه: بكلامكم، وبقوله:

وما فاز بكم إلى ناصل: على سوء حال من كانوا حزبه ويقوم للقتال بهم، يعني: من كان عسكره وجنده أنتم فالخيبة حاصلة له فيما يدوم باستعانتكم، ومن قاتل بكم عدوه فلا يحصل له نفع بكم أبداً.

ثم دلّ بقوله أصبحت إلى بكم: على أمور حصلت له من كثرة عن مواعيدهم، يعني: لا أصدق قولكم لأنكم قد أخلفتم مواعيدكم أكثر من مرة، ومن تخلف مرة فقد ارتفع الوثوق بوعـــــده، فضلاً عمن لم ينجز وعده أصلاً، ولا أطمع في نصركم لغلبة الكسالة والجبن والتخاذل عليكم، ولا أوعد العدو بكم، إذ الايعاد بكم مع تخلفكم عن القيام يوجب جرأته وتسلطه إذا أحسّ به.

ثم استفهم منهم على سبيل الانكار والتقريع عما يوجب لهم التخاذل بقوله: ما بالكم أي ما حالكم وما دواؤكم الذي يزيل هذا المرض الذي استولى عليكم من الجبن والتكاسل، ما علاجكم ان كان مرضكم من توهمكم أن أعداءكم قد برزوا في الشجاعة بحيث لا يكون لأحد مقاومتهم فليس بشيء، فانهم رجال أمثالكم في الشجاعة، فلا معنى للخوف منهم، وقد أشار إليه بقوله:

القوم رجال أمثالكم: وإن كان من نفاقكم وعدم ثباتكم على الايمان وحسبانكم ان الاتيان بالقول المجرد كاف فليس بشيء.

فان هذا يجلب المقت عندالله تعالى، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون[1]»، وقد أشار إلى هذا القسم على سبيل الانكار بقوله:

أقولاً بغير علم: أي تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم، وتتصورون ان بهذا القدر يحصل الايمان، وان كان من تغافلكم عن مصالحكم التي ينبغي أن

---

(١) الصف: ٢و٣.

تكونوا عليها فليس بعذر، وذلك لأن التغافل إذا كان مقروناً بالورع فهو محمود، وذلك بأن يلازم التقوى ويقبل إلى الله تعالى بالكلية، ويغفل عن الأمور الدنياوية بالكلية.

أما إذا كان خالياً عن الورع، بأن كان تغافلاً عن أمور الآخرة وما يكون به صلاح الحال، فهو مستقبح في العقل والشرع، وان كان من طمعكم في أموال المسلمين بحيث لا ينهضون إلا بأن يمنحكم شيئاً من اموال المسلمين وزيادة على استحقاقكم، فذلك طمع باطل لأنه طمع في غير حق، والاقدام على وضع الحق في غير موضعه وان صدر ممن سبق عليّ.

اللطائف الرشيدية

سألت تلك الحضرة العلية لا زالت ملاذاً للاقبال وملجأ للكمال، ليلة الأحد الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، بحدود ميدان، عن تحقيق قوله عليه السلام:

. غفلة من غير ورع: فأفاد مجيباً: أن مراده عليه السلام منه توبيخهم على ما يقدمون عليه من الغفلة عن الأمور الدينية، والحضور مع الأمور الدنيوية المورطة في الذنوب المخرجة عن دائرة الورع والعفة، وتقريعهم فيما يستقرون عليه من الغفلة الخالية عن الورع، ونفهم من هذا التقرير أن الغفلة على نوعين:

أحدهما : محمود وهو الغفلة عن الأمور الدنيوية، وثانيهما: مذموم وهو الغفلة عن الأمور الدينية، فالأول يستلزم الورع، فان من غفل عن أمور الدنيا كان في الغالب بسبب كونه حاضراً للامور الدينية، الثاني يستلزم خلافه، لأن من كان منهمكاً في اللذات الدنيوية، مشغولاً بها غافلاً عن الأمور الأخروية، كان في غالب الأمر خارجاً عن دائرة الورع والعفة.

* * *

٢٩ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
(في معنى قتل عثمان)

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً؛ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ: آسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ، وَلِلّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ.

اللغة

استأثر فلان بالشيء: أي استبد به، والاسم الأثرة بالتحريك، والمستأثر: المستبد بالشيء.

ساءه يسوء سوءاً: بالفتح ومساءة نقيض سرّه، والاسم السوء بالضم، وأساء إليه نقيض أحسن إليه، والسوأى نقيض الحسنى.

الاستطاعة: استفعالة من الطوع وذلك موجود ما يصير به الفعل متأتياً، وهو عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكّن الانسان فيما يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء بينة مخصوصة للفاعل ومادة قالمه[1] لتأثيره وآله ان كان الفعل الماء كالكتابة.

فان الكاتب يحتاج إلى هذه الأربعة في ايجاده الكتابة، ولذلك يقال: فلان غير مستطيع للكتابة إذا فقدواحداً من هذه الأربعة فصاعداً، ويضاده العجز، وهو أن لا يجد أحد لهذه الأربعة فصاعداً، ومتى وجد هذه الأربعة كلها فمستطيع مطلقاً، فمتى فقدها فعاجز مطلقاً، ومتى وجد بعضها دون بعض فمستطيع مطلقاً، فمتى

(١) كذا في الاصل.

فقدها فعاجز مطلقاً، ومتى وجد بعضها دون بعض فستطيع من وجه عاجز من وجه، لأن يوصف العجز أولى، والاستطاعة أخصّ من القدرة، قال الجوهري: الاستطاعة الإطاقة.

الاعراب

غير تقع في كلام العرب على أوجه: الأول: أن تكون لمجرد النفي من غير اثبات معنى به، نحو مررت برجل غير قائم؛ أي لا قائم، قال الجوهري: قد تكون غير بمعنى لا فتنصبها على الحال، كقوله تعالى: «فمن اضطر غير باغ ولا عاد[1]»، كأنه قال فمن اضطر خائفاً لا باغياً.

كذلك قوله: غير ناظرين إناه، وقوله: غير محلّي الصيد.

الثاني: أن تكون بمعنى إلا فيستثنى به، فيعربها باعراب الاسم الواقع بعد إلا، نحو مررت بالقوم غير زيد؛أي إلا زيداً، وقول أمير المؤمنين عليه السلام:غير أن؛ أي إلا أن.

الثالث: أن تقع وصفاً للنكرة، نحو قوله تعالى: «هل من خالق غير الله»، فيعربها إعراب الموصوف المتقدّم عليها.

الرابع: أن تكون لنفي صورة من غير مادتها، نحو قولك الماء إذا كان حارّاً غيره إذا كان بارداً، ومنه قوله تعالى: «كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها».

الخامس: أن تكون متناولاً لذات، نحو قوله تعالى: «تقولون على الله غير الحق»، أي الباطل، والباقي ليس فيه إشكال. الضمير المرفوع في استأثر لعثمان.

---

(١) البقرة: ١٧٣.

المعاني

أنا جامع لكم أمره: يفيد القصر للإفراد، أي لا يقدر على أن يجمع لكم أمره إلا انا دون غيري. استأثر: انما قطع ليؤذن جواب عن سؤال مقدر كان يسأله عليه السلام كيفية الجمع، والباقي معلوم.

البيان

ليس فيه شيء، إلّا أنه عليه السلام ذكر الجزع وكنّى به عن إقدامهم على قتله.

البديع

في لو أمرت إلى ناصراً: راعى المقابلة؛ حيث قابل الأمر بالنهي، والقاتلية بالناصرية.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام ساق هذا الفصل لبراءة نفسه عن الدخول في دم عثمان، والرد على معاوية وغيره ممن ينسبونه إليه، قوله عليه السلام:

لو أمرت به لكنت قاتلاً: ملازمة شرطية بيّن فيها لزوم كونه قاتلاً لكونه آمراً، وبيان الملازمة مبني علم التعارف الحاكم بأنّ كل آمر بالقتل قاتل شريك فيه، وإن كان القاتل بحسب الوضع هو الذي صدر منه القتل، وأراد به نفي اللازم لينتج نفي الملزوم الذي هو مقصوده عليه السلام، أي لكن لم أكن قاتلاً، وذلك مما يقبل منه الخصوم.

فانهم متفقون على أن القتل لم يصدر منه بحال، غاية ما في الباب أنهم يدّعون أنه عليه السلام قعد عن نصرته أو سكت على قتله، ولا ريب في أن القعود

عن النصر لا يستلزم كونه راضياً بقتله، لجواز أن يكون خاف على ثوران الفتنة، وعلى تفسير أهل بيته، أو يعلم أن الكاره لا يفيد مع القاصدين له بالقتل، ومن شرط النهي عن المنكر أن يعلم المنكر أو يغلب على ظنه قبول قوله، فضلاً عن كونه قاتلاً.

قوله او نهيت عنه لكنت ناصراً: ملازمة بيّن فيها لزوم كونه ناصراً لكونه ناهياً عنه، ووجهها ظاهر، ويحتمل أن يكون مراده عليه السلام أيضاً نفي اللازم لينتج نفي الملزوم، ويكون مراده عليه السلام بايراد الملازمتين: أنه عليه السلام ما أمر به ولا نهى عنه، بل لم يتعرض له بحال، ويعضده ما نقل أنه لما سئل عليه السلام: أساءك قتل عثمان أم سرك ؟ فقال: ما ساءني ولا سرّني، وقيل: أرضيت بقتله؟ فقال: لم أرض، فقيل: اسخطت بقتله؟ فقال: لم أسخط، وأن يكون مراده وضع الملزوم لينتج ثبوت كونه ناصراً، وهو أنسب بحاله.

وهنا كلام مشتمل على اعتراضات وأجوبة مذكورة في الكتب المصنفة في معنى قتل عثمان، فليطلب فيها ان أردت الاطلاع عليها، فلا نطول كتابنا هذا بذكرها، لأنها خارجة عن الشرح، وكان في عزمنا أن لا يتجاوز عما يتعلق ألفاظه عليه السلام على الترتيب المذكور. قوله: غير أن من نصره الى خير مني: في معناه أقوال: الأول: قال الامام الويرى رحمه الله: معناه من انتصب لانتصار عثمان بعد قتله لا يمكنه أن يقول ان علياً عليه السلام خذل عثمان، فلم ينصره، ونحن نصرناه، فنحن خير من علي.

وذلك لأن علياً عليه السلام ما خذل عثمان ورمى الى داره منديلة، ونادى بصوته وعرض على عثمان نصرته ودفاعه، فأبى عثمان القتال بسبب الدفاع عنه، وقال: لأن اقتل قبل سفك الدماء أحب الي من ان اقتل بعد سفك الدماء.

وقال لغلمانه: من وضع سلاحه منكم ولم يقاتل فهو حر لوجه الله، ومن خذله أي خذل عثمان ولم يهتم بشأنه، لا يمكنه أن يقول نصره علي، فلكونه ناصراً

هو خير من خاذله، لأن علياً عليه السلام لم يسلّ السيف بسبب الدفاع، ولم يستنصره عثمان ولم يقبل نصرته، وهذا القول مؤيد احتمال كون مراده عليه السلام من الملازمة الثانية وضع الملزوم الثاني.

قال بعض النقاد: هي كلمة قرشية أي عسى[١]، عليهم المقصود وليس المقصود براءة عن كونه خاذلاً أو ناصراً، على ما فهمه السامعون منها، بل المراد أن الخاذلين لا يصيرون مفضولين بسبب الخذلان، والناصرين لا يصيرون فاضلين بسبب النصرة، وهذا يفهم من الكلام، غير أن براءة ذمته أيضاً عن كونه خاذلاً أو ناصراً مقصوده وصدر... [٢] من الملازمتين دليل عليه.

الثالث: قال المحققون من الشارحين: إن هذا كلام ورد ردّاً على إنكار من أنكر بحضرته على من قعد عن نصرته، وإن الفتنة كلها عائدة الى الخاذل، معرضاً بأمير المؤمنين حيث خذله، وذلك لأنه وخواصه من أكابر الصحابة لو قاموا بنصرة عثمان لما اجترأ عليه طغام الأمة لها وجها ولما... [٣] على الناس أن خذلانه من الصغائر، ولو كانوا رأوا أن قتله هو الحق، كان الواجب عليهم أن يعرّفوا الناس ذلك، حتى ترتفع عنهم الشبهة التي عرضت لهم، وما وقع الاختلاف الكثير.

فلما لم يأتوا بأحد الأمرين ونفضوا أيديهم عنهم وتركوا الناس في فتنة مظلمة كانت دائرة السوء عليهم، وجواباً لهذا الانكار بتلويح لا بتصريح، أو كان ذلك في محل يلزمه التوقي، يعني: أن من كان خاذلاً يعني نفسه ليس للناصر وشبهه أن يفضل نفسه عليه، لأن الذي يدعيه السائل أنه خاذل هوانا وهو أفضل الناصرين بالوفاق، واذا لم يكن له أن يفضل نفسه عليه فيكون الخاذل أفضل، وليس للمفضول أن يتعرض الفاضل، ولا يجب على الفاضل أن يتبع المفضول.

وهذا تقرير لما أنه عليه السلام ليس بخاذل ولا بناصر على مادلت عليه الملازمتان، كأنه عليه السلام أنه من الخاذلين، وردّ على اعتقاد المنكر في أن

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) و (٣) كذا بياض في الاصل.

الواجب على المفضول متابعة الفاضل والاقتداء به، فيجب على الناصرين كمروان وأشباهه لكونهم مفضولين أن تقديره بالخاذلين لعلي عليه السلام يزعم المنكر وطلحة واشباههما وتابعوهم، فلا يكون لأحد الانكار على الفاضلين، وهو عكس اعتقاد المنكر.

قوله أنا جامع الى الجزع: إشارة الى أن كل واحد من عثمان وقاتليه، تجاوز عن العدالة التي هي الصراط المستقيم الى طرف الافراط، أما عثمان فلأنه استبد برأيه وترك المشاورة التي أوجبها الله على النبي صلى الله عليه وآله، مع كمال ثباته على حاقّ الوسط، وتقدسه عن أن يقع في أحد طرفي الافراط والتفريط بقوله: وشاورهم، ومع هذا فقد أساء الاستبداد، حيث فوّض امور الناس الى المائلين عن طريق الحق، المخذولين عن نظر النبي عليه السلام كمروان، حتى أفسد نظام الخلافة عليه، وأثار مروان الضغائن على نفسه.

أما قاتلوه فلأنهم قد خرجوا عن حد الجزع الى طرف الافراط الذي هو القتل، إذ الحد الأوسط أن يثبتوا انفسهم على الصبر وينتظروا الفرج، فصلاح الحال بينهم وبينه بدون القتل، قيل: فأسأتم الجزع بعد قتله، حيث أثرتم الفتنة، وكان الواجب عليهم أن يظهروا الجزع قبل وقوع قتله. قوله ولله حكم واقع في المستأثر والجازع: يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون الحكم الواقع في كل منهما في الدنيا، يعني: أن القتل الذي أصابه عثمان بمقتضى الحكم الالهي المقدر في حقه، بسبب اساءته في الاستبداد برأيه وجرأتهم على قتله، انما هي بمقتضى الحكم الالهي المقدر في حقهم بسبب اساءتهم الجزع، ومقصوده عليه السلام من هذا تبرّؤه من دخوله في ذمه.

الثاني: أن يكون في الآخرة، يعني: أن لله تعالى حكماً واقعاً لكل منهما من ثواب أو عقاب، كما قال الله تعالى: فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه

يختلفون[١]، أي ان كان عثمان مظلوماً فقد استحق درجة الشهادة التي أحكم الله بها لكل مقتول ظلماً، واستحق قاتلوه العذاب العظيم واللعن والغضب من الله، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعدّ له عذاباً عظيماً[٢]، وإلا فحكمه إليه تعالى، فليس لكم الاعتراض على الخاذلين بلا موجب.

اللطائف الرشيدية

سألت تلك الحضرة لا زالت فياضة على الاطلاع عما أنه عليه السلام كيف دفع ما نسب اليه من الرضا بقتل عثمان بقوله: لو أمرت به لكنت الى قوله والجازع، يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة من شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، بحدود كرند[٣] وخوشان، فأفاد راكباً مرتجلاً:

أنه عليه السلام ذكر أولاً شرطية موضحة لكونه قاتلاً لو كان آمراً بالقتل، وثانياً شرطية مفصحة عن كونه ناصراً لو كان ناهياً عنه، ثم بين على سبيل التعمية ان الناس في هذا الباب صنفان: ناصرون له وخاذلون اياه، ولا مجال لكل واحد من الصنفين الطعن في الآخر تفادياً عن وقوع الفتنة، ولا أن ينسب كل منهما الخذلان الى الآخر.

فالناصرون لا استطاعة لهم أن يطلبوا التفوق على الخاذلين والا ابترب[٤]، بواتر الضغائن التباغض، وكذا الخاذلون لا مجال لهم أن ينسبوا النقصان الى أنفسهم بالاضافة الى الناصرين، ولا أن يضيفوا الفضيلة والمزيد للناصرين، والا ربما وقع التباغض بينهم، فيفهم من هذا الكلام المعمى أنه بريء

---

(١) البقرة: ١١٣.

(٢) النساء: ٩٣.

(٣) كرند بكسر الكاف: بلد مشهور بين كرمانشاهان وقصرشيرين.

(٤) كذا في الأصل.

من قتله، لأنه لم يكن آمراً به باتفاق، ولو كان ناهياً عنه لكان ناصراً، فلا يكون قاتلاً بالضرورة، ولا أتمكن من ترجيح الناصرين على الخاذلين ولا بالعكس، حذراً من ثوران الفتنة التي قد قيل فيها لعن الله من أيقظها.

ولو كنت أضم نفسي الى احدهما هاجت الفتنة، وأنا أبيّن حالَي المقتول والقاتلين على وجه جامع خال عن المصيبة، وذلك ان المقتول استبدّ برأيه واختار كيفية الأشياء فأساء الاختيار والاستبداد، والقاتلين أفرطوا في القلق والاضطراب وأخرجوا أقدامهم عن دائرة الاعتدال، حيث عدلوا عن الأخف الى الأثقل، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع يوم القيامة.

* * *

٣٠ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لابن العباس لما أرسله إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل

لاَ تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ. وَلٰكِنِ ٱلْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ٱبْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا.

قال الشريف: أقول: هو أول من سمعت منه هذه الكلمة، أعني «فما عدا مما بدا».

اللغة

نفذ الكتاب الى فلان نفاذاً ونفوذاً: أي أرسله اليه، وانفذته أنا والتنفيذ مثله.

يستفيئه: أي يسترجعه الى الحالة المحمودة التي كان عليها قبل نكث

البيعة، وذلك لأن الفيْ والفيئة الرجوع الى حالة محمودة، ولهذا قال تعالى: حتى تفيء الى أمر الله[(١)]، وقال تعالى أيضاً: فان فاءت فأصلحوا بينهما[(٢)]، وقال: فان فاؤوا فان الله غفور رحيم[(٣)].

اللقاء: مقابلة الشيء ومصارفة معاً وقد يعبّر به عن كل منهما، يقال لقيه يلقاه لقاء ولقيا ولقية، وقد يقال ذلك في الادراك بالحس بالبصر وبالبصيرة، وهنا النهي عن رؤيته الحسية وملاقاته.

الثور: من البقر، والأنثى ثورة والجمع ثورة، مثل عود وعيرة وثيران مثل جيرة وجيران. العاقص قرنه هو...[(٤)].

العقص: الالتواء في القرن، يقال: تيس أعقص بيّن العقص وهو الذي التوى قرناه على اذنيه من خلفه، وقد عقص قرنه بالكسر عقصاً أي عوج، وهو لازم بالفتح متعدّ.

الصعب: الدابة الجموح.

الذلول: السهلة الساكنة.

العريكة: الطبيعة، وفلان ليّن العريكة إذا كان سلساً، ويقال لانت عريكته اذا انكسرت نخوته.

قيل العريكة فعيل بمعنى مفعول والتاء لنقل الاسم من الوصفية الى الاسمية كما في أكيلة ونطيحة، وأصلها من عركت الشيء أعركه عركاً أي دلكه وهو جيد. عداه يعدوه: أي جاوزه، وعدوته عن الأمر صرفته عنه، والمصدر المعدّى، والمعنيان محتملان. وبدا يبدو بدواً: أي ظهر.

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) البقرة: ٢٢٦.

(٤) كذا بياض في الاصل.

الاعراب

عاقصاً: اسم فاعل وقع حالاً من الثور، والعامل فيه المقدر الدال عليه الظرف وهو كالثور وقرنه مفعول عاقصاً، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير الفاعل في تجده، والعائد الى طلحة وهو جيد، والاول أظهر، وضمير الفاعل في يركب لطلحة.

ألين: أفعل التفضيل وقد حذف المفضل عليه السلام به. عريكة: نصب على التميز، أي أنه ألين من طلحة من جهة الطبيعة، والباقي ليس فيه شيء الا فيما عدا مما بدا، وستعرف بعيد هذا في الفحوى.

المعاني

الفاء في فانك وفانه: لعطف الجملة الاسمية على الفعلية لفظاً، وللدلالة على السبعة معنى، وعاقصاً لكونه مشتقاً ومثبتاً حال جارية على أصلها ونهجها معاً. انما قطع يركب عما قبله ليؤذن بتعليل التشبيه السابق.

في ألين عريكة: الإجمال والتفصيل، وما عدا استفهام على سبيل الانكار عن حصول النسبة.

البيان

في تجده كالثور عاقصاً قرنه: راعى تشبيهاً طرفاه وهما طلحة والثور محسوسان، ووجه الشبه: أن طلحة في رأيه ونيته منحرف عنه عليه السلام وملتو كالتواء قرن الثور، فيكون عاقصاً قرنه اشارة الى وجه الشبه، واقعاً بين التواء رأي طلحة عن أمير المؤمنين عليه السلام وانحرافه عنه، وهو معقول، وبين التواء قرن الثور، وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الانحراف المطلق، وانما ذكر الثور وادخل الكاف عليه لتوطئة المقصود، والأول أشبه لأن كاف التشبيه لا تدخل

ظاهراً الا على المشبّه به.

وأيضاً على التقدير الثاني يكون المشبّه محذوفاً بخلاف الأول، فان المشبّه مذكور عليه، هذا إن كان عاقصاً قرنه حالاً من الثور، أما اذا كان حالاً من الضمير المنصوب في تجده ففيه استعارتان: استعارة مكنى بها عن كونه شجاعاً المستعار منه فيها القرن، وهو محسوس، المستعار له وهو الشجاعة، وهو معقول، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما آلة لدفع الخصم وللتغلب، ويستدعي هذا كون شجاعته فرداً من أفراد بالتخيل.

الثانية: استعارة مكنى بها عن خشونة جانبه وتهيّئه للقتال، اذ لقيه ابن عباس وخاطبه بالطاعة لأميرالمؤمنين عليه السلام، واظهاره الكبر والعجب لنفسه، مستدعية لتشبيه هيئة منع جانبه وعدم انقياده للطاعة، وهي معقولة، بهيئة ارخاء الثور رأسه وعطف قرنيه ليدفع بها خصمه الذي اراد انقياده، وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الكبر والعجب المستلزمين لعدم الانقياد، وهو عقلي، ويكون أيضاً إشارة الى وجه الشبه تقديره: تجده حال كونه عاقصاً قرنه كالثور عاقصاً قرنه.

قوله: يركب الصعب ويقول هو الذلول: كناية عن شجاعته وقوّته وغاية تكبّره، وهو ظاهر.

في ألين عريكة: استعارة مكنى بها عن كون الزبير ممّن يصغي الى قوله وينفعل بالمواعظ، مستدعية لتشبيه طبيعته وهي معقولة، بالجلد الليّن، وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في سهولة المأخذ، وهو عقلي.

البديع

راعى في يركب: المطابقة؛ حيث طابق الصعب بالذلول، وكذا في عرفتني حيث طابق المعرفة بالنكرة.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام نهى ابن عباس عن لقاء طلحة، وأشار بقوله فانك الى سبب النهي، يعني: أنك ان تلقه لا يفدك لقاه فائدة، بل ربما يقابلك بالكلام الخشن ولا يذعن لأمرك لكبره وعجبه برأيه، ولكن الق الزبير فانه أسهل جانباً منه وأقبل انفعالاً من الموعظة منه، فاذا نصرته.

فقل يقول لك ابن خالك أي ابن أبي طالب الذي هو اخو صفية[١] ام الزبير، وهما من أولاد عبدالمطلب بن هاشم.

عرفتني بالحجاز: أي عرفت ولايتي وأقررت بطاعتي بالمدينة، حيث بايعت معي ودخلت تحت طاعتي، وانكرتني بالعراق حيث يظهر لا يليق بحال الموافق المبايع.

قوله: فما عدا مما بدا فيه أقوال: الأول: قال ابن الحديد في شرحه: عدا بمعنى صرف ومن ههنا بمعنى عن، ومعنى الكلام: فما صرفك عما كان بدا منك أي ظهر، أي ما الذي صدّك عن طاعتي بعد اظهارك لها، وحذف الضمير المفعول كثير، نحو قوله تعالى: «وسأل من ارسلنا قبلك من رسلنا» أي أرسلناه.

الثاني: قال قطب الدين الراوندي[٢] رحمه الله في شرحه: له معنيان: أحدهما: ما الذي منعك مما كان قد بدا منك من البيعة قبل هذه الحالة، الثاني: ما الذي عاقك من البداء الذي يبدو للإنسان، ويكون المفعول الثاني لعدا محذوفاً يدلّ عليه الكلام، أي: ما عداك يريد ما منعك وما شغلك عما كان بدا لك من نصرتي، قال ابن ابي الحديد[٣]: ليس في المعنى الثاني زيادة فائدة على المعنى الأول، إلا زيادة

---

(١) صفية بنت عبدالمطلب بن هاشم القرشية الهاشمية عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وشقيقة حمزة، توفيت بالمدينة سنة عشرين، وقبرها ببقيع الغرقد يزار.

(٢) أبوالحسن سعيد بن هبة الله المعروف بقطب الدين الراوندي؛ الفقيه المحدث الثقة الجليل، صاحب الآثار المعروفة والمصنفات المشهورة، منها: شرح نهج البلاغة، فضائله كثيرة ومناقبه معروفة، توفي سنة ٥٧٣.

(٣) عزالدين عبدالحميد بن أبي الحديد المدائني؛ الفاضل الأديب المؤرخ المحدث، شارح نهج البلاغة، وصاحب

فاسدة، أما أنه لا زيادة فلأنـه فسّر عدا في المعنيين بمعنى مـنع، وفسّر قوله مما بدا فيهما بتفسير واحد، أما اشتمال الثاني على الزيادة الفاسدة فلأنه ظنّ أنّ عدا يتعدّى إلى مفعولين، وهو باطل باجماع النحاة.

الثالث: قال ابـن ميثـم (بيّض الله غرّته) في شرحه: أقول: الـوجـه الذي ذكره ابن أبي الحديد هو الوجـه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما الراوندي، إذ لا تفاوت كثيـراً بين صرف ومنع، وان كان يـفهم أن المنع أعـمّ، وأما اعتراضه عليه بأنه لا فرق بين الوجهين اللذين ذكر هما فهو سهو عليه.

لأن معنى ما في الـوجه الأول: ظهر لـلناس منك من البـيعة لي، ومراده به في الثاني: ما ظهر لك في الرأي من نصرتي وطاعتي، وفرق بين ما يظهر من الانسان لغيره وبين ما يظهر له من نفسه أو من غيره، أما ما ذكره أنه زيادة فاسدة، فالظاهر أن لفظة الثاني في قوله المفعول الثاني زيادة من قلمه أو قلم الناسخ سهواً.

ثم أقول: وهذه الوجوه وان احتملت أن تكون تفسيراً إلا أن فـي كل واحد عدولاً عن الظاهـر من وجه، أمـا الوجه الذي ذكـره المدائني فلأنّـه لما حمل عدا على الحقيقة وهي المجاورة، وحمـل ما بدا على الطاعة السابقـة، احتاج أن يحمل من بمعنى عن على ما قال، وهو خلاف الظاهر.

أما الراونـدي فانّـه فسر عـدا بمعنى عاق أو منع أو شـغل، وحمـل ما بدا على الطاعة السابقة أو على البـيعة، ولا يتمّ ذلك إلّا أن تكـون من بمعنى عن، والحق أن يقال عدا بمعنى جاوز ومن لبيان الجنس.

والمراد: ما الذي جاوز بـك عن بـيعتي مما بـدا لك بـعدهـا من الأمور التي ظهرت لك، وحيـنئـذ معنى الألفاظ على أوضـاعها الأصلية واستقامة المعنى وحسنه وهو جيّـد، ولكن مـا هـذا لا يخلـو مـن حذف وهو عـن بـيعتي، ومـا ذكـره المدائني

القصائد السبع المشهورة، كان مذهبه الاعتزال كما شهد لنفسه، كان مولده سنة ٥٨٦، وتوفى ببغداد سنة ٦٥٥، يروي العلامة الحلّي عن أبيه عنه.

مشتمل على مجاز، والمجاز والاضمار سيان، فلا وجه لترجيح ما قاله على ما قال ابن أبي الحديد، ويحتمل أن تكون عدا بمعنى صرف ادنا[1] حد معينيه، ومن للبيان، ويكون المعنى: ما صرفك عن طاعتي من الأمور التي ظهرت فينا بعدها، وهو جيد.

روي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن جده قال: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن تلك الرسالة فقال: بعثني فأتيت الزبير فقلت له، فقال: إني أريد ما تريد، كأنه يقول الملك، ولم يزدني على ذلك، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته.

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: قلت الكلمة للزبير فلم يزدني على أن قال: إنّا مع الخوف الشديد لنطمع، سئل ابن عباس ما يعني الزبير بقوله هذا، فقال: يقول إنا مع الخوف الشديد لنطمع ...[2] من الأمر ما وليتم، وقد فسر غيره بتفسير آخر يقال: أراد انّا مع الخوف الشديد من الله نطمع أن يغفر لنا هذا الذنب.

اللطائف الرشيدية

سألت تلك الحضرة لا زالت فياضة، عن تحقيق قوله: لا تلقين إلى الذلول: فأفاد مرتجلاً: أن مراده عليه السلام منه بيان أنه جبار متكبر يرى الأشياء بخلاف ما هي عليه، فلا يجوز التعويل عليه ولا الاعتماد، فقوله: كالثور عاقصاً قرنه تنبيه على كونه جباراً متكبراً خالياً عن التواضع والاستكانة جالياً بالتكبر الموقع في المهواة والمهانة، وقوله: يركب الصعب ويقول هو الذلول تنبيه على أنه يظهر من نفسه بخلاف ما هي عليه، وهذا معنى لطيف جداً.

* * *

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا بياض في الأصل.

٣١ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ شديد[1] يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ عُتُوّاً، لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلاَ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلاَ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تُحِلَّ بِنَا، فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ (في الأَرضِ[2]) إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلاَلَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ.

وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ ٱللهِ عِوَضاً؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَلاَ يَطْلُبُ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا.

قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمَانَةِ، وَٱتَّخَذَ سَتْرَ ٱللهِ ذَرِيعَةً إِلَى ٱلْمَعْصِيَةِ؛ وَمِنْهُمْ[3] مَنْ اقعده عَنْ طَلَبِ ٱلْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ، وَٱنْقِطَاعُ سَبَبِهِ. فَقَصَرَتْهُ ٱلْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِٱسْمِ ٱلْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ ٱلزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلاَ مَغْدًى. وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ ٱلْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ ٱلْمَحْشَرِ.

فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ؛ وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلاَنَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ ٱلتَّقِيَّةُ، وَشَمَلَتْهُمُ ٱلذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ[4]، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، وَقَدْ وَعَظُوا

---

(١) في ض وب: زمن كنود.
(٢) ساقطة من ب.
(٣) في ح وب: من ابعده.
(٤) في حاشية م: افواههم غامرة وفي ك وش: ظامرة بالراء المهملة.

حَتَّى مُلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا. فَلْتَكُنِ ٱلدُّنْيَا أَصْغَرَ فِي أَعْيُنِكُمْ[١] مِنْ حُثَالَةِ ٱلْقَرَظِ وَقُرَاضَةِ ٱلْجَلَمِ، وَٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَٱرْفُضُوهَا ذَمِيمَةً؛ فَإِنَّهَا رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْعَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

قال الشريف: أقول: هذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، والعذب من الأجاج؟ وقد دل على ذلك الدليل الخِرِّيت، ونقده الناقد البصير عمروبن بحر الجاحظ؛ فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية.

ثم قال: هي بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس، وبالإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف ــ أليقُ، قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد؟؟!!

اللغة

الصبح والصباح: أول النهار، وهو وقت ما احمرّ الأفق بحاجب الشمس، والمساء نقيض الصباح، وكذلك الصبيحة، تقول: منه أصبح الرجل وأصبحنا أي دخلنا في الصبح، وأصبح زيد عالماً: أي صار، والأول هنا أظهر، والآخر محتمل.

الدهر في الأصل: اسم لمدّة العالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه، ثمّ يعبّر به عن كلّ مدّة كثيرة، وهو أخصّ من الزمان، فانه يقع على القليلة والكثيرة.

عند عن الطريق يعند: بالضمّ عنوداً أي: عدل، فهو عنود عند يعند بالكسر عنوداً أي: حالف وردّ الحق وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند وهو قريب مماقيل:

---

(١) في ض وح: فلتكن الدنيافي اعينكم أصغر.

العنيد المعجب بما عنده، والعنود الذي يعند عن القصد، وقال بعضهم: العنود هو العدول عن الطريق لكن خصّ العنود بالعادل[١] عن الطريق المحسوس، والعنيد العادل عن الطريق في الحكم، وجمع العنيد عند مثل رغيف ورغف، وجمع العنود عندة. كند كنوداً: أي كفر النعمة فهو كنود، وهو احدى الروايتين والكثرى[١] هي شديد.

عتوت يا فلان تعتو عتواً وعُتيّاً وعتيّاً: أي ظلمت وتجاوزت عن الحدّ.

تخوّفت عليه الشيء: أي خفت وتخوّفناهم أي تنقّصناهم تنقّصاً اقتضاء الخوف منه.

القارعة: الخطب الشديد من شدائد الدهر وهي الداهية، يقال: قرعتهم قوارع الدهر أصابتهم دواهيه، ونعوذ بالله من قوارع فلان ولوادعه، وأصلها من القرع وهو ضرب شيء على شيء، وذلك لأن الداهية كأنها تضرب النازل.

حلّ بالمكان حلولاً وحلّاً ومحلّاً: أي نزل به الهوان، يقال على وجهين:

أحدهما: تذلّل الانسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة فيمدح به، ومنه قوله تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً»، وقوله عليه السلام: المؤمنون هيّنون ليّنون.

والثاني: أن يكون من جهة متسلّط مستخف فيذمّ، ومنه قوله تعالى: «فأولئك لهم عذاب مهين».

قوله عليه السلام مهانة نفسه: أي حقارتها.

كلّ حد السيف وغيره كلالاً: إذا وقف عن القطع، ثم يستعمل في كل ما يبطل مقصوده منه.

النضيض: الماء، والجمع نضاض، قال أبو عمرو: النضيضة: المطر القليل، والجمع نضائض.

---

(١) كذا في الأصل.

والوفر: المال الكثير.

أصلت سيفه: أي جرّده من غمده، فهو مصلت وذاك مصلت، وصلته بالسيف صلتاً: أي ضربه به.

أجلب: أي جمع، وقد مر تفسير خيله ورجله.

أشرط فلان نفسه: لأمر كذا؛ أي أعلمها وأعدّها، قال الأصمعي: ومنه سمّي الشرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، الواحد شرطة وشرطي.

وبق يبق وبوقاً: أي هلك، وأوبقه: أي أهلكه.

الحطام: متاع الدنيا، وأصله من الحطم وهو كسر النبات.

النهزة: الفرصة، وانتهزتها: أي اغتنمتها.

المقنب: بكسر الميم وفتح النون ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل، وأيضاً شيء يكون مع الصائد يجعل فيه ما يصيده ويقوده قرينة الأول.

قدت الفرس وغيره أقوده قوداً ومقادة وقيدودة.

نبرت الشيء أنبره نبراً: أي رفعته ومنه سمّي المنبر.

فرع المنبر يفرعه: أي علاه، يقال: فرعت الجبل: أي صعدته، وفرعت رأسه بالعصا: أي علوته، وفرعت قومي: أي علوتهم بالشرف أو بالجمال.

طامن من شخصه: أي خفض، والاسم: الطمأنينة، وهي السكون بعد الانزعاج، واطمأنّ بمعناه.

قال سيبويه[١]: وزن طامن فعلك، واطمأنّ قلوب عنه ووزنه افعلل، قال الجرمي: طامن على وزن فعلل، وأطمأن وزنه افعلل.

شمّر عن ثوبه: أي زخرف أي زيّن، وأصله من الزخرف الذهب الذي

---

(١) أبوالحسن عمروبن عثمان بن قنبر الفارسي البيضاوي؛ النحوي المشتهر كلامه وكتابه في الافاق، أخذ عن الخليل ويونس والأخفش، توفي سنة ١٨٠ بشيراز وقبره معروف، وقد جدّدت عمارته، واقيم له بشيراز حفلة علمية عالمية، والقيت كلمات حول حياته العلمية وخدماته الاسلامية.

يزيّن كلّ شي ء، والمزخرف المزيّن.

الذريعة: الوسيلة، يقال: قد تذرّع فلان بذريعة: أي توسّل، والجمع الذرائع. قعد قعوداً ومقعداً: أي جلس وأقعده غيره.

الملك: ضبط الشي ء المتصرّف فيه بالحكم، والملك كالجنس للملك، فكلّ ملك ملك، وليس كلّ ملك ملكاً.

ضؤول ضآلة وضؤولة: إذا صغر، ورجل ضئيل الجسم إذا كان صغير الجسم نحيفاً، وأراد بضؤولة نفسه حقارتها.

السبب: في أصل اللغة الحبل الذي يصعد به النخل، وجمعه أسباب، ثمّ شاع في كلّ ما يتوصّل به إلى شي ء.

قصرت الشي ء أقصره قصراً: حبسته، ومنه مقصورة الجامع، وقصرت الشي ء على كذا إذا لم يجاوز به إلى غيره، وهو المراد هنا.

تحلّى بالحلى: أي تزيّن به.

القناعة: بالفتح الاجتزاء باليسير من الأغراض المحتاج إليها، يقال: قنع بالكسر في الماضي والفتح في الغابر قناعة فهو قنوع، وقنع وأقنعه الشي ء أي أرضاه، وقيل: قنع يقنع قنوعاً إذا سأل فهو قانع أي سائل، قال تعالى: «وأطعموا القانع والمعترّ[١]».

قال بعضهم: القانع هو السائل الذي لا يلحّ في السؤال ويرضى بما يأتيه عفواً، والقنوع هو الراضي بالقليل.

المراح: بفتح الميم الموضع الذي يروح منه القوم أو يروحون إليه.

المغدى: من الغداة، يقال ما ترك فلان من أبيه مغدى ولا مراحاً: إذا أشبهه في أحواله كلّها.

غضّ بصره: أي خفّضه.

---

(١) الحج: ٣٦.

قال الجوهري: المرجع: كالرجوع مصدر، ومنه قوله تعالى: «إلى ربّكم مرجعكم[1]» أي رجوعكم، وهو شاذّ لأن المصادر من فعل يفعل انما تكون بالفتح.

أراق الماء وغيره أراقه: أي صبّه.

حشرت الناس أحشرهم: وأحشرهم حشراً جمعتهم، ومنه يوم الحشر، والمحشر بكسر الشين موضع الحشر، والمحشر بالفتح هو الرواية، وهو مصدر.

الشريد: الطريد، والتشريد التطريد، ومنه فشرّد بهم من خلفهم أي فرّق وبدّد جمعهم، وليس من شرد البعير يشرد شروداً أو شراداً، اسم الفاعل شارد وشرود لا شريد.

ندّ البعير: يندّ ندّاً ونداداً وندوداً إذا نفر وذهب على وجهه فهو ناد.

قمعته وأقمعته: بمعنى أي قهرته وأذللته، فانقمع فهو قامع وذاك مقموع.

المكعوم: الممنوع من كلام، كأنه سدّ فوه بالكعام، وهو شيء يجعل في فم البعير عند الهياج، يقال: كعمت البعير إذا شددت فاه بالكعام.

الثكل: فقدان المرأة ولدها، وكذلك الثكل بالتحريك، وامرأة ثاكل وثكلى وثكلان.

الوجع: المرض، والجمع أوجاع ووجاع، فلان يوجع وييجع وياجع فهو وجع، وأوجع فلاناً يوجعه ايجاعاً أي أوله، فهو موجع وذاك موجع.

أخملتهم: أي اسقطتهم من الإخمال أي الاسقاط. التقية: الخوف، وكذا التقوى.

شملتهم: أي عمّتهم.

ماء أُجاج: أي ملح مر وقد أجّ الماء يؤجّ اجحاً أي ملح.

أفواههم: جمع فم، وأصل فم فوه.

---

(١) الانعام: ١٦٤.

ضمز يضمز ضمزاً: سكت ولم يتكلّم، وكلّ ساكت ضامز وضموز.

قرح جلده: بالكسر يقرح قرحاً فهو قرح إذا خرجت به القروح، وقرحه قرحاً خرجه فهو قريح، وقوم قرحى، وقرحة من الأول.

الحثالة: ما يسقط من قشر الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشارة إذا نقي، وحثالة الدهن: ثقله، فكأنه الرديء من كل شيء.

القرظ: ورق السلم يدبغ به، ومنه أديم مقروظ.

قرضت الشيء وأقرضه: بالكسر قرضاً قطعته، والقراضة ما سقط بالقرض، ومنه قراضة الذهب.

الجلم: المقراض الذي يجز به أوبار الابل.

الرفض: الترك، وقد رفضه يرفضه ويرفضه رفضاً ورفضاً، والشيء رفيض ومرفوض، والروافض جند تركوا قائدهم، والرافضة: فرقة من الشيعة، قال الأصمعي: سمّوا بذلك لتركهم زيد بن علي عليه السلام.

ذميمة: فعيلة من الذمامة الحقارة.

أشعف: من شعفه الحبّ أحرق قلبه، لا من شغفه الحب بالغين المعجمة أي بلغ شغافه وهو غلاف القلب، وان احتمل دراية لأن الرواية لم تساعده.

الاعراب

يعدّ فيه المحسن: وما عطف عليه جمل وقعت نعوتاً لدهر وزمن. منع انما يتعدّى إلى المفعول الثاني بواسطة عن، يقال: منعته عن الشيء فامتنع منه، وهنا في قوله لا يمنعه الفساد، وقد حذف منه الخافض ونصب على نزعه، تقديره: لا يمنعه عن الفساد.

الألف واللام في المصلت وأخويه: بمعنى الذي. ومما لك: عطف على ما قبله، تقديره: أن يرى الدنيا عوضاً ممالك عند الله. ذلك في قوله ليس في ذلك في

مراح ولا مغدى: اشارة إلى المذكور من التحلّي باسم القناعة، والتزيّن بلباس أهل الزهادة.

ذميمة: حال من الضمير المنصوب في وارفضوها، والضمير في فانها ورفضت وبها للدنيا.

المعاني

التنكير في دهر وزمن: للتعظيم والتهويل. ولا ننتفع بما علمنا إلى بنا: ساق الكلام على طريقة قوله تعالى: «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»، المسماة بالمنصف لأنه عليه السلام ليس ممن لم ينتفع، ولم يسأل عما جهله لو أمكن، ولم يتخوّف قارعة تحلّ به ليكون أقرب إلى القبول، وهذه لها من البلاغة يد طولى على ما عرفتها في موضعها في المعاني.

قوله منهم من لا يمنعه إلى مهانة نفسه: القصر للإفراد على تنزيل المخاطبين منزلة المشاركين، وهو قصر المفعولية على الفاعلية.

يعني: كونه ممنوعاً عن الفساد، ليس له مانع إلّا شيء واحد هو مجموع مهانة نفسه، وكلالة حدّه، ونضيض وفره، لا أن هذا المجموع لا يجوز أن يكون مانعاً لشيء آخر، وهو دقيق جداً، انما عدل في المصلت عن الذي إلى اللام رعاية للاختصار المطلوب، وايذاناً ببيانه على الأمور المذكورة، قطع قد أشرط وقد طامن ليؤذن بتعليل السابق عليه. في تقديم عن طلب الملك على ضؤولة نفسه: فائدة القصر للإفراد على الوجه الذي عرفت آنفاً.

الفاء في فقصرته: يحتمل أن تكون فصيحة، وأن تكون سببية، وفي فتحلّى الظاهر أنها فصيحة لأنها تفصح عن محذوف وهو سبب للتحلّي، تقديره: لما قصرته الحال على حاله ولم يتهيأ له الظفر بالمقصود وتحير[1] في الطريق الموصل إليه واختار

---

(١) كذا في الأصل.

المنكر والرزق فتحلى باسم القناعة . التنوين في رجال للتعظيم؛ أي رجال معظّمون ذوو هم عالية وأولو عزوم جازمة .

الفاء في فهم: لعطف الجملة الاسمية على الفعلية لفظاً، فادة ولا السببية معنى، وذكرهم للاهتمام بشأنهم، وليدلّ على الثبات والاستقرار المستفادين من الجملة الاسمية، والنقل من الاسمية وإلى الفعلية في قوله قد أخملتهم للدلالة على تعليل المذكور سابقاً، وأن الاسقاط أمر عارض لهم ليس بذاتي، واعادة فهم للتأكيد، وقطع أفواههم عما قبله للإيذان بالتعليل.

الفاء في فليكن: للسببية. هذا كلام لو تلي على الحجارة لا نفجرت منها الأنهار، ولو وضع على الأرض لانغرست منها الاشجار، ولو ذكر لمريض لأبلّ أو رق به زمن لاستقلّ، أنظر كيف انشقّت مبانيه، وانطبقت ألفاظه على معانيه، أعربت مسالك انجازه عما تضمّن من مدارك إعجازه.

البيان

كلالة حدّه: كناية عن ضعفه عن الأمور وعجزه عن القيام بها.

المصلت بسيفه: كناية عن التغلّب وتناول ما أمكن تناوله بالغلبة والقهر، إذ الاصلات من لوازم التغلّب، والإعلان بالشرّ كناية عن المجاهرة برذائل الأخلاق، والاجلاب بالخيل والرجل: كناية عن جمع أسباب الظلم والقهر والتعدّي على الغير في الحطام، استعارة مكنى بها عن أن الغاية التي أفسد دينه لنيلها في غاية الحقارة، مستدعية لتشبيه المال بالحطام، وهما محسوسان.

وجه الشبه: أن المال الدنيوي بالنسبة إلى النعيم الأخروي المعدّ لمن أطاع الله ورسوله حقير، كما أن النبات اليابس حقير بالنسبة إلى الأخضر الناضر، أو أن المال لا نفع له بالقياس إلى العمل الصالح الباقية ثمرته في دار البقاء، كما أن اليابس من النبات لا نفع له بالقياس إلى المخضرّ الذي له ثمرة.

وكنّى بقوله مقنب يقوده: عن تحصيل الأعوان والأنصار الكثيرة. ولبئس المتجر الى عوضاً: راعى استعارة مكنياً بها عن أن من آثر الدنيا على الآخرة فهو بمعزل عن العقل. وفي غبن عظيم وخسران جسيم مستدعية لتشبيهات ثلاثة:

أ ـ تشبيه النفس وهي معقولة، بالمتاع الخطير وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في النفاسة والعزّة، وكذا تشبيه ما عندالله من النعيم الدائم والسرور المقيم وهو عقلي، بالجوهر النفيس وهو حسّي.

ووجه الشبه: اشتراكهما في كثرة رغبات نفس العقلاء اليهما وهو عقلي.

ب ـ تشبيه الدنيا بالثمن البخس وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الحقارة والخساسة وهو عقلي، وهذا تشبيه المفرد بالمفرد.

ج ـ تشبيه هيئة المتعب نفسه في تحصيل الدنيا المعرض عن الله وعما أعد للمحسنين وهي معقولة، بهيئة باذل المتاع النفيس في مقابلة الثمن البخس، وهي محسوسة، ووجه الشبه: أنّ من أعرض عن الله تعالى وأتعب نفسه في طلب الدنيا فهو في غبن عظيم عند العقلاء، وممن يلومونه وينسبونه إلى قلة العقل والبصارة، كما انّ من رضي بثمن بخس في مقابلة جوهر نفيس يعدّ سفيهاً قليل العقل والتجربة مغبوناً، وهو عقلي.

في ستر الله: تخييلية مكنى بها عن أن التقوى تحمي المتقين عن أن يردوا موارد الهلكة وتسترهم عن الشياطين، مستدعية لتشبيه التقوى وهو معقول، بالستر وهو عقلي.

قوله ليس في ذلك من مراح ولا مغدى: كناية عن أنه ليس له من القناعة ولا من الزهادة خلاق. في ساكت مكعوم: استعارة مكنى بها عن كونه ممنوعاً من الكلام، مستدعية لتشبيه هيئة منعه التقية من الظالمين عن أن يتكلم بحسب المشية، وهي معقولة، بهيئة منع الكعام البعير عن أن يتحرّك بحسب المشية، وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في المنع المطلق، وهو عقلي، وهذا التشبيه يستلزم تشبيه التقية وهي معقولة، بالكعام وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما آلة للمنع، وهو عقلي.

وفي ثكلان موجع: استعارة مكنى بها عن كونه مصاباً في الدين، مستدعية لتشبيه فوات الدين بغلبة الكفر والفسوق عليه، وهو معقول، بفوات الولد، وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الفوات المطلق وفي كونهما موجبين للتعب على صاحبهما، ولتشبيه صاحب الدين بالمرأة التي فقدت ولدها، ووجه الشبه: اشتراكهما في وقوع المصيبة.

بحر أجاج: استعارة مكنى بها عن كونهم في الدنيا في مشقّة وتعب، مستدعية لتشبيه الدنيا بما هي عليه من الأحوال الباطلة، بالبحر المشتمل على الماء المالح المر، وهما محسوسان، ووجه الشبه: أن الدنيا لا تصلح ان يفتتنها من فيها وينتفع، لكونها سبباً للعذاب في الآخرة، كما لا يصلح البحر أن ينتفع بمائه المالح السابح فيه، لكونه سبباً لقطع الأمعاء والهلاك.

ويحتمل أن يكون التشبيه اللازم؛ تشبيه كون المتقين في الدنيا تكون السابحين في البحر المالح، ووجه الشبه: ان المتقين فيها لا يقدرون أن يسكتوا عن المناهي لغلبة داعية النهي عن المنكر عليهم، ولا أن يتكلموا بالنهي عنها للخوف من غلبة الظالمين عليهم، كما أن السابحين لا يقدرون أن يطبقوا أفواههم لئلاّ يصبّ فيها الماء لغلبة داعية النفس عليهم والعطش، ولا أن يفتحوها للخوف من غلبة الماء المالح القاطع للاحشاء عليهم ودخوله فيها.

وهو احتمال لطيف جداً، والى مثل التشبيه أشار لقمان، حيث قال: إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الايمان بالله، وشراعها التوكّل على الله، لعلك تنجو، وما أراك ناجياً. في أفواههم ضامرة: ان كان بالراء المهملة؛ استعارة مكنى بها عن كثرة صيامهم وبعدهم عن

الالتذاذ باللذات الحسية المألوفة، مستدعية لتشبيه أفواههم بالفرس الضامر، ووجه الشبه: اشتراكهما في بعد العهد عن الطعام، وطريان الضعف اليهما، وهو عقلي.

ولو قلنا إن فيه في المفرد والتركيب: أما في المفرد فلأنه أطلق الأفواه وأراد الأبدان، من باب اطلاق اسم الجزء وارادة الكل، وأما في التركيب فلأنه أسند الضمور الى الأفواه على أنه حقيقة فى الفرس بناءً على التشبيه المذكور لكان حسناً قريباً الى المراد، وان كان بالزاي المعجمة ففيه مجاز في الاسناد حيث أسند السكوت الى الأفواه اعتباراً بأنها طريق الكلام على أنه من باب اطلاق الجزء وارادة الكل، لأن السكوت بالحقيقة لا يقع الا مسنداً الى الشخص.

قوله قتلوا حتى قلّوا: مجازاً في الاسناد، لأنه اسند القتل الى الكل مع بقائهم، من باب اطلاق الكل وارادة الجزء، أو من باب اطلاق السبب الغائي وارادة المسبب، اذهم مقصودون بالقتل وحتى مع خلوّ قرينة المجاز.

البديع

بين عنود وكنود: المتوازي والترصيع، وبين عنود وشديد: المتوازي لا غير.

وقوله يعد: المطابقة؛ حيث طابق بين المحسن والمسيء ،وفي قوله لا ننتفع الى جهلنا: المقابلة؛ حيث قابل العلم بالجهل، وبين ثمناً وعوضاً: المتوازن، كما بين دينه ونفسه، وشخصه وخطوه وثوبه، وبين نفسه وسببه، وان اعتبر بالضمائر فالمطرف.

وبين القناعة والزهادة: المتوازي والترصيع.

بين المراح والمغدى: المقابلة، وبين المرجع والمحشر: المتوازي، كما بين مقموع ومكعوم، وبين التقية والذلة: المطرف، كما بين ضامرة وقرحة، وبين ملوا وذلوا وقلوا: المتوازي والترصيع، وبين القرظ والجلم المتوازي.

الفحوى

اعلـم أنـه عليـه السـلام قد بيّـن في هذه الخطبـة وصـف الزمـان بـالشدة، وتصنيف الناس الى اصناف، والتحذير عن الدنيا، فهنا مقاصد ثلاثة:

المقصد الأول: في بيان وصف الزمـان بالشدة والجور: لما كان الزمـان من الأسباب المعدّة لحدوث ما يحدث فيه من الامتزاجات ومـا يتبعها مما يـعد خيرا أو شراً، وكان يتفـاوت في الأعداد، بأن يكون في بـعضها يعد مـا يعد شراً، وفي بعضها ما يعد خيـراً كان نسبة الجـور والشـدة الى بعض الازمنة صـحيحة، ونسبة الـعدل والحسن الى بعضها واقعاً على النظام، اذا عرفت ذلك.

فقوله إنا اصبحنا في دهر عنود وزمن كنود:

إشارة الى أن الزمان الذي صار فيـه خارجاً عن قانون نظام العالم الذي هو الـعدالة، جـار على سنن الشـدة، وذكر لـه أو صافاً خمسة بهـا صـار موصـوفـاً بـالجور والشدة:

الأول: أشار إليه بقوله: يعدّ المحسن مسيئاً:

وذلك لأن الغالب على طباع أهـل ذلك الزمان التظاهر بالفسق والإسـاءة واظهار رذائل الاخلاق... [1]، أعنه الملكات الرديئة ديدناً لهم وعادة، يحسبون أن كل فعل حسن لـكونه خارجاً عـن قانون ما هومقتضى طباعهم قبيحاً سيئـاً، وكل فعل قبيـح حسناً، وأيضاً لو عـلموا لنسبـوا المحسنين الى الإسـاءة في الفعل، بأن قالوا أحسنوا رياء أو سمـعة أو غيرهما حسداً عليهم، وطمعاً في أن يلحقوا بهم في درجاتهم في الاساءة.

الثاني: أشار إليه بقوله: يزداد الظالم فيه عتوّاً:

وذلك لأن مظهر الظلم والطـغيان النفس الأمارة بالسـوء، وهـي في زمان العدل ملحـة بحكمه العدل مقهور دائماً أو في اكثر الأحوال، وهي طالبة للفوز بمطالبها

---

(١) كذا بياض في الاصل.

على سبيل الاختلاس بخلافها في زمان الجور فانها مطلقة العنان في كل ما أرادت، فالظالم في زمان العدل ونظام الشرعية كالسارق لا يأمن في كل لحظة أن يقع به المكروه فلا يقدر أن يقدم دائماً، وفي زمان الظلم كالناهب الذي ليس له التفات الى أحد فيأخذ بحسب مشيته، ولهذا كان ظلم الظالم في زمان الجور أزيد زمانه عليه السلام بالنسبة الى زمان الرسول صلى الله عليه وآله كذلك.

الثالث: أشار إليه بقوله لا ننتفع بما علمنا:

وهو توبيخ للعالمين بما جاء به صاحب الشريعة نبينا صلوات الله عليه، المقصرين في الاعمال التي اقتضاها علمهم، اذ الانتفاع بالعلم أن يتخذه اماماً للعمل على ما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وآله: العلم إمام العمل تابعه، فاذا لم يتفق العمل بما علم كان علمه وبالاً عليه في الدنيا والعقبى، أما في الدنيا فلأنه يصير سبباً لضلال الناس، أما في العقبى فظاهر.

ومن ثم استعاذ الرسول صلى الله عليه وآله في دعائه من العلم الذي لا ينفع، حيث قال: اني أعوذبك من علم لا ينفع، وحقهما أن يتلازما، لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغني اس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أُساً، كذا لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم، وكذا قال تعالى: اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه[1]، فاذا انفكّ أحدهما عن الآخر ظهر الفساد وبان الجور.

الرابع: أشار إليه بقوله لا نسأل عما جهلنا:

وهو توبيخ للمقصرين في العلم بالسؤال عما جهلوا به لقلة التفاتهم اليه، بواسطة انهماكهم في اللذات الحسية الحاضرة أو لجهلهم المركب، قد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت اكثر أهلها الفقراء، فقالوا: يا رسول الله من المال؟ قال: لا من العلم.

---

(١) فاطر: ١٠.

الخامس: أشار إليه بقوله ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا:

ذلك لعدم مبالاتهم لعواقب امورهم وعدم تدبرهم في مصالحهم الدينية، لاشتغالهم باللذات الحاضرة وحبهم اياها، وهوتوبيخ للمقصرين في الجهاد حتى يضطرهم بأن يحل بهم بغتة، وقد أشار الى أن التقصير مثمر للذلة بقوله: ما غزي قوم قط في عقردارهم الا ذلّوا، ولما كانت هذه الامور الخمسة خارجة عن نظام العدل كانت من معدات كون الزمان المشتمل عليها جائراً، والله أعلم.

المقصد الثاني: في بيان أقسام الناس، اعلم أنه عليه السلام ذكر من الناس الذين هم في زمان الجور، وقسّمهم على أربعة أصناف وذكر صنفاً ليسوا من أهله، والحق ان الناس مطلقاً على خمسة اصناف: صنف ثابتون على الصراط المستقيم، وأربعة اصناف منحرفون عنه، ووجه هذه القسمة ان الناس اما طالبون لله أو للدنيا، والطالبون للدنيا إما قادرون عليها أو غير قادرين، وغير القادرين اما يحتالون لطلبها أم غير محتالين، والمحتالون لها إما أن يؤهّلوا أنفسهم للإمارة والملك أم لا، فهذه أقسام خمسة لا غبار عليها:

الصنف الأول: الطالبون للدنيا غير القادرين عليها وغير المحتالين، وقد أشار اليهم بقوله: منهم من لا يمنعه الفساد الى وفره: أي بعضهم لا يمنعهم عن الفساد في الأرض الا ثلاثة امور: حقارة نفسه وضعفه وقلة ماله، ولا خفاء في أن الطالب للدنيا المعرض عن الله اذا خلا من الموانع المذكورة ووجه الدنيا لم يكن سعيه فيها الافاز.

الصنف الثاني: أشار اليهم بقوله ومنهم الى يفرعه: وهم القادرون على الدنيا الطالبون لها، أي أنهم الذين أطلقوا عنان الشهوة والغضب في تحصيل ما يتخيلونه كمالاً من الأعراض التي يتوجه اليها في الأغلب هم أرباب الدنيا، وهي جمع المال أو الرياسة الدنيوية بإفشاء الخيل والنعم على الأعوان والأنصار، أو الرياسة الدينية كافتراع المنابر وجعل نفسه مفتياً أو قاضياً أو واعظاً أو شيخاً، ثم

أشار الى وقوع هذا الصنف في الخسران العظيم بسبب توجّههم الى الاعراض المذكورة بقوله: وليس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً.

وذلك لأن من جعل غرضه الدنيا قد جعل نفسه طالبة لها معرضة عما سواها، فلم تكن نفسه ملتفتة الى الله تعالى، فكأنه بدل النفس ورضى بعوضها عن الدنيا ان نالها وهو غبن عظيم، لأنه تعالى جعل ثمنها الجنة التي هي الدار الباقية، حيث قال: ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأي غبن أعظم من أن يعرض عن معاملته تعالى وعن الثمن الباقي ويرضى بمعاملة هواه والثمن البخس الفاني، اللهم أعذنا من هذه المعاملة النائرة والصفقة الخاسرة.

الصنف الثالث: غير القادرين عليها مع طلبهم لها المحتالون لها المعدون أنفسهم لأمور دون الملك، وهم المشار اليهم بقوله: ومنهم من يطلب الى المعصية، قوله من يطلب الدنيا بعمل الآخرة: إشارة الى وجه الحيلة لها على سبيل الاجمال من الرياء والسمعة؛ أي يأتون بالأعمال التي شابهت الأعمال الأخروية في الصورة دون الحقيقة لخلوها من الاخلاص الذي بمنزلة القلب منها والروح، ويجعلونها أسباباً لأقسام الدنيا وأعراضها.

قوله ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا: اشارة إلى عدم ارادتهم للآخرة واتعاب أنفسهم في الدنيا لطلبها.

قوله قد طامن إلى زخرف من نفسه:

اشارة إلى تفصيل ما أجمل أولاً: أي أنه شعار الصالحين من الخضوع في الصورة وتقارب الخطى ورفع الذيل، وتزيّن النفس بالأعمال الصالحة ظاهراً سبكاً لاقتناص الدنيا، واتخذ ستر الله الذي هو التقوى وسيلة إلى الظفر بالدنيا، بأن صام دائماً وقام بالليل، وسكت ظاهراً عن المناهي ليشتهر بين أرباب الدنيا أنه رجل صالح معرض عن الدنيا مقبل إلى الله بالكلية، ويتوجّهون إليه متقرّبين خاضعين له منقادين مطيعين، فيحصل منهم مقصوده من الدنيا هؤلاء بالحقيقة، قال الله

تعالى فيهم: «فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون[(١)]».

الصنف الرابع: غير القادرين عليها المحتالون لما المؤهلون أنفسهم للإمارة والملك، وهم المشار إليهم بقوله ومنهم من أقعده إلى آخره: أي ليس المانع عما يرومه من الملك إلّا أمرين: أحدهما: ضعف نفسه وتخيلها العجز عن طلب الملك، الثاني: هو سبب ذلك الضعف وهو انقطاع سببه أي سبب طلب الملك من المال والأعوان والأنصار.

قوله فقصرته الحال على حاله: أي بانقطاع سببه أفضاه إلى أن يتجاوز عما اقتضته حاله من العجز والسكوت عما لا قدرة له عليه، ولما عجز عن هذا الطريق عدل إلى الحيلة وتزيّن باسم القناعة، وأظهر بين الناس أنه قنع معرض عن الزيادة، وتزيّن بلباس أهل الزهادة بأن واظب على العبادات وجعلها كاللباس الظاهر لنفسه طلباً لمقصوده من الترؤس، ثم أشار بقوله وليس إلى مغدى إلى أنه خال عما تزين.

الصنف الخامس: هم الطالبون لله تعالى المعرضون عن الدنيا وأعراضها بالكلية، وهم المشار إليهم بقوله: بقي رجال إلى قلّوا، وقد ذكر لهم أوصافاً عشرة:

الأول: أشار إليه بقوله غض أبصارهم ذكر المرجع: وذلك لأن المقبل إلى الله بالكلية إذا استحضر في ذهنه أنه واقف بين يديه تعالى اعرض عن غيره، لاستغراقه في مطالعة أنوار جلاله وخوفه من أن يشتغل عنه تعالى، فلا يزال قلبه غريقاً في مراقبته بحيث لا يخطر به طرفة عين التفات إلى غيره.

فلم تكن بصيرة الحسنى أيضاً ملتفتة إلى غيره لأنه تابع للقلب، يكون ذكر المرجع إلى الله تعالى قد خفّض أبصارهم عن أن يقع على الغير، وأيضاً من ذكر أن المرجع هو والمبدأ منه لم يقع نظره بحال من الأحوال إلى شيء لعدم وجوده في نظره،

---

(١) الماعون: ٤ــ٧.

ومن شرائط الإبصار وجود المبصر، فاذا لم يكن لشيء وجود بالنسبة إلى وجوده تعالى، لم يقع بصره على شيء البتّة، وهو المراد بالغضّ.

الثاني: أشار إليه بقوله أراق دموعهم خوف المحشر:

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وهو ينتظم من علم وحال وعمل، أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن يكون جنانه الخائف، وذلك كمن جنى على ملك ووقع في يده فخاف القتل، ويجوز الإفلات بالعفو ولكن يألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش خيانته وكون الملك حقوداً غضوباً قهاراً، وكونه محفوفاً بمن يحثّه على الانتقام خالياً ممن يتشفّع إليه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كلّ وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدّة تألّم القلب، ويحسب تفاوت هذه الأسباب بتفاوت الخوف بالضعف والقوة.

الثاني: أن يكون السبب هو صفة في المخوف وله احسار(١) كالذي وقع في مخالب سبع، فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهو سطوته وحرصه على الافتراس غالباً، أو صفة خيلته للمخوف منه لخوف من وقع في مجرى مسيل أو جوار حريق، فان الماء يخاف منه لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق كالنار على الإحراق، فالعلم بأسباب المكروه وهو المثير لنار القلب وحرقته وتألمه وهو الاحتراق انما يكون في القلب.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن الخوف من الله تعالى قد يكون بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم ينل، وقد يكون لكثرة الخيانة من العبد بمقارفة المعاصي، ويكون بحسب معرفته بالله تعالى بجميع صفاته ومعرفته نفسه

---

(١) كذا في الأصل.

جميعاً، فأخوف الناس لربه أعرفهم بربه وبنفسه، ولذلك قال النبي عليه السلام: أنا أخوفكم بالله، وقال تعالى: «انما يخشى الله من عباده العلماء[١]».

ثم إذ كملت المعرفة أورثت حال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الخوف عن القلب على البدن والجوارح والصفات، أما على البدن فبقطع النظر عن غيره تعالى والاقبال إليه بالكلية، وهو المشار اليه بقوله: غضّ أبصارهم ذكر المرجع، والتجوّل والصفاء والغشية على ما رويناه: أن زين العابدين عليه السلام لما أراد أن يلبّي ارتعد وغشي عليه في قوله عليه السلام فرض عليكم حج البيت والرغبة والبكاء، على ما روي أن داود النبي عليه السلام بقي أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى ينبت المرعى من دموعه، وقد ورد في فضيلة البكاء عن الخوف آيات وأخبار.

أما الآيات فمثل قوله تعالى: «يبكون ويزيدهم خشوعا[٢]»، وقوله تعالى: «فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً[٣]»، وقوله تعالى: «أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون[٤]»، أما الأخبار فقد قال النبي عليه السلام: ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دمعة وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله الآ حرمه على النار، وقال عليه السلام في دعائه: أللهم ارزقني عينين هطّالين، وقال عليه السلام: ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم اهريقت في سبيل الله.

وأما في الجوارح فيكفّها عن المعاصي ويقيّدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل، أما في الصفات فانه يقمع الشهوات وتكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف ويحصل في القلب الخشوع والذلول

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) الإسراء: ١٠٩.
(٣) التوبة: ٨٢.
(٤) النجم: ٥٩-٦٠.

والاستكانة ومفارقة الكبر والحسد والحقد، بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنّة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات.

ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضاري لا يدري أيغفل عنه فينفلت، أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا يتّسع فيه غيره، هذا حال من غلب عليه الخوف واستولى عليه، وإذا عرفت حقيقة الخوف فاعلم أن المخوف منه المكروه على قسمين:

احدهما: أن يكون مكروهاً لإفضائه إلى المكروه كالخوف من الموت قبل التوبة، وخوف نقض التوبة ونكث العهد، وخوف حال رقّة القلب وتبدّلها بالقساوة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء اتّباع الشهوات المألوفة على العبادة، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته التي اتّكل عليها واغترّ بها، أو خوف البطن بكثرة نعم الله تعالى، أو خوف الاشتغال عن الله لغير الله، او خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف تبعات الناس عنده في الغشّ والخيانة.

أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والإفضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطّلاع الله تعالى على سريرته في حال غفلته عنه، أو خوف الحيم[١] له عند السوء، فهذه كلّها مخاوف العارفين، ولكلّ واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المكروه لذاته.

الثاني: أن يكون مكروهاً لذاته مثل سكرات الموت وشدّته، وسؤال منكر ونكير، وعذاب القبر وهول المطلع، وهيئة الوقوف بين يدي الله تعالى، والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقير والقطمير، والخوف من الصراط وحدّته وكيفية العبور عليه، والخوف من النار وأغلالها وأهوالها، والخوف من الحرمان عن الجنة دار

---

(١) كذا في الاصل.

النعيم ونقصان الدرجات.

كل هذه أسباب مكروهة في أنفسها مخوفة منها و تختلف أحوال الخائفين فيها، وأعلاها رتبة خوف العارفين من القرآن والحجاب من الله تعالى وما قبلها، فهو خوف الصالحين والمتقين والزاهدين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم الفراق والبعد من الله تعالى، ومن كملت معرفته بالله فهو دائماً في درجة خوف الحجاب والفراق.

وقد روي: أنه سئل الجنيد[١] عن الصبر عن الله فزعق وغشي عليه، وتفصيل هذا المقام وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له، أما من كان أهلاً له فهو غنيّ بانفتاح بصيرته وكمال معرفته عن أن له غيره[٢]، قوله خوف المحشر من القسم الثاني، وانما أطنبت الكلام لأن كشف الغطاء عن المقام مسبوق بالإطناب، مع أن المتروك أكثر من المذكور بكثير.

الثالث: أشار إليه بقوله فهم إلى موجع: هذا يحتمل أن يكون إشارة إلى آحاد المتقين، يعني: بعضهم مطرود عن البلاد إما لكثرة نهيه عن المنكر أو لقلة صبره على مشاهدة المنكر، وبعضهم خائف عن أذى الظالمين وإيذائهم اياه مقهور بقهرهم، وبعضهم ممنوع عن الكلام اما لخوفه على نفسه أو لعلمه بأن كلامه لا يؤثّر لو تكلّم به، وبعضهم يتضرّع إلى الله بالابتهال ويدعو بالدعوات النافعة من قلب خالص عن شوائب الرياء صاف عن حبالة العجب.

منهم من صار حاله كامرأة فقدت ولدها وتواظب على الجزع والبكاء، إما لمشاهدته فوات الدين، أو لعدم قدرته على تحمّل أذى الظالمين، ويحتمل أن يكون تفصيلاً لمن أراق دموعهم خوف المحشر أي خوف المحشر فرقهم إلى فرق مختلفة على

---

(١) جنيد بن محمد ابوالقاسم الخزاز ويقال القواريري، اصله من نهاوند، مولده ومنشؤه ببغداد، وسمع بها الحديث ولقي العلماء، شيخ وقته وفريد عصره في علم الاحوال والكلام على لسان الصوفية، وله اخبار مشهورة، راجع تاريخ بغداد ج:٧ ص:١٤١.

(٢) كذا.

التفصيل المذكور.

الرابع: أشار إليه بقوله قد اخملتهم التقية: أي أرذلتهم التقية أي الخوف من أذى الظالمين بين الناس واسقطتهم عن درجة الاعتبار بينهم.

الخامس: أشار إليه بقوله شملتهم الذلّة أي عمّتهم الذلّة ... (١) مخالفتهم للظالمين الأكثرين في الطريقة والسيرة.

السادس: أشار إليه بقوله: فهم في بحر اجاج وقد عرفت معناه في البيان.

السابع: أشار إليه بقوله أفواههم ضامرة: وهو لازم عما قبله وتأكيد لشدّة حالهم في الدنيا، وقد عرفته أيضاً في البيان.

الثامن: أشار إليه بقوله قلوبهم قرحة: أي قلوبهم قد خرجت بها القروح، إما للخوف من الله أو للذلة أو للعطش إلى رحمته ورضوانه، أو لكثره مشاهدة المنكرات وعدم التمكّن من رفعها.

التاسع: أشار إليه بقوله: قد وعظوا حتى ملّوا أي خوّفوا الناس على اقدامهم على المنكرات من عقاب الله تعالى ... (١) فيما أعدّ الله للمحسنين حتى أصابتهم الملالة لعدم نفعه فيهم واتّعاظهم به.

العاشر: أشار اليه بقوله قهروا حتى ذلّوا وقتلوا حتى قلّوا وقد عرفته فيما قبل.

المقصد الثالث في الأمر بالحذر عن الدنيا واقتنائها: اعلم أنه عليه السلام أشار إليه بقوله: فليكن إلى الحلم إلى الأمر باستصغار الدنيا واستحقارها إلى حدّ يكون أحقر في أعينهم ما لا يلتفت اليه خاطر بوجه ما، لغاية حقارته ونهاية رداءته وهو حثالة القرظ وقراضة الجلم بالمطابقة وبالالتزام إلى تركها بالكلية والاعراض عنها رأساً، وذلك لأن استحقار الشيء يستلزم تركه والإعراض عنه.

وانّما وردت الآيات والأخبار والآثار عن أميرالمؤمنين عليه السلام بتركها، لأنا نعلم بالضرورة أن المقصود من خلق الانسان هو تحصيل السعادة الأخروية،

---

(١) كذا بياض في الاصل.

ولا تحصل إلا لمن قدم على الله تعالى عارفاً به محباً له، والعرفان لا يحصل إلّا بالإعراض عن كلّ شيء سواه تعالى الذي هو التحلية ودوام الذكر والفكر الذي هو التخلية، والإعراض لا يحصل إلا لمن رفض الدنيا بالكلية أولاً، فمن اشتغل بالدنيا أو بأسبابها فهو بمعزل عن المعرفة وعن ذوق تحصيلها.

فعلم من هذه المقدّمات تحقيق ما قال عليه السلام وما قاله النبي صلى الله عليه وآله: من أصبح والدنيا أكثر همّه فليس من الله في شيء، والزم قلبه أربع خصال: همّاً لا ينقطع عنه، وشغلاً لا ينفرج منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً.

وقال صلى الله عليه وآله: من أصبح وهمّه الدنيا شتّت الله عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم تأته الدنيا إلّا ما كسب له، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له أمره، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة.

ثم أشار بقوله واتعظوا بمن كان إلى من بعدكم: إلى الأمر بالاتّعاظ بأحوال الأمم السالفة والقرون الخالية، فانّ لهم نعيماً دائماً بالأموال الكثيرة والأعوان والأنصار والخيول المسوّمة والحرث والنسل، وقد تركوها نادمين على اقتنائها متحسّرين على تضييع أعمارهم في طلبها، ثم أشار بقوله قبل أن يتعظ بكم من بعدكم: إلى أن المفارقة عما كنتم فيه من اللذات الحاضرة ضرورية لكم لا محيص لكم عنها، فان لم تتعظوا بمن قبلكم فعن قريب يتعظ بكم من بعدكم.

روي: أن عيسى صلوات الله عليه كشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شوهاء عليها من كل زينة، فقال لها: كم نكحت؟ فقالت: اني لا احصيهم، فقال: فطلّقوك أو ماتوا عنك؟ قالت: بل قتلت كلهم، فقال عيسى صلوات الله عليه: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين. وهذا الأمر أيضاً بالالتزام دليل على الإعراض عنها، ثمّ عقّب الأمرين السابقين بالأمر الدالّ

بالصريح على تركها.

وقال وارفضوها في أعينكم: باردة على قلوبكم، كأنه عليه السلام شرط الرفض بذمامتها ولذا قدّم الأمر باستحقارها على الأمر بالرفض، وذلك لأن وجود الشرط مقدّم على المشروط، ولأن من كانت الدنيا عظيمة في عينه لا يقدر أن يتركها، ولو تركها بالصورة لا ... (١) ان يفرغ قلبه للإقبال إلى الله تعالى لاشتغال قلبه بها.

ثم أشار إلى ما يصلح تعليلاً لتركها وقال: فانها قد رفضت أي إن لم يرفضوها فانها لا تبقى لكم ولا تدوم، بل عن قريب تفارق عنكم وأنتم تبقون وحدكم، وكيف لا تترككم وقد تركت من كان أغلق قلباً بمحبتها منكم، وإذا لم تدم لمن كان أشدّ حباً لها منكم، فبالأحرى أن لا تدوم لكم.

وإذا كان حالها في العاقبة المفارقة، فاللائق بحال من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يترفّع عنها ويقبل على الله تعالى الباقي الدائم له النافع له صحبته، والله أعلم، وما قال السيد رضي الله عنه ظاهر الا الرغام وهو النحاس والتراب والخريت وهو الدليل الحاذق.

* * *

٣٢ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
(عند خروجه لقتال أهل البصرة)

قال عبدالله بن العباس: دخلت على أميرالمؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحبّ إلى من إمْرَتِكُمْ إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً، ثم خرج فخطب الناس فقال:ـ

---

(١) كذا بياض في الاصل.

إنَّ آللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفاتُهُمْ.

أَمَا وَآللهِ إنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ(١) بِحَذَافِيرِهَا: مَا عَجَزْتُ(٢) وَلاَ جَبُنْتُ، وَإنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا، فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ(٣) حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ، مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَآللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ؛ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ(٤)!

اللغة

الدخول: نقيض الخروج، ويستعمل ذلك في الزمان والمكان والأعمال.

ذوقار: منزل قريب من البصرة سمّي به لأنّه فيه بئراً وماؤها يشبه القار في السواد، وكانت فيه محاربة بين شيبان بسبب ودائع النعمان بن المنذر ملك العرب وبين أبرويز نائب كسرى، فظفرت بنوشيبان، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين انهزمت الفرس وغلبت العرب: هذا أول يوم انتصف العرب من العجم وباسمي نصروا.

---

(١) في ض وح وف ون: حتى ولت.

(٢) في ض وح وع: ما ضعفت ولا جنت.

(٣) في ض وش: فلأبقرنّ الباطل وفي ر: وروي: لأنقبنّ.

(٤) في ح هنا زيادة وهي: والله ما تنقم منا قريش الا ان الله اختارنا عليهم فادخلناهم في حيزنا فكانوا كما قال الاول:

ادمت لعمري شربك المحض صابحاً
واكلك بالزبد المقشرة البجرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن
علياً وحطنا حولك الجردوالسمرا

خصفت النعل: بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر خصفاً أي خرزتها فهي نعل ... [١].

والخسف: نعل ذات الطراق وكل طراق منها خصفة. يقال أمر بالضم فيهما امرة بكسر الالف وإمارة: أي صار أميراً.

والأمرة: بالفتح المرة الواحدة من الأمر، يقال: لك علي أمرة مطاعة؛ أي لك علي أمرة اطيعك فيها.

ساق الماشية: يسوقها سوقاً وسياقاً فهو سائق وسوّاق شدّة للمبالغة.

بوّأه تبوّأ: أي أسكن وأعطى المكان.

المحلّة: منزل القوم. المنجاة: اسم موضع النجاء.

القناة: الرمح ويجمع على قنوات، وقنى على فعول، وقناة الظهر: عموده المنتظم للفقار.

الصفاة: بفتح الصاد المهملة صخرة ملساء، يقال في المثل: ما تبدى صفاته، والجمع صفا مقصور، وأصفاء وصفى على وزن فعول.

الساقة جمع سائق. تولت أي أعرضت، يقال: تولّى عنه أي أعرض، وولت أي أدبرت .

حذافير الشيء أعاليه وجوانبه، يقال أعطاه الدنيا بحذافيرها: أي بأسرها، الواحد حذفار.

العجز: أصله التأخّر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر: أي مؤخّره، وصار في التعارف اسماً للقصور في فعل الشيء وهو ضد المقدرة.

والامرأة الكبيرة سمّيت عجوزاً لعجزها عن أكثر الأمور. نقب الجدار نقباً: أي نقبه وشقّه، ونقب البيطار سرة الدابة ليخرج منه ماء اصفر: أي شقّها وهو المراد هنا، وفي بعض النسخ: بالثاء المثلثة من الثقب، وفي بعضها:

---

(١) كذا بياض في الأصل.

لأنفبنّ: بالنون والفاء من الالفاء أي لاديلنّ، والأول اشهر وأصحّ رواية.

القرش: الكسب والجمع وقد قرش يقرش، قال الفراء: وبه سمّيت قريش وهي قبيلة، وأبوهم النضربن كنانةبن خزيمةبن مدركةبن مضر.

وكلّ من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه، وربما قالوا قريشي وهو القياس، فان أردت بقريش الحي صرّفته، وان أردت به القبيلة لم تصرّفه، والباقي ظاهر.

الاعراب

الواو في وهو يخصف نعله: للحال.

وكذاالواوان الداخلتان على النفي في قوله وليس أحد الى نبوة. ان في أما والله ان كنت: مخففة، والدليل عليه وجود اللام في لساقتها.

والضمير في ساقتها: للحرب وان بجر لها ذكر صريح تسويلاً على أن الوجود العقلي كالوجود الحسّي. وفي لمثلها روايتان: إحداهما: بكسر اللام ويكون متعلقاً بمسيري، الثانية: وهذا نعت لمسيري بفتحها وهي الداخلة على... (١)، ان وكافرين ومفتونين حالان.

المعاني

الجملتان المنفيتان الواقعتان حالين انما ادخل الواو عليهما لكونهما غير واردين على نهج الحال، وان كانتا واردتين على أصل الحال بكونهما فعليتين. الفاء في فساق فصيحة مفصحة عن محذوف هوسبب، تقديره: بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله ودعا الناس الى الحق ونهاهم عن الباطل، فقبل بعضهم رغبة وقوى حاله بالأعوان والأنصار. وفي فاستقامت للسببية الدالة على أن سكونهم في محلّهم

---

(١) كذا بياض في الأصل.

وبلوغهم الى منجاتهم سببان لاستقامة أمورهم تصريحية مستدعية لتشبيه قلوبهم بالصخرة الملساء، وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الخلوّ والصفاء من كل شيء يناسب كليهما وعدم ثبات الشيء عليهما، يعني: أن القلوب الخالية من الحق والاعتقادات الصحيحة لا يستقر عليها اصلاً شيء لصلابتها وملاستها، خلوّ الصخرة من الشيء وعدم استقرار الأشياء عليها، وهو عقلي، وبذكر الاطمينان الذي هو سكون القلب وفي صفاته جرّدها.

وفي لأنقبنّ الباطل: استعارة مجردة تخييلية مكنى بها عن اظهاره الحق من الباطل، مستدعية لتشبيه الباطل الذي امتزج به الحق، وهو عقلي، بالدابة التي كان في بطنها ماء أصفر، وهو حسّي، ووجه الشبه: اشتراكهما في الافتقار الى احتياجهما الى تميز الباطل عنهما، وهو عقلي، وتخييل أن الباطل من أفرادها، وإلّا لم يصحّ جعله منقوباً، وبذكر النقب والجنب جرّدها.

البديع

في إلا أن اقيم حقاً أو ادفع باطلاً: راعى المقابلة؛ حيث قابل الإقامة التي هي عبارة عن الإثبات بالدفع الذي هو النفي، والحق بالباطل كما في لأنقبن الباطل إلى جنبه. بين قناتهم وصفاتهم: المتوازي والترصيع، والباقي واضح.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام بيّن بالقسم البار نظره الى الإمارة ليس باعتبار أنها رياسة ...[1]، للانقياد والغرة والحرمة بين الناس وتملك قلوبهم على ما هو مطمح نظر الأمراء والخلفاء السابقين اكثرهم خصوصاً من نازعهم فيها، بل باعتبار أنها مما

(١) كذا بياض في الأصل.

يقيم به الحق ويدفع الباطل على سبيل الالتزام، وعلى سبيل المطابقة: ان النعلة التي لا قيمة لها تكون أحب عنده من الامرة باعتبار أنها رياسة دنيوية، وقال في جواب عبدالله بن العباس رحمة الله عليهما: والله لهي أحبّ الى باطلاً.

وغرضه عليه السلام من ذلك اعلامهم بأن طلبه عليه السلام ايا ها ليس كطلبهم، بل ليس الا ليجعلها آلة لإقامة الحق ودفع الباطل بخلافهم، فانهم يطلبونها للترفّع وجمع المال وغيرهما من الأسباب الدنيوية، وهذه الدعوى لا يقدر أن يأتي بها الا من ابتهج بمطالعة انوار كبريائه وغرق في بحار عرفانه بالكلية، بحيث لا يبقى له التفات الى غير بوجه ما...[١]، الذي اذاق كأس معرفته عبارة المخلصين، وأسكرهم عن الكائنات بالقاء عشقه في سويداوات قلوبهم.

ثمّ مهّد قاعدة لنفسه بيّن بها فضيلة نفسه بالالتزام، وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله بالمطابقة، ليعلموا أن مراده عليه السلام من القيام بالخلافة ليس الا مثل مراد الرسول عليه السلام من الرسالة وهو اقامة الحق ودفع الباطل، وقال: إن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله الى كافة العالمين خصوصاً الى العرب، والحال أن ليس أحد منهم يقرأ كتاباً؛ أي تبع كتاباً منزلاً من عندالله سبحانه ولا ديناً، ولا أحد منهم يدّعي نبوة؛أي سفارة من الله تعالى الى الخلق.

بل حال ما كانت الأهواء الباطلة غالبة عليهم وانواع الكفر راكمة عليهم فدعاهم الى الحق، بعضهم بالترغيب وبعضهم بالترهيب، فساق الناس مما كانوا عليه من الباطل باظهار المعجزات الباهرات والدلائل الظاهرة حتى أنزلهم منزلتهم التي خلقوا لأجلها، وهي لزوم المقصد المسمّى اسلاماً وديناً، وبلّغهم ما هو سبب نجاتهم وهو الدين الحقيقي الذي لا عوج فيه، ومن تمسّك به نجا،ومن انحرف عنه فقد ضلّ وغوى.

فلما سكنوا في مواطنهم الأصلية بحسب الفطرة الأصلية التي هي الاسلام،

---

(١) كذا بياض في الأصل.

انتظمت امور دولتهم واستقامت أحوالهم وأطمأنت صفاتهم، أي سكنت قلوبهم به التي كانت في القلق والاضطراب قبل بدء الاسلام.

كل ذلك بمقدم محمد صلى الله عليه وآله، فهو المنعم عليهم بانعام لا يوازيه شكر، فلا يوافق حالكم ان تخالفوا نصّه وأخباره، فان قيل: كيف يصح أن يقال بعث في حال ليس أحد منهم يقرأ كتاباً واليهود يقرأون التوراة والنصارى الانجيل.

قلنا: التوراة لكونها قد حرّفوها تصدق عليها انها ليست بكتاب من حيث هي محرّفة، بدليل قوله تعالى: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً(١)، أما النصارى فلكونهم قائلين بالتثليث، لا يبقى وثوق بنقلهم واعتماد على أخبارهم عما في أيديهم.

والنافون للتثليث قليل جداً، فلا يفيد قولهم: أن ما في أيديهم هو انجيل عيسى عليه السلام، فلم يكن المقر، وفي حال مبعث محمد عليه السلام كان منزلاً من عند الله سبحانه باليقين، قوله: أما والله إن كنت الى جبنت إشارة الى اثبات فضيلة نفسه وأنه من ساقتها أي ساقة الحرب، الدال عليها قوله: الله بعث على طريقة قولهم: من كذب كاتماً سراً له الى أن تولّت الحرب بأسرها أي انطفأت نار الفتنة والحرب واستقام الدين ولم يطرأ عليّ عجز وعليّ جبن، بل كنت شديد القلب ثابته.

قيل: تقديره لساق الناس وهم يومئذ كتائب عليه فكنت في ساقها حتى تولت الكتائب بأسرها، والسوق قد يكون سوقاً الى الهدى وهو المطلوب لذاته، وقد يكون سوق طرد هو المقصود بالعرض، ولما لم يكن سوق الحلوأ(٢) الى الهدى الا بايضاح السبيل اليه وذمّهم عما كانوا عليه كان كونه من جملته.

ساقتها حتى تولّت بحذافيرها: مثبتاً لأن يكون من جملة الحامين للنبي عليه السلام والذابين عن حوزة الدين، بل من أعظمهم. قوله ما عجزت ولا

(١) الانعام: ٩١.
(٢) كذا في الاصل.

جبنت: دال بالمطابقة على العجز والجبن الذي هو طرف التفريط من فضيلة الشجاعة عن نفسه وبالتزام على إثبات فضيلة الشجاعة.

قوله عليه السلام وان مسيري هذا لمثلها: أي لمثل تلك الحال التي كنت عليها زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردهم من غير جبن ولا ضعف، وهو زجر لهم عما كانوا فيه وردع لهم عما اعتقدوا في حقه من فتور في الشجاعة والعقيدة، وبقوته لقلوب أوليائه وتوطين لنفوسهم، وحاصل المعنى يرجع الى ان حالي ما تغيّرت بعد الرسول صلى الله عليه وآله عما كانت عليه في زمانه عليه السلام، لا في الشجاعة ولا في قوة الدين.

قوله فلأنقبنّ الباطل الى جنبه: ايماء الى ان ما عليه خصومة باطل محض، واشارة الى اني لا اقرر الحق ماسّاً بالباطل أي معكم، بل اميز الحق من الباطل وأضع كلاً منهما في موضعه تمييزاً للبيطار الماء الاصفر من بطن الدابة بالشق. قوله ما لي ولقريش: انكار عليهم فيما يفعلونه من الجحد لفضيلته وحسم لاعدادهم في مقاومته.

قوله ولقد قاتلتهم كافرين: أي حاربتهم حال كونهم كافرين وسبقتهم من الكفر الى الدين أولاً، وهو تعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر ليقرّوا بفضيلته وأنه السابق في الدين.

فيكون الأولى بحماية حوزة الدين فلا يليق بحالهم مقابلته، واثبات أيضاً لفضيلته.

قوله ولأقاتلنّهم مفتونين: أي لأحاربنّهم حال كونهم مفتونين ضالّين عن الدين منحرفين عن سواء السبيل، فذكر كافرين ومفتونين يشعر أن علة مقاتلته اياهم كفرهم وفتنتهم، وان الفتنة مساوية الكفر في الاحواج إلى المقاتلة. قوله واني لصاحبهم بالأمس كما انا صاحبهم اليوم: توكيداً لما سبق وتذكيراً لهم بوقائعه في

بدء الاسلام وايماء الى ان الأمس[١]، لم يتغير، وأراد بالأمس حال كونهم كافرين، و باليوم حال كونهم مفتونين، والله أعلم.

* * *

٣٢ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

(في استنفار الناس إلى أهل الشام)

أُفٍّ لكُمْ، لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ!! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ ٱلْعِزِّ خَلَفاً؟ إذَا دَعَوْتُكُمْ إلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ في غَمْرَةٍ، وَمِنَ ٱلذُّهُولِ في سَكْرَةٍ، يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ. فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَألُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ، مَا أَنْتُمْ لي بِثِقَةٍ سَجِيسَ ٱللَّيالِي.

وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ[٢] يُمَالُ بِكُمْ، وَلاَ زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إلَيْكُمْ.

مَا أَنْتُمْ إلَّا كَإبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ، لَبِئْسَ ـ لَعَمْرُ ٱللهِ ـ سَعْرُ نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ[٣] فَلاَ تَمْتَعِضُونَ، لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ في غَفْلَةٍ سَاهُونَ، غُلِبَ وَٱللهِ ٱلْمُتَخاذِلُونَ، وَآيْمُ ٱللهِ إِنِّي لأَظُنُّ بِكُمْ، أَنْ لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى وَٱسْتَحَرَّ ٱلْمَوْتُ قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ ٱلرَّأْسِ[٤].

وَٱللهِ إِنَّ ٱمْرءاً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ، وَيَهْشِمُ

---

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) في ض وح: وما انتم بركن.

(٣) في ب وش: تنقص وفي ع: وينتقص اطرافكم.

(٤) في م: انفراج الرأس من الجسد.

عَظْمَهُ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ؛ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ، أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ، فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ[(١)] دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذاكَ[(٢)] ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا يَشَاءُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ[(٣)] فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

اللغة

قال الجوهري: الالفار عن الشيء...[(٤)].

الاستنفار: ...[(٥)] العَرْقُ: العظمُ الذي أخذ منه اللحم والجمع عراق، وقد يقال العراق اللحم الذي أخذ منه، يقال فلان معروق العظم ومعترق: أي قليل اللحم.

هشم العظم، يهشمه هشماً: أي كسره ودقّه وانّما سمّي هاشم به لهشمه الثريد في الجدوب، ولهذا قيل له:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ٭ ورجال مكة مسنتون عجاف

في يفري روايتان: إحداهما: يفري بفتح الياء من فريت الشيء أفريه فرياً قطعته لأصلحه، الثانية :يفري بضمها من أفريت الشيء شققته فانفرى أي انشق،

---

(١) في ف: فاما انا والله.

(٢) في ض وح وب: ان اعطي ذلك وفي ب: فذاك ضرب.

(٣) في م: فاما حقكم فالنصيحة لكم.

(٤) كذا بياض في الأصل.

(٥) بياض في الأصل.

قال الكسائي: أفريت الأديم: قطعته على جهة الافساد، وفريته: قطعته على جهة الاصلاح.

الضم: الجمع لشيئين فصاعداً.

الجوانح: الأضلاع تحت الترائب وهي مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر، الواحدة جانحة، وانما سميت بها لانعطافها عليه، يقال جنح يجنح وجنوحاً: أي مال. المشرفية: سيوف، قال أبوعبيدة: نسبت الى مشارف وهي قرى من ارض العرب تدنو من الريف، يقال سيف مشرفي ولا يقال مشارفي، لأن الجمع لا ينسب اليه اذا كان على هذا الوزن، لا يقال مهالبي ولا جعافري ولا عباقري.

فراش الرأس: عظام دقاق تلي القحف، وانما سميت بها لانبساطها على سطح الرأس، وكل قريب يفترش على الأرض أو قريب منها فهو فرش،الفراشة: التي تطير وتهافت على السراج، وفي المثل: أطيش من فراشة، والجمع فراش، والفراش أيضاً ما يبس بعد الماء من الطين على وجه الأرض، والإضافة الى الهام وهو الرأس قرينة الاول.

طاح يطوح يطيح: سقط وهلك، وكذلك اذا تاه في الارض.

السواعد: جمع ساعد، قال الجوهري: ساعدا الانسان عضداه، وهو غلط منه بل هما ذراعاه.

النصح: يجري[1]، فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، يقال: نصحتك نصحاً ونصاحة وهو استعماله باللام أفصح، قال تعالى: أنصح لكم، والاسم النصيحة، والنصيح الناصح، قيل: النصيحة ضم الأمر المتشعب بصدق في القول أو في الفعل، وانما سمّي الخياط ناصحاً لأنه يضم شتات الثوب المتمزق.

وفر عليه حقه: وفيراً واستوفره أي استوفاه.

الفيء: الغنيمة، وقيل: الفيء لا يقال الا للغنيمة التي لا يلحق فيها

(١) كذا في الأصل.

مشقّة، وقيل: سمّي ذلك بالفيء الذي هو الظل تنبيهاً على ان أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل، وعلى هذا قال الشاعر:

اری المال أفنـاء الظـلال عشية

وقال الشاعر:

انمـا الـدنـيـا كظـل زائـل

علمته وأعلمته: في الاصل واحد إلا ان الاعلام اختصّ بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير، حتى يحصل منه أثر لتعوّرها.

التأديب: الارشاد الى الطريق المحمود عقلاً وشرعاً، يقول: أدبته فتأدّب.

المشهد: مصدر شهده أي حضره، وكذا شهوداً.

والمغيب: أيضاً مصدر، يقال: غاب عنه غيباً وغيبة وغياباً وغيوباً ومغيباً: أي خفي عنه.

الاعراب

عوضاً وخلفاً: منصوبان على التميز.

يرتج عليكم حواري: حال منهم، والتقدير من الذهول في سكوره حال كونكم مسدوداً عليكم جوابي.

في زوافر روايتان: إحداهما: النصب عطفاً على محل بركن، اذ في محل النصب على أنه اسم ما بمعنى: ليس،تقديره: ما أنتم ركنا يمال بكم، الثانية: الجر عطفاً على لفظ بركن.

ضلّ رعاتها: جملة وقعت نعتاً لابل.

ولبئس سعر نار الحرب: ستعرف الكلام فيه في علم المعاني.

اسم اني الضمير الراجع الى نفس المتكلّم، وخبره لأظنّ.

وأن مخففة: من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، والجملة الشرطية خبرها، وهي مع اسمها وخبرها قائمة مقام مفعول أظنّ.

ان امرأ: اسم ان امرأ، والجمل بعده نعوت له، وخبره لعظيم عجزه. ضعيف: خبر بعد خبر، وما: موصول وضمت صلته، والضمير في عليه عائد الى الموصول.

وجوانح صدره: مفعول ما لم يسمّ فاعل ضمت، والموصول مع صلته في محل الرفع على أنه مفعول ضعيف، والباقي واضح.

المعاني

في أرضيتم: استفهام على سبيل الانكار عن حصول الرضا لهم، وأيضاً الاجمال والتفصيل، اذ كل تمييز مع مميزه له مرتبة الإجمال والتفصيل.

التنوين في غمرة وسكرة: للتفخيم.

ويرتج لكونه جملة واردة على أصل الحال لأنها فعلية وعلى نهجها لأنها مثبتة، ويكون فعلاً مضارعاً، حذفت الواو للربط لاستغنائها عنها في الكلام الفصيح.

الفاء في فتعمهون: للسببية الدالة على أن سدّ الكلام عليهم هو سبب لترددهم من الحسرة،ولما لم تكن أنتم لا تعقلون جملة واردة على أصل الحال لكونها اسمية، أتى بالواو، وانما قال أنتم لا تعقلون، ولم يقل لا تعقلون أنتم.

لأن مراده عليه السلام نفي العقل عنهم بالكلية واختصاصهم به، لأن المسلوب عنهم العقل هم دون غيرهم، والأول انما يفيد المراد دون الثاني، وذلك لأن أنتم فيما قال عليه السلام لتأكيد الحكم، وفي لا تعقلون أنتم لتأكيد المحكوم عليهم بأنهم هم لا غيرهم محورا[1]، او سهوا وقد عرفت تمام البحث فيه في المعاني.

---

(١) كذا في الأصل.

نظيره قوله تعالى: والّذين هم بربهم لا يشركون[1]، وقوله: لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون[2]، وفي تقديم لي على بثقة افاد التخصيص والقصر للإفراد، يعني: أنهم ليسوا بثقة لي خاصة لجواز ان يكونوا ثقة لغيره عليه السلام.

وانما قطع ما انتم لي بثقة عما قبله لعدم الجامع بينه. وبين السابق، قطع ما أنتم بركن وما أنتم إلا كابل ليدل على ان كلاً من الجمل يدل على السابقة وأنها غير وافية بتمام مراده، والمقام يقتضي الاعتناء بشأنه، ومعرفة مواقع الفصل من الوصل صعبة لا تهيّأ الا لمن له يد طولى في البلاغة.

في ما أنتم إلا كابل ضلّ رعاتها: القصر للقلب على تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، فانهم بفعلهم كانهم منكرون لكونه عليه السلام سائقهم وإن كانوا بالقول المجرد قائلين، وقد عرفت اشتمال لبئس لعمر الله على الإجمال والتفصيل، ودلالة الجمل المصدرّة بأن مع القسم واللام على أن الخطاب مع المنكرين قد عرفتها غير مرة، ايراد الجملة الدالة على الحكم العام ثم تعقيبه على الخصوص مع اقترانه بحرف الشرط من أوضح الامارات على كمال البلاغة، وذلك في قوله عليه السلام: والله ان امرأ الى ان شئت، والباقي معلوم من القواعد السالفة.

البيان

في أرضيتم بالحياة الى خلفاً: كناية في الإفراد واستعارة، أما الكناية: فلأنه عليه السلام ذكر بالحياة الدنيا والذل فيها وأراد ملزومها وهو ترك الجهاد المستلزم للبقاء في الأغلب، ولطمع العدو فيهم المستلزم للذل، وذكر الآخرة والعزة وأراد ملزومها وهو الجهاد المستلزم للحياة في الآخرة ان قتل شهيداً، لقوله تعالى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون[3]، ولكسر قلوب

(١) المؤمنون: ٥٩.

(٢) يس: ٧.

(٣) البقرة: ١٥٤.

الاعداء المستلزم للعزة.

أما الاستعارة: فلانه ذكر العوض والخلف اللذين من خواصّ المعاوضة، فيكون استعارة مكنياً بها عن لحوق الخسران العظيم بمن رضي بالحياة الدنيا الفانية والمذلّة فيها، وأعرض عن الحياة الباقية الابديّة والعزة السرمدية، مستدعية لتشبيه هيئة من استبدل الحياة الدنيا والذل، بل في غاية الخساسة بالآخرة والعزة، وهي معقولة، بهيئة من استبدل المتاع الخسيس بالمتاع النفيس، بل في غاية النفاسة، وهي محسوسة.

ووجه الشبه: اشتراكهما في الدلالة على غباوة المستبدل وجهله بمواقع الأمور، وفي لحوق الغبن العظيم، وهو عقلي.

في قوله دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة: كناية وتشبيه، أما الكناية: فلأنه عليه السلام ذكر دوران الأعين وأراد به ملزومها وهو الحيرة والخوف وهو ظاهر، أما التشبيه: فلأنه عليه السلام شبّه حالتهم تلك في دوران أعينهم بحالة المغمور في شدة الموت أو سكراته، وهما محسوسان. ووجه الشبه: أنهم ساهون عن عواقب امورهم، مشغولون بما كانوا مستغرقين فيه من الحيرة، كما أن المغمور لاشتغاله بالألم الذي حضره ويجده من نفسه، غافل عن حاضر أحواله، وهو معقول، وأيضاً شبه حالتهم بحال السكران بقوله:

ومن الذهول في سكرة: ووجه الشبه قريب مما ذكرنا، ولما كان وجه الشبه متحداً فيهما أو قريباً لأحدهما من الآخر اكتفى بذكر حرف التشبيه مرة واحدة، ثم شبه هيئة حالهم عند دعوتهم الى الجهاد من التحير والتردد بحال من اختلط عقله، أو بحال من تمكن في سويداء قلبه الغل والخيانة.

ووجه الشبه في الأول: اشتراكهما في عدم الاحاطة علماً بما يصدر منهما من القول والفعل، وهو عقلي، وفي الثاني: أنهم يطلبون مهرباً عن دعوته وسبباً يتسببون به لدفعه كالخائن اذا دعاه المؤمن الى ردّ الوديعة عليه يطلب دفعاً ومهرباً، وهو

عقلي ولطيف جداً.

في قوله ما أنتم لي بثقة: كناية عن كذبهم وخلفهم في المواعيد، اذ هما مستلزمان لعدم الاعتماد بالقول.

في ما أنتم بركن يمال بكم: استعارة تصريحية.

الافراء: رشّح الاستعارة وكنى عن هتك عرضهم وتمرين حالهم،يحتمل أن يكون المستعار منه في الأول عرق اللحم، وهو محسوس، والمستعار له سلب المال، وهو أيضاً محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الدلالة على العجز، وهوعقلي،فيكون استعارة تبعية غير مرشحة تصريحية.

في الثانية: المستعار منه هشم العظم، والمستعار له قتل النفوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاذى الشديد، وهو عقلي، فيكون استعارة تبعية غير مرشحة تصريحية.

في الثالث: المستعار منه افراء الجلد، والمستعار له هتك العرض، وهو عقلي، ووجه الشبه: اشتراكهما في اظهار المعائب وما هومخفي بساتر، وهو عقلي، فيكون أيضاً استعارة تبعية غير مرشحة تصريحية، والاستعارات الثلاث على التقدير الأول أصليات مرشحات.

في قوله تطير منه فراش الهام: استعارة تخييلية اصلية مكنى بها عن شدة تأثير ضربه عليه السلام، مستدعية لتشبيه فرش الهام بالطير، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في شرعة النقل، وهو عقلي، وبذكر تطير رشح الاستعارة، ويحتمل أن يكون استعارة تبعية تصريحية مستدعية لتشبيه شرعة فراش الهام بالنقل بطيران الطائر، ووجه الشبه ما ذكرنا.

واضافة الطيران الى الفراش وهو جمع فراشة السراج صنعة لا يتيسر مثلها لغيره عليه السلام، وكذا اضافة الفراش للهام وهما أيضاً من جنس الطيور أيضاً

عربية، والعجب انها تهيأت له من غير قصد له ذلك لتمرسه[١] في الفصاحة وتمرّنه بالبلاغة، ومثل هذا لرسول الله صلى الله عليه وآله يتفق، فانه كان يسمع لسانه بكلمات موزونة من غير قصد ذاك .

البديع

راعى في أرضيتم الى خلفاً: من المحسنات المعنوية المقابلة، حيث قابل الدنيا بالآخرة، والعز بالذل، ومن اللفظية المتوازن، بين عوضاً وخلفاً وبين غمرة وسكرة: المتوازي والترصيع، كما بين لحمه وعظمه وجلده، وبين الهام والاقدام: المطرف، وفي تعليمكم الى تعلموا: المقابلة؛ حيث قابل الجهل بالعلم كما في المشهد والمغيب، لعمر الله في قوله لبئس لعمر الله سعر ووالله في غلب والله المتخاذلون: حشو مليح.

الفحوى

روي: أنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة بعد فراغه من أمر الخوارج وقد كان قام بالنهروان، فحمدالله وأثنى عليه وقال: أما بعد فان الله تعالى قد أحسن نصركم فتوجهوا من فوركم هذا الى عدوكم من أهل الشام، فقالوا له: قد كلّت سيوفنا ، ارجع بنا الى مصرنا لنصلح عدّتنا، ولعل أميرالمؤمنين عليه السلام يزيد في عدونا ميل من هلك منا ليستعين به، فأجابهم:

يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم[٢]، وتوكّلوا عليه، فقالوا: ان البرد شديد، فقال: انهم يجدون البرد كما تجدون اف لكم، ثم تلا قوله تعالى: قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين[٣] .

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) المائدة: ٢١.

(٣) المائدة: ٢٢.

فقام منهم ناس واعتذروا بكثرة الجراح في الناس، وطلبوا أن يرجع بهم الى الكوفة ثم يخرج بهم، فرجع بهم غير راض وأنزلهم نخيلة وأمرهم أن يلزموا بعسكرهم، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم، ويقلّوا زيارة أهلهم، فلم يقبلوا وجعلوا يتسلّلون ويدخلون الكوفة، حتى لم يبق معه إلا القليل منهم، فلما رأى ذلك دخل في الكوفة فخطب الناس فقال: أيها الناس استعدوا لقتال عدو في جهادهم القربة الى الله ودرك الوسيلة عنده، قوم حيارى عن الحق لا ينصرونه، ووصفهم بأوصاف دالة على عدولهم عن الحق وانعطافهم الى الباطل.

ثم قال: فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً، قال: فلم ينفروا، فتركهم اياماً ثم خطبهم بهذه الخطبة وقال لهم ضجراً من تثاقلهم عن الجهاد وتواكلهم: اف لكم ثم بين سبب باقيفه[1]، لهم وقال: لقد سئمت عتابكم أي مللت من تخاذلكم بالعتاب واظهار ما لا يكون عذراً في التخلف عن الجهاد، ثم حثّهم عليه منكراً لقعودهم مستفهماً اياهم على سبيل الانكار والتوبيخ، وقال: ارضيتم الى خلفاً، والكلام فيه قد عرفته.

ثم وبخهم على تشبيطهم وتكاسلهم عند دعوتهم الى الجهاد لعروض رذائل لهم، وقال: اذ دعوتكم الى قوله لا تعقلون، الأولى: أشار اليه بقوله دارت الى سكرة، وهذا الوصف لازم لغلبة الخوف عليهم اذا دعاهم وتردّدهم في أن القيام به اقدام على الموت، وفي التخلف عنه مخالفة لقول الامام بالحق، وفي الأمرين خطر عظيم، والتردّد علامة الجبن أو عدم اليقين بما أعد الله للشهداء بقوله: ولكن احياء عند ربهم ولكن لا تشعرون.

الثاني: أشار إليه بقوله يرتج عليكم حواري؛ أي دارت اعينكم من غاية التردّد حال كونكم قد سدّ عليكم جوابي فتقعون في تيه الحيرة المستفادة من التردّد.

الثالث: أشار إليه بقوله كأن قلوبكم مالوسة: أي أنهم لكثرة ترددهم

---

(١) كذا في الأصل.

وتحيّرهم في التفصي عن عهدة جواب دعوته عليه السلام كمن أصاب قلبه منه لا يفهم ما يقول ولا يدري ما يتفوه به، وهذا التشبيه لوصفهم بقلة العقل وعدم درايتهم بما ينتظم به حالهم.

الرابعة: أشار إليها بقوله ما أنتم إلى الليالي: أي إنهم ليسوا ممن يعتمد عليه السلام على أقوالهم ويثق إلى مواعيدهم أبداً لكثرة اكاذيبهم وخلفهم في المواعيد، كأنه عليه السلام بهذا سلب الصدق وانجاز الوعد عنهم، وأثبت رذيلة الكذب والخلف فيهم.

الخامسة: أشار إليها بقوله ما أنتم بركن يمال بكم: أي أنهم ليسوا بجانب قوي يعتصم به ويسدّ به ظهره ويلتجئ إليه عند نزول الخطوب الملمّة وحدوث الكروب المدهمّة، وهذا مستلزم للعجز والتخاذل وعدم الأنفة والحمية.

السادسة: أشار إليها بقوله: ولا زوافر عز يفتقر إليكم؛ أي انهم ليسوا بأنصار وأعوان يحصل العزة بالاستنصار منهم عند الافتقار وعرض الحاجة إليهم، وهذا يستلزم ذلتهم وحقارتهم.

السابعة: أشار إليها بقوله: ما أنتم إلى قوله آخر: أي انهم شتتوا الآراء ضعيفا[1] العزوم لا اهتمام لهم بالجمع على مصلحة بها يكون نظام أحوالهم في الدارين، وهذا مستلزم لقلة تدبّرهم بعواقب الامور، وعدم اطمينان قلبهم بالامام الحق، وحيرتهم في أمر الدين، وعدم عقلهم ورأيهم.

الثامنة: أشار إليها بقوله: ليس إلى أنتم: أي انهم ليسوا مما يلتهب به نار الحرب؛ أي ليسوا من رجالها، وذلك لأن مدارها على الشجاعة وإصابة الرأي، وهم معزولون عنها لما عرفت.

التاسعة: أشار إليها بقوله: تكادون ولا تكيدون؛ أي تخدعون ويمكر بكم العدو في ايقاع الحرب عليكم وتقع الحرب بكم، ولا تقاتلون عدوكم بايقاع الخداع

(١) كذا في الأصل.

بهم والقاء الحرب إليهم، وهو وصف مستلزم للضعف في الرأي والجبن.

العاشرة: أشار إليها بقوله تنتقص إلى تمتعضون: أي يستولي العدو في كل وقت عليكم، وينقصون من أطراف مملكتكم ويقتلون منكم كثيراً، فلا تنزعجون عن ذلك ولا تصيبكم أنفة ولا حمية، وهو وصف لهم برذيلة المهانة.

الحادية عشر: أشار إليها بقوله: لا ينام عنكم إلى ساهون: أي أن عدوكم متيقظ لكم ومترصد لمكائدكم وأنتم مستقرون في غفلة عظيمة عنهم ساهون، ليس لكم تدبير مصالح أحوالكم، وكل هذا توبيخ لهم وحثّ لهم على الجهاد، وتنبيه لنفوسهم الراقدة في مراقد طباعها على ما ينبغي لهم من المصالح التي بها تنتظم أحوالهم على قانون الدين وأصول اليقين.

قوله غلب والله المتخاذلون: إشارة إلى أنهم سيغلبون بتخاذلهم، وانما لم يخصصهم بالخطاب أورد على صورة المجهول ليكون إلى القبول أقرب، وذلك لأنه جعل التخاذل علة للمغلوبية لما بيّن في الكتب الأصولية أن الاسم المشتق إذا أعقب بحكم كان المشتق منه علة لذلك الحكم.

فكلما وجد التخاذل وجد المغلوبية، وهم إذا رجعوا الى أنفسهم ووجدوها متخاذلين قطعوا بأنهم سيغلبون فينزجرون عن التخاذل ويكفّون عنه ويقومون بالجهاد، وأيضاً ادخال الألف واللام في الجمع دليل على العموم، وهذا من دقائق الكتاب.

قوله وأيم الله إلى الرأس: قسم بوحدانية الله تعالى أنه ليظن بهم أنهم إذا اشتدت الحرب واستحر الموت أي صار في غاية الشدة يتفرقون عنه أشدّ تفريق، اعلم أن انفراج الرأس مثل قيل أول من تكلم به أكثم بن صيفي [١] في وصفه له لابنه: يا بني لا تنفرجوا عند الشدائد انفراج الرأس لأنكم بعد ذلك لا تجتمعون على غزو، وفي معناه للعلماء أقوال:

---

(١) أكثم بن صيفي من حكام العرب مشهور.

الأول: قال ابن دريد[١] معناه: أن الرأس إذا انفرج عن البدن لا يعود إليه، ولا يكون له اتصال بعده، وصار البدن منفصلاً عنه بحيث لا يصلح لأمر ما.

الثاني: قال المفضّل: إن الرأس اسم رجل تنسب إليه بلدة صغيرة بالشام بين رملة وغزة[٢] مولد الشافعي ومنشئه، يقال لها بنت الرأس وفيها يباع الخمر، قال حسان بن ثابت الأنصاري:

كأنّ سبيئة من بنت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وكان هذا الرجل قد انفرج عن قومه ومكانه فلم يعد إليه، فضرب به المثل في الانفصال الشديد.

الثالث: قال بعضهم: أن الرأس إذا انفرج بعض عظامه عن بعض كان لا يقبل الاتصال بعده إلا نادراً.

الرابع: قال بعضهم: انفرجتم عنّي رأساً؛ أي قطعاً وبالكلية.

الخامس: قال بعضهم: معناه انفراج من يريد أن ينجو برأسه.

السادس: قال بعضهم: معناه انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع، فانه في غاية الشدة وأيضاً لا يعود إليه البتّة، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها.

السابع: قال بعضهم: معناه تفرّقتم عنّي وتفلّقتم تفلّق الهام عن مخّها، هذه استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه نفسه عليه السلام بمحلّ المخّ المحرّر في أكنّة العظام

---

(١) أبوبكر محمدبن دريد الأزدي البصري الشيعي الامامي، عالم، فاضل، أديب، شاعر، لغوي، كان واسع الرواية، لم ير أحفظ منه، يحكى: أنه كان اذا قرئ عليه ديوان شعر مرة واحدة حفظه، قام مقام الخليل بن أحمد، وأورد أشياء في اللغة، توفي ببغداد سنة ٣٢١.

(٢) رملة: مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباط المسلمين، وقد نسب اليها قوم من العلماء، وغزة: بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان، وهي من نواحي فلسطين، وفيها مات هاشم بن عبدمناف جد رسول الله صلى الله عليه وآله وبها قبره، ويقال لها غزة هاشم، وبها ولد أبوعبدالله الامام الشافعي وانتقل طفلاً إلى الحجاز.

وتشبيهم بالهام، ووجه الشبه في الأول: أنه أصل المسلمين وبه قوامهم كما أن المخ أصل الرأس وبه قوامه، وفي الثاني: أنهم بمنزلة الحافظين له عليه السلام عن اصابة الآفات، كما أن الهام وقاية للمخ، وهذان تشبيهان في المفرد.

وهنا تشبيه آخر في المركّب هو تعبية تفرّقهم عنه عليه السلام بتفرّق الهام عن المخّ، ووجه الشبه: اشتراكهما في إبطال الانتفاع بالاجتماع بالكلية، وهذه الاستعارة تقرّ بإعجازها الأذهان، وتجر لإيجازها الاذقان، لا يدرك شأوها، ولا يشقّ غبارها. قوله ووالله إلى صدره: اشارة إلى حكم عام: بأنّ من مكّن عدوّه من نفسه حتى يسلب ماله ويقصد نفسه بالقتل والنهب ويهتك عرضه، بحيث يبدو في التخاذل عن العدو والتضعيف والتكاسل للناظرين لكان في غاية الجبن ونهاية ضعف القلب.

ثم التفت منه وقال مخاطباً لمعين، مريداً به كل واحد ممن له صلاحيّة الدخول تحت الخطاب: أنت فكن ذاك ؛ أي ذاك المرء الموصوف ان شئت أن تصير من جملته وتنخرط في سلكه، وهذا أمر وارد على سبيل التهديد والوعيد، وحاصل مقصوده يرجع إلى أن كل من يقعد عن الجهاد ويتكاسل عنه ويتخاذل يغلب عليه عدوه ويقهره، بحيث لا يبقي له مالاً ولا نفساً ويهتك عرضه، فانه في غاية العجز ونهاية الجبن.

فأنتم ان لم تقوموا بالجهاد ولم تبعدوا أعداءكم عن دمائكم فتقهروا ويفنى مالكم ونفسكم وعرضكم في معرض الزوال، فقوموا ان كان لكم رجولية، وهو مبالغة عظيمة في الحثّ على الجهاد، وقيل: أراد بالخطاب مخصوصاً هو الأشعث بن قيس، ثمّ برّأ نفسه عليه السلام عن أن يكون ممن يمكّن عدوه وان اختار المخاطب ذلك، وقال: أما أنا فوالله دون أن اعطي ذاك ؛ أي أمكن عدوه من نفسه ذلك التمكين لا يأتي مني. ضرب بالمشرفية ينفصل عنه فراش الهام ويسقط منه السواعد والاقدام:

وذلك كناية عن أشد المجاهدة إذا وجّه إليه العدو قاصداً اياه، ويفعل الله بعد ذلك أي بعد الضرب العظيم المستلزم للجهاد الجسيم ما يشاء من تمكين العدو وعدم تمكينه، فان إليه مرجع الأمور وعواقبها، ثم لما فرغ من تهديدهم وزجرهم وتوبيخهم على أفعالهم القبيحة أردف ببيان ما لهم عليه من الحق وماله عليهم من الحق، وقدّم ما لهم عليه على ما له ليكون أقرب إلى السماع وأنسب بالأدب، فان البداية حق الغير.

قيل: حق النفس أليق بالأدب وأشار إلى ان ما عليه من حقوقهم قد وفيت، فيجب أن يوفوا ما عليهم من حقوقه، وقال: أيها الناس إلى آخره؛ وذكر أربعة أمور بها يكون صلاح حالهم في المعاد والمعاش، وقدّم ما يرجع إليهما غير مختصّ بأحدهما، ثم ما يختص بصلاحهم في المعاش، ثم ذكر أمرين عائدين إلى انتظام حالهم في المعاد ليكون أقرب إلى القبول:

الأول: النصيحة لهم؛ وهي تحريضهم على تحسين الأخلاق ودلالتهم على ما هو الأليق بنظام أمورهم في الدارين.

الثاني: توفيرفيئهم عليهم؛ أي يوفي حقهم إليهم من غير ظلم عليهم في تعريفه في غير ما يرجع إلى مصلحتهم، لينتظم به حالهم في الحياة الدنيا ويلتئم به أمرهم المتشعب.

الثالث: تعليمهم العلوم الواجبة على كل مكلف يعلمها على ما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وآله: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، لئلا يكونوا جاهلين بمواقع الأمور التي فرض الله عليهم العلم بها فيقعوا في مهاوي المهالك، وانما قال كيلا تجهلوا ولم يقل كما تعلموا لأن اظهار المنة عليهم بنفي الجهل أشدّ من ظهورها في عرض ايجاد العلم لهم، يعرف ذلك بأدنى تأمل.

الرابع: تأديبهم أي إرشادهم إلى طريق العمل النافع لهم في الدنيا والعقبى كيا يعلموا ما هو نظام لهم في العمل، فالسابق عليه راجع إلى تكميل القوة العلمية،

وهذا إلى تكميل القوة العملية، وهذه الأمور الأربعة واجبة على كل امام بالنسبة إلى رعيته، ثم ذكر أربعة أمور واجبة عليهم وهي حقوق الامام عليهم:

الأول: الوفاء بالبيعة؛ وهي أهم الأمور وأسناها إذ به انتظام أحوال الدين والتئام مصالح المسلمين، ولذا كرر الله تعالى الأمر بالوفاء في كتابه المجيد وتنزيله الحميد، وقال في مواضع: أوفوا بالعهد، أوفوا بالعقود، وغيرهما.

الثاني: النصيحة له في حضوره وغيبته بالذبّ عن حريمه، اذ به تنتظم المصالح بينهم وبينه.

الثالث: إجابته حين يدعوهم إلى الجهاد وحفظ حوزة الدين من غير تثاقلهم عن دعوته، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: أجيبوا داعي الله.

الرابع: طاعتهم حين يأمرهم بأي أمر كان، وإلى هذا أشار التنزيل الالهي بقوله: «يا أيها الذين آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمرمنكم[(١)]»، من حيث الحقيقة هذه الأمور أيضاً راجعة إلى منافعهم في الدنيا والآخرة،وهوظاهر.

* * *

٣٤ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
بعد التحكيم

الْحَمْدُ للهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ (وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ[(٢)]) لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الحَسرَةَ[(٣)] وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) ساقطة عن م وف ون ول وش.

(٣) في ض وب: تورث الحيرة.

وَنَخَلْتُ لَكُمْ[١] مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفاةِ[٢]، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ

اللغة

الخطب: الأمر العظيم.

الفادح: المهلك، يقال فدحه أي غاله وأهلكه، وفدحت الشيء اذا دسته تحت رجلك، قال الجوهري: فدحه الدين أي أثقله، وأمر فادح إذا غاله وأنهضه، وهو محتمل هنا.

جلّ فلان يجل: بالكسر جلالة فهو جليل أي عظم قدره.

أشفقت عليه: فانا مشفق وشفيق.

المجرّب: الّذي قد جربته الأمور وأحكمته، فان كسرت الراء جعلته فاعلاً، الا أن العرب تكلمت به بالفتح.

الحسرة: التلهف الشديد على الشيء الفائت، تقول منه حسر على الشيء بالكسر في الماضي والفتح في الغابر حسراً وحسرة فهو حسير. يقال: اكل اكلة أعقبته سقماً أي أورثته وانتجته.

الندم والندامة: التحسّر من تغير رأي في أمر فائت.

نخلت: أي خلصت.

الإباء: شدة الامتناع، فكل اباء امتناع، وليس كل امتناع إباء.

الجفاة: جمع الجافي مثل الكفاة والكافي، والجافي من حسن طبعه و ينبو

(١) في ش: ونخلت لكم.

(٢) في ب: المخالفين الجناة.

عن مصاحبة الناس فيفارق يباين.

المنابذ: الذي نبذ العهد أي نقضه، قال الله تعالى: «فانبذ اليهم على سواء»، أي فانقض العهد الذي بينك وبينهم، ووبال ذلك راجع إليهم إذ هم بدأوا بذلك.

ارتاب فيه: أي شكّ وقيل اتهم، والريبة: التهمة.

الضنة: هو البخل بالشيء النفيس، ولهذا يقال علق مضنة ومضنة.

الزند: العود الذي ينقدح به النار وهو الأعلى، والزندة السفلى فيها نقب، فاذا اجتمعا فقيل زندان والجمع زناد وأزناد.

قدحت النار قدحاً: أي أوريتها بالمقدحة وهي ما يقدح به النار، والباقي ظاهر.

الاعراب

ان في قوله وان أتى شرط: قدم جزاؤه وسيق للمبالغة، جواب لو كان يطاع محذوف؛ أي لو كان هو عليه السلام يطاع بأن أطاعوا أمره لوقع الأمر على ما ينبغي ولما أصابهم ما أصابهم، والباقي ظاهر.

المعاني

تصدير ان معصية إلى الندامة بأن: يؤذن أن الكلام أورد لردّ المنكرين إلى الصواب، واضافة المعصية إلى الناصح يؤذن لتفخيمها وتعظيمها، ووصف الناصح بالأوصاف الثلاثة للتميز وللإيذان بأن من لم يكن متصفاً بها من النصحاء لم تكن معصيته مؤدية للحسرة واستمال[1] لو كان على الا محادثين غني عن الشرح.

الفاء في فأبيتم: فصيحة تؤذن بمحذوف هو سبب للإباء، تقديره: لم

(١) كذا في الأصل.

تطيعوني وأبيتم، وفي فكنت أيضاً فصيحة تقديره: فأبيتم قبول أمري وأصبتم بالمصيبة وندمتم على مخالفة أمري فصادر حاق[١] وجاء لكم كما قال أخو هوازن.

البيان

في نخلت لكم مخزون: استعارة تخييلية مكنى بها عن أنه عليه السلام استخلص لهم الرأي الثاقب ونقّاه من كدورات الشهوة والغضب، مستدعية لتشبيه الرأي الأجود، وهو معقول، بالمنخول من الدقيق، وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في الاصفا[١] عما يمانع الانتفاع التام والاستخلاص، وهو عقلي، وتخييلي أنه من أفراد الدقيق، والا لم يصحّ جعله منخولاً.

ويحتمل أن يكون استعارة تبعية مستدعية لتشبيه هيئة اجتهاده عليه السلام في استخلاص أسدّ رأيه وأنفعه وهي معقولة، بهيئة اجتهاد الناخل في تصفية أجود ما ينتفع به من الدقيق عن النخالة، وهي محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في أن الغرض تحصيل الأنفع والأصفى وهو عقلي، في لقصير أمر: استعارة تمثيلية مسبوق بيانها بأصل هذا المثل، قصته: أن جذيمة الأبرش ملك العرب خطب الزباء وهي ملكة الجزيرة فالتمست منه القدوم عليها.

فبذل التماسها وخرج متوجّهاً إليها في ألف فارس وخلّف باقي جنوده مع ابن أخيه عمروبن عدي، وكان لجذيمة صاحب يقال له قصيربن سعد اللخمي فاستشار منه، فأشار إليه بأن لا يتوجه إليها فلم يقبل نصيحته، فلما دنا جذيمة من الجزيرة استقبلته جنود الزبا مع الأسلحة والعدة وما ترجلوا لجذيمة ولم يوقروه توقير الملوك إذا قدموا بلداً.

فقال له قصير: ارجع فانها امرأة ومن عادة النساء الغدر، فلم يصغ إلى قوله، فدخل عليها فغدرت به وأخذته وفيكنه[١] فيمدها قال قصير: لا يطاع لقصير أمر،

---

(١) كذا في الأصل.

فشاعت مثلاً لكل من كان مصيباً في نصيحة ولم يقبل نصحه.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه عليه السلام شبه حاله عليه السلام في نصحه اياهم بحال قصير في نصيحة جذيمة، ووجه الشبه: اشتراكهما في سوء العاقبة، وظهور أن الناصح مصيب في رأيه وان عصيانه مجلب للندامة، وهو عقلي. في ضن الزند بقدحه: استعارة تمثيلية مستدعية لتشبيه هيئة بخل ذي الرأي باظهار ما هو الأنفع للناس من الرأي الصواب وهي معقولة، بهيئة عدم الزند النار وهي أيضاً معقولة.

وجه الشبه: اشتراكهما في عدم ابراز ما هو الأصلح، وهو أيضاً عقلي، قيل: هو مثل يضرب لمن يبخل بفوائده إذا لم ير لها قائلاً عارفاً بحقها ولم يتمكن من افادتها. وفي فكنت واياكم كما قال أخو هوازن: استعارة تمثيلية مستدعية لتشبيه هو مسبوق بيان سبب هذا القول.

اعلم أن هذا البيت لدريدبن الصمّة، والسبب الحامل له على إنشائه أن أخاه عبدالله بن الصمّة غزابني بكر بن هوازن بن غطفان، فغنم منهم وساق ابلهم، فلما وصل إلى منعرج اللوى وهو اسم موضع أقام وقال: والله لا أبرح حتى أنحر البقيعة وهي اسم لجزور جزر للضيافة.

قيل: هي ما ينحر من النهب قبل القسمة وأجيل السهام، فقال له دريد أخوه: لا تفعل فان القوم في طلبك، فأبى ولجّ وأقام ونحر البقيعة وبات وقد أقعد له رجلاً ربيئاً[1]، فقال له عبدالله: أنظر ما ذا ترى، فقال: أرى خيلاً عليها رجال كأنهم صبيان رماحهم بين آذان خيولهم.

فقال: هذه فراد[1] فالتقى القوم وهجموا عليه، فطعن عبدالله فاستغاث بأخيه دريد فنهنه عن القوم حتى طعن هو أيضاً وضرع وقتل عبدالله، وحال الليل بين القوم فنجا دريد برأسه بعد جراحات وطعنات حصلت له.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه عليه السلام شبه هيئة نفسه في نصحه لهم ونهيه

---

(١) كذا في الأصل.

عن الحكومة ومخالفة أمره، بهيئة نصح دريد أخاه ونهيه عن الاقامة بمنعرج اللوى ومخالفته نصحه، ووجه الشبه: اشتراكهما في إصابة الناصح في نصيحته واستلزام المخالفة الندامة والهلاك ، وهو عقلي.

ثم اعلم ان نسبته عليه السلام دريدبن الصمة إلى هوازن مجازية لعلاقة الاتصال، فان دريدبن الصمة من بني جشم بن معاوية بن بكربن هوازن، وله نظير في القرآن وهو قوله تعالى: «واذكر اخا عاد» ، بالنسبة إلى عاد كدريد بالنسبة إلى هوازن.

البديع

بين الحسرة والندامة: المتطرف، وبين الجفاة والعصاة: المتوازي والترصيع، وبين نصحه وقدحه: المتوازي، وفيه ارسال المثل في موضعين.

الفحوى

روي: أن امارات الغلبة ليلة الهرير لما لاحت على أهل الشام وعاينوا الهلاك استشار معاوية عمروبن العاص[1] في كيفية الخلاص، فقال عمرو: ان رجالك لا تقوم لرجاله، لست مثله، انه يقابلك على أمر وأنت تقابله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، أهل العراق يخافون منك ان ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً ان ظفرهم، ولكن ألق إلى القوم أمراً ان قبلوه اختلفوا وان ردّوه اختلفوا، دعهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فانك بالغ به حاجتك ، واني لم ازل اؤخّر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه، فقبل معاوية ذلك .

---

(١) عمروبن العاص القرشي ؛ كان من دهاة العرب، وكان في الجاهلية جزاراً وذا مكانة عالية في قريش لشهرته بالدهاء والكيد والمكر، وهو الذي فتح مصر في ايام عمربن الخطاب، وكان شديد الحب لمصر حتى أنه باع دينه واتبع معاوية لولاية مصر، وهو الذي مهّد الخلافة لمعاوية، وأخباره مفصلة معروفة، وقصته مع أبي موسى الأشعري مشهورة، مات سنة ٤٣.

فلما أصبحوا رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وكان عددها خمسمائة مصحف، ورفعوا مصحف المسجد الأعظم على ثلاثة رماح تمسكها غيره ورهط، ونادوا بأجمعهم: الله معشر العرب في النساء والبنات، الله الله في دينكم، هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فقال عليه السلام: اللهم انك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم انك انت الحكم الحق المبين، وحينئذ اختلف أصحابه.

فقالت طائفة: القتال، وقال أكثرهم: المحاكمة إلى الكتاب فلا نحل الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب، وتنادوا من كل جانب: الموادعة، فقال عليه السلام في جوابهم: أيها الناس! اني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمروبن العاص وابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن.

إني أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال ؛الحكم، انها كلمة حق يراد بها باطل، انهم ما رفعوها لأنهم يعلمونها ولكنها الخديعة والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق بمقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر القوم الظالمين.

فجاء عشرون ألفاً من أصحابه ونادوا باسمه دون أميرالمؤمنين: اجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت والا قتلناك كما قتلنا عثمان، فقال عليه السلام: ويحكم أنا اول من أجاب كتاب الله وأول من دعا اليه فكيف لا أقبله، وإنما قاتلتهم بحكم القرآن، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وليس العمل يريدون، فقالوا: ابعث إلى الاشتر يأتيك، فقد كان الاشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله ولاح له الظفر.

فبعث اليه، فرجع على كره منه، ووقع بينه وبين من أجاب إلى الحكومة من أصحاب علي عليه السلام مجادلات على ما اختاروا من ترك الحرب، وتنادوا من كل جانب: رضي أميرالمؤمنين بالتحكيم، كتبوا عهداً على الرضا به، والتقى أبو

موسى الأشعري[١] المنصوب من قبله عليه السلام وعمرو بن العاص المنصوب من قبل معاوية وله حكما في أمر الناس[٢].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ قد دخل الكوفة ينتظر ما يحكمان به، فلما تمت خدعة عمرو لأبي موسى و بلغه عليه السلام ذلك، اغتم له غماً شديداً وقام فخطب الناس، وقال: الحمد لله إلى آخره، وروي: أنه.

قال بعد التمثيل ببيت دريد بن الصمة: الا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات، واتبع كل واحد منهما هواه، وحكم بغير حجة ولا بينة ماضية، واختلفا فيما حكما، ولم يرشدا لله، فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير وأصبحوا في معسكركم يوم كذا، وسنشير إلى تمام القصة فيما بعد هذا إن شاء الله.

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى كلامه عليه السلام، قوله الحمد لله إلى الجليل: اشارة منه عليه السلام إلى أن حمده لله لا يختلف في حالتي البأساء والضرّاء ولا يتفاوت، والحمد عند الكروب الملمة والخطوب المدلهمة من الرتب العلية والمقامات السنية للعارفين.

الشرط المذكور يؤذن بوقوع الخطب الفادح الذي هو أمر الحكمين. قوله ليس معه اله غيره: تأكيد لما تدل عليه كلمة التوحيد بالتزام وتقرير لمقتضاه. قوله أما بعد إلى الندامة: اعلم أن وجوب قول الناصح مشروط بأن يكون الناصح موصوفاً بصفات ثلاث:

الاولى: أن يكون شفيقاً ليحث شفقته على التدبر في أحوال من يريد نصحه واختيار ما هو الأصلح له بعد التروي والاجتهاد الوافر فيه، فمتى لم يكن

---

(١) عبدالله بن قيس أبو موسى الأشعري، كان والياً على البصرة والكوفة، وكان يخذّل أهل الكوفة عن حرب الجمل في نصرة أمير المؤمنين، وكتب إليه: اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموماً مدحوراً، وقصته في أمر التحكيم واجتماعه مع عمرو بن العاص في دومة الجندل معروفة.

(٢) كذا في الاصل.

شفيقاً لم يقل إلا من بادي الرأي، وربما كان خطباً مفسداً لحالة لا مصلحاً.

الثانية: أن يكون عالماً بمصالحه في المعاش والمعاد، فان الجاهل لا يعرف وجه المصلحة، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا.

الثالثة: أن تكون له تجربة بأمور الدنيا، وذلك لأن كثيراً من أمور الناس لا يحصل الوقوف على جيادها الا بممارسات طويلة وتجربات كثيرة، واذا كان المشير الناصح موصوفاً بالصفات المذكورة كانت نصيحته في غالب الأحوال مجلبة السرور لانتظام حال المستشير وكانت نصيحته معصيتها والخروج عن مقتضاها مستلزمة للحسرة معقبة للندامة بالضرورة.

ولما بين على سبيل العموم أن معصية المناصح الموصوف تورث الحسرة وتعقب الندامة، عقب ذلك ببيان أنه المشير الناصح الموصوف، وأنه قد أظهر لهم من خلاصة الرأي ما هو الأنفع لهم، فلم يقبلوه وأعرضوا عنه خارجين عن طاعته، فلذا جربتهم الندامة وأصابتهم الحسرة. قال: وقد كنت إلى رأيي: ثم لم يقنع بما ذكر أولاً ونسب بالمثل المذكور على الوجه الذي عرفته، وقال: لو كان يطاع لقصير أمر.

قوله فأبيتم: اشارة إلى استثناء نقيض المقدم للمتصلة التي دلّ عليها لو كان، تقديرها: لو أطعتموني فيا أمرتكم به ومحضت لكم من النصيحة لا سترحتم من التعب والندامة والحسرة، ولكن لم تطيعوني وأبيتم علي إباء من خالف الحق وجفا المشير الناصح وفارق الصديق ونقض العهد وخرج عن الطاعة، حتى طرأ الشك في ذهن الناصح أن نصحه هل كان صواباً أو خطأ لملازمتكم عن قبول الرأي السديد.

فان المشير بالرأي الصواب إذا كثر مخالفوه فيه عرض لذهنه شكّ في رأيه، ذلك لأن الرأي الصواب إجتهادي حصل له بامارات مغلبة لظنه عليه، فاذا اجتمع المخالفون عليه حصلت له امارات الخلافة.

قال بعض الشارحين: أراد به المبالغة لا وقوع الارتياب، لأنه منزه عن أن يشك في رأيه الصائب، وهو جيد جداً، والباقي معلوم مما سلف في البيان، والله أعلم بحقيقة الحال.

* * *

٣٥ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامْ
(في تخويف أهل النهروان)

فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هٰذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلاَمِ وَلَمْ آتِ ــ لاَ أَبَالَكُمْ ــ بُجْراً[١]، وَلاَ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً.

أقول: الخطاب للخوارج الّذين قتلهم عليه السلام بالنهروان، وقد كان القضاء الإلهيّ.

اللغة

النذير: المخبر عن الشيء المخوف، ضد البشير وهو المخبر عن الشيء المفرح، والنذير والمنذر بمعنى.

يقال أصبح الطين خزفاً: أي صار وهو المراد هنا، ويحتمل أن يكون من الصباح وهو بعيد.

صرعى: جمع صرعان كسكران وهو من صرعته صرعاً وصرعاً، الفتح لتميم

(١) في ن وع: لا ابالكم عرا وفي ر: وروي غراً وفي ك: ويروى نكراً او هجراً.

والكسر لقيس أي أوقعته فوقع.

الأثناء: المعاطف جمع ثـني بكسر الثاء وسكون النون وهو المعطف، والثني العطف، يقال: ثنى الزمام إذا عطفه، وما يتعطف عليه مرتين فهو الثناء،وفي الخبر: لا ثناء في الصدقة؛أي لا يعار ولا يتعطف عليها في السنة مرتين.

الأهضام: بطون من الأرض مطمئنة وهي مكاسر في الأرض واحدها هضم.

الغائط: المطمئن من الأرض الواسع غوط وأغواط وغيطات .

البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة.

السلطان: الحجة القاهرة وكل ما غلب قهره فهو سلطان، وسميت الحجة سلطاناً لما للحق من الهجوم على الباطل، غير أن اكثر تسلطها على أهل العلم والحكمة من المؤمنين.

طوّحه وطوّح به: أي توّهه وذهب به ههنا وههنا، وطوّحته الطوائح: أي قذفته القواذف.

احتبلكم المقدار: أي اصطادكم المقدار واوقعكم القدر بالحبالة وهي مصيدة يتخذها الصائد من الحبل، يقال احتبله أي اصطاده.

والأخفّاء: جمع خفيف كأشدّاء جمع شديد، والخفيف ضد الثقيل، يقال: فلان خفيف إذا كان فيه طيش، وثقيل اذا كان فيه وقار، يقال: خفيف ذمّاً، وثقيل مدحاً .

السفه: خفة في البدن، ومنه قيل:نعام سفيه كثير الاضطراب، وثوب سفيه رديء النسج،استعمل في خفة النفس ولنقصان العقل، وفي الامور الدنيوية والأخروية، والسفهاء جمع سفيه.

الأحلام: جمع حلم وهو ضبط النفس عن هيجان الغضب.

لا أبالكم: كلمة جرت في لسان العرب.

قال الجوهري: يقال للمدح وقال غيره للذم...[١]، مستلزم لنفي العشيرة قيل إنه...[٢]، أي لا يكن لكم اب يريقكم ويظهر نسبكم ويدفع...[٣]، شرفاً وافتخاراً، وقيل: تعريض لا من نكاح، والأولى ان يكون كلمة يقال ومعرض من التوبيخ والغضب.

في بجرا: ثلاث روايات: إحداها: بجرا بضم الباء وسكون الجيم وهو أنه المنكر الخارج عن العهود، قال الجوهري البُجُر الشرُّوالأمر العظيم قال الراجز:

أرمي عليها وهي شيء بجروالقوس فيها وترحبجرُ

أي ذاهبة، قولهم: افضيت اليه بعجري وبجري أي بعيوبي كلها ظاهرها وباطنها، والعجر ما تعقد في الجسد الظاهر من العروق، والبجر عقد في باطن الجسد تخرج كهيئة الغدد.

الثانية: هجراً بالهاء المضمومة وسكون الجيم وهوّالاسم من الاهجار وهو الافحاش في المنطق والخنا، ويقال أيضا: الهجر اذا اكثر الكلام فيما لا ينبغي.

الثالثة: العرّبضم العين وتشديد الراء المهملة: قروح تخرج بالابل متفرّقة في مشافرها وقوائمها، يسيل منها مثل الماء الأصفرفتكون الصحاح لئلا تعديها المراض، تقول منه عرت الابل فهي معرورة، والأولى أشهر. الضر: بالضم الهزال وسوء الحال؛ اما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة، واما في بدنه لعدم جارحة ونقص، واما في حالة ظاهرة من قلة مال أو جاه.

الاعراب

أن في أن تصبحوا مصدرية أي تجعل الفعل المستقبل الداخلة هي عليه في تقدير المصدر، أي: اصباحكم.

(١) كذا في الأصل.
(٢)و(٣)بياض في الأصل.

الواو في وأنتم: للحال والعامل فيه صرفت.

وأخفّاء الهام: نعت لمعشر، قيل العرب تضيف الشي ء الى ضده اثباتاً للمضاف ونفياً للمضاف اليه، وبجراً مفعول آت، أصله أتى فسقطت الياء بلم الجازمة.

فأنا نذير لكم: يحتمل أن يكون تقديم أنا لتقوّي الحكم، وان يكون للتخصيص والحصر للإفراد، على تقدير تنزيلهم منزلة المنكرين، وهو أقرب، قد طوّحت قطع ليدل على الاستيناف الدال على الجواب عن السؤال المقدر عن كمية هذا الاخبار، وجاء بالفعل الماضي ليؤذن بأن المخبر عنه أمر كان وقع للحكم الالهي به، وبقد ليؤذن بالتقريب، وإنما أتى بالواو في قوله وأنتم معاشر: لكونه جملة اسمية غير جارية على أصل الحاصل، وأن كانت جارية على نهجها لكونها مثبتة.

البيان

في طوحت بكم الدار: الأولى أن يكون فيه مجاز في التركيب، اما في الإفراد فلأنه عليه السلام أطلق الدار وأراد الدنيا على سبيل الاستعارة التصريحية باشتراكهما في محل القرار، فيكون غير مستعمل في موضوعها، أما في التركيبَ فلانه اسند طوّحت الى الدار مع أن المطوّح هو اتّباع أهوائهم الباطلة وآرائهم الفاسدة، باعتبار أن منشأها هو تحصيل الدنيا، فيُكون من باب اطلاق السبب وارادة المسبّب، وفي احتبلكم المقدار استعارة مكنى بها مرشحة تخييلية مستلزمة لتشبيه القدر الالهي وهو معقول، بالصائد وهو محسوس.

ووجه الشبه: اشتراكهما في تحصيل المطلوب على غفلة منه، وباسناد الاحتبال اليه رشحها، ويحتمل أن يكون استعارة تبعية مستدعية لتشبيه ايقاع القدر اياهم في الواقعة التي كتبها الله لهم بالقلم الالهي، وهو معقول، بايقاع الصائد الصيد في الحبالة التي هيأها له من غير شعور له بها، وهو محسوس، ووجه الشبه:

اشتراكهما في القصد الى المطلوب مع غفلة عنه، وهو معقول. خفة الهام: كناية عن رذيلة الطيش، فان من لوازمه خفة، يقال: فلان خفيف الهام اذا كان طياشاً.

البديع

بين الدار والمقدار: المطرف كما بين الهام واحلام.
وبين بجراً وضراً: المتوازي.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام خاطب بهذه الكلمات الخوارج الذين قتلهم بالنهروان[1]، وغرضه التعريض لقومهم بأن يقع بهم الهلاك وهم على غير بينة ولا حجة غالبة يحتجون بها على حسب دعواهم، كما وقع بالخوارج وحرموا من سعادة الدارين، وقد كان القضاء الالهي قد سبق لهم بالخروج على ما ينبئ عنه قوله عليه السلام: واحتبلكم المقدار، ويؤيده ما روي في صحيح الاخبار ان رسول الله صلى الله عليه وآله بينا هو يقسم قسماً اذ جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة فقال: اعدل يا محمد فانك لم تعدل.

فقال صلى الله عليه وآله: ويلك ومن يعدل اذا لم أعدل، فقام عمر وقال: يا رسول لله ايذن لي في ضرب عنقه، فقال: دعه يستخرج من صيصي هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يخرجون على فرقة من الناس يحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم في جنب صومهم، يقرأون القرآن، فيهم رجل أسود مخدع اليد احدى ثدييه كأنها ثدي امرأة، يقتلهم أولى الفريقين بالحق.

---

(١) النهروان كورة واسعة بين بغداد و واسط من الجانب الشرقي كان بها وقعة لأميرالمؤمنين عليه السلام مع الخوارج مشهورة وهي الآن خراب، وكان سبب خرابها اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضاً في ايام السلجوقية، وكان أيضاً في ممر العساكر فجلا عنها أهلها واستمرخرابها، وقد استشأم الملوك أيضا من تجديد حفر نهرها.

روي: أنه عليه السلام لما قتلهم طلب ذا الثدية طلباً شديداً فلم يجده، فجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت اطلبوا الرجل وإنه لفي القوم، فلم يترك يطلبه حتى وجده في وهدة من الارض تحت القتلى وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدي في صدره، وعليها شعرات كسبال الهرة، فكبّر عليه السلام وكبّر الناس معه. وقد كنت نهيتكم الى المنابذين: اشارة الى الاحتجاج عليهم على وجه الالزام، تقريره لائح من أن يكون الحق هو طلب الحكومة أو عدمه.

فان كان الاول فلم خالفتموني الآن اذا اخترتها وعهدت عليها وسكت عن هذا القسم لظهوره، وان كان الحق هو الثاني فقد أبيت بمقتضاه اولاً ونهيتكم عنها فلم تقبلوا مني وأبيتم إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأي الصواب المستبد الى الحق المحض الى ما ذهب اليه هواكم من الحكومة، وعلى التبعة لكم والوبال عليكم والفساد منكم.

ثم نسبهم بقوله الى الأحلام الى رذيلتي الطيش والسفاهة المقابلتين للثبات والحلم الداخلين تحت ملكه بالشجاعة، ثم اعتذر منهم ونفى ما نسبوا اليه عنه عليه السلام وقال: لم آت اي ما جئت بأمر عجيب ولا شرّ منكم، ولا اردت بكم سوء حال، فلا يكون الحق معكم في نسبتكم الأمر القبيح اليّ.

* * *

٣٦ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
يجرى مجرى الخطبة

فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا[١]، (وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا)[٢] وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوتاً، وَأَعْلاَهُمْ فَوتاً، فَطِرْتُ[٣] بِعِنَانِهَا، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ: لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ.

الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ[٤]، وَسَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ، أَتُرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ في أَمْرِي فَإذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإذَا الْمِيثَاقُ في عُنُقِي لِغَيْرِي.

اللغة

الفشل: ضعف مع جبن، قال الله تعالى: حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وتفشل الماء: أي سال، والأفشل: الرجل الضعيف الجبان.

تعتع الرجل اذا تردّد في الكلام من عيّ وحصر، وكلّ من كره شيئاً فاضطرب فيه وتردّد فقد تعتع، المكره على الشيء والمتردّد فيه متعتع، وفي الخبر: حتى يؤخذ حقه غير متعتع، ووقع القوم في تعاتع أي في أراجيف وتخليط، وتعتعت الرجل

---

(١) في ش: وتلطفت حين وفي ن ول وف: حين تعتعوا.

(٢) ساقطة عن ف ون ول وش وفي ر: روي قطمت وتطلقت حتى تعتعوا.

(٣) في ك ور: فطرت لعنانها وروي فظفرت بعنانها.

(٤) في ش: قضاه.

اذا أقلقته.

تطلعت: أي ظهرت ظهوراً بالغاً من التطلع التعرّف.

تقبّعوا: أي تقبّضوا من قبع القنفذ اذا ادخل رأسه، وفي اكثر النسخ ما يوجد تعتعوامع تطلقت .

فاعلم خفض الصوت: عبارة عن غضّه، يقال: خفّض عليك القول، وخفّض عليك بالأمر: أي هوّن.

الصوت: هو الهواء المنضغط عن فرع(١)، جسمين وذلك ضربان مجرّد عن تنفس فسى(١)، كالصوت الممتد ومتنفّس بصورة ما، فالمتنفّس ضربان: اختياري كما يكون من الانسان، وغير اختياري كما يكون من الحيوانات والجمادات، والاختياري: اما أن يكون بضرب اليد كصوت العود وما يجري مجراه، أو بضرب الفم وهو اما نطق او غير نطق، والنطق اما مفيد أو غير مفيد، والمفيد إما مفرد أو مركب.

والصيت في الأصل: انتشار الصوت، ثم خصّ في العرف بالذكر الجميل.

ألفوت: السبق، ولا يقال الا اذا سبق سبقاً بعيداً،والافيات السبق الى الشي ء دون ائتمار من يؤتمر، يقال: فلان لا يفتات على أمره أي لا يعمل شي ء دون أمره، والفوت أيضاً فرجة بين اصبعين والجمع أفوات،وقرينة أعلاهم عيّنت الأول للمراد.

استبدّ فلان بكذا، أي تفرّد به، أصله من التبدّد وهو التفرّق والتفرّد والانفراد عن الشي ء: فرقه عنه وبعده منه، ولابدّ من كذا أي لا يمكن الانفراد عنه.

الرهن: ما يوضع وثيقة للدين، والرهان مثله لكن اختصّ بما يوضع للخطار.

---

(١) كذا في الاصل.

المهمز: عيب يؤخذ على المرء أخذاً شديداً، والهماز الذي يهمز في قفا أخيه بعيبه، وهمز في الكلام اذا تحيّر فيه وكان لسانه في ضغطة.

المغمز: العيب الذي يشنع عليه، والغمز: اشاعة العيب، وغمز بجفنه: أشار.

اتراني بضم التاء: أي أتظنني، والباقي معلوم.

الاعراب

صوتاً وفوتاً: منصوبان على التميز، والضمير في بعنانها ورهانها للحرب، والأولى أن يكون للفضائل وان لم يجر لها ذكر، لانّ سياق الكلام يشعر بذكرها، كالجبل متعلق بحال محذوفة من الفاعل تقديره: واستبددت ثابتاً كالجبل، اذا في قوله عليه السلام فإذا، واذا: للمفاجأة.

المعاني

في اشتمال كنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً على الاجمال والتفصيل لا يحتاج الى التقرير.

الفاء في فطرت: للسببية الدالة على كونه اخفضهم صوتاً علة لاشراعه الى الجهاد والحرب أو الفضيلة، والأولى أن تكون فصيحة مفصحة عن محذوف تقديره: تسابقنا وشرعنا في إحراز الفضائل فطرت بعنانها، ونفحات الايجاز تفوح من صفحات كلامه عليه السلام، انما قطع لم يكن لأحد عما قبله ليؤذن بعلة استبداده برهانها، وقطع الذليل عندي ليكون كالبيان للسابق مع اشتماله على بيان الفضيلة، ولو قلنا: انما قطع الأول ليؤذن بعصمته.

والثاني ليؤذن بعدالته المستلزمة لوجود العلم والجسم، وليعلم منها علة استبداده، لكان في غاية اللطافة ونهاية النفاسة، لا يشقّ غباره إلا ذو الذوق السليم

المتدرّب بعلم المعاني، وقطع رضينا عن الله عما قبله للاعلام بأنه مع كمال طهارة نفسه ووفور علمه اللذين هما من شرائط الامام بالحق، كان مسد المتوكلين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وليس له باستبداده تحصيل الأعلاق الدنيوية التي تتنافس الطبائع فيها، ويجعل اكثر الناس القيام بالإمامة ذرائع اليها، أتراني: استفهام عن حصول الظن فيه بالكذب على رسوله على سبيل الانكار، ووالله لأنا أورد لنفي الانكار وردّه من خطئه الى الصواب.

الفاء في فلا: الأولى أن تكون فصيحة لأنها تفصح عن محذوف هو كبرى القياس، الضمير تقديره: لأنا أول من صدقه، وكل من كان كذلك فلا يكون أول من كذب عليه بالضرورة، فينتجان: فلا أكون أول من كذب عليه.

البيان

فقمت بالأمر: كناية عن الشجاعة، فان من لوازمها القيام بالحرب.

ونطقت كناية عن الفصاحة المستعملة(١) للعلم، فان مثله عليه السلام ان لم ينطق فالنطق من لوازم العلم.

والتعتعة: كناية عن جهلهم لامر. في تطلّعت: استعارة تبعية مستدعية لتشبيه هيئة اطلاع العقل على الأمور الكلية المعقولة، وهي معقولة، بهيئة تطلّع الانسان على الأمور المحسوسة، وهي محسوسة.

وجه الشبه: أن العقل في إدراك الأمور الكلية المنتزعة من الأمور المحسوسة يحتاج إلى إتعاب الفكر الذي هو عين العقل بالحقيقة وتحديقه نحو الأمور المعقولة وارسال المتخلية في التفصيل والتركيب، كما ان المتطلع على الأمر المحسوس يحتاج إلى تطاول العنق ومدّ البصر ونحوه، وهو عقلي.

---

(١) في الاصل: المستعة.

وفي تقبّعوا: استعارة أيضاً تبعية مستدعية لتشبيه هيئة تصوّر فكرهم عن إدراك الأشياء وعجزهم عن الإحاطة علماً بالحقائق، وهي معقولة، بهيئة إدخال القنفذ رأسه وستره عن الغير، وهي محسوسة.

وجه الشبه: اشتراكهما في العجز والاخفاء، وهو عقلي، وعلى هذا تكون الاستعارتان تصريحيتين، ويحتمل أن تكونا استعارتين مكنّى بهما عن إثبات العلم بالمعقولات لنفسه والجهل لغيره، الأولى: مستدعية لتشبيه نفسه عليه السلام بالمتطلّع، ووجه الشبه: اشتراكهما في تحمّل اعباء التحصيل والتدبّر على ما عرفت، وهو عقلي، ويكون التطلّع قرينة صادقة.

الثانية: مستدعية لتشبيههم بالقنفذ، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في العجز عن المقاومة، وهو عقلي، وهذان التشبيهان من تشبيه المفرد بالمفرد، والأولان من تشبيه المركّب بالمركّب.

ومضيت بنور الله: كناية عن علمه بطريق الحق والصراط المستقيم والسلوك إلى الله تعالى.

قوله كنت أخفضهم صوتاً: كناية عن الثبات في الأمور وتصميم العزم على فعل ما ينبغي مع قطع النظر عن الالتفات إلى الموانع، لما عرفت أن خفض الصوت من شعار الثابتة قلوبهم على الحق.

قوله فطرت فيه: استعارة تبعية تصريحية مستدعية لتشبيه سبقه العقلي، وهو معقول، بطيران الطائر، وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في السرعة.

وفي بعنانها: استعارة تخييلية مكنى بها مستدعية لتشبيه الفضائل النفسانية بالجبل، ووجه الشبه: اشتراكهما في توجّه النفوس اليهما، يعني: كما أن جبل الحليه[1] مما تسعى النفس في تحصيله، كذلك الفضائل مما تبعث النفوس على اقتنائها وكذا الرهان. قوله كالجبل: مشتمل على تشبيه لنفسه عليه السلام بالجبل،

(١) كذا.

وهما محسوسان، ووجه الشبه؛ ما أشار إليه بقوله: لا تحرّكه القواصف ولا تزيله العواصف.

يعني: كما أن الجبل لا تحرّكه الرياح الشديدة ولا تزيله لغاية ثباته، كذلك لا تحرّكني صدمات الأهواء الباطلة والآراء المبدعة لغاية ثباتي على الحق، وهو تشبيه قد ذكر المشبّه وحرف التشبيه. قوله لم يكن لأحد إلى مغمز: كناية عن عفّته عليه السلام وعصمته.

قوله الذليل إلى منه: كناية عن عدالته وهو ظاهر.

قوله رضينا إلى أمره: كناية عن حكمته التي هي عرفانه بحقائق الأمور وبذات الله تعالى وصفاته.

البديع

راعى عليه السلام في فقمت إلى وقفوا: المقابلة، حيث قابل الشجاعة بالجبن، والفصاحة بالعيّ، وكبر الهمّة بالقصور، والعلم بالتحيّر والجهل، وبين صوتاً وفوتاً: المتوازي والترصيع، كما بين القواصف والعواصف ومهمز ومغمز، وفي قوله الذليل عندي عزيز والقوي عندي ضعيف: المطابقة، والباقي ظاهر.

الفحوى

اعلم أن بعض الشارحين قال بهذا الفصل فيه فصول أربعة، التقطها السيد الرضي رضي الله عنه من كلام له طويل قاله بعد وقعة النهروان، ذكر فيه حاله منذ توفى رسول الله صلى الله عليه وآله، اعلم أنه عليه السلام أثبت لنفسه امهات الفضائل النفسانية التي بها يستعد الشخص للرياستين الدنيوية والأخروية، وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعلم ولمقابلته الرذائل، وأثبت لنفسه أيضاً بعض الفضائل الداخلة تحت المذكورة.

قوله فقمت بالأمر حين فشلوا: اشارة إلى اثبات الشجاعة لنفسه حين فشلوا، أي: قمت بأمر الله تعالى بين يدي رسول الله وبعده في الحروب والوقائع الصعبة التي عجزوا عنها وفشلوا فيها.

قوله ونطقت حين تعتعوا: إشارة الى اثبات ملكة الفصاحة لنفسه التي هي فضيلة داخلة تحت العلم، واثبات رذيلة العي لهم التي هي طرف التفريط منها، يعني: نطقت في القضايا المبهمة والحوادث المشكلة حين عتوا عنها.

قوله تطلّعت حين تقبّعوا: اشارة إلى اثبات فضيلة كبر الهمّة في تحصيل المعارف الالهية التي هي فضيلة داخلة تحت ملكة الشجاعة على ما عرفت، واثبات رذيلة صغر الهمّة وقصورها لهم، والمعنى ظاهر، قوله ومضيت بنور الله حين وقفوا: اشارة إلى اثبات فصيح العلم لنفسه والجهل لهم، يعني: سلكت سبيل الله مستعيناً بنور الله تعالى الذي هو لا يضلّ من يستعين به، حين وقفوا عن السلوك حائرين جاهلين بالقصد وكيفية السلوك .

قوله وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم: أي كنت أشدّهم ثباتاً وأربطهم قلباً على فعل ما ينبغي للانسان، وأسبقهم إلى درجات الكمال ومراتب الجلال واحراز السعادات منهم، وذلك كأنّه نتيجة لما تقدّم.

قوله فطرت إلى رهانها: أي أشرعت في إحراز الفضائل النفسانية وتفرّدت بحواصلها التي يستبق الصحابة بها إلى نيل رضوان الله تعالى، وهذا اشارة إلى سبقه عليهم في الفضائل سبقاً لا يشقّ غباره.

قوله كالجبل إلى العواصف: اشارة إلى ثباته على قانون الطريقة ومقتضى الأوامر الالهية. قوله لم يكن لأحد في مهمز: أي لم يكن لأحد على الاطلاق في أن يعيبني وأن يؤاخذ على نفسي صغيرة كانت أو كبيرة، لأني معصوم لا اقصد إلى فعل قبيح أصلاً، وهو اشارة إلى اثبات فضيلة العفة النفسية.

قوله الذليل إلى منه: اشارة إلى اثبات فضيلة العدالة لنفسه، يعني: أن

الذليل الذي لا يلتفت إليه أكثر الناس لمهانته عندي عزيز، أي ممن اعتني بشأنه واهتم بأمر ظلامته، حتى اخبر حاله واقبض الحق له من الظالم، والقوي عندي ضعيف أي: من كان ظالماً لقوّته أضعفه وأقهره تحت حلمي الجاري على قانون العدالة حتى أدفع ظلمه عن الناس وآخذ الحق الذي كان لغيره وفي يده منه.

فان قيل: ذكر الغائبين يؤذن بأن الذليل عنده بعد ايصال حقه المأخوذ من القوي اليه لا يكون كالقوي، بل التفاته إلى القوي أولى وهو ليس من العدل، قلنا لما كان الغرض من النظر بالمساواة بين الخلق ليس إلا لدفع الظلامة واقرار كل شيء في مركزه، لم يكن ترجيحه للأقوى بعد أخذ الحق منه بسبب آخر مخلّاً لقاعدة العدل، على أنّ المفهوم انما يدل على أحد أمرين:

أحدهما: التساوي بين القويّ والذليل وهو مقتضى العدل، والآخر: ترجيح القوي على الذليل وذلك ليس من مقتضى العدل، إذا كان الترجيح من جهة استيلائه وظلمه والرضا بكونه ظالماً، أما إذا كان من جهة أخرى فلا يدلّ المفهوم على هذا القسم بعينه، لأن العلم لا دلالة له على الإفراد مطلقاً، قوله رضينا إلى أمره: إشارة إلى اثبات الرضا بقضائه والتسليم لأمره المستلزمين للوصول إلى لبّ العرفان ونقاوة الإيمان.

اعلم أنّ ههنا نكتة لابدّ من الإشارة إليها وهي: أنه قال عليه السلام رضينا قضاءه ولم يقل رضينا بقضائه، وسلمنا لله أمره ولم يقل سلمنا إلى الله، وذلك لأن معنى الرضا بالشيء طمأنينة النفس على المكروه، فان من كان راضياً بالشيء كان صابراً أي حابساً نفسه على المكروه، ومعنى رضاه اختياره محبوباً عنده، ولا يصير القضاء محبوباً عند أحد إلا إذا كان عارفاً بأن لا مؤثر في الوجود إلا الله، والكل مسوون(١) تحت أمره واصلاً إلى الدرجة الخامسة من الدين، ولأن معنى التسليم إلى الله أن يقلّد الأمر ثم يخلعه عن رقبته ويفوّضه إلى الله تعالى.

---

(١) في الأصل: مسحوون.

ومعنى التسليم لله: أن لا يقلّد الأمر أصلاً، بل كان من مطلع أمره وبدء عمره لا يرى لنفسه ولا لأحد من الخلق أمراً، ولم يكن فرق بين أن يقول المرء فوّضت أمري إلى الله وبين أن يقول لله الأمر من قبل ومن بعد، فالمرء في المقام الأول أثبت الأمر لنفسه ثم فوّضه إلى الله تعالى، وفي المقام الثاني لا يثبت لنفسه أمراً أصلاً، ولما كان أمير المؤمنين سيد العارفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أنزل نفسه في مقام الواصلين إلى درجة العرفان القارعين باب الله الأعظم، وأخبر عما هو مقامه في تسليمه ورضاه وهو فوق المقامات كلها.

وإليه أشار تعالى بقوله: ورضوان من الله أكبر، وأشار الرسول صلوات الله عليه وآله: الرضا باب الله الأعظم، قوله أتراني اكذب على رسول الله: اشارة إلى الانكار على مخصوص قد تفرّس فيهم عليه السلام، أنه ينسبونه عليه السلام فيما يخبره عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم في الأمور المستقبلة إلى الكذب، ومنهم من كان يواجهه بذلك.

روي أنه لما قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة الا أنبأتكم بناعقها وسائقها، فقام اليه أنس النخعي فقال: أخبرني كم في لحيتي ورأسي طاقة شعر، فقال عليه السلام: والله لقد حدّثني حبيبي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله، وكان ابنه سنان بن أنس قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً، قوله والله إلى عليه: اشارة إلى تقرير حجة في ابطال ما نسبوه إليه، وتقريره قد عرفت في المعاني، قوله فنظرت إلى لغيري: للشارحين فيه أقوال:

الأوّل: قال بعض الشارحين: هذا الكلام مقطوع عما قبله مورد لبيان ما يلزمه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من أن لا ينازع في أمر الخلافة، بل ان حصل له بالمداراة والا فيسكت عنها، يعني: فنظرت في أمري بالنسبة إلى الخلافة،

فاذا طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وآله فيا أمرني به من ترك القتال قد سبقت بيعتي للقوم، فلم اتمكّن من المنازعة، وإذا الميثاق أي ميثاق رسول الله صلى الله عليه وآله وعده اليّ بعدم المنازعة في عنقي لغيري،أي إذا كان يستقر لغيري.

الثاني:بمعنى طاعتي قد سبقت بيعتي: مثل مامرّ ولكن معنى وإذا الميثاق في عنقي لغيري؛ أي ميثاق القوم، وعهدي معهم بالرضا بأبي بكر قد لزمني، فلم اتمكّن من المخالفة والقيام بالطلب.

الثالث: قال بعضهم: انه كلام سبق لبيان تبرّمه وتضجّره من ثقل أعباء الخلافة وتحمّل مداراة الخلق في اختلاف أهوائهم، ويكون المعنى: فنظرت في أمري بعد القيام للخلافة والتلبّس بها، فاذا طاعتي أي طاعة الخلق إلي وإطباقهم قد سبقت بيعتي أي بيعتهم لي في هذا الوقت، إذ كان الواجب عليهم بمقتضى ما جرى في يوم الغدير أن يدخلوا تحت طاعتي بعد الوفاة ولم يؤخّروا البيعة لي إلى هذا الزمان.

قوله وإذا الميثاق: أي ميثاقهم قد صار في عنقي فلم أجد بدّاً من القيام بأمرهم، ولم يسعني عند الله إلّا النهوض بأمرهم، ولولا بيعتهم وميثاقهم لتركت، كما قال في الشقشقية: لولا حضور الحاضر الى لسقيت آخرها بكأس أولها، والأول أشهر بين الشارحين، الثاني أوفق لكلامه وأنسب بالمقام، فهنا احتمال آخر جيد، وهو أن يكون الكلام منساقاً للتعجّب من حاله.

معناه: فنظرت في حالي فاذا طاعتي كانت واجبة على الخلق قبل ان يبايعوني، لأنهم قد بايعوني بعد ثلاثة وكان الواجب عليهم بيعتهم معي حين قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع هذه الحالة فبيعة غيري في عنقي وهو مما يقتضى منه العجب، اذ الحال يقتضي أن أكون مطاعاً وقد انعكس الحال فصرت مطيعاً، وما مثل هذا إلّا من عكوس أفعال الدهر، وهو لطيف.

* * *

٣٧ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ ٱلشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ ٱلْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ ٱللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا ٱلْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ ٱلْهُدَى، وَأَمَّا أَعْدَاءُ ٱللهِ فَدُعَاؤُهُمْ[١] ٱلضَّلاَلُ، وَدَلِيلُهُمُ ٱلْعَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ ٱلْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلاَ يُعْطَى ٱلْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ.

اللغة

الشبهة: هو أن لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى، والمشابهة: المماثلة.

اليقين: هو سكون القلب مع ثبات الحلم، وهو من صفة العلم فوق المعرفة والدراية.

السمت: الطريق، تقول منه سمت يسمت بالضم القصد وهيئة أهل الخير يقال: ما أحسن سمته أي هديه، والسير بالظن والحدس، والمراد هنا الأول.

الهداية والهدى: في أصل اللغة واحد، لكن الهدى قد خصّ إذ أطلق بالشرع المطهر، وكذا قال تعالى: «أولئك على هدى من ربهم» و« هدى للمتقين» .

العدو: التجاوز ومنافاة الإلتئام، فان كان بالقلب يقال له العداوة والمعاداة، وان كان بالمشي يقال له العدو، وان كان بالاخلال في العدالة يقال العدوان، وان كان في اجزاء الموضع يقال له العدواء، يقال مكان ذو عدواء: أي غير متلائم الأجزاء، فمن المعاداة يقال: رجل عدو وقوم عدو وجمعه عدى واعداء.

الدعاء: كالنداء، يقال دعوت فلاناً أي صحت، وأيضاً واحد الأدعية.

---

(١) في ض وح وب: فدعاؤهم فيها الضلال.

الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضادّه الهداية.

العمى: يقال لمن افتقد بصره أو بصيرته، وعلى الأول يقال أعمى وعمٍ، وعلى الثاني المعمي في الأكثر.

البقاء: ثبات الشيء على حاله الأولى، ويضادّه الفناء، والباقي على ضربين: باقٍ بنفسه وهو الله تعالى، وباقٍ بغيره وهو ما عداه تعالى ويصحّ عليه الفناء.

الاعراب

إضافة السمت إلى الهدى: من إضافة المصدر إلى المفعول، تقديره: قصدهم الهدى في أول الأمر، فاعل ينجو من خافه والضمير فيه للفوت، وأعطيت يقتضي مفعولين: الأول منها هنا هو: من أحبه، وكذا اقيم مقام الفاعل،والثاني: البقاء.

المعاني

انما سميت: فيه القصر للإفراد على تنزيل المخاطبين منزلة من تصوّر لعلة تسميتها لشيء آخر غير ما ذكره عليه السلام، ان لم يكن الخطاب للمشاركين، واشتمال أمّا على الإختصار أمر بيّن قد كشف القناع عنه في أوّل الكتاب إن قدّرنا اليقين وسمت الهدى: مبتدأ، ففي كلّ منها الحصر للقلب لا يدرك شأوه إلا ذو الذوق السليم والطبع المستقيم، وهو أولى من تقديرهما خبراً، ولذا دعاؤهم الضلال ودليلهم العمى.

البيان

ليس فيه شيء منه يحتاج إلى تدقيق نظر.

البديع

فيه من المقابلة؛ حيث قابل الهدى بالضلال، واليقين بالعمى، والموت بالبقاء، وبين الهدى والعمى :المتوازي.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام رتب في هذا الكلام ثلاثة مقاصد: الأول: في بيان سبب تسمية الشبهة شبهة، اعلم أن ما قاله عليه السلام حق في السبب، وذلك لأن الشبهة عبارة عما يشابه الحق إما في صورته أو في مادته أو فيهما معاً لا غير.

قوله لأنها تشبه الحق: يشمل الاقسام، الثاني في بيان الناس بالنسبة إلى البعض[1] عن عهدتها.

اعلم أن الناس اما أولياء الله أو أعداؤه، أما أولياؤه تعالى: فلما كانت صفائح نفوسهم منوّرة بنور العلم بالله وصفاته وطريق الحق، مستضيئة بنور النبوة في سلوك الصراط المستقيم، كان ذلك اليقين مخلّص أذهانهم عن غمرات الشبهات، وحافظها عن الوقوع في مهاوي الجهالات، به يفرّقون بين الحق والباطل، كما قال تعالى: «يسعى نورهم بين أيديهم[2]»، ودليلهم إلى ما هو الحقّ قصدهم إلى سلوك الشرع المقدّس، فلم يدفعوا في مضائق الشبهة منغمرين.

وأما أعداؤه فليس دعاؤهم إلى ما يدعون به إلّا ضلالاً عن الطريق القويم، وإضلالاً للخلق عن النهج المستقيم، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال[3]»، وقوله تعالى:«ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[4]»، وليس لهم دليل يتّبعون إلّا الغيّ فيسوقهم إلى الردى والهلاك، على ما ينبئ عنه قوله تعالى الذي هو طمس لأبصار بصائرهم عن مطالعة نور الحق يهدون

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) الحديد: ١٢.

(٣) الرعد: ١٤.

(٤) النور: ٤٠.

إلى النار.

الثالث: في بيان المبادرة إلى الموت وان ما يجري في عالم الكون والفساد ليس بحسب اشتهاء النفس. قوله فهل ينجو من الموت من خافه: إشارة إلى أن الخوف من الموت لم ينفعه بل لابدّ وأن يفرغ لعمل الآخرة ولا يلتفت إلى نزول الموت، فانه أمر ضروري لابدّ منه على ماينبئ عنه قوله تعالى:

«قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فانه ملاقيكم[(١)]»، وقوله: «أينما تكونوا يدركـم[(٢)]»، والخوف منه لا يجدي إلاّ صرفه عن الإقبال إلى الله بالكلية وتحته دقيقة: وهي أن من لم يخف الموت يكون له منه نجاة، وهكذا أمر من لم يخف الموت في سبيل الله تعالى.

فجاهد حتى قتل فقد نجا من الموت إذ حصلت له الحياة الباقية، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء»، قوله: ولا يعطى البقاء من أحبّه اشارة إلى أن محبة البقاء لا تنفعه بل تضرّه، لأنّها تلهيه عن الاشتغال بالعبادة وتورّطه في المعاصي واقتناء اللذات، وتحته دقيقة وهي: ان من لم يحب البقاء في الدنيا اختصّ بالبقاء في الآخرة، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة[(٣)]».

ومن أحبّه في الدنيا حرم عن البقاء في الآخرة كالكفّار الذين أحبّوا البقاء، وقد حكى عنهم تعالى وواحدهم «لو يعمّر ألف سنة»، وحرموا من البقاء في الآخرة، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «وما هو بمزحزحه من العذاب[(٤)]»، والحاصل أن العامل بعمل الآخرة ينبغي أن لا يلتفت لا إلى الفناء ولا إلى البقاء في الدنيا أيّا كان كل منهما، ويحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة السابق، ويكون معناه: فكن من أولياء الله ولا تعص الله ورسوله حتى تخاف من هجوم الموت.

---

(١) الجمعة: ٨.
(٢) النساء: ٧٨.
(٣) التوبة: ١١١.
(٤) البقرة: ٩٦.

فان العاصي لا ينجو من الموت لخوفه من عصيانه، فقد ذكر المسبب وهو الخوف من الموت وأراد السبب وهو العصيان، ولا يركن إلى الدنيا بالكلية فينخرط في سلك المحبين للدنيا المتهالكين عليها، فان محبتها لا تنفعك ولا توصلك إلى المقصود، بل ربما تمنعك ولا توصلك إلى المقصود، بل ربما تمنعك عن البقاء في الآخرة، وهو احتمال جيّد.

* * *

٣٨ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمْ

مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ، وَلاَ يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لاَ أَبَالَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ، أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ ٱلْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ ٱلْمَسَاءَةِ.

فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلاَ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ؛ دَعَوتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ ٱلْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ).

اللغة

منيت: أي ابتليت.

أحمشت الرجل: إذا اغضبته، وكذلك التحميش، والاسم: الحمشة مثل الحشمة مقلوب منه، واحتمش واستحمش:أي التهب غضباً.

قال الجوهري: المستصرخ: المستغيث، قيل: هو أن يقول الرجل واغوثاه،

وهو قريب منه معنى غوّث الرجل وتغوث إذا قال واغوثاه، والاسم الغوث والغواث والغواث.

كشفت الشيء فانكشف وتكشّف: أي أظهرته فظهر.

أساء يسوء سوء ومساءة ومسائية: نقيض سرّه، والاسم السوء بالضم.

الثار والثورة: الدخل؛ أي الحقد، رام يروم روماً ومراماً: أي طلب.

الجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته.

قال الأغلب: جرجر في حنجرة كالحب.

فهو بعير جرجار، كما يقول: ثرثر الرجل فهو ثرثار. بعير أسرّ: إذا كانت بكركرته دبرة بيّن السّرر، قال الشاعر:

ان جنبي عن الفراش لناب   كتجافي الاسرّ فوق الظراب

وهي جمع ظرب بكسر الراء وهي الروابي الصغار.

السرر يأخذ بالبعير في سرمه.

النضو: البعير الذى أصابه الهزال من تعب السير. الأدبر: البعير الذي به دبروهي القروح التي في ظهره، والباقي ظاهر.

الاعراب

قد أضاف المصدر إلى الفاعل في قوله ينصركم ومفعوله ربكم وكذا نصب، وذلك مثل قولنا دق القصار الثوب، مستصرخاً ومتغوثاً منصوبان على الحال من الفاعل، الواو في وهم ينظرون للحال أيضاً.

المعاني

استفهم عن نفي الدين الذي يجمعكم في قوله أما دين على سبيل(١)

(١) كذا في الأصل.

متغوثاً.

وأشار بقوله: فلا تسمعون إلى أمراً إلى سوء معاملتهم وخروجهم عن قانون المروة والحمية والدين، وتعييرهم بما رضوا به من الذلّة، وتوبيخهم على ما كانوا عليه من الانقياد للخصوم والإذعان لطالبيهم، وبقوله: فما يدرك إلى مرام توبيخهم على ما عاملوا معه ونفي الرجولية عنهم.

فان من لم يحصل بمدده مطلوب فهو ممن ليس له خلاق من المروة التي قامت الرجولية بها، كل هذا لحثّهم على القيام وزجرهم عن التقاعد، إذ من شان طباع العرب أن يثور بمثل هذه الأقوال.

قوله دعوتكم إلى الأدبر: اشارة إلى غاية تضجّرهم من ثقل ما يدعوهم إليه ونهاية تثاقلهم، وأراد عليه السلام باخوانكم مالك بن كعب[١] مع أصحابه، ويحتمل أن يكون المراد بهم العموم وهو أوكد.

ثم عقّب ذلك بوصف من خرج منهم بالتصغير والضعف والجبن، وقال: ثم إلى وهم ينظرون، وقد عرفت التشبيه فيه، والله أعلم.

* * *

---

(١) مالك بن كعب الأنصاري؛ مختلف في اسمه، والصواب كعب بن مالك: صحابي روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، روى عنه عبدالله بن كعب.

٣٩ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

في الخوارج لما سمع قولهم: لا حكم إلا لله؛ قال عليه السلام

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ[1]!! نَعَمْ إِنَّهُ لاَ حُكْمَ إِلَّا لِلهِ، وَلٰكِنْ هٰؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ[2]، وَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم قال:

حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وقال: ــ أَمَّا الإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ؛ وَأَمَّا الإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ.

الإعراب

في امرته عائد إلى الأمير من حيث هو لا إلى البر مطلقاً، لأن الكافر لا يتمكن في امرته من الاستمتاع، ولا إلى الفاجر وان قال به بعض الشارحين، لأن المؤمن لا يتمكّن في امرته من العمل، وكذا الضمائر المجرورة كلها عائدة اليه مطلقاً.

المعاني

قد حذف المشبّه إليه من الجملة الأولى تعويلاً على القرائن الحالية الشاهدة، وبناء على أن الخبر لا يصلح الا له حقيقة أوادعاء، واشتمال الكلام على الإيجاز أوضح من البيان.

---

(١) في ض وب: يراد بها الباطل.

(٢) في ض وب: لا امرة الا لله.

البيان

ليس فيه شي ء منه يحتاج إلى زيادة فكر.

البديع

راعى في أكثر الكلمات: المقابلة، وفي التقيّ والشقيّ: المتوازي والترصيع، وبين مدته ومنيته: المطرف.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام ردّ على أصحابه أولاً الذين تمكّنت في سويدوات قلوبهم حقية دعوة أصحاب معاوية إلى كتاب الله، وقال: كلمة حق يراد بها باطل، أي: قولهم لا حكم إلا لله كلمة حق، ولكن ليس مقصودهم كتاب الله بل غرض آخر باطل، وهو اطفاء نائرة الحرب عنهم وتشتّت كلمتكم وشقّ عصاكم مما ينخرط في سلك الباطل، ثم بقوله: نعم لا حكم إلا لله صدّق قولهم لكن لا من حيث انه صدر عنهم، ودالّ على القصر للإفراد لأنه من هذه الحيثية يستلزم أن تكون الأحكام كلّها منصوصة دلّ عليها ألفاظ كتاب الله وليس كذلك.

فان البر(١) أحكام الفروع مأخوذة من الأخبار النبوية منتزعة منها بحسب الاجتهاد وشرائطها لمن كان أهلاً لذلك من أنها أحكام الله، بل من حيث انّ في نفس الأمر جميع الأحكام راجع إلى حكمه تعالى، ولما اعتقدت الخوارج أنه لم يصح التعويل على حكم لم يؤخذ بعينه في كتاب الله تعالى، ولا يجوز امتثاله ولا العمل به، وهذا الاعتقاد يستلزم نفي الإمرة، لأن استنباط الأحكام الجزئية والنظر في تدبير مصالح الرعية مفوّض إلى رأي الأمير، ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم.

قال نعم لا حكم إلا لله: ولكن هؤلاء يقولون لا امرة ثم كذب قولهم لا

---

(١) كذا في الأصل.

أمرة بقوله: وأنه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، وحاصل الكلام يرجع إلى أنّ كلامهم في تقرير شرطية متصلة لازمها باطل فيكون باطلاً، تقريره: كلما ثبت قولهم لا حكم إلا لله كما اعتقدوه ثبت انتفاء الامرة بالكلية، ولكن اللازم باطل لأن نقيضه صادق، وهو أنه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، والدليل على هذا أن الانسان خلقت فيه النفس الأمارة بالسوء والقوة الغضبية الداعية إلى تفرّق الأهواء والهرج والمرج.

فلولا بين الخلق سلطان قاهر يردعهم عن إثارة الفتن ويأتلف بهيئة القلوب ويسكن بسطوته اختلاف الأهواء لاختلّ نظام الخلق في معاشهم، وقد ألمّ المتنبي(١) إلى هذا المعنى حيث قال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفة فلعلّة لا يظلم

وقد روي: أن النبي صلى الله عليه وآله قال: ان الله ليؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم في الآخرة، وروي بالرجل الفاجر، وقول الحكماء: الأنسان مدني بالطبع مستلزم لوجود الأمير على ما بيّنا قوله يعمل في امرته المؤمن؛ اي المؤمن يعمل في امرة الأمير من حيث إنه برّ عمله على مقتضى أوامر الله ونواهيه، والكافر يطلب التمتّع بانهماكه في اللذات الحاضرة والإعراض عن الله تعالى بالكلية في امرة الآخر من حيث إنه فاجر.

قوله يجمع به إلى القوي: إشارة إلى فوائد وجود الأمير برّاً كان او فاجراً.

قوله حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر: اشارة إلى الغاية من الإمارة، أي: الغاية من الأمور المذكورة الباقية ببقاء الأمير ان يستريح برّ مؤمن بوجودها

---

(١) أبوالطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفي: الشاعر المشهور، ولد بالكوفة سنة ٣٠٢ وقدم الشام في حال صباه، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها؛ وأكثر المقام بالبادية، وطلب علم العربية حتى بلغ الغاية التي فاق أهل عصره وعلى شعراء وقته، واتصل بالأمير سيف الدولة وكان يتحقّق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام، قتل سنة ٣٥٤.

ويستراح من فاجر أي من ظلمه، وقيل: معناه ان هذه الفوائد لا تزال باقية ببقاء الأمير برّاً كان أو فاجراً، حتى يستريح البرّ بموته ويستراح الفاجر بموته أو بعزله، وهو احتمال جيّد، والمذكور في الرواية الثانية معلوم مما ذكرنا، وبالله التوفيق والعصمة.

* * *

٤٠ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ. وَمَا يَغْدِرُ(١) مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ(٢)، اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ، مَا لَهُمْ؟ قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ(٣) بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.

اللغة

الجنة: الترس، وانما سمّي بها لأنه يستر القاعد خلفه عن ضرب العدوّ من جنّ أي ستر.

أوق: أفعل التفضيل من الوقاية وهي: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضرّه، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف.

الغدر: الإخلال بالشيء وتركه، ثم شاع في ترك العهد، ومنه قيل: فلان غادر وجمعه غدرة، وغدّار: كثير الغدر.

---

(١) في ض: ولا يغدر.

(٢) في ض وب وح: في زمان قد اتخذ.

(٣) في م وش: فيدعها رأي العين.

الكيس: خلاف الحمق، وفي الحقيقة عبارة عن الفطانة والذكاء وجودة الرأي في استخراج المصالح.

الحيلة: ما يتوصّل به إلى حالة في خفية، وأكثر استعماله فيما تعاطيه حيث.

الحوّل: بتشديد الواو الرجل البصير بتحويل الأمور.

القلّب: الكثير التقلّب، يقال حوّل قلّب لمن كان عارفاً بتقلّبات الأمور وكيفية الخروج منها.

ودع يدع: أي ترك ، لا يقال ودعه وانما يقال تركه، ولا وادع بل تارك ، قال الجوهري: وقد أميت ماضيه فاعلم.

دع ذا: أي أتركه.

انتهزت الفرصة ينتهزها انتهازاً: أي اغتنمتها، الفرصة: الشرب والنوبة.

الحريجة: اسم من التحرّج وهو التأثّم والتحرّز من الحرج وهو الاثم.

الاعراب

الضمير في منه عائد إلى الوفاء اتّخذ مفعولين: اولها الغدر والآخر كيساً، الضمير في نسبهم إلى أكثر أهله وفي فيه إلى الزمان، في دونه روايتان:

احداهما: بضمير التأنيث العائد إلى الحيلة وهي الأصح.

والثانية: بضمير التذكير العائد إلى وجه الحيلة وهي محتملة، ونهيه عطف على الله تعالى، والضمير المنصوب في فيدعها للحيلة، والمرفوع للحوّل القلّب، ورأي العين متعلّق بحال محذوفة، أي: حال كونها مرئية رأي العين.

المعاني

تصدير الجملة الأولى بأن، وتعقيبها بالجملة الثانية دليل على أنّ الكلام مع المنكرين، وشدّة اهتمامه عليه السلام باثبات فضيلة الوفاء، ما لهم استفهام على

سبيل الإنكار والتوبيخ عن خوضهم في حاله عليه السلام، الفاء في فيدعها للسببية الدالة على أن المانع من الله سبب لتركه عليه السلام الحيلة، ولتكون تقديره هو يدعها يدل على استمراره في الترك .

البيان

في إن الوفاء توأم الصدق: استعارة تصريحية تخييلية مستدعية لتشبيه الوفاء وهو معقول، بالتوأم وهو الولد المقارن لولد آخر وهو محسوس، ووجه الشبه: أن الوفاء يقارن للصدق تحت أم من أمهات الفضائل النفسانية وهي العفّة، كما أنّ التوأم مقارن لآخر في بطن واحد من أمها، وتخييل أنه من أفراد التوأم وإلّا لم يصحّ اطلاقه عليه، والباقي ليس فيه شي ء مشكل.

البديع

ليس فيه شي ء زائد.

الفحوى

قوله إنّ الوفاء توأم الصدق: اشارة إلى أن الوفاء الذي هو ملكة نفسانية من لزوم العهد كما ينبغي والبقاء عليه، والصدق الذي هو ملكة تحصل عن لزوم الأقوال المطابقة للواقع متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، داخلاً تحت ملكة العفة، يلازم الغدر الذي هو رذيلة في مقابلة الوفاء، والكذب الذي هو رذيلة في مقابلة الصدق، ودخولهما تحت رذيلة الفجور، وقد أشبعنا الكلام في هذا المقام في القاعدة الثالثة.

ثمّ حثّ الناس بلزوم الوفاء وجعله شعاراً لنفسه وقال:

لا أعلم جنة أوقى منه: أما في الدنيا فلأنه يستر المرء من لحوق السب والعار

اللازمين من الغدر، الملطّخين بعدم توجّه النفس، وأما في الآخرة فلأنه يستر المرء من عذاب الله تعالى و يقرّبه إلى نيل الأجر العظيم، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً[١]»، ثم نبّه بقوله:

ما يغدر من علم كيف المرجع: على أنّ الغدر لا يأتي إلا ممن جهل بكيفية المرجع إلى الله تعالى ومنازل السفر إلى الله تعالى، والوفاء انما يأتي ممّن كان عالماً بكيفية الرجوع إلى الله مطلعاً على أحوال الآخرة، فمن لم يوف وغدر كان لجهله بمواقع الأمور خصوصاً أحوال الغيب، ولمن أوفى كان لكونه من الموقنين بالله.

وهذا توبيخ عظيم للغادرين، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

قوله ولقد إلى كيساً: اشارة إلى أنّا قد أصبحنا في زمان لا يعرف الشريعة.*

* * *

(١) الفتح: ١٠.

* بقية شرح الخطبة ساقط في الأصل.

٤١ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. أَلاَ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ[١] حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ اصْطَبَّهَا[٢] صَابُّهَا، أَلاَ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ[٣] وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابٌ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ.

اللغة*

الاعراب

اثنان: صفة لموصوف محذوف وهو خصلتان، وقد روي أنه عليه السلام قال:

انّ أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل: فاما اتباع الهوى فانه يعدل عن الحق.

اصطبّها صابها: نعت لصبابة، والأولى أن يكون صلة لموصول محذوف تقديره بصبابة إلا بالتي اصطبها صابها، وحذاء حال، اليوم: اسم ان، وعمل: قام مقام الخبر استعمالاً للمضاف إليه مقام المضاف، تقديره: إن اليوم يوم عمل، ويحتمل أن يكون الاسم ضمير الشأن، وقد حذف العلم به، واليوم مبتدأ عمل خبره، والجملة في محل الرفع على أنها الخبر.

---

(١) في م ون: قد ولّت جذاء بالجيم وفي ر: قد ولّت حذاء وبخط الرضي على حاشية الاصل: الحذاء بالحاء.

(٢) في م: اصطبّها صاحبها.

(٣) في م: فان لكل ولد.

* اللغة وشرح نصف الخطبة تقريباً ساقط في الأصل.

المعاني

في إنّ أخوف إلى الأمل: خواصّ إحداها: كونه مصدّر بأن ليؤذن بأنّ المقام مقام إنكار.

ثانيها: جعل اثنان خبراً ثم بيانه ليؤذن بالإجمال والتفصيل الموقعين للكلام في النفس أفضل ايقاع.

ثالثها: ايراد أفعل التفضيل مضافاً إلى الشيء الذي يخاف منه عليه السلام تأكيداً للمعنى واشتمال اما على الايجاز، وقد أوقفناك عليه غير مرة.

الفاء في فلم: فصيحة تقديره الكلام ولب[1] حال كونها سريعة وقد مسى المرها فلم[1]، وفي فلم يبق منها إلى صابتها القصر للقلب، وانما جعل قوله عمل نفس الخبر ايذاناً بأن الدنيا ما تكون إلا للعمل وليس منها غرض سواه، وهكذا بيان كل شيء منه غرض مقصود، فاذا فقد ذلك الغرض منه فيصحّ سلب الاسم عن ذلك الشيء، كما أن الفرس إذا لم يأت منه العدو يصحّ أن يقال أنه ليس بفرس، وفي اشتمال هذا التركيب على الايجاز لا يحتاج إلى بيان.

البيان

في الّا صبابة: استعارة تصريحية تخييلية مستدعية لتشبيه الدنيا بالقياس إلى كل شخص وهي معقولة، بالبقية من الماء في الاناء وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في القلة وهي معقولة، وتخييل أنها من أفراد الصبابة والا لم يصحّ جعلها خبراً عنها.

ثم لم يقنع بهذا وشبهها بعد جعلها فرداً من أفرادها بصبابة إلا بالتي اصطبها صابّها، ووجه الشبه: اشتراكهما في غاية القلّة. ولكلّ منهما بنون: استعارتان مكنى بهما، الاولىٰ: تخييلية مستدعية لتشبيه الدنيا والآخرة بالأم، ووجه الشبه: أنهما

(١) كذا.

مقصد الناس واصلان للنافع، كما أن الأم مقصد الأولاد ومحل منفعتهم، وهو عقلي.

الثانية: تصريحية تخييلية مستدعية لتشبيه الناس بالبتين وهما محسوسان، ووجه الشبه: أن بعضهم يميل بالطبع إلى الدنيا ويطلب المنافع منها، وبعضهم يميل عن الدنيا ويرغب إلى الآخرة، ويتصور أن السعادة الأبدية والمنفعة الباقية ليستا حاصلتين إلا من الآخرة، كما أن البنين يميلون بالطبع إلى الأمهات أو بحسب تصورهم أن منافعهم لا تتأتى إلا منهن وهو عقلي، والباقي واضح، واليوم: كناية عن البقاء في الدنيا لأنه حاضر، وغداً: كناية عن القيامة لأنها آتية.

البديع

في هذا الفصل قد راعى المقابلة؛ حيث قابل أولاً: الدنيا بالآخرة، ثم التولية بالاقبال، وثانياً: في قوله إن اليوم إلى ولا عمل: حيث قابل اليوم بغد، أو العمل بلا عمل، والحساب بلا حساب.

الفحوى

اعلم أن غرضه عليه السلام من ايراد هذه الخطبة والقائها إلى الناس أن يعرفوا الموانع التي تمنع السالكين في سبيل الله عن السلوك إلى الله تعالى، فيقطوها ليكون السلوك لهم اسهل وأيسر، ولما كانت القبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجّه إليها مطالعة أنوار كبريائه ومجاورة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

كان اتباع النفس الأمارة بالسوء في سوء لها الطبيعية وبها لكنها على اللذات الحاضرة الفانية اسد حادت له عن القصد إلى المقصد الأعلى وأعظم صاد له عن التوجّه إلى الحق، وكذا رتّب الله تعالى استحقاق أن ينزل في حضيض جهنم على من انهمك في أسباب الدنيا وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية السرمدية.

قال تعالى: «فاما من طغى وأثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هي المأوى»، ورتّب استحقاق الترقي في منازل الجنة ودرجاتها على الا نهى[1] النفس الأمارة بالسوء عن الهوى، وقال: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى[2]»، وأدرج رسول الله صلى الله عليه وآله اتباع الهوى في المهلكات: شحّ مطاع واتباع الهوى واعجاب المرء بنفسه، وبالحقيقة المهلك ليس إلا واحد وهو اتباع الهوى.

إذ الشحّ المطاع انما يلزم من اتباع النفس الأمارة في محبتها الشديدة لأغراض الدنيا، وكذا الاعجاب وذلك لأن من عرف نفسه وترق من حضيض الامارة إلى أوج الاطمئنان لا يحوم حول ساحة قلبه شائبة النظر إلى نفسه فضلاً عن الاعجاب، وفي موضع آخر يجعل حب الدنيا أصل كل مانع ضارّ، وقال عليه السلام: حب الدنيا رأس كل خطيئة، كان أخوف ما يخاف على الطريق من الأمور التي قصد السالك عن سلوك سبيل الحق اتباع الهوى.

وأما الأمل لكونه أيضاً عبارة عن توقع الأمور المحبوبة من اللذات الفانية، يستلزم ملاحظة النفس اياها وهي تستلزم اينفاس[3] لوح النفس بها فيسود فلا يقل نفوس أحوال الآخرة، ولو كانت تزول عنه لغلبة المتوقعات، هذا هو المعنى بقوله فينسي الآخرة، وكذا حثّ الرسول عليه السلام على قطع الأمل وقال لعبدالله بن عمر: إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فانك يا عبدالله لا تدري ما صمك ...[4] غداً.

(١) كذا في الأصل.
(٢) النازعات: ٤١.
(٣) كذا في الأصل.
(٤) بياض في الأصل.

قال أبو سعيد الخدري[١]: اشترى أسامة بن زيد[٢] وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إنّ أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفرتي لا تلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي وظننت أني واضعه حتى اقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا اسيغها حتى أغصّ بها من الموت، ثم قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون تعدّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

وقال صلى الله عليه وآله لأصحابه: أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: قصروا من الأمل، وثبتوا آجالكم بين أنصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء. والأخبار في ذلك كثيرة، ولما كان اميرالمؤمنين عليه السلام هو المرشد للخلائق بعد رسول الله صلى الله علي وآله إلى الحق وسلوك سبيل الآخرة، والمتولي لصلاح حالهم، نسب الخوف إلى نفسه عليه السلام ثم التفت عن السبب الضار إلى قطع الآمال، ونفّرهم عما يأملونه من الدنيا، ورغّبهم إلى ما يفرّون منه وهو الآخرة.

قال: ألا وإن الدنيا قد ولّــت حذاًء، قوله: فلم يبق منها اشارة إلى انّ الأمر ليس على ما تأمركم به انفسكم من البقاء باللذات الدنيوية، بل ليس الباقي بالنسبة إلى كل فرد من أفراد الانسان، إلىٰ أن لكلّ واحد من الدنيا والآخرة أهلاً يميلون إليه مثل الابناء إلى آبائهم وامهاتهم، فمنعهم من نصرهم الله تعالى... [٣]

(١) سعد بن مالك بن سنان الخزرجي؛ كان من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، قيل: لم يكن أحد من أحداث الصحابة افقه من أبي سعيد، وكان من الحفاظ المكثرين والعلماء العقلاء، وكان أبوه مالك استشهد يوم أحد.

(٢) أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي؛ مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وكان يسمى حب رسول الله، استعمله النبي صلى الله عليه وآله على المهاجرين والأنصار وهو ابن ثماني عشرة سنة، وكان أسامة بن زيد منصرفاً عن علي عليه السلام ولم يبايعه، وتوفى سنة ٥٤.

(٣) كذا بياض في الأصل.

الدنيا بمنافع الآخرة وهتك الأستار بين أبصار بصائرهم، فالوا إلى الآخرة معرضين عن اللذات الفانية، ففازوا بالسعادة الأبدية والكرامة السرمدية.

منهم من أسرتهم أنفسهم الأمارة واستولى عليهم الهوى، فانهمكوا في استيفاء اللذات الحاضرة التي هي بالحقيقة آلام روحانية لا يكون لهم شعور بها لأصابتهم الخدر(١)، فبعدوا عن النعيم المقيم والسرور الدائم الجسيم، أولئك الذين أنزلوا أنفسهم من معارج الملكوت بمدارج...(٢) الهيات الردية إلى مهاوي الهلاك والبعد عن ملاحظة أنوار كبريائه، ولما كان حال الأولين يؤول إلى الفوز بدرجات الجنات، وحال الآخرين يرجع إلى الهوى في مهاوي الدركات، أمر الناس عليه السلام بالانخراط في سلك الأولين ونهاهم عن الادخال في الآخرين.

قال: فكونوا من أبناء الدنيا ولا تكونوا من أبناء الآخرة، وأشار بقوله: فان كلاً إلى القيامة إلى أبناء الآخرة المقبلين إليها، إذا قامت القيامة يلحقون بمقاصدهم التي توجهوا إليها من الالتذاذ باللذات الدائمة والابتهاج بمطالعة أنوار كبريائه، لحوق الولد بأمه بعد المفارقة بينهما، وأما أبناء الدنيا فلأنّ نفوسهم لما كانت مستغرقة في محبتها معرضة عن الآخرة، كانت يوم القيامة ملحقة بالدنيا مغلولة لسلاسل الهيئات البدنية والملكات الرديئة التي لشبتبها(٢) بينها وبين الالتذاذ باللذات الباقية.

فهم كالأولاد وقعت بينهم وبين أمهاتهم المفارقة في موضع لا يكون لهم أنس ولا لهم لذة، وأي عاقل يرضى لنفسه أن ينزل نفسه في مقام الحسرة والندامة ويبعدها عن الكرامة والسعادة، فمن كان له أدنى تمييز بين اللذات الباقية والفانية لا يرضى بذلك، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

ثم نبّههم على الطريق الموصل للكون من أبناء الآخرة وهو العمل، وأمرهم بلزومه قبل أن يجيء وقت امكانه، وقال: ان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا بياض في الأصل.

ولا عمل، فمن أراد أن يكون من أبناء الآخرة فليعمل لها أوان إمكانه، فانه إذا ضاعت الفرصة أصابت الغصّة، وإليه أشار أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: اضاعة الفرصة غصّة، اللهم وفّقنا لما تحبّ وترضى.

* * *

٤٢ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامْ

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جريرابن عبدالله البجلي إلى معاوية

إنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إغْلاَقٌ لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إنْ أَرَادُوهُ. وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً. وَالرَّأْيُ[١] مَعَ ٱلْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا، وَلاَ أَكْرَهُ لَكُمُ ٱلإعْدَادَ، وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰذَا ٱلْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ، وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَلِي[٢] إلَّا الْقِتَالَ أَوِ الْكُفْرَ (بما جاء محمد صلى الله عليه وآله[٣])، إنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى النَّاسِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ لِلنَّاسِ مَقَالاً، فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا.

اللغة

الاستعداد للأمر: التهيؤ له.

خدعه يخدعه خدعاً وخدعاً أيضاً مثل سحره سحراً: أي ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم، فهو خادع وذاك مخدوع.

---

(١) في ض وب ون: والرأي عندي مع الأناة.

(٢) في ن: فلم أر إلّا القتال وفي ح: فلم أر فيه إلّا القتال.

(٣) ساقطة من ض وب ول وش وفي ن: بما انزل على محمد وفي ع بما انزل الله على محمد صلى الله عليه وآله.

الأناة: الاسم من التأنّي والرفق.

أرود في السير ارواداً ومروداً: أي رفق، وقولهم فلان يمشي على رود أي على مهل.

الكره والكره: واحد كالضعف والضعف، قيل: الكره المشقّة التي تنال الانسان من خارج مما تحمل عليه باكراه، والكره ما يناله من ذاته وذلك ما يعاف من حيث العقل أو الشرع، ولهذا يصحّ أن يقول الإنسان في الشيء الواحد اني اريده واكرهه، بمعنى: اني أريده بالطبع واكرهه من حيث العقل أو الشرع، أو بالعكس.

أراد عليه السلام بنفي الكره هنا من حيث العقل والشرع.

قلّبت الشيء: أي صرفته عن وجه الى وجه فانقلب أي انصرف.

أحدث: أي أوجد شيئاً لم يكن، وفي أحداثاً روايتان: إحداهما: كسر الهمزة على أنه مصدر أتى به للتوكيد.

والثانية: فتحها على أنه جمع حدث.

أوجد: يحتمل أن يكون من وجد عليه أي غضب موجدة أي أغضبهم، وأن يكون من وجد لي أحزن وجداً أي أحزنهم، وقيل معناه: جعلهم واجدين فيه مقالاً للتشنيع، وهو محتمل.

نقمت الشيء ونقمته: اذا انكرته اما بلسان أو عقوبة، قال الله تعالى: «وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله»، وقد وجد بخط الرضي رضي الله عنه نقمّوا بكسر القاف وهو صحيح.

الاعراب

استعدادي: في محل النصب على أنه اسم ان، وخبره اغلاق للشام.

الواو في وجرير: للحال، مخدوعاً: نصب على الحال من الضمير المستكن

في يقيم العائد الى جرير، والعامل فيه يقيم اصل.

فلم أر لي: من رأى يرى، سقطت الياء بلم الجازمة، الضمير في أنه: عائد الى عثمان وهو اسم ان، ووالٍ كقاضٍ سقطت الياء في الرفع وهو اسم كان، وعلى الامة خبره، والمجموع في محل الرفع على أنه خبر ان.

وأحدث أحداثاً: يحتمل أن يكون نعتاً لوال وهو الاولى، وأن يكون جملة مستأنفة مقالاً على التفسير الذي اوردناه تميين، وعلى ما قيل مفعول لاسم الفاعل المقدّر.

المعاني

تصدير الجملة الأولى بأن المحققة يؤذن بان الكلام في مقام انكار المخاطبين ليردّهم الى ما هو الصواب عنده، وانما وقعت الحالة بين الاسم والخبر لكونها الاهم، وانما جاء بالواو لكون الجملة وان كانت واردة على نهج الحال غير واردة على أصلها لكونها اسمية، ولكن اورد لنفي ما اعتقدوه وحكموا به من أن الاستعداد صواب، واثبات ما هو الحق وهو تأخير الاستعداد الى أن ينقضي الوقت المضروب، ومخدوعاً لكونه وارداً على أصل الحال ونهجها عرّي عن الواو وغيره من الروابط، وهنا القصر للإفراد على تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين له المعتقدين ان اقامته يمكن أن تكون لغيرهما.

والحاصل أنه عليه السلام قصر حاله في وقت الاقامة على أحد الأمرين: يعني علة اقامته لا تكون الّا الخداع أو العصيان لأمري، الفاء في فارودوا: لربط الجملة الطلبية بالخبرية الاسمية ظاهر، أو لافادة أن مضمون الجملة السابقة سبب للإمهال والتأخير، وفي فلم أر لي الآ: القصر للافراد، وفيه من الايجاز ما يشقّ غباره ولا يدرك شأوه، الفاء في فقالوا: للسببية الدالة على أن السابق علّة لقولهم، وايراد ثم يؤذن ان بين القول والنقم تراخياً، والفاء في فغيروا: من أفصح الفاءات،

والباقي واضح من القواعد السالفة.

البيان

في لقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه: استعارة مكنى بها عن التفكّر والتدبّر في حاله عليه‌السلام مع معاوية وأهل الشام، مستدعية لتشبيه الأمر الذي هو عبارة المخالفة بينه عليه‌السلام وبين معاوية في الخلافة وهو معقول، بالحيوان الشموس الذي يحتاج الانسان في سوقه الى المقصد الى تعب وضرب له وهو محسوس، ووجه الشبه: اشتراكهما في احتياج سائقهما الى التعب وهو عقلي، ولتخييل أن الأمر من أفراد الحيوان، وإلّا لم يصحّ اسناد الانف والعين اللتين من خواص الحيوان اليه.

وذلك مثل قولهم: مخالب المنية قد نشبت، ثم في ضربت: أيضاً استعارة تبعية تصريحية مستدعية لتشبيه قصده عليه‌السلام الرأي الصائب بواسطة إحالة الفكر وإتعابه، بقصد السابق عدول الحيوان الشموس عن غير الجادة اليها بواسطة ضرب العين والانف اللتين هما أعزّ اعضاء البدن، وموقعاً الضرب عند التوجّه الى غيرها، ووجه الشبه: اشتراكهما في الافتقار الى معين وهو عقلي، وكنّى بظاهر هذا الأمر وباطنه عن وجوه الرأي فيه من الأصلح الحافي على الاكثر والصالح والفاسد والأفسد، والباقي ليس فيه شيء زائد.

البديع

بين عينه وظهره: المتوازي، والباقي ظاهر.

الفحوى

اعلم أنه قد غلب على ظن كثير من الصحابة بعد أن بايعوا علياً

عليه السلام أن معاوية لا يدخل في بيعتهم بواسطة إمارات لاحت على صفحات أحواله، وكذا أشاروا الى اميرالمؤمنين عليه السلام حين أرسل جريربن عبدالله البجلي[١] الى الشام بالاستعداد للحرب، روي: أن جريراً قال حين تعين بيعته[٢]، والله يا أميرالمؤمنين ما ادخرك من نصرتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية، فقال عليه السلام: قصدي حجة اقيمها،فكتب عليه السلام معه:

أما بعد فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني الذين بايعوا ابابكر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ، وانما الشورى للمهاجرين والانصار إذا اجتمعوا على رجل فسمّوه اماماً كان ذلك رضا، فان خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه الى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على غير سبيل المؤمنين وولاّه الله ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً.

ان طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، فكان نقضهما كردّتهما، فجاهدا على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون: فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فانّ أحب الأمور اليّ فيك العافية إلاّ أن تتعرض للبلاء، فان تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك، وقد اكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم اليّ أحملك واياهم على كتاب الله.

واما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري إن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم انك من الطلقاء الذين لا يتحلّى لهم الخلافة، ولا يعرض فيهم الشورى، وقد ارسلت اليك جريربن عبدالله وهو من أهل الايمان والهجرة فبايع، ولا قوة الا بالله، فكتب اليه معاوية جواباً عن

(١) جريربن عبدالله بن جابر ابوعبدالله البجلي؛ أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله بأربعين يوماً، وكان حسن الصورة، وكان له في الحروب بالقادسية وغيرها اثر عظيم، وجعله عمربن الخطاب على بجيلة، أرسله علي عليه السلام الى معاوية لأخذ البيعة، وطال مقامه بدمشق الى ان استدعاه علي الى الكوفة، ولما ورد الكوفة ترك علياً عليه السلام واقام بقرقيسا ومات بها في سنة ٥١ .

(٢) كذا في الأصل.

خطابه:

أما بعد ولعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بعثمان وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلّا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ما حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأنهم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام، واما شرفك في الاسلام وقرابتك من النبي عليه السلام ومن قريش فلست ادفعه.

وروي: أن الكتاب الذي كتبه عليه السلام الى معاوية صورته هكذا: أني قد عزلتك ففوّض الأمر الى جرير والسلام، ثم قال لجرير: صن نفسك عن خداعه، فان سلم اليك الأمر وتوجّه الي فأقم أنت بالشام، وان تعلّل بشيء فارجع، فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلّل بمشاورة أهل الشام وغيرها، فرجع، فكتب معاوية في اثر كتاب علي عليه السلام: من ولاك حتى تعزلني والسلام.

قوله: ان الى ان ارادوه إشارة الى أن أهل الشام في حال كون جرير عندهم في حالة الكفر بين الموافقة والمخالفة في أن[1]، أصلح وأوفق لنظام حالهم، وربما استقر رأيهم الى الموافقة، وان لم يستقر رأي جميعهم فربما يستقر رأي بعضهم، فلو اشتغلنا في تلك الحال بالحال باستعداد لحربهم لبلغهم ذلك، قصروا عن الموافقة واحتاجوا الى التأهب والاستعداد للحرب أيضاً، فيصير استعدادنا للحرب سبباً لغلق الشام بالكلية وردّهم عن الخير الذي أرادوه الى ما هو باطل، فلا يكون الاستعداد في هذا الوقت مناسباً لحالنا.

قوله ولكن أبى عاصياً: اشارة إلى اني قد عينت فيه وقتاً يتصل بنا فيه لا يمكن تخلّفه الا لأحد مانعين من موانع الاختيار: أحدهما: من قبلهم وهو خداعهم،

---

(١) كذا في الأصل.

والآخر: من قبل جرير وهو عصيان أمري ومخالفة منه، وكلا الأمرين يتجليان عن قريب، وانما قيدنا بالموانع الاختيارية لئلا يبطل الحصر بالموت أو المرض وغيرهما.

قوله والرأي مع الأناة: إشارة الى أن الرأي الحق انما بينا من التأني في الأمور والتفكر في اختيار أصلحها، والى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وآله: الاناة من الرحمن والعجلة من الشيطان، واذا كان الرأي الصائب أن يكون بعد تأنّ وتفكّر فأخّروا الاستعداد ولا تعجلوا في الظاهر، ثم بيّن بقوله: ولا أكره لكم الإعداد، وان المأمور به ليس التأخير من حيث الصورة الظاهرة التي يدركها كل أحد، وأن اعداد أنفسهم للحرب ان احتجنا اليها مما لا ينكر في العقل والشرع.

قال بعض الشارحين: انما نبه به على أمرين: أحدهما: أنه ينبغي لهم ان يكونوا على يقظة من هذا الأمر حتى يكونوا حال اشارته عليه السلام إليهم قريبين من الاستعداد، الثاني: لا يتوهم أحد فيهم الضعف والعجز عن مقاومة أهل الشام، وقال ابن أبي الحديد: فان قيل كيف يمكن الجمع بين قوله ان استعدادي الى أن أرادوه المقتضي للنهي عن الاستعداد وكراهته له.

قوله :ولااكره لكم الاعداد: المقتضي لنفي الكراهية، قلنا: الأول محمول على الاستعداد بالظاهر، والثاني: محمول على التهيّؤبالباطن، فلا يناقض، ولو قلنا: إنه عليه السلام بيّن أولاً ان اظهار الاستعداد للحرب اغلاق للشام بالكلية، وثانياً نبههم على أنه عليه السلام لا يكره لهم توطين نفوسهم على الحرب ان احتجت، لكان جيّداً.

قوله وقلّبت الى بطنه: إشارة الى إحالة الفكر في الافراد التي يمكن أن يتعلّق بها الرأي، والمبالغة في التفتيش عما هو الاصلح والأوفق بحسب ما يقتضيه العقل أو الشرع.

قوله فلم الى الكفر: إشارة الى تعيين ما استقر عليه رأيه من الأمور الممكنة بعد التصفّح الكثير والتقليب الوافر وهو قتالهم، وذلك لأنه إن لم يحضره لزمه ترك

قتالهم وهو مستلزم لكفره عليه السلام بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله على ما صرّح به في موضع آخر وقال: أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله، وذلك محال أن يتعلق اختياره فتعيّن له قتالهم.

وحاصل الأمر أن خلاصة رأيي رجعت الى أحد أمرين: إما قتالهم أو تركه المستلزم للكفر، والثاني محال اختياره، فتعيّن الأول، وانما قلنا: باستلزام تركه الجحود لأنه عليه السلام قد أمره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فلو ترك المأمور به لكان لا يكون الا لعدم اعتقاده عليه، به جلّ جنابه المقدّس عنه وهو مستلزم للكفر، قوله: إنه كان الى آخره إشارة الى ما تصوّر معاوية في حقّي وجعله سبباً لعصيانه عن أمري من نسبتي الى دم عثمان غير مطابق للواقع.

بل ليس الحامل للناس على القتل الآ منه، وذلك لأنه والٍ للامة، ومن شأن الوالي قسط العدل وقمع الأباطيل، وعدم ترجيح أقاربه بمجرد القرابة على بعض أفضل منهم، وأحدث أحداثاً في الدين ما أحدثها رسول الله صلى الله عليه وآله ولا الشيخان المقدّمان عليه، وجعل للناس بتلك الأحداث ذريعة الى القول عليه، فقالوا ما قالوا، ثم أنكروا عليه باللسان والعقوبة، فغيّروه عما كان عليه من الوجود وأزالوه، وأما الأحداث التي نقلت عنه كثيرة، ولكن المشهور منها بين أرباب التواريخ عشرة:

الأول: تفويض امور المسلمين الى من لا يستأهل لها من الفسّاق رعاية لمجرد القرابة دون حرمة الاسلام كالوليد بن عقبة(١)، حتى بدا منه التظاهر بشرب

---

(١) الوليد بن عقبة بن ابي معيط الاموي؛ اخو عثمان لأمه، قال ابن ماكولا: رأى الوليد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو طفل صغير، وقوله عزوجل: ان جاءكم فاسق بنبأ نزل فيه، ولاه عثمان الكوفة، كان الوليد شريب خمر، صلى الوليد باهل الكوفة صلاة الصبح اربع ركعات ثم التفت اليهم فقال: ازيدكم، فشهدوا عليه عند عثمان بأنه شرب الخمر وتقيأها، وقال لعلي: اقم عليه الحدّ، فامر عبدالله بن جعفر فجلده اربعين، وبعد مقتل عثمان اعتزل، وقيل: شهد صفين مع معاوية، واقام بالرقة حتى توفي بها.

الخمر، وسعيدبن العاص[١]، الذي أخرجه أهل الكوفة منها بوساطة اقدامه على الامور الخارجة عن نظام الشرع المقدس، وعبدالله بن أبي سرح الذي فوّض اليه مصر وظلـــم أهلها وتظلّموا منه، ولأجل كثرة ظلمه كثر الجمع عليه وشدّدوا الحصار عليه.

الثاني: التفاته الى الحكم بن[٢] أبي العاص وردّه الى المدينة بعد طرده رسول الله صلى الله عليه وآله منها وامتناع الشيخين عن ردّه، فهو خالف فيه سنّة الرسول وسيرة الشيخين.

الثالث: أنه تخصّص أقاربه بالتوسّع في أموال المسلمين من غير استحقاق، وقد روي: أنه دفع الى أربعة نفر من قريش زوجهم ببناته أربع مائة ألف دينار، وقد روي أيضاً: أنه اعطى مروان بن الحكم مائة ألف دينار، وذلك مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وآله ومن بعده من الخلفاء.

الرابع: أنه حمى الحمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول صلى الله عليه وآله بينهم في الماء والكلاء.

الخامس: أنه قد سوّى بين المقابلة وغيرها في اعطاء المال من بيت المال، وذلك غير جائز في الدين.

السادس: أنه ضرب عبدالله[٣] بن مسعود وهو من أكابر الصحابة

---

(١) سعيد بن العاص القرشي الاموي؛ ولد سنة احدى، وقتل ابوه العاص يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب، استعمله عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة، ولما قتل عثمان لزم بيته فلم يشهد الجمل ولا صفين، ثم ولي المدينة لمعاوية، وله اخبار مذكورة في كتب الرجال.

(٢) الحكم بن ابي العاص الاموي؛ ابو مروان بن الحكم، عم عثمان بن عفان، قال جبير بن مطعم: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله فرّ الحكم بن ابي العاص فقال النبي: ويل لامتي مما في صلب هذا، وهو طريد رسول الله، نفاه من المدينة الى الطائف وخرج معه ابنه مروان، فلما ولي عثمان الخلافة ردّه الى المدينة وجعل مروان حاجباً له، قالت عائشة: يا مروان اشهد ان رسول الله لعن اباك وانت في صلبه، وقد روي في لعنه ونفيه احاديث كثيرة فليراجع.

(٣) عبدالله بن مسعود الهذلي؛ كان اسلامه قديماً، وهو اول من جهر بالقرآن بمكة، وهاجر الهجرتين وصلى

←

وأساطينهم حتى كسر بعض أضلاعه.

السابع: أنه جمع الناس على قراءة زيدبن ثابت(١)، وأحرق المصاحف وأبطل ما لا شكّ في آية من القرآن، وذلك مخالف لفعل النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء من بعده.

الثامن: أنه أقدم على عماربن(٢) ياسر بالضرب مع كونه من أعاظم الصحابة، وعلمه بما قال رسول الله صلى عليه وآله: عمار جلدة ما بين عيني، تقتله الفئة الباغية لا أنالها الله شفاعتي، حتى أصابه الفتق.

التاسع: اقدامه على(٣) ابي ذر بكسر العرض مع علمه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله أثنى عليه وقال: ما أقلت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر.

العاشر: أنه عطّل الحد الواجب على عبيدالله بن عمر حيث قتل الهرمزان بمجرد تهمة أنه امر أبا لؤلؤة بقتل ابيه، وقد كان علي عليه السلام يطلبه بذلك، فهذه هي الاحداث المستفيضة والمطاعن المشهورة، وقد اجيب عن هذه الاحداث

القبلتين، وشهد بدراً واحد والخندق وبيعة الرضوان، وهو الذي اجهز على ابي جهل وشهد له رسول الله بالجنة، وله اخبار كثيرة مذكورة في كتب الرجال، توفي ابن مسعود بالمدينة سنة ٣٢.

(١) زيدبن ثابت الانصاري الخزرجي؛ كان عمره لما قدم رسول الله صلى الله عليه المدينة احدى عشرة سنة، واستصغره رسول الله يوم بدر فردّه، وشهد احداً والخندق، وكان ينقل التراب، فقال رسول الله: نعم الغلام، وكان معه راية بني النبحار يوم تبوك، وكان يكتب لرسول الله، توفي سنة ٤٥.

(٢) عماربن ياسر المذحجي ابي اليقظان؛ وهو من السابقين الأولين الى الاسلام، وامه سمية: اول من استشهد في سبيل الله، وهو وابوه وامه من السابقين، مرّ رسول الله بعمار وأمه وأبيه وهم يعذّبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة، فضائله كثيرة ومناقبه مشهورة، استشهد في صفين رضوان الله عليه.

(٣) جندب بن جنادة ابوذر الغفاري؛ اسلم والنبي صلى الله عليه وآله بمكة اول الاسلام، فكان رابع اربعة، وهو اول من حيّا رسول الله بتحية الاسلام، وبايع رسول الله على أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى ان يقول الحق وان كان مراً، وقال رسول الله: ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق من ابي ذر، نفاه عثمان الى الربذة ومات بها، وله اخبار كثيرة وفضائل مشهورة.

بأجوبة... [١] مذكورة في الكتب المصنفة في هذا القسم، وانما ذكرناها ليعلم معنى قوله: احدث أحداثاً، والله اعلم بحقيقة الحال.

* * *

٤٣ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أميرالمؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام:ــ

قَبَّحَ ٱللهُ مَصْقَلَةَ فَعَلَ فِعْلَ السادَةِ [٢]، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلاَ صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَٱنْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ [٣].

اللغة

هرب: أي فرّ.

خاس به يخوس ويخيس: أي غدر به، يقال خاس فلان بالعهد: أي نكث، وقولهم خاس البيع والطعام من خاست الجيفة: أي أروحت؛ أي كأنه كسد حتى فسد.

قبحه الله: أي نحّاه من الخير فهو من المقبوحين.

مصقلة هذا كان عاملاً لأمير المؤمنين عليه السلام على أردشير خرة [٤]،

---

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) في ب: فعل السادات.

(٣) في م وحاشية ف: بماله موفوره.

(٤) اردشير خره من اجلّ كور فارس، ومعناه: بهاء اردشير، واردشير من ملوك فارس، واكثرها ممتد على البحر،

←

وبنو ناجية : قبيلة نسبوا أنفسهم الى سامة بن لوي بن غالب ، فدفعتهم قريش عن هذا النسب وسمّتهم بني ناجية وهو اسم امرأة سامة .

ساد قومهم يسودهم: سيادة وسؤوداً أو سيدودة فهو سيّدهم سادة.

تقديره فعلة بالتحريك لأن تقدير سيد فعيل مثل سري وسراة ولا نظير لهما، يدل على ذلك أنه يجمع على سيائد بالهمزة مثل تبيع وتبائع، وقال أهل البصرة: تقديره سيد فيعل وجمع على فعلة، كأنهم جمعوا أسايد مثل قادة وقائد وذائد وذادة، وقالوا: انما جمعت العرب الجيد والسيد على جيائد وسيائد بالهمزة على غير قياس، لأن جمع فيعل فياعل بلاهمز.

التبكيت: كالتقريع والتعنيف، وبكته بالحجّة: أي غلبه، في وفوره روايتان:احداهمابالواو: وهو مصدر وفر الشيء بنفسه أي تمّ، ومعناه والتام أراد به تمام ما كان عليه، الثانية: موفورة، والموفور الشيء التام، والأولى أصح، وفي بعض الروايات: لو أقام أخذنا تاماً قدرنا على أخذه منه، فان اعسر انظرناه، وان عجز لم نأخذه بشيء.

الاعراب

ظاهر.

المعاني

انما قطع فعل ليؤذن بتعليل استحقاقه الدعاء عليه بالبعد عن الخير، والباقي ظاهر.

← شديدة الحر كثيرة الثمار، قصبتها سيراف، قال الاصطخري: اردشير خرة تلي كورة اصطخر في العظم، ومدينتها جور.

البيان

ليس فيه شيء يحتاج الى بيان.

البديع

راعى المقابلة: حيث قابل السادة بالعبيد، والانطاق بالاسكات، والتصديق بالتبكيت، أسكته وبكّته المتوازي، وبين ميسوره وموفوره: المطرف.

الفحوى

اعلم أن في كيفية قصة مصقلة روايات: احداها: روي أن أميرالمؤمنين عليه السلام وجّه معقل بن قيس الرياحي الى المرتدّين بسيف البحر، فقتل المقاتلة وسبي الذرية، وأقبل فنزل أردشير خرة وبها مصقلة بن هبيرة الشيباني، صاح السبي: امنن علينا، فاشتراهم مصقلة بثلاثمائة ألف وأعتقهم، وأدى مائتي الف ثمّ هرب إلى معاوية، فقال عليه السلام ذلك وأنفذ العتق، فقال مصقلة شعراً:

تركت نساء الحي بكر بن وائل * واعتقت سبياً من لؤي بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد * لمال قليل لا محالة ذاهب

الثانية: روي أن مصقلة بن هبيرة اشترى سبياً من بني ناجية بألف ألف درهم، وهم النصارى وقد ارتدّوا، ولم يف ماله بذلك، وطالبه أميرالمؤمنين به، وكان عاملاً من جهة أميرالمؤمنين عليه السلام على المدائن، ثم على الانبار، فدخل مصقلة على أميرالمؤمنين عليه السلام وقال: ما ضرّك لو كانت هذه التكرمة منك وان مالي لا يفي بذلك، وان عثمان بن عفان كان يهب للاشعث بن قيس[1] كل

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي ابو محمد؛ وفد الى النبي صلى الله عليه وآله سنة عشر في وفد كندة فاسلموا، وكان الاشعث ارتدّ بعد النبي، فسيّر ابوبكر الجنود الى اليمن فأخذوا الاشعث اسيراً، فاطلقه ابوبكر وزوّجه اخته، وشهد

سنة من مال أذربيجان مائة ألف درهم، وأنا أشرف من الأشعث وأجود منه.

فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: لا حظّ في هذا المال، والمال للمسلمين فلابد من أدائه، فقال مصقلة: أمهلني فأمهله أميرالمؤمنين عليه السلام عشرة أيام ففرّ الى الشام، فأمر أميرالمؤمنين بتخريب داره بالمدينة، فبنى معاوية له داراً بدمشق وأكرمه وأنعم عليه، فقال عليه السلام ذلك.

الثالث: روي ان الحريث أحد بني ناجية شهد مع أميرالمؤمنين عليه السلام صفّين، ثم استهواه الشيطان فصار من الخوارج بسبب التحكيم، فخرج هو وأصحابه الى المدائن مفارقاً لعلي عليه السلام، فوجّه اليهم معقل بن قيس في ألفي فارس من البصرة، ولم يزل يتبعهم بالعسكر حتى ألحقوهم بساحل فارس وكانت جماعة كثيرة من قوم الحريث، وكان فيهم من أسلم من النصرانية، فلما رأوا ذلك الاختلاف ارتدّوا واجتمعوا عليه، فاستولى معقل عليهم بقتل الحريث وجماعة منهم، وسبا من كان ادرك منهم، وسبا من الرجال والنساء ممن كان مسلماً اخذ بيعته وخلّى سبيله، واحتمل الباقين من النصارى وعيالهم معه وكانوا خمسمائة نفر مرّوا بمصقلة.

فاستغاث اليه الرجال وطلبوا منه أن يعتقهم، فبعث الى معقل بن قيس فابتاعهم منه بخمسمائة ألف درهم، ثمّ وعده أن يحتمل المال في أوقات مخصوصة، فلما قدم معقل على أميرالمؤمنين عليه السلام واخبره القصة وشكر سعيه وانتظر المال من يد مصقلة فأبطأ به، فكتب اليه باستعجاله أو بقدومه عليه، فلمّا قرأ كتابه قدم عليه عليه السلام وهو بالكوفة فسكت عنه اياماً ثم طالبه بالمال، فأوفى منه مائة ألف درهم وعجز عن الباقي، وخاف فلحق بمعاوية، فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال الفضل والتباين بين الروايات أبين من أن يحتاج الى بيان(١).

الأشعث اليرموك والقادسية ونهاوند، ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي عليه السلام ولكن كان منافقاً، والزم علياً على التحكيم، وابنته جعدة سقت الحسن بن علي، وابنه محمد بن الاشعث شرك في قتل الحسين.

(١) كذا.

اعلم أنه عليه السلام بعد الدعاء عليه بالبعد عن الخير أشار اليه بقوله: فعل الى العبيد الا أنه قد أخطأ خطأ تاماً حيث أقدم على شري السبي وعتقهم اسوة بالسادة ذوي المروّة والحمية، ثم هرب الى الشام وأتى بخصلة من خصال العبيد وهي الفرار، ثم أنه عليه السلام أكّد بيان خطئه بمثلين: أحدهما أشار إليه بقوله: فما انطق مادحه حتى أسكته أي: أنه ما انطق مادحه بالاقدام على شري الاسارى واعتاقهم حتى جعل إسكاته مقروناً بإنطاقه بهربه الى الشام.

والحاصل ان احراز الفضيلة انما يكون باتمام أسبابها، فاذا حصل بعضها صدق على من حصله أنه قد فعل فعلاً استحق به المدح، واذا قصّر في الباقي حتى استولت عليه الرذيلة صدق على المقصّر انه قد فعل فعلاً ثانياً اسكت مادحه عن مدحه بسبب الفعل الأول، وهذا مثل قولهم: ما اجتمعوا حتى تفرّقوا، أي ان اتصال افتراقهم باجتماعهم في أسرع زمان، ويحتمل ان يكون معناه: فما انطق مادحه بالإتيان بالفعل الجميل حتى أتى بفعل قبيح اسكته عن مدحه، يعني: أنه جمع بين فضيلة ورذيلة في أسرع اوقات.

الثاني أشار إليه بقوله: ولا صدق واصفه حتى بكّته.

أي ما صدق قول واصفه المبني عن الخصال الحميدة حتى جاء برذيلة منعته عن وصفه بالخير، وهو قريب مما قلنا، قوله: لو أقام الى وفوره اشارة الى تعيين طريق آخر له غير طريق الفرار، وهو أنه لو أقام عندنا لأخذنا ما قدر عليه ونيسّر له وانتظرنا بماله بلوغه الى التمام، اقتفاء لمقتضى قوله تعالى: وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة، وهذه الرواية أشهر ما أوردناه مبنياً على الروايات، وبالله الحول والقوة.

* * *

٤٤ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

الْحَمْدُ لِلّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ مِنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لاَ تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلاَ تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ. وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلاَءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ[١]، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا عَنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلاَ تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاَغِ.

اللغة

القنوط: اليأس من الخير، وقد يقنط قنوطاً مثل يجلس جلوساً، وكذلك قنط يقنط مثل قعد يقعد فهو قانط، وفيه لغة ثالثة: قنط يقنط قنطاً مثل تعب يتعب تعباً وقناطة فهو قنط، قال الأخفش: وأما قنط يقنط بالفتح فيهما، وقنط بالكسر فيهما فانما هو على الجمع بين اللغتين.

اليأس: انتفاء الطمع، وقد يئس من الشيء ييأس يأساً، وفيه لغة أخرى: يئس ييئس بالكسر فيهما وهو شاذّ.

الغفر: أصل اللغة هو إلباس الشيء ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ...[١] فانه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله تعالى: هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب، والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفعال.

نكفت من ذلك الأمر نكفاً واستنكفت منه: أنفت، وأصله من نكفت الشيء: نحّيته، ومن النكف وهو تنحية الدمع عن الخد بالإصبع، لا تبرح: فيه

---

(١) في ض: حلوة خضراء وفي ش: حلوة خضراء قد عجلت.

(١) كذا بياض في الأصل.

روايتان: الفتح والضم، والفتح أولى.

يقال برح بالمكان يبرح براحاً: أي زال عنه وصار إلى البراح وهو المتسع من الأرض لا زرع فيها ولا شجر، ومن قال أن الضم أولى لأنه من برح يبرح أي جاء بالعجب فقد جاء بالعجب، لأنه بعد صحبته لا يناسب المقام، ويريد أن البراح كثيراً ما يستعمل في الزوال.

قولهم لا أبرح افعل كذا: أي لا زال أفعله، وذلك لأن نفي الزوال اثبات. الفقد: عدم الشيء بعد وجوده أخصّ من العدم لأنه يقال فيما وجد ثم عدم، وفي ما لم يوجد أصلاً. مني: أي قدّر.

الجلاء بالمد: الخروج عن الوطن. التبست: أي اختلطت ومزجت.

الكفاف: القوت؛ وهو ما كفّ عن اليأس: أي اغنى، وفي الخبر: اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً.

البلاغ: الكفاف والكفاية، ومنه قول الراجز:

ترج من دنياك بالبلاغ.

الاعراب

غير: حال من الله ويكون بمعنى لا، كما في قوله تعالى: «فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد»، والعامل فيه المصدر وهو الحمد، والمنفيات الثلاثة بعده أيضاً في محل النصب على الحال، والباقي ظاهر.

المعاني

لما كان الحال في التحقيق ما بعد غير كانت جارية على أصلها ونهجها معاً، وانما أتى بالأحوال الأربعة ليؤذن بتعليل استحقاقه الحمد، ثم تكريره باعتبار وصفين آخرين في قالب الموصول والصلة دليل باهر على أن استحقاقه مسبّب بعدم

زوال رحمته، وعدم فقدان نعمته، وانه في غاية العظمة، وانما نكّر رحمة ونعمة ليؤذن بعموم افرادهما أي: انه هو الذي لا يزول منه فرد من افراد الرحمة، ولا يفقد له فرد من أفراد النعمة، وشخص من أشخاصها، يعني: هو الآتي بجميع أشخاصها، وذلك لأن النكرة في سياق النفي تدلّ على العموم، وانما نكّر دار ليؤذن بتحقيرها من أوّل الأمر.

ثمّ أتى بوصفه لينزجر السامع منها إذا رجع عقله وعلم أن الفاني لا يركن اليه العاقل، في قوله: وهي حلوة خضرة خواص: احداها: ذكر المسند إليه مضمراً ليؤذن بالاهتمام بشأنها، لتقرّر صورتها في ذهن السامع، وبالاختصار المطلوب للبلغاء، الثانية: ايراد المسند نكرة ليؤذن بتحقيرها: أي ليست حلاوتها لغاية حقارتها مماتبقى زماناً كثيراً، وهذا قد أشار إليه على سبيل المطابقة بقوله: وقد عجلت للطالب، ولا خضر بها: أي طراوتها مما لا يلتفت اليها العاقل لحقارتها.

الثالث: إيراد المعنى المراد في الجملة الاسمية ليدلّ على الاستقرار والثبوت، الفاء في فارتحلوا تقديره: إذا كان حال الدنيا كذلك فارتحلوا عنها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد والأحمال، حيث ذكر ما موصولة وجعل الجار مع مجروره صلة له ليدل على أن شيئاً ما في حضرتكم يكون أحسن كل شيء يصلح أن يكون في صحبة المرتحلين و... [١] التفصيل حيث بيّن بقوله من الزاد واشتماله على الإيجاز واضح، والباقي واضح.

(البيان)

في وهي حلوة خضرة: يحتمل أن يكون من باب اطلاق الجزء على الكل، وأن يكون استعارة مستدعية لتشبيه الدنيا بالمشتمل على الحلاوة والخضرة، ووجه الشبه: أن الدنيا تميل إليها كل نفس ميلها إلى الشيء الحلو، ويعلق بها كلّ نظر

---

(١) كذا بياض في الأصل.

تعلّقه بالأشياء الخضرة الطرية وهو عقلي، وهي جيدة.

في فارتحلوا: استعارة تصريحية تخييلية مستدعية بالحقيقة لتشبيهات ثلاثة:

أ ـ تشبيه الدنيا بالمنزل الذي يرتحل منه المسافر، ووجه الشبه: اشتراكهما في ضرورة المفارقة عنهما.

ب ـ تشبيه الآخرة بل معرفة الله تعالى، وهي معقولة، بالمقصد للمسافر وهو حسّي، ووجه الشبه: انها مقصد الخلائق بمقتضى أمر الله تعالى، كما أن المقصد مطلب المسافر ومقطع سفره، وهو عقلي.

ج ـ تشبيه هيئة قطع منازل المعرفة بعدم العقل المحوج للمفارقة عن المنازل التي ينزل فيها في أيام القطع، وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في الستر وعدم التطول في المنزل وهو عقلي، وقد رشّح تلك الاستعارة بذكر الزاد واستعارته عن التقوى، وقد عرفت وجهها فيما قبل، وكنى بما بحضرتكم عن الأعمال الصالحة الّتي يقدر الانسان عليها، إذ الحضور من لوازم القدرة.

البديع

راعى بين القرائن الاربع الأول: المتوازي، وبين رحمة ونعمة: المتوازي والترصيع، كما بين الفناء والجلاء، وبين الطالب والناظر: المتوازن، كما بين الكفاف والبلاغ، وفي قوله حلوة خضرة الجمع.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام نبه على استحقاقه الحمد المطلق والثناء باعتبار أحوال أربعة ووصفين:

الأولى أشار إليها بقوله: غير مقنوط من رحمته، وهي حالة مأخوذة من قوله

تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء[1]»، وقوله تعالى: «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وإذا حقّق العبد أن الله مما لا يجوز أن يحصل القنوط من رحمته، بناءً على انها شاملة لجميع أفراد الخلق بحيث لا يمكن الخلوّ منها،لأن الجميع مسند إلى قدرته وهي حافظة للكلّ، وانه رحمة أجل الحفظ طفر الى[2] الساء عليه ومقابلة رحمته العامة الشاملة له التي لا تزول عنه بحال ما يكون في وسعه من الحمد على جميل ذاته، ومن عمى إبصار بصيرته عن هذا المقام حصل له اليأس من رحمته، فأولئك هم الخاسرون الآيسون من روحه.

الثانية أشار إليها بقوله: ولا مخلوّ من نعمته، وهي مأخوذة من قوله تعالى: «وما بكم من نعمة فمن الله[3]»، وهذه أيضاً مما تحثّ الحامد على حمده، وذلك لأن العبد إذا رجع عقله وتصور انه مسخّر تحت قدرته قائم بها يحتاج إليها لكونه ممكناً محتاج إلى سبب وفيض يفيض عليه لحظة فلحظة، استلزم ذلك وجوب تصريحه بلسان حاله أو مقاله بالثناء المطلق.

والحمد اللائق به، والعلم بأن كل ممكن لا يكون خالياً من فيضه ونعمه، وكذا ينبئ لسان حاله عن الثناء عليه، وإليه اشار تعالى بقوله: «وان من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم[4]».

الثالث أشار إليها بقوله: ولا مأيوس من مغفرته، وهي مأخوذة من قوله تعالى: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا[5]»، ومن قوله تعالى: «وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم[6]»، دالة على أن مغفرته شاملة لكل من كان له مثل إلى جناب الله الرفيع.

---

(١) الاعراف: ١٥٦.
(٢) كذا في الأصل.
(٣) النحل: ٥٣.
(٤) الاسراء: ٤٤.
(٥) الزمر: ٥٣.
(٦) الرعد: ٦.

لكن قد استهوته الشياطين وأوقعته في مهاوي الهوى، بحيث لا تبقى له قوة المقاومة مع هواه بأن يخلّصه في العافية عن البقاء في تلك الهاوية، وإليه أشار الرسول صلى الله عليه وآله: من قال لا إله إلا الله فقد دخل الجنة، فاذا لاحظ العبدهذه الحالة جذبته إلى الاعتراف بعموم احسانه المستلزم لأن... [١] لسان حاله أو مقاله بالثناء المطلق عليه.

الرابعة أشار إليها بقوله: ولا مستنكف عن عبادته، وهي مأخوذة من قوله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون[٢]»، وكونه تعالى بهذه الصفة يستلزم الاعتراف بأنه المستحق للتعظيم والثناء عليه، وانه الكامل المطلق الذي خلا بالكلية عن جهة النقصان، وأما الوصفان الآخران: فأشار إلى الأول منهما بقوله: الذي لا تبرح له رحمته؛ أي أنه الذي لا تزول منه رحمة، بل رحمته دائمة باقية بقاء الملوين بل بقاء الذات.

وإلى ثانيهما بقوله: ولا تفقد له نعمة؛ يعني الذي لا يعدم النعمة التي أفاضها على أحد من خلقه ما دام استعداده باقياً، وهو وصف له تعالى بأنه لا يبخل في افاضة نعمته إذا كان القابل مستعداً لقبولها، وبينه وبين قوله: ولا يخلو من نعمته فرق، إذ ذاك دالّ على شمول نعمته، وهذا على عدم زوال نعمته بعد وجودها عند وجود استعداد القابل.

ثم أردف ذلك بالتشبيه على معايب الدنيا ومثالبها لئلا يركن إليها الطالب ويتخلّف بركونه عن قطع العقبات الكؤودة في طريق الآخرة، فيبقى في حكمة الذل اسيراً وعن لذة العزة غراً غريراً، وقال: الدنيا إلى الجلاء: أي الدنيا دار قد وجب لها الفناء في العاقبة، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه[٣]»، وقدّر لأهلها المنهمكين على لذاتها وغيرهم الخروج

---

(١) كذا بياض.

(٢) النساء: ١٧٢.

(٣) القصص: ٨٨.

عنها، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «كل نفس ذائقة الموت[١]»، وكل شيء مآله في الفناء لا يحسن من العاقل لو كان باقياً أن يوطّن نفسه على حبّه، خصوصاً إذا كان هو أيضاً في مدرج الفناء بحيث لا يمضي عليه إلا ويتوقّع الخروج منها، ثم اشار أن لذاتها مع كونها على صدر الفناء ليست مما كان للعقول بها التذاذ، بل لا تجد بها لذة إلا الحسن الظاهر، وذكر من متعلقات الحواس جهتين:

احداهما: منسوبة إلى القوة الذائقة وهي حلاوتها، والأخرى: إلى القوة الباصرة وهي خضرتها، لأنهما هما العظميان، وكل ما ليس للعقل به التذاذ فكيف يصحّ للعاقل أن يتبع عقله حواسه، ويعرض وجه عقله بالكلية عن القبلة الحقيقية التي هي ملاذ العقول، ثم نبه بقوله: قد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر على أن لذاتها مع كونها حسية ليست باقية أو بطيئة بل ربما لا تبقى ساعة، وأن من طلبها فقد أوتي إياها حتى تعلقت بقلبه محبته، ثم عجلت له ولزمه مفارقته عنها غير منتفع بها.

وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً[٢]»، وانما خصّ الناظر بالذكر لأن الخضرة التي توجه القلوب إليها هي حظ النظر، ثم لما نبه على معايبها أمر بالارتحال عنها وقال: فارتحلوا منها إلى الزاد،يعني: إذا كان حال الدنيا هكذا فلا يجوز للعاقل أن يترك التوجه إلى المقصد الذي يطابق العقل والشرع على سلوك الطريق المسلوك إليه، ويوطّن قلبه على المقام.

بل لابد له من أن يجعل العقل والشرع دليلين ويقتدي بهما في قطع العقبات الشاقّة التي في الطريق المسلوك إلى المقصود الذي هو الوصول إلى

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) الاسراء: ١٨.

حضرة الله ومطالعة أنوار كبريائه، ويرتحل أولاً من علائق الدنيا التي هي أول منزل من منازلها ولكن مطلقاً، بل لابد معه من مصاحبة أحسن ما يحتاج إليه في قطع الطريق وهو الأعمال الصالحة، بل التقوى، على ما دلّ عليه قوله تعالى: «وتزوّدوا فانّ خير الزاد التقوى[١]»، كما هودأب المرتحل عن أول منازل سفره، فانه يرتحل مصاحباً للزاد المحتاج إليه.

ثم نبه بقوله: ولا تسألوا إلى الآخر على انّ البدن الذي هو مركّب نفسه لابد له أيضاً من زاد يتقوّى به على قطع المراحل، ولكن لا يجوز أن يأخذ أكثر مما يحتاج إليه، فانه يثقل الظهر ويمنعه عن قطع المنازل، كما ان الراكب لو حمل أكثر مما يطيق أن يحمله لثقل ظهره وعجز عن السير، وبقي في الطريق محبوساً عن الوصول إلى المقصد منكوساً، ومن هذا النهي يعلم أن ما يحتاج إليه المرء في المطعم والملبس والمسكن الضرورية ليس من الدنيا التي تطابقت الأخبار والآثار على ذمّها فاعلم، والله أعلم بحقيقة الحال.

* * *

٤٥ ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
عند عزمه على المسير إلى الشام

اللّهُمّ إنّي أعُوذُبِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ في الأَهْلِ[٢] وَالْمَالِ (وَالوَلَدِ[٣]). اللّهُمّ أنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَأنْتَ الْخَلِيفَةُ في الأهْلِ، وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبَ لاَ يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً.

---

(١) البقرة: ١٩٧.
(٢) في ب: وسوء المنظر في النفس.
(٣) ساقطة عن ن وف وب وش.

اللغة

وعثاء السفر: مشقته، وهو من الوعث وهو المكان السهل الكثير الدهس تغيب فيه الاقدام، ويشقّ على من يمشي فيه، أوعث القوم: أي وقعوا في الوعث.

الكآبة: سوء الحال والانكسار من الحزن، وقد كئب الرجل يكأب كأبة وكآبة مثل رأفة ورآفة فهو كئب، وامرآة كئيبة أيضاً، والمنقلب: المرجع.

الخليفة: السلطان الأعظم في الأصل، والجمع الخلائف على الأصل، مثل كريمة وكرائم، وخلفاء: نظراء، إلّا أنّ الهاء فيه غير معتبر، لأنه لا يقع الّا على مذكر فيكون كظريف، ويقال خلف فلان فلاناً إذا كان خليفة، واستخلفه أي جعله، فالمستخلف هو الذي جعل خليفة، كما أن المستصحب هو الذي جعل صاحباً.

الاعراب

الضمير في لا تجمعها: للصحبة والخلافة الدال عليهما الصاحب والخليفة، والباقي ظاهر.

المعاني

تشم من أنت الصاحب في السفر رائحة القصر للإفراد، وكذا من أنت الخليفة في الأهل اللام في الصاحب والخليفة للحقيقة، أي: أنت الصاحب الحقيقة...[1] الذي لا يصحّ اطلاق الصاحب بالحقيقة الّا عليك، وأنت الخليفة الذي يجب أن يعوّل عليه، لأنه المتحقق في الخلافة، وتكرير أنت يؤذن بالاهتمام بشأنه.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

البيان

ظاهر ليس فيه شيء زائد.

البديع

ظاهر.

الفحوى

روي: أنه عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند وضعه رجله في الركاب، اعلم أن مقصوده عليه السلام من هذا الدعاء التجاء إلى الله في خلاص نفسه من الشدائد العارضة في أثناء السفر العائقة عن قطع المراحل والمنازل وعما تسوء الحال... [١] المرجع من اصابة الحزن على الأمر الفائت والمعلولية وسلامتها في الأحوال المقوّية لها على الوصول إلى المقصود، وبدأ بالنفس لأنها أم الباب ثم ما يتعلّق به من الأهل والمال والولد.

ثم اعترف بأنَّ عنايته هي الأصل دون عناية غيره تعالى، وان رعايته وحفظه هي الأصل دون رعاية غيره، وقال: اللهم أنت الصاحب أي أنت الذي تنظر بنظر العناية إلى السالكين في طريقك، وأنت الذي تراعي أمورهم وتحفظها عن أن يتطرّق إليها فساد، ثم نبّه بقوله: ولا يجمعها غيرك على أنه تعالى بريء من الجهات والمكان، عالم بالمشهد والمغيب، اذ من المحال أن يكون ذو الجهة من الأجسام في حال واحدة مستخلفاً مستصحباً، على ما أشار إليه بقوله: لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً، والله أعلم.

* * *

---

(١) كذا بياض في الأصل.

٤٦ ـ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلام
في ذكر الكوفة

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ ٱلأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلاَزِلِ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ٱبْتَلاَهُ ٱللهُ بِشَاغِلٍ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ.

اللغة

العكاظي: منسوب إلى عكاظ؛ وهو اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون بها في كل سنة فيقيمون شهراً، ويبتاعون ويتناشدون شعراً ويتفاخرون، قال أبوذؤيب:

إذا بنى القباب على عكاظ ٭ وقام البيع واجتمع الالوف

أي بعكاظ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك.

عركت الشيء: أعركه عركاً دلكته.

النوازل: جمع نازلة وهي الشدة الحادثة من المصيبة.

الزلازل: الشدائد.

الجبّار: في صفة الانسان يقال لمن يجير بقصه[1] بادعاء منزلة من المعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال الّا على سبيل الذمّ، وكثر استعماله في الحاكم الظاهر الظلم، وقد قال الجوهري: الجبّار الذي يقتل على الغضب.

أما في وصفه تعالى نحو الجبار المتكبر فقد اختلفوا في سبب وصفه به، قيل: سمّي بذلك لأنه هو الذي يجبر الناس بفائض نعمه، من قولهم: جبرت الفقير، وقيل: لأنه يجبر الناس على حسب ما يريد، وقد ردّه لفظاً ومعنى، أما لفظاً: فلأن وزن فعال لا ينبئ من اجبرت، ومن قال انه من الجبر الذي بمعنى

(١) كذا.

القهر المجّرد كما في قوله عليه السلام: لا جبر ولا تفويض، لا من لفظ الإجبار فقد أخطأ، يعني لأنه يستلزم الجبر المنفي، اما معنى فلانه يستلزم رفع التكاليف السمعية كلها وابطال أحكام الكتب السماوية.

قال بعض المحققين: ان الله تعالى أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها حسب ما تقتضيه الحكمة البالغة الالهية، لا على ما يتوهمه الغواة الجهلة، وذلك كإكراههم على المرض والموت والبعث، وسخّر كلاً منهم لصناعة يتعاطاها، وطريقة من الأخلاق والأعمال يتحراها، وجعله مجبراً في صورة مخيّر، فإما راضٍ بصنعته لا يبغي عنها حولا، واما كاره لها يكابدها مع كراهية لها كأنه لا يجد عنها بدلاً.

ومن ثم قال تعالى: «كل حزب بما لديهم فرحون»، وقال تعالى أيضاً: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا[1]»، وعلى هذا الحد وصف بالقاهر والقهّار، وهولا يقهر الآ على ما تقتضي الحكمة أن يقهر عليه، وإلى هذا أشار أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: يا بارئ المسموكات وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها، وهوتحقيق حسن جداً يدفع ما ذهب إليه المجبّرة الغواة.

قال ابن قتيبة: هو من جبرت العظم، فانه أجبر القلوب على فطرتها من المعرفة وهوذكر لبعض ما حققناه ...[٢].

السوء: اسم لكل ما يوقع الانسان في الغم من الأمور الدنيوية أو الأخروية، والأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وفقد حميم.

---

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) كذا بياض في الاصل.

الاعراب

بك هو خبر كأنّ، واسمه الراجع إلى نفس المتكلّم، وتركبين وتعركين في موضع النصب على الحال، تقدير الخطاب: كأنّي حاضر بك حال كونك مما تعرك بالنوازل وتركب بالزلازل، والباقي ظاهر.

المعاني

إنما لم يجئ بالواو في صدر تمدّين وما بعده من الجمل التي في محل النصب على الحال، لكونها واردة على أصلها ونهجها معاً، وذلك نحو جاء زيد يسرع أو يتكلم، في اني لا أعلم إلى آخره خواصّ:

إحداها: تصدير الجملة بأن واللام ليؤذن بأن الكلام قد أجراه عليه السلام في مقام الإنكار، كأنّه نزّل الكوفة منزلة من يفهم الكلام وهو منكر لمضمون ما ألقى إليه ليقرّر مضمونه في قلوب المنكرين.

الثانية: جعل الخبر لأعلم ليؤذن بحصول علمه له في الحال على سبيل الاستمرار، إذ اللام مخلصة للحال، كما في قوله تعالى: إني ليحزنني، وتقديم المسند إليه دليل الاستمرار، نحو قوله تعالى: الله يستهزئ.

الثالثة: جعل المعلوم مصدراً بأن مع ضمير الشأن ليؤذن بالتحقيق وبالإجمال والتفصيل لما عرفت في المقصد الاول من القاعدة الثانية.

الرابعة: إيراد فاعل أراد ومفعوله منكراً ليدلّ على العموم.

الخامسة: إيراد الكلام على وجه يفيد القصر ...[1] أكثر من المذكور منها، والله أعلم.

* * *

(١) كذا بياض في الاصل.

٤٧ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ
عند المسير إلى الشام

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا لاَحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ غَيْرِ مَفْقُودِ ٱلْإِنْعَامِ وَلاَ مُكَافِئِ ٱلْإِفْضَالِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا ٱلْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ[1] رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ ٱلنُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ ٱلْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال الشريف: أقول: يعني عليه السلام بالملطاط السمت الذي أمرهم بنزوله وهو شاطى الفرات، ويقال ذلك لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وأعجبها[2].

وثانياً: كررا الحمد مقيت[3] بظهور النجم وخفوقه تنبيهاً على أنّ فيهما مع ضروب الآلاء وصنوف النعماء وبها يستحق أن يحمد، وقد أشبعنا الكلام فيه في أول الخطبة.

وثالثاً: ذكر الحمد لله في حال كون إنعامه على الخلائق غير مفقود بل هو دائم الفيض، وكون إفضاله مما لا يمكن أن يقاس بل بجراء، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها[4] »، وأشار إليه وقال: الحمد لله إلى الافضال، وقد سبقت الاشارة إلى هذا المقام.

فأما قوله أما بعد إلى آخره فمعناه: أما بعد حمد الله تعالى قد بعثت أي

---

(١) في ب: وقد اردت أن اقطع.

(٢) سقطت الخطبة وشرح اللغات والاعراب في الاصل.

(٣) كذا.

(٤) النحل: ١٨.

ارسلت مقدمتي للجيش، وهو زياد بن النضر وشريح بن هانئ في اثني عشر ألف فارس، وأمرتهم ان يلزموا شاطىء الفرات ولا ينحرفوا عن سمته حتى يأتيهم أمري فيا هو المصلحة لهم، فامتثلوا أمره واخذوا شاطئها من قبل البر مما يلي الكوفة حتى بلغوا غايات.

قد رأيت: أي قد اقتضى رأيي أن أقطع هذه النطفة.

أي أعبر هذا الفرات إلى جماعة قليلة منكم قد اتخذوا أوطانهم جوانب دجلة، وأشار إلى أهل المدائن، فاقيمهم معكم ليتوجّهوا ناصرين لكم إلى عدوكم، وأجعلهم من امداد القوة لكم، أي: أقوّيكم بهم وبمددهم، وروي أنه لما بلغهم أنه عليه السلام سار على طريق الجزيرة وأنّ[1] معاوية خرج في عمومه لاستقباله، كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين عليّ الفرات مع قلة عددهم، فرجعوا حتّى عبروا الفرات من هيت[2] ولحقوا به، فصوب آراءهم في الرجوع إليه، والله أعلم.

* * *

(١) كذا في الاصل.

(٢) هيت بالكسر: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار.

٤٨ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

الْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي بَطَنَ [١] خَفِيَّـاتِ ٱلأُمُـورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ ٱلظُّهُورِ، وَٱمْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ ٱلْبَصِيرِ؛ فَلاَ [٢] عَيْنَ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبَ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي ٱلْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ. وَقَرُبَ فِي ٱلدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ. فَلاَ ٱسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ.

لَمْ يُطْلِعِ ٱلْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ ٱلَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ ٱلْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي ٱلْجُحُودِ ـ تَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يَقُولُ ٱلْمُشَبِّهُونَ بِهِ، وَٱلْجَاحِدُونَ لَهُ ـ عُلُوّاً كَبِيراً.

اللغة

بطنت الوادي: أي دخلته، وبطنت الأمر: أي عرفت باطنه، ومنه الباطن في أسماء الله عزّ وعلا. الأمر: الشأن، وجمعه امور.

دنوت منه دنوّاً: أي قربت، فالدنوّ القرب بالذات أو بالحكم، وقد يستعمل في المكان والزمان والمنزلة.

الجحود: الانكار مع العلم، يقال جحده حقه وبحقه جحداً وجحوداً.

الاعراب

به: متعلق بساواهم، والضمير في به لله تعالى تقديره: ولا قربه تعالى ساواهم بالله في المكان.

---

(١) في ك : فطن خفيات الامور.

(٢) في ك : ولا عين من لم يره.

المعاني

إيراد الموصول مع صلته يؤذن بتعظيم من وجّه الحمد اليه، وأتى بالموصول مشيراً اليه، وفي لا قربه ساواهم القلب، والتقدير: ولا قربه تعالى ساوى الله تعالى بالخلق في المكان الذي لهم، انما قطع سبق لعدم الربط بينه وبين ما قبله، لهذا وانما جاء بالفاء ليتم الربط بين الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والفعلية الدالة على التجدد، والله اعلم، وهذه الكلمات كأنها أعلام في الإيجاز والاختصار.

البيان

ليس فيه شيء إلّا أعلام الظهور: فانه استعارة تصريحية مستدعية لتشبيه آثاره الظاهرة الدالة على كمال قدرته بالأعلام المنصوبة في الطريق والجيس[١]، وهما محسوسان، ووجه الشبه: اشتراكهما في الهداية.

البديع

راعى بين خفيات الامور وأعلام الظهور: من المحسنات المعنوية المقابلة؛ حيث قابل الظهور بالخفاء، ومن اللفظية المتوازي والترصيع، كما بين يبصره وتنكره، وبين سبق الى اقرب منه: المقابلة التامة؛ حيث قابل العلو بالدنو، والأعلى بالاقرب، وكذا فيما بعده، وبين الوجود والجحود: المتوازي والترصيع، وفي سبق الى أعلى منه: ردّ العجز على الصدر، كما بين قرب الى أقرب منه، والله اعلم.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام حمد الله تعالى في هذه الخطبة باعتبار اوصاف اجتمعت له تعالى مما لا يمكن اجتماعه لأحد من المخلوقات، قوله: الذي بطن

---

(١) كذا في الاصل.

خفيات الامور يحتمل معنيين: أحدهما: أنه دخل في بواطن الامور المخفية بحيث لا يمكن[1]، صار أخفى منها عند العقول، والدليل عليه ان طريق الادراك اما الحواس أو العقل، أما الحواس فلانه تعالى منزّه عن الجسمية والجهة، ولا شيء مما ليس بجسم ولا ذي جهة مما تدركه الحواس الظاهرة، ينتج أنه تعالى لا تدركه احدى الحواس.

اما العقل فلان ذاته تعالى منزها عن الحا ...[1] التراكيب، ولا شيء مما كان منزّهاً عنها بمدرك للعقل، كما هو وينتج أنه تعالى لا يدركه العقل كما هو، واذا كان مما لا سبيل للعقل ولا لحسّ من الحواسّ إلى إدراكه مدخل، كان خفيّاً عندهما وأخفى الأمور الباطنة، لإمكان اطّلاع العقل عليه ان لم يمكن اطّلاع الحسّ عليها.

الثاني: أنه نفذ علمه في بواطن خفيات الامور بحيث لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، وقد سبق بيان أنه عالم ببواطن الامور وظواهرها. قوله: آثار صنعه الظاهرة في العالم بذاتها المحدثة المحوجة انابا[1]، الى الاستدلال بها على الانتهاء الى سبب واجب وجوده، غيره مفتقر الى آخر، والى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم.

اعلم أن للناس في اثبات واجب الوجود طريقين: أحدهما: الاستدلالي بالأثر على المؤثّر؛ وهذا طريق الملّيّين وساير فرق المتكلمين، فانهم يثبتون أولاً حدوث الأجسام والأعراض ثمّ يستدلّون بعوارضها واحدة فواحدة على صفاته تعالى، مثلاً يستدلّون بابقائها وأحكامها على كون فاعلها عالماً حكيماً ويتخصص تعالى، فانه العالي بالمكانة وهي المنزلة لذاته، لأنه مبدأ كلّ موجود ومرجع كل شيء، واليه أشار تعالى بقوله: كل شيء هالك الا وجهه، أي أزلاً وأبداً كل شيء معدوم، لأن ما هو بصدد أن يعدم فليس له وجود حقيقي الّا وجهه.

---

(١) كذا في الأصل.

وبقوله: أإله مع الله أي: ليس معه أزلاً وأبداً ما يطلق اسم الشيء عليه، فضلاً عن الالوهية، وهذه المكانة لا تليق الا به تعالى لذاته، إذ لو كان اضافياً لكان لا يتصوّر الا بالا ... [١] وانه عال حيث لا موجود الاهو، ولا نسبياً، أي يكون عالياً عن الشيء كما يقال: علا فلان عن الأفعال الخسيسة لثبوت علوّه حين ما هو، واذا كان كذلك كان سابقاً في العلوّ الذاتي على كلّ عال بحيث لا شيء أعلى منه، ولما كانت وجودات الكائنات ظلال وجوده تعالى، كان في القرب منها أقرب كل شيء، اذ لا يكون اقرب من وجوده، والكشف عن هذا المقام ربما يفضي الى طعن الطاعنين الذين ليس لهم فهم هذا المقام.

قوله: فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه.

إشارة إلى ردّ حكم الوهم بأن استعلى على الاشياء كان بعداً عنها بقدر علوّه بناء على أن حكمه لا يتعدّى عن العلوّ المكاني والتخيلي، وتأكيد لسبقه في العلوّ العقلي، يعني: أن استعلاءه تعالى عليها بالعلية أو بالذات لا يوجب بعده تعالى عن الخلق، بل يوجب القرب منها، قوله: ولا قربه ساواهم في المكان به؛ اشارة الى ردّ الحكم الوهم بأن القريب من الشيء مساوٍ له في المكان.

يعني: أن قربه تعالى لما كان بمعنى احاطته علماً لا يوجب المساواة بينه وبين الخلق في مكانهم، بل يوجب تنزهه عن المكان الذي اختصّ بهم، لأنّ من ساوى مكاناً في مكانه لا يمكن أن يساوي مكاناً آخر لاستحالة اجتماع الشيء في مكانين في آن واحدة. قوله: لم يطلع العقول على تحديد صفته يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه تعالى لم يطلع العقول المجرّدة على حصر صفاته وتحديدها، أي على الوصول الى نهايتها، وعلى تعريفها بالحدّ المركّب من الأمر المشترك والمميّز المعرّف للماهيّة، اذ لا نهاية لما تعتبره عقولنا من النسب والاضافات إليه تعالى ولا احرالها[٢]، حتى يكون حدّاً ونهاية لها.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

(٢) كذا.

الثاني: أنه تعالى لم يطلعها على شرح حقيقة ذاته لينزّهه عن الحدّ والحيا[١]، التراكيب اللازمة له قوله: ولم يحجبها عن واجب معرفته؛ إشارة الى أنه تعالى مع كونه ممن لا اطّلاع للعقول عليه، لم يحجب العقول عن معرفته الواجبة على كلّ مكلّف وهي معرفته ببعض الاعتبارات، فانه قد نصب الآيات والإمارات لها، بها يستدلّ على وجود الصانع الحكيم، وقد أشار الى هذا المقام في القرآن في مواضع، فنها قوله تعالى: إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف ـ الى ـ لآيات لقوم يعقلون[٢].

وقد أفاض على كل نفس قسطاس معرفته بحسب استعداد المقتضي له، قوله: فهو الى الجحود تأكيد لماسبق، أي أنه تعالى هو الذي يشهد لوجوده أعلام الوجود من الآيات الظاهرة التي نصبها الله تعالى أعلاماً لوجوده، يراها كل عاقل تبصر ببصيرته على إقرار قلب ذي الانكار بناء على اتّباع أهوائه، فان قلب كل جاحد معترف بوجوب وجوده.

وإليه أشار النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: كل مولود ولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه ويمجّسانه وينصّرانه، وأشار تعالى بقوله: فطرة الله التي فطر الناس عليها[٣]، ولما كان الجحود على نوعين: أحدهما: على سبيل الالتزام؛ وذلك جحود المشبّهين الذين يثبتونه تعالى على وجه التشبيه وينفونه على غير هذا الوجه، فاقرارهم به على وجه التشبيه مستلزم لنفسه تعالى لا على هذا الوجه.

الثاني: على سبيل المطابقة والاختيار، وذلك جحود الصانع مطلقاً، فانهم ينكرون وجوده مطلقاً وان كانت قلوبهم معترفة به على سبيل الاضطراب، ولما كان الله تعالى منزّهاً عن نوعي الجحود وقولي الفريقين نزّهه تعالى عنها، وقال: تعالى الله عما يقول الى آخره، شهادة العقول على وجود الصانع بيّن لا يدفع ومكشوف لا

---

(١) كذا.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) الروم: ٣٠.

يتقنّع.

روي: أن زنديقاً دخل على الصادق جعفربن محمد عليهما السلام فسأله عن دليل اثبات الصانع، فأعرض عليه السلام عنه ثم التفت إليه، فقال الزنديق: اني كنت مسافراً في البحر فعصفت علينا الريح ذات يوم وتلعّبت بنا الأمواج من كل جانب فانكسرت سفينتنا فتعلّقت بخشبة منها، ولم تزل الأمواج تقلبها حتى قذفت منها الى الساحل وسلمت عليها، فقال له عليه السلام: أرأيت الذي كان قلبك اذا انكسرت السفينة وتلاطمت عليكم أمواج البحر فدعا إليه مخلصاً في التضرّع له طالباً للنجاة منه، فهو إلهك، فاعترف الزنديق بذلك وحسن اعتقاده، والله أعلم.

اللطائف الرشيدية

سألت تلك الحضرة الرفيعة لا زالت فياضة عن تحقيق قوله عليه السلام: سبق في العلوّ الى آخره عن واجب معرفته وعن أنّ التناقض يسبق منها الى الافهام من حيث إن العلوّ في الغاية مما يناقض ظاهر الدنوّ في النهاية، فبأي يحمل يمكن المختص عنه(١)، ونفع الخلاص منه فأفاد أدام الله ظلال جلاله مرتجلاً: انّ المراد من الكلمة الأولى بيان: أنا إذا اعتبرنا سلسلة الموجودات المرتّبة وأخذنا النظر مترقّباً منها درجة فدرجة، وجدنا واجب الوجود لذاته قد سبق في علو الرتبة الى حيث انقطع به نظر الاعتبار، وانتهى منه الإمكان المحوج لنظرنا إلى الترقّي.

فلا يبقى شيء أعلى منه قدماً ولا أدنى منه مصعداً، وعن الكلمة الثانية بيان: انا إذا أردنا ان نستدلّ على وجوده ما كان شيء أقرب الينا من ذاته ووجوده، لانا إذا نظرنا الى أنفسنا المحلاّة بفنون غرائب الآيات وصنوف عجائب الدلالات، وجدناها محفوفة بغواشي الإمكان المطلع على مطالعة جمال الملك

---

(١) كذا.

الديّان، من غير أن يرجع الى مشاهدة دلائل خارجية ووسائل ظاهرية، والى هذا المعنى أشار تعالى حيث قال: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم افلا يبصرون، عاجلاً الى نفس ظروف الآيات الدالة على وحدانيته ومقارلها ومظاهر[1].

فمن فتح عين بصيرته وطالع مرآة نفسه وجد وجوده أقرب شيء إليه، ومن ثم انكر على الراقدين في مهود الغفلة المسندين ظهورهم الى مساند الطبيعة موبّخاً اياهم وقال: أفلا تبصرون، وما قال النبي عليه السلام: من عرف نفسه فقد عرف ربّه إشارة الى هذا المعنى أيضاً، ورسم أدام الله ظلال جلاله هنا أن مراده عليه السلام من هذا الخبر ليس ان من اطّلع على كنه حقيقة نفسه اطّلع على كنه حقيقة ذاته، فان الاطّلاع مما يتعذّر أو يتعسّر، وكيف يمكن هذا ولا يمكن الاطّلاع للعقول البشرية على كنه حقيقة ذاته المقدّسة، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: وما قدروا الله حقّ قدره[2].

فانه عليه السلام علّق العرفان على العرفان، بل انما مراده عليه السلام منه بيان أن من أراد أن يعرف ربّه فينبغي أن لا يغفل عن نفسه، طالباً عرفانه من الامور الخارجة عن نفسه، بل يوجّه نظره الى نفسه التي هي أقرب الأشياء إليه، ويرتقي من مطالعة أسراره المودعة فيها الى مطالعة جمال كبريائه، فان كل من طالع نفسه وآيات الله الكامنة فيها وجدها مفتقرة الى مبدع أبدعها، وموجد غني قادر أوجدها بكمال قدرته.

فمن هذا التقرير تمحّض أن مراده عليه السلام من سبقه في العلوّ الى أقصى الغاية: العلوّ في المكانة الثابت لكل مجرّد من المجرّدات بالنسبة، لا العلوّ في المكان الذي يستدعي المقارنة بالأجسام والمقارنة بالأجرام، ومن دنوّه الى أعلى النهاية: الدنوّ بالأثر والإيجاد لا الدنوّ بالمكان المستدعي للمماسّة مع الأجرام السفلية المنافية للعلوّ في المكان، فانه دفع التناقض بهذا التحقيق الذي أفاده

---

(١) كذا في الاصل.

(٢) الانعام: ٩١.

ارتجالاً، والاشكال عن الكلمتين اللتين جعلهما نتيجتين للكلمتين السابقتين.

وقوله: لم يطلع العقول على تحديد صفته؛

دليل على قصور العقول البشرية عن تحديد صفاته وحصرها، بناءً على أن صفاته تعالى لما كانت عبارة عن نسب واضافات تحدثها عقولنا، بالقياس الى افراد الماهيّات الممكنة التي أفاض عليها الوجودات والاستعددات، وكانت غير متناهية، كانت العقول قاصرة عن تحديدها لقصورها عن تصوّر مالا نهاية له، وقوله: ولم يحجبها عن واجب معرفته تنبيه على أن العقول وان خلقت قاصرة عن تحديد صفاته، لكنها غير محجوبة عما أوجبه عليها من معرفته.

لأنه تعالى قد مكّنها من الاستدلال بوجود الماهيات الممكنة على وجوب وجوده وأمر بها،حيث قال: بل انظروا ماذا في السموات والارض، وانظروا الى آثار رحمة الله، والقرآن الكريم مشحون بأمثال ما أوردناه، فهذا ما وصل الى فهمي من فحوى تقريره الشافي توضيحاً، الكافي تبييناً، أدام الله ظلال جلاله، والله يؤيد بفهم حقائق كلامه من يشاء.

* * *

٤٩ ـ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ ٱلْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ ٱللهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ دِينِ ٱللهِ، فَلَوْ أَنَّ ٱلْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مَزَاجِ ٱلْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى ٱلْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ ٱلْحَقَّ خَلَصَ مِنَ لَبْسِ ٱلْبَاطِلِ(١) ٱنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ ٱلْمُعَانِدِينَ، وَلٰكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هٰذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هٰذَا ضِغْثٌ فَيُخْرَجَانِ(٢)! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ ٱللهِ ٱلْحُسْنَى.

اللغة

بدأت بالشيء بدءاً: ابتدأت به، وبدأته: أي فعلته ابتداءً، والمبدأ من الشيء هو الذي منه يتركّب أو منه يكون، وكذا البدء قد جاء بهذا المعنى وهو المراد هنا تولّى العمل أي تقلّد.

خلص الشيء: بالفتح في الماضي والضم في الغابر خلوصاً أي صار خالصاً، والخالص كالصافي إلّا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد ان كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه وخلص إليه الشيء أن وصل، وخلّصته من كذا تخليصاً أي نجيته.

مزج الشراب: خلطه بغيره، ومزاج الشراب: ما يمتزج به، ومزاج البدن: ما ركّب فيه من الطبائع، من الصحاح، وقد عرفت أنه عبارة عن الكيفية الحادثة من تفاعل الكيفيات الأربع بعد مزج صواحبها.

المرتاد: اسم فاعل من ارتاد ارتياداً أي طلبه، ومنه قوله عليه السلام: اذا

---

(١) في ب: خلص من الباطل.

(٢) في ب: فيخرجان.

بال احدكم فليرتد لبوله؛أي ليطلب مكاناً ليناً ومنحدراً.

الضغث: قبضة حشيش مختلط الرطب باليابس، وأضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصحّ تأويلها لاختلاطها، وضغث الحديث: خلطه.

الاعراب

يخالف فيها كتاب الله: جملة وقعت نعتاً لاحكام، والضمير في عليها عائد الى الأحكام المبتدعة والاهواء المتبعة.

المعاني

في انما بدء وقوع: القصر بطريق انما للافراد على تنزيل المخاطبين منزلة المعتقدين أن مبدأه كما يكون بهذا يكون بغيرها، ويخالف جاء به للتأكيد وزيادة التوضيح، واشتمال فلو أن الى المعاندين على الاختصار لأن كلاً من الشرطين صغرى من قياس حذفت كبراه، والباقي ظاهر.

البيان

في مزاج الحق: استعارة تصريحية: المستعار منه محسوس وهو خلط الماء بالشراب، والمستعار له معقول وهو اشتباه الحق بالباطل، لالتباس أحدهما بالآخر، ووجه الشبه: اشتراكهما في عدم التميز، وهو عقلي، وذكر خلص لترشيحها.

وفي ضغث: أيضاً استعارة تصريحية: المستعار منه فيها محسوس وهو القبضة من الحشيش، والمستعار له فيها معقول وهو البعض من الحق والباطل، ووجه الشبه: اشتراكهما في القلة بالنسبة الى ما هو كثير، وهو عقلي.

البديع

بين تتّبع وتبتدع: المتوازي والترصيع، ورعاية المقابلة بين الحق والباطل ظاهرة، والباقي ظاهر.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام أشار في هذا الفصل بقوله: انما الى دين الله الى انّ مبدأ وقوع الفتن المفضية الى قطع سلسلة نظام العالم وفساده ليس الا اتّباع الآراء العاطلة، وابتداع الأحكام الباطلة المخالفة لأحكام الله الناطق بها كتاب الله، وذلك لما عرفت أن المقصود من وضع الشرائع وإنزال الكتب السماوية إنما هو ربط الاسباب المؤدّية الى عمارة العالم ونظامه، اذ لولاها لوقع الهرج والمرج في العالم ... [1] الى فساده وتبدد أحواله المستطمة.

فكلما اتبع رأي او ابتدع حكم مخالف لكتاب الله وسنة رسوله لاختلّت قاعدة أحكامها، وبقدر تطرّق الاختلال اليها يتطرق الفساد في العالم، وذلك اشارة الى أن الفتن انما هاجت بسبب اتّباع آراء الغواة وابتداع أحكام الخوارج، ثم نبه على أن السبب لابتداع الآراء الباطلة واشتباه المقدمات الحقة بالمقدمات الباطلة يستعملها المبطلون في استعلام المجهولات، فقياسان قد حذف كثرتها[2].

الأول: اشار اليه بقوله فلو أن الباطل الى المرتادين وهو صغراه وكبراه، ولكن خفي عليهم الحق فينتج: لم يكن الباطل خالصاً من مزاج الماء، لأن استثناء نقيض التالي ينتج نقيض المقدم، أما الصغرى: فلأن طالب الحق اذا كانت مقدّمات الشبهة بيّنة غير مختلطة بالحق أدرك وجه فسادها بأدنى سعي، فلم يخف الطريق الموصل الى الحق عليه، واما الكبرى فبيّنة بذاتها ولهذا قد حذفها.

الثاني: أشار الى صغراه بقوله: ان الحق إذا خلص من لبس الباطل انقطعت

---

(١) كذا بياض.

(٢) كذا.

عنه ألسن المعاندين، وكبراه: لم تنقطع عنه ألسن المعاندين، فينتجان: فلم يكن الحق خالصاً من خلط الباطل لمامر، أما الصغرى: فلأن مقدمات المطلوب التي استعملها المبطلون لو كانت كلّها حقّة مرتّبة ترتيباً حقّاً خالية عن الغلط في مادتها أو صورتها، فكانت النتيجة منها حقّة لم يمكن للقائد أن يطعن عليها بالألسنة ولا أن يخالفها.

وأما الكبرى فواضحة، وقد أشار الى ما هو في معنى النتيجة بقوله: ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا فيمزجان، أي يؤخذ من الحق بعض ومن الباطل بعض ليخلطا بحيث لا يهتدي الى التميز بينهما الا الذي كحّل الله بصيرته بمكحل الهداية، وغرضه عليه السلام من القياسين بيان: ان اتباع الآراء الباطلة واشتباه أحدهما بالآخر، ثم أشار بقوله هنالك الى أوليائه: ان عند الإشتباه يستولي الشيطان على أوليائه ويزيّن لهم اتّباع الآراء الباطلة والاحكام الخارجة عن كتاب الله، بايرادها في صورة الحق ويغويهم.

قوله ينجو الذين سبقت منا الحسنى: اشارة الى أن من خصّصه الله بنظر عنايته، وفتح عين بصيرته المميزة بين المقدمات الحقة والباطلة، ينجو من ظلمات الشبهات منسكاً بتوفيق الله تعالى، اولئك عنها مبعدون، والله أعلم.

* * *

٥٠ ــ وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفّين ومنعوهم الماء

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ؛ أَوْرَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تُرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلاَ وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَّةً مِنَ الْغُوَاةِ. وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ[١] الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.

اللغة

الشريعة: مشرعة الماء وهي مورد الشاربة.

استطعم: أي طلب أن يطعمه لمحلّة المنزلة.

الريّان: ضد العطشان، يقال: رويت من الماء بالكسر روى رياً وروى مثل رضى، وارتويت وتروّيت كله بمعنى، ورويته تروية أي: جعلته ريّان.

اللمة: بضم وتخفيف الميم الجماعة القليلة، وقيل ما بين الثلاثة والعشرة.

الغواة: جمع غاوٍ وهو العادل عن الصراط المستقيم.

عمس: بالتشديد والتخفيف أي أبهم وعمى، يقال ليل عماس: أي مظلم لا يدرى من أين يؤتى له، ومنه قولهم جاء بأمور معمسات: أي مظلمة ملوية عن جهتها.

النحور: جمع نحر، والنحر موضع القلادة من الصدور وهو المنحر.

الأغراض: جمع غرض وهو الهدف.

---

(١) في ع ول وش: غمس عليهم.

الاعراب

ترووا: مجزوم على أنه جواب الأمر، والموت: مبتدأ، وفي حياتكم خبره، تقديره: الموت ثبت في حياتكم، ومقهورين وقاهرين: حالان من المخاطبين، والعامل فيهما الفعل المقدر في الجملة الظرفية.

المعاني

الفاء في فأقروا: لعطف الجملة الطلبية على الجملة الخبرية ظاهراً وباطناً جواب لشرط محذوف دلّ عليه سياق الكلام، يعني: إذا كانوا يستطعمون منكم القتال فأقرّوا أو روّوا، وأورده هنا للتخيير، وقد نبه في أحد شقّي ما خبر فيه على أن من أطلق عليه اسم الرجل لا يصحّ ان يختار إلا القسم الثاني، فكأنه عليه السلام بهذا التخيير اختبر أحوالهم ومبلغهم في الرجولية، وكذا الفاء في فالموت واللام فيه وفي الحياة للحقيقة و ... [1] والحالان واردان على أصل الحال لكونهما مشتقين ونهجها لكونهما ثابتين، والباقي معلوم.

البيان

في استطعموكم القتال: استعارة مكنى بها تخييلية مرشحة، المستعار منه فيها محسوس وهو الطعام، المستعار له معقول وهو القتال، ووجه الشبه: اشتراكهما في كونهما مطلوباً لهم وهو عقلي، وقد رشّحها بذكر الاستطعام، ويحتمل أن يكون فيه استعارة تبعية تصريحية مستدعية لتشبيه هيئة تجسرهم بالقتال بمنعهم الماء عنهم وهي معقولة، بهيئة طلب الطعام بالقول المنبئ عنه وهي محسوسة.

وجه الشبه: انهم يطلبون القتال بمنعهم الماء عنهم، كما أن الطالب للمأكول يطلبه بالقول، في روّوا السيوف من الدماء استعارتان مكنيتان: أحدهما

---

(١) كذا بياض في الأصل.

مستدعية لتشبيه السيوف وهي محسوسة، بالعطشى، ووجه الشبه: اشتراكهما في الافتقار إلى التروية، ولتخييل أنها من أفرادهم، وإلّا لم يصحّ تشبيه التروية إليها.

الثانية مستدعية لتشبيه الدماء بالماء وهما محسوسان، ووجه الشبه: أن الدماء تكل السيوف وتجعلها غنيّة عن الحرب، كما أن الماء يجعل العطشان ريّان غنيّاً عن الماء، وهو معقول، وبذكر التروية رشحت الاستعارتان وحصلت القرينة عليهما، فالموت مجاز عن الشدائد والأهوال التي تلحقهم من سقوط المنزلة والمذلّة وما ضاهاهما من باب اطلاق الاسم المسبب وإرادة السبب، ويحتمل أن يكون المراد به موت النفس بترك الجهاد الذي هو مستلزم للحياة الطيبة، ويكون مجازاً من باب اسم المشابه على ما يشابهه.

في جعل نحورهم أغراض المنية: استعارة وتشبيه؛ أما الاستعارة: فهي استعارة مكنى بها تخييلية، المستعار منه فيها محسوس وهو الرأي، والمستعار له معقول وهو الموت، ووجه الشبه: اشتراكهما في الايذاء والإهلاك ، يعني: كما أن الرامي بسهامه يؤذي المرميّ ويهلكه، كذلك الموت بمقدّماته من الأمراض الصعبة تؤذي الشخص المقصود بالإصابة وتشرفه على الهلاك ، وهو معقول، وهي تستلزم تخييلاً أنه من افراد المنية، وإلّا لم يصحّ إضافة الأغراض إليه.

اما التشبيه: فهو تشبيه نحورهم بالأغراض التي يجعلها الرامي مقصد الرمي، وهما محسوسان، ووجه الشبه: أن نحورهم قد جعلوها في صدد أن تصيبها سهام المنية من الطعن والضرب والذبح وسائر وجوه القتل لغرض الرامي هدفاً لأن ... [١] وهو معقول.

البديع

راعى بين مذلة ومحلة: المتوازي والترصيع، وبين الدماء والماء: المطرف،

---

(١) كذا بياض في الأصل.

وفي فالموت إلى قاهرين: المقابلة؛ حيث قابل الحياة بالموت، والمقهور بالقاهر.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام قد حثّ أصحابه على الجهاد في هذا الفصل لا يوجد البتة في كلام غيره، الأولى: أشار إليه بقوله: قد استطعموكم القتال؛ فانه يدل على أن قتالهم عند خصومهم في غاية السهولة، وذلك تعريض لعجزهم، إذ لو كانوا شجعاناً أبطالاً ما طلبوا منهم القتال بمنعهم الماء عنهم، وتعيير لهم، ومثل هذا من أقوى الحوادث إلى القيام بالحرب.

الثانية: أشار إليها بقوله: فاقرّوا إلى الماء؛ يعني: إذا منعوا عنكم الماء وعدوكم من الضعفة والمساكين فأنتم مخيّرون بين أمرين: اما ترك القتال وهو مستلزم للاقرار بالمذلّة والعجز والانقياد للأعداء وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف، فأورد اللازم على صورة الأمر لتنزعج نفوسهم عن التخاذل والتقاعد وتثور نائرة الرجولية في بواطنهم، أو القيام بالقتال كما هو شأن الأبطال، وأنه عليه السلام راعى في هذا التخيير لطائف:

اـ انه أمر بالتخيير مع أنّ المقصود حثّهم على القتال ليختبر أحوالهم وليتلطّف بهم في هديهم، ولا يكون أمراً على سبيل القطع، ولأنه علم من حالهم ...[1] لا يختارون الترك .

بـ انه أورد اللازمين لترك القتال لينفّر طباعهم عنه ويحرّضهم على القتال.

جـ انه جعل ترويهم من الماء مرتّباً على تروية السيوف من الدماء، ليعلموا أن لا طريق لهم إلى التروّي إلّا القتال، وهي من أقوى الحوادث لهم إلى القتال.

---

(١) كذا بياض في الأصل.

الثالثة : أشار إليها بقوله: فالموت إلى قاهرين؛ وهي جذب لهم إلى القتال بأقصى ما يمكن من البلاغة، وذلك لأنه صوّر لهم أولاً: ان الحياة الفانية الدنيوية التي تطلبونها من ترك القتال مستلزمة لموتات متعاقبة حال كونكم مقهورين، فان المذلّة والعجز والانقياد للعدوّ وتأخير المنزلة عن أهل الشرف اللازمة لكونكم مقهورين موتات متعاقبة عند أهل المروّة وأولي الألباب.

إلى هذا أشار القرآن الكريم حيث قال: أموات غير احياء، وإنّ الموت البدني الذي تقعون فيه إن كنتم قاهرين مستلزم للحياة الطيبة الباقية في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه يستلزم الذكر الجميل الذي هو أطيب حياة عند أولي الألباب، أما في الآخرة فلأنه مستلزم للبقاء الأبدي والحياة السرمدية، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين[(١)]»، وقوله تعالى: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون[(٢)]».

إذاً كانت الحياة الفانية المطلوبة بترك القتال مستلزمة للموتات المتعاقبة، والموت البدني الذي يمكن أن يلحقهم لو قاموا بالقتال مستلزم للموت المستلزم للحياة السرمدية، واجباً لا يعرض عنه إلّا من لم يكن له نور، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[(٣)].

الرابعة: أشار إليها بقوله: ألا إلى الخبر؛ وهي: أنه عليه السلام قد نفّر أصحابه عما كان معاوية عليه من كونه قائد غواة، وممن أرى أصحابه الباطل في صورة الحق، وليس عليهم الحق، وهما رذيلتان لازمتان للفجور وغلبة الهوى عليه، وعما كان أصحاب معاوية عليه من كونهم غواة عن الحقّ ضلالاً عن سبيل الحق، وقد انقادوا للباطل عن شبهة اعتقدوا حقيقتها، وهما رذيلتان أولاهما من لازم عدم

---

(١) آل عمران: ١٧٠.
(٢) البقرة: ١٥٤.
(٣) النور: ٤٠.

البصيرة والجهل، والأخرى من لازم الجهل المركّب.

الخامسة: أشار إليها بقوله: حتى إلى المنية؛ وهي اشارة إلى تمكّنهم في الجهل المركّب وغاية تلبّس الحق عليهم، وإلى أنهم قد جعلوا نفوسهم محافظة على الباطل الذي تصوّروا أنه حق في معرض التلف غير مبالين بالموت البدني، وغرضه عليه السلام تعيير أصحابه بالتخاذل والتقاعد عن الحرب.

ومن تأمّل هذا الكلام الوجيز لفظاً الغزير معنى وفحوى، وسرّح نظره في رياض لطائفه، وحلّى جواد فكره في حدائق ظرائفه، وحدّق صدقاً في شقايق نكاته، وفتق أنوار أكمامه في أرجاء تراكيبه، علم يقيناً انه عليه السلام لم يدع لقوس البلاغة منزعاً إلّا نزعه، ولا لغاية الفصاحة علماً الّا دفعه، والحمد لله الذي اطلعني على بعض لطائف كلامه عليه السلام، وجعلني من المتشبّثين بأذيال عوارفه، والله أعلم.

* * *

٥١ ــ وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ(١) بِانْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا، وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ(٢)، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ مِنْهَا(٣) مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ.

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا

---

(١) في ب: وآذنت بوداع.

(٢) في ر: الحذاء بالحاء والجيم.

(٣) في ح: قد امرّ فيها ما كان.

الزَّوَالُ، وَلاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ(١)، فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِ الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ، الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُولَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

وَاللهِ(٢) لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ، مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ، دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ، وَلَوْلَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ، أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ.

اللغة

تصرّمت: أي انقطعت.

آذنت: أي أعلمت.

تنكّر معروفها: أي جهل خيرها.

الإدبار: ضدّ الإقبال، ويروى جذّاء بالجيم فمعناه منقطعة الدر، وبالحاء والذال المعجمة ومعناه سريعة الذهاب.

حفزه يحفزه حفزاً: أي دفعه من خلفه، والليل يحفز النهار أي يسوقه، وحفزته الريح أي طعنته.

السكان: جمع ساكن، كما أن القطان جمع قاطن وهو المقيم. الحداء: سوق الإبل بالحداء وهو الغناء. السملة: الماء القليل يبقى في أسفل الإناء وغيره مثل

---

(١) في ض وح: عليكم فيها الأبد.

(٢) في ش: وتا الله لو انماثت.

الثملة والجمع سمل.

قال ابن أحمر: مثل الوقائع في أنصافها السمل وسمول،عن الأصمعي، قال ذو الرمة(١):

علی حمیریات كأن عیونها ٭ قلات الصفا لم يبق الا سمولها

واسمال عن أبي عمرو، وانشد: يترك اسمال الحياض يُبّسا ، والسملة بالضم مثل السملة.

الإداوة: الإناء.

المقلة: بفتح الميم وسكون القاف حصاة يقسم بها الماء عند قلته ليعرف بها مقدار ما يسق لكل واحد من الأشخاص.

المتمزّز: تمضّض الشراب قليلاً قليلاً.

الصديان: العطشان. نقع الماء العطش ينقع نقعاً ونقوعاً: أي سكّنه، وفي المثل: الرشف أنقع، أي: ان الشراب الذي يترشّف قليلاً قليلاً أقطع للعطش، قال الخليل:

أزمعت على أمر فأنا مزمع عليه إذا ثبت عليه عزمه.

قال الكسائي: يقال ازمعت الأمر ولا يقال أزمعت عليه، قال الأعشى: أزمعت من آل البلى ابتكاراً، وقال الفراء: أزمعته وأزمعت عليه بمعنى مثل أجمعته وأجمعت عليه رجل فلان.

ارتحل وترحل: بمعنى الإشخاص من منزل إلى آخر، والاسم الرحيل.

المقدور: المقدّر الذي لابدّ من كونه.

الأمد: الغاية كالمدى، يقال:ما أمدك أي منتهى عمرك .

حنّ يحنّ حنيناً: أي أنّ جزعاً على الفائت.

---

(١) ذو الرّمة الشاعر وهو غيلان العدوي، والرمة بالضم: قطعة من حبل بالية، ومنه قول علي عليه السلام يذم الدنيا: وأسبابها رمام أي بالية.

الوله: جمع واله؛ هو الذي ذهب عقله لفقد محبوب.

العجال: جمع عجول وهي الناقة التي فقدت ولدها.

هديل الحمام: صوته.

جأر الثور يجأر: أي صاح، والجؤار: الصوت، وجأر الرجل إلى الله أي تضرّع بالدعاء. المتبتّل: المنقطع من الدنيا إلى الله.

يقال تبتّل تبتلاً: إذا انقطع عن الدنيا إلى الله، وكذلك التبل.

الرهبان: جمع راهب وهو المتعبّد من النصارى خوفاً من الله تعالى وعذابه، والرهبة وهو مع تحرّز واضطراب.

انماث الشيء: أي ذاب وتحلّل.

الاعراب

أمرّ منها متعدياً ولازماً وهنا لازم، وما في ما كان موصولة.

ولو تمزّزها: جملة شرطية وقعت نعتاً لجرعة، والمقدور: نعتاً للدار، واللام فيه بمعنى الذي.

الزوال: مرفوع على أنه معمول اسم المفعول، تقديره: التي قدّر على أهلها الزوال.

لو قد حننتم: جملة شرطية شرطها قد حننتم، وما عطف عليه إلى الأولاد، والتماس: مفعول له، واحصتها كتبه: جلة وقعت نعتاً لسيئة، وجزؤها لكان قليلاً، واسم كان ضمير راجع إلى المذكور. والله لو انماثت: أيضاً جملة شرطية شرطها لو انماثت، وما عطف عليه إلى دماً، ودماً: تمييز، وما في الدنيا: للدوام والمدة، وما في ما جزت: نافية، وأنعمه: منصوب على أنه مفعول جزت، وهداه: أيضاً في محل النصب على أنه معطوف على أنعمه.

المعاني

انما أتى بالأفعال الماضية الدالة على الوقوع بعد الدنيا تنبيهاً على أن ما سيقع لا محالة كالواقع، وايذاناً بأن المقارنة أمر ضروري لكل شخص، في فهي تحفّز خاصّيتان: إحداهما: ذكر المسند إليه مع أن القرينة المقالية مشعرة به ليؤذن بالاهتمام بشأنه وانّ الحافز كأنه الدنيا دون غيرها.

الثانية: جعل المضارع خبراً مسنداً ليؤذن بالاستمرار والدوام، كما في قوله تعالى: «الله يستهزئ بهم».

ثم انه نقل من الفعل المضارع إلى الماضي المصدّر بقد ليؤذن بوقوع ما تكون العافية إليه، وفي فلم يبق: القصر للقلب على تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين، يعني: ليس الأمر من الدنيا ما تصوّرتم من البقاء والدوام، بل الأمر بالعكس، وايراد لو تمزّزها الصديان لم ينقع: وصفاً باكيد[1] للقله ويمسير لأحد التوبين من التعظيم والتحقير عن الاخر، الفاء في فازمعوا: للسببية المؤذنة بأنه إذا لم يبق من الدنيا إلا القليل فالازماع واجب، والأمر هنا يفيد الوجوب.

وهذه: في هذه الدار للتحقير، ووصفها أيضا بقوله: المقدور على أهلها الزوال يشعر بالحثّ على الرحيل عنها لحقارتها بالنسبة إلى الدار المقدور على أهلها الثبات والبقاء، والنهي المشتمل على النون المشدّدة يفيد وجوب الانتهاء على أبلغ وجه، وتصدير الجملة الشرطية بالقسم البارّ واللام في جوابها دليلان على أن الكلام منساق في مقام الإنكار، واشتمال هاتين الشرطيتين على الإيجاز والمبالغة والإجمال والتفصيل، خصوصاً سالت عيونكم دماً على تعظيم شان أنعم الحق، كأنّه علم في رأسه نار.

---

(١) كذا في الاصل.

البيان

في تصرّمت وآذنت وأدبرت استعارات قد عرفتها في الخطبة التي هي بعض منها، وهي: أما بعد فانّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع فلا يحتاج إلى اعادتها، في فهي تحفز بالفناء: استعارتان تخييليتان مكنيتان:

احداهما: مستدعية لتشبيه الدنيا بالسائق، ووجه الشبه: ان الدنيا تسوق الإنسان إلى الآخرة بانقضاء عمره، كما أن السائق يسوق الدوابّ إلى المقصد، وهو عقلي، هذا ان جعلنا الحفز بمعنى السوق، أما إذا جعلناه بمعنى الطعن؛ فالمستعار منه فيها الطاعن وهو محسوس، والمستعار له فيها الدنيا وهي معقولة أو محسوسة، وجه الشبه: أن الدنيا تطعن سكانها بمصائبها وأحداثها المشابهة للرماح، كما أن الطاعن يطعن المطعون بالرماح، والحاصل اشتراكهما في الايذاء وتغيّر أحوال المقصود بالطعن، وهو عقلي.

الثانية: المستعار منه فيها محسوس؛ وهو آلات السوق من السوط وما شاكله، المستعار له معقول وهو الفناء، ووجه الشبه: أن الموت هو السبب الذي ينقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة، كما أن السوط هو الذي ينقل الإبل ويحثّها على الانتقال من موضع إلى آخر وهو معقول، ويحفّز قرينة الاولى، والباقي بالفناء قرينة(١) الثالثة، وفي تحدو بالموت جيرانها: أيضاً استعارتان تخييليتان مكنيتان: المستعار منه فيها محسوس وهو الحادي، والمستعار له الدنيا، ووجه الشبه: أن الدنيا تقرّب سكانها إلى المقصد الأصلي الذي هو دار الآخرة، كما أن الحادي يقرّب الابل الى المقصد الذي وجّهها اليه، وهو عقلي.

الثالثة: المستعار منه فيها محسوس بحسن السمع وهو الحداء، والمستعار له معقول وهو الموت، ووجه الشبه ما ذكرنا آنفاً، وهو معقول، في أمرّ منها ما كان

---

(١) كذا في الأصل.

حلواً: استعارة مكنى بها تخييلية؛ المستعار منه فيها محسوس، وهو المطعوم القابل للحلاوة والمرارة على سبيل البدل، والمستعار له فيها معقول، وهو أحوال الدنيا القابلة لوجهي ما يلذّ ويؤلم على سبيل البدل.

وجه الشبه: اشتراكهما في صلاحية الالذاذ والإيلام وهو معقول، وفي كدر منها: أيضاً استعارة مكنى بها؛ المستعار منه فيها محسوس؛ وهو الماء القابل للصفاء والكدورة، والمستعار له معقول؛ وهو أحوال الدنيا العارضة بالشخص، ووجه الشبه ما ذكرنا، وقرينة الأولى: ذكر الامرار والحلو، والثانية :ذكر الكدورة والصفو. في لم يبق منها الاسملة إلى لم ينقع: استعارتان وتشبيهان، أما الأولى: فهي تخييلية تصريحية مستدعية لتشبيه الباقي من الدنيا بالنسبة إلى كل شخص وهو معقول، ببقية الإناء وهي محسوسة، ووجه الشبه: اشتراكهما في القلة.

اما التشبيه الأول: فهو تشبيه الباقي بعد تخييله فردا من افراد السملة ببقية الماء في المطهرة، وهي محسوسة،ووجه الشبه:اشتراكهما في غاية القلّة وعدم الانتفاع، يعني: كما أن البقية في المطهرة لا تدفع عطش العطشان ولا تصلح للانتفاع، كذلك الباقي من الدنيا لا يدفع حرص الطالب المتعطّش اليها، ولا يصلح للانتفاع، أما الاستعارة الثانية: فهي أيضاً تصريحية؛ المستعار منه فيها محسوس وهي الجرعة، والمستعار له معقول وهو الباقي من الدنيا، ووجه الشبه: اشتراكهما في القلّة.

أما التشبيه الثاني: فهو تشبيه الباقي بعد جعله فرداً من أفراد الجرعة، بجرعة المقلة، ووجه الشبه اشار اليه بقوله: لو تمزّزها الصديان لم ينقع، يعني: كما أن جرعة المقلة لو تمضّضها العطشان لم يسكن عطشه به، كذلك الباقي لو ظفر به الطالب للدنيا المتعطّش اليها لم يسكن ولعه اليها به. في قد حننتم حنين الوله: قد شبّه أنينهم وتضرّعهم إلى الله بحنين الذي ذهب عقله لفقد محبوب، والناقة التي فقدت ولدها، ووجه الشبه: اشتراكهما في الشدّة والعامة.

في قد جأرتم: قد شبّه تضرّعهم إلى الله بالدعاء، بتضرّع المنقطعين عن

الدنيا إلى الله من الرهبـان، ووجه الشبه: اشتراكهما أيضـاً في الكمال، وانما خصّ الرهبان بالذكر لأنّـهم أشد المتعبّديـن تضرّعاً. في انماثت قلوبكم انمياثاً: كناية عن الخوف الغالب البالغ إلى النهاية، فـان من بلغ خوفه النهاية يقال ان قـلبه قد ذاب خوفاً. في سالت عيونكم دماً: المجاز من باب اطلاق السبب القابل وارادة المسبب، إذ السائل الذي هو الدمع انما يجري من العيون، وكناية عن الاعتراف بغاية التقصير ونهاية الخوف من الله تعالى.

البديع

راعى بين انقضاء وحذاء: المطرف، كما بين سكّانها وجيرانها، ولو اعتبرنا المسدد لكان المتوازي، وبين حلواً وصفواً: المتوازي.

في قوله أمرّ إلى صفواً: المقـابلة؛ حيث قابل المرارة بالحلاوة، والكدورة بـالصفو، وفي فلم يبق إلى لم ينقع: مراعاة النظير؛ حيث أتى بجميع أوصاف الماء، وبين الأمل والأمد: المتوازن، في قوله فيا أرجو إلى عقابه: المقابلة؛ حيث قابل الرجاء بالخوف، والثواب بالعقـاب، كما في رغبة منه أو رهبة، الباقي ليس فيه شيء طائـل.

الفحوى

اعلم أنه عليه السلام بنى هذا الفصل على التنبيه على التنفير عن الدنيا، بتحقيرها في أعين المخاطبين، والأمر بالرحيل عنها، والنهي عن الركون إليها، وعلى تعظيم ثواب الله، وما ينبغي أن يرجى منه ويلتفت إليه، مما أعدّ الله للمحسنين من عباده، ولا يعلمه إلا من خرقت سحاب وجهه الستور الحائلة بينه وبين بصيرته مثل أميرالمؤمنين، ووبيل عقابه المعدّ لمن تمرّد عن طاعته، وخلع ربقة الانقياد لأوامره عن رقبته، وعلى أنّ العبد وان بذل مجهوده وأفنى طاقته في جزاء ما أفاض

تعالى عليه من أنعمه العظام، لا يقدر أن يقابلها بما يليق بها، فهنا مقاصد ثلاثة:

الأول: في التنفير عن الدنيا وتحقيرها، قوله: ألا وان الدنيا قد تصرّمت؛ أي قد انقضت أحوالها الحاضرة لكل شخص في كل حين، وآذنت بانقضاء؛ أي لسان حالها قد أعرب بأنها لا تبق لأحد، وتنكّر معروفها؛ أي تغيّر ما كان معروفا منها إلى مجهول، يعني: إذا وجد الإنسان لذة من لذاتها ملائمة لطبعه، من أمن وصحة وفراغ وجاه ومال وولد، وأنس بها وألفها بحيث كأنها صديق من أصدقائه، تزول عن قريب وتصير مجهولة منكرة بعد ان كانت معروفة، وأدبرت حذاء؛ أي ولّت الحال كونها قد انقطعت عن كل شيء، وقطعت تعلّقها عن كل موجود، مسرعة بحيث لا يمكن لأحد أن يلحقها.

قوله فهي تحفّز بالفناء سكانها: أي فالدنيا من شأنها أن تسوق الساكنين بها على سبيل الاستمرار بالفناء إلى دار الآخرة التي هي المقصد الأصلي، وتحدو بالموت جيرانها؛ أي تسوق بالحذاء وتحثّ جيرانها على قطع المنازل إلى الوصول إلى الموت الذي هو آخر منزل من منازل الدنيا، قوله وقد أمرّ إلى صفواً: أي قد تبدّلت لذّاتها فصارت آلاماً، يعني: أن الأحوال التي يجدها الانسان لذيذة في بعض الأوقات، صافية حلوة خالية عن شوائب العوارض الكريهة المنغصة معراة عن ...[1] الأمراض تبدلت وتغيرت، وما من شخص إلّا وتصدق عليه انّ لذته قد أعقبت ألماً، إما من شباب تبدّل بكبر، أو فرح تبدّل بغمّ، أو صحّة تبدّلت بمرض، أو فراغ تبدّل بشغل.

قوله فلم يبق منها إلى لم ينقع: اشارة إلى تحقيرها بالنسبة إلى كل شخص، وتنفير الطباع عن الأنس بها، فان تمتّع كل بالنسبة إلى بقائه فيها قصير، والالتذاذ بلذّاتها بالقياس إلى عمره يسير، وقد عرفت وجه الاستعارتين والتشبيهين، ثمّ لما فرغ من أحوالها وتنفير الطباع عنها أمر بتصميم العزم والثبات على الانتقال عنها بالعقل،

---

(١) كذا بياض في الأصل.

وقال فازمعوا عباد الله: أي صمموا العزم على فطام النفوس عن شهواتها، والارتحال عنها بالالتفات إلى الله والإقبال إلى القبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجه اليها، وقطع المراحل التي نصب الله عليها مناراً وأعلاماً واضحة.

قوله المقدور على أهلها الزوال: حثّ لهم على الإزماع، وذلك لأنّ المخاطب الذي له أدنى دراية إذا سمع هذا الوصف والأمر عرف أنه يفارق عنها بالاختيار، فهي تفارق عنه بالاضطرار، فلم تبق عنده الّا الحسرة والندامة، ثمّ أردف ذلك الأمر بالنهي عن أن يغلب عليهم الأمل في اقتناء لذاتها فانه المنسي للآخرة والعاش[١] العظيم عن عوائق الارتحال، وكذا خصّصه بالذكر وبالنهي عن توهّم طول الغاية التي هي الموت، فانه أيضاً يسوّد صفائح القلوب ويكدّر الواح النفوس، على ما ينبئ عنه قوله تعالى: «فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»، فيوقعه في الغفلة الموقعة الى مهاوي اتباع الهوى الذي يصدّ عن الحق، ولما كانا من أعظم العوائق على ما سبقت الإشارة اليها خصّصها بالذكر.

المقصد الثاني: في التنبيه على عظم ثواب الله تعالى وعقابه، اعلم أنه عليه السلام لما نفّر طباع الناس عن الالفة بالدنيا بتحقيرها في أعينهم، وأمرهم بالارتحال عنها، ونهاهم عن طول الأمل وتوهّم طول الحياة، عيّن لهم ما ينبغي أن يلتفتوا بخواطرهم اليه، ويوجّهوا وجوه قلوبهم اليه، وهو ثواب الله المعدّ للمحسنين، وأبدى لهم ما ينبغي أن يخشى منه وهو عقاب الله تعالى.

يعني: ليس المرجو ما تصوّرتم من أسباب اللذات الدنيا...[١] تبتلى الرهبان والزهد الحقيقي الذي ...[١] من الأموال والأولاد بالكلية ورفضها عن ساحة القلب ...[١] يجتمع ذلك من العبادة والزهد في أن يرفع لكم عنده درجة من درجات الجنان، أو يغفر لكم سيئة موصلة الى درك من دركات النيران، وقد أحصتها كتبه التي كتبها الحافظون على عباده، وحفظها له الموكّلون عن ضبط

---

(١) كذا في الاصل.

الاحوال الجارية على العباد، لكان ذلك... (١) بالنسبة الى ما أرجوه لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه قليلاً... (١) الذي يتوقّع المتقرّب اليه.

من أن ترفع له درجة أقل بالنسبة الى ما رجوه، فينبغي أن يخلص بكليته الى الله لينال له هو أعظم مما يتصوروا به... (١) له بالتقرب... (١) والذي يتوهم المتقرّب اليه من العقاب المرتّب على السيئة ويتوقّع الخلاص منه بغفرانه منه، أقل بالنسبة الى ما اخاف عليه... فالواجب عليه أن نفر بكليته اليه لتخلّصه من العقاب المخوّف الذي هو أعظم مما توهمه، ولما كان الاطّلاع على حقيقة ما أعدّه الله للمتقين المتقرّبين اليه من الثواب.

* * *

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٩٨١
التاريخ ٤/٢/٥

---

(١) كذا بياض.

انتشارات عطارد

بنیاد

۲۰۰۰ تومان